أعلام المسلمين
٨٧

سعد بن أبي وقاص

السبّاق للإسلام، المبشّر بالجنة، والقائد المجاهد

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي





دار القلم
دمشق

أعلام المسلمين

٨٧



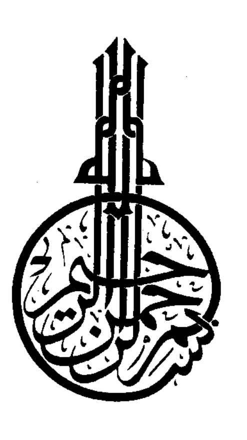
السبّاق للإسلام، المبشّر بالجنّة والقائد المجاهد

الدكتور

صلاح عبد الفتّاح الخالدي

دار القلم

دمشق


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

تُطلب جميع كتبنا من:
دار القلم - دمشق: ص.ب: ٤٥٢٣ - ت: ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت: ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب: ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة: ٢١٤٦١ - ص.ب: ٢٨٩٥
ت: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هـذا الرجـل

١ ـ «ارْمِ يا سعدُ، فِداكَ أبي وأمّي»!

رسول الله ﷺ

٢ ـ «سعدٌ خالي، فَلْيُرِني امرؤٌ خالَه»!

رسول الله ﷺ

٣ ـ «الأسد في براثنه: سعد بن أبي وقاص»

عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه

٤ ـ «لأضْرِبَنَّ ملوك الفرس بملوك العرب»

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

عند تكليف سعد بقيادة معركة القادسية

٥ ـ «كان سعد يقاتل يوم بدر قتال الفارس والراجل»

علي بن أبي طالب رضي الله عنه

٦ ـ «إذا حدَّثكَ سعد شيئاً عن رسول الله ﷺ، فلا تسأل عنه غيره..»

عمر بن الخطاب لابنه عبد الله رضي الله عنهما

٧ ـ «مات اليوم بقية أصحابِ رسول الله ﷺ»

أمُّ سَلَمَة تنعَى سعداً رضي الله عنهما

٨ ـ «لما كان القتل في الناس، جعل رجل يسأل عن أفاضل الصحابة، فكان لا يسأل أحداً إلاّ دلَّه على سعد بن أبي وقاص . . »

التابعي الجليل الحسن البصري

٩ ـ «سعد أكرم الناس مقدرة، وأقلّهم فترة، وهو لهم كالأمّ البرّة، يجمعُ لهم كما تجمع الذرّة، مع أنه ميمون الطائر، مرزوق الظفر، أشدّ الناس عند البأس، وأحبّ قريش عند الناس»

الصحابي جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه

١٠ ـ «سعد متواضع في خبائه، عربي في نمرته، أسد في تاموره، يعدل في القضية، ويقسم بالسوية، ويبعد في السرية، ويعطف علينا عطف الأم البرّة، وينقل إلينا حقنا نقل الذرّة . . »

عمرو بن معدي كرب الزبيدي

١١ ـ «كان سعد بن أبي وقاص أجرأ الناس وأشجعهم، لقد نزل في القادسية قصراً غير حصين، بين الصفّين، فأشرف منه على الناس، ولو عراه الصف فواق ناقة أخذ برمّته، ووالله ما أكرثه هول تلك الأيام ولا أقلقه . . »

عثمان بن رجاء السعدي

تواريخ في حياة سعد رضي الله عنه

- سنة ١٧ قبل البعثة : ولادة سعد .

- سنة ١ بعد البعثة : إسلام سعد .

- سنة ١ بعد الهجرة : هجرة سعد إلى المدينة .

- رمضان ١ هـ : سعد مجاهد في سرية عبيدة بن الحارث إلى سيف البحر .

- ذو القعدة ١ هـ : سعد أمير سرية إلى (الخرار) .

- رجب ٢ هـ : سعد مجاهد في سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة .

- رمضان ٢ هـ : سعد مجاهد في غزوة بدر .

- شوال ٣ هـ : سعد مجاهد في غزوة أحد .

- محرم ٤ هـ : سعد مجاهد في سرية أبي سلمة إلى (قطن) .

- شوال ٥ هـ : سعد مجاهد في غزوة الأحزاب .

- ذو القعدة ٦ هـ : سعد شاهد على صلح الحديبية .

ـ جمادى الثانية ٨هـ: سعد مجاهد في غزوة ذات السلاسل.

ـ رمضان ٨هـ: سعد قائد فرقة في فتح مكة.

ـ رجب ٩هـ: سعد مجاهد في غزوة تبوك.

ـ ذو القعدة ١٠هـ: سعد مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع.

ـ صفر ١١هـ: سعد مجاهد في جيش أسامة.

ـ جمادى الأولى ١١هـ: سعد مجاهد في معركة (ذي القصة) ضد المرتدّين.

ـ من سنة ١٢ إلى سنة ١٣هـ: سعد يجمع صدقات هوازن.

ـ ١٣ شعبان ١٤هـ: سعد يتوجَّه للجهاد في العراق.

ـ ١٦ صفر ١٥هـ: سعد يعسكر بجيشه في القادسية.

ـ ١٣ شعبان ١٥هـ: معركة القادسية: ثلاثة أيام وأربع ليالٍ.

ـ شوال ١٥هـ: سعد يتوجَّه لفتح المدائن.

ـ صفر ١٦هـ: سعد يدخل المدائن.

ـ سنة ١٦هـ: إكمال فتح العراق كله.

ـ محرَّم ١٧هـ: سعد ينشئ الكوفة.

ـ من سنة ١٧ إلى منتصف سنة ٢٠هـ: سعد والٍ على الكوفة وحاكم للعراق.

ـ من منتصف ٢٠ إلى نهاية ٢٣هـ: سعد مستشار عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ـ ذو الحجة ٢٣هـ: سعد مرشَّح للخلافة.

ـ من سنة ٢٤ إلى سنة ٢٥هـ: سعد والٍ على الكوفة من قِبَل عثمان رضي الله عنه.

ـ من سنة ٢٦ إلى سنة ٣٥هـ: سعد مستشار عند عثمان رضي الله عنه.

ـ نهاية سنة ٣٥هـ: سعد يبايع علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ـ من سنة ٣٥ إلى سنة ٥٥هـ: سعد معتزل للفتنة.

ـ سنة ٥٥هـ: وفاة سعد رضي الله عنه.

* * *



مقدمة

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه، ونتوبُ إليه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسنا، وسيئات أعمالنا، مَنْ يهدِ اللهُ فلا مُضلَّ له، ومَنْ يُضللْ فلا هادي له، وأشهدُ أن لا إلـه إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فإنَّ الحياةَ مع أصحابِ رسول الله ﷺ طيبةٌ هانئةٌ مباركة، لأنَّهم أفضل جيلٍ من أجيال هذه الأمة، كانوا جيلاً قرآنياً فريداً، عاشوا بالقرآن، وكانوا تلاميذ رسول الله ﷺ، ربَّاهم على يديه، ورعاهم بعينيه، وعاشوا معه، وقد أثنى اللهُ عليهم في كتابِه، وأوجب على مَنْ بعدهم محبَّتهم والدعاء لهم.

وإذا كان هذا مع أصحابِ رسول الله ﷺ بصورة عامة، فإنه يكون أفضل وأتمّ عندما يكون مع السابقين الأوّلين من الصحابة، وهم السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار.

ويكون الأمرُ على أعلى صورِه عندما تكون الحياة مع أفاضل السابقين الأولين، وهم العشرة المبشرون بالجنّة، وهم: أبو بكر الصدّيق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب.. ثم: سعد بن أبي وقاص،

وسعيد بن زيد، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، رضي الله عنهم. . .

ونحبّ الصحابة العشرة محبّة خاصة، ومحبّتنا للأربعة الخلفاء أكثر من محبّة باقي العشرة، وهم مرتّبون في الفضل والمنزلة والمكانة كترتيبهم في الخلافة، فأفضل الصحابة على الإطلاق أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ثم باقي العشرة، ثم السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار، ثم الذين أسلموا قبل فتح مكة، ثم الذين أسلموا بعد فتح مكة.

وقد أصدر الباحث عبد الستار الشيخ كتابه (الخلفاء الراشدون) فتحدَّث فيه عن الخلفاء الأربعة، وأصدر الباحث محمد محمد شراب كتاباً عن (أبي عبيدة عامر بن الجرّاح) رضي الله عنه، ضمن سلسلة (أعلام المسلمين) وباقي العشرة المبشّرين بالجنة بحاجةٍ إلى دراسات تترجِم لهم، وتعرض مواهبهم.

وقد رغب إليّ الأستاذ الباحث محمد علي دولة في إعداد دراسة عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، لإصدارها ضمن هذه السلسلة القيّمة (أعلام المسلمين)، وطلب مني إعداد هذه الدراسة، ولا أملك إلا التنفيذ!

ووافق طلب الأستاذ رغبة كامنةً قديمةً في نفسي، في دراسة حياة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، حيث كنت أتمنى أن أقوم بهذه الدراسة.

كنت أتمنى أن أدرس حياة الرواد القادة من أصحاب رسول الله ﷺ، لما لهم عندي من منزلةٍ عالية، وباعتبارهم (قدوات) عظيمة، وأمّتنا في عصرها الراهن بحاجة ماسّة للوقوف على حياة هؤلاء القدوات، ليتم الاقتداء بهم.

ورغبت أن أبدأ بدراسة (حذيفة بن اليمان) رضي الله عنه، لما توفر له من مزايا خاصة تميَّز بها، وتفوَّق بها على باقي الصحابة. وجمعتُ مادة دراسة حياة (حذيفة) من كثير من كتب التاريخ والتراجم، وتوفر بين يدي الكثير منها ولله الحمد، وأعلنتُ عن هذه الدراسة بعنوان (حذيفة بن اليمان أمين سرّ رسول الله ﷺ) كما جاء في آخر كتابي (تصويبات في فهم بعض الآيات) الصادر عن دار القلم سنة ١٩٨٧م.

ولكن شاء الله أن لا تصدر تلك الدراسة عن حذيفة رضي الله عنه، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فقد جرى حديث بيني وبين الأخ الكريم إبراهيم العلي، انتهى على أن يقوم هو بدراسة حياة حذيفة، لأنني كنت وقتها منهمكاً بإعداد دراسات أخرى، **فأعطيته كل ما جمعته من مادة علمية عن حياة حذيفة.**

وأصدر جزاه الله خيراً دراسته بعنوان (حذيفة بن اليمان أمين سرّ رسول الله ﷺ» التي احتلّت رقم (٦٢) من سلسلة (أعلام المسلمين) المباركة، وصدرت عام: ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، **وكنت أتمنى أن يشير في مقدمة دراسته تلك إلى هذا!!**

وشاء الله الحكيم الخبير أن تكون هذه الدراسة عن الصحابي الجليل (سعد بن أبي وقاص: السبّاق للإسلام، المبشَّر بالجنّة، والقائد المجاهد) لتصدرَ ضمن هذه السلسلة النافعة (أعلام المسلمين).

لقد اتّصف سعد رضي الله عنه بصفات عالية، وتمتَّع بشخصية قيادية

رائدة، وقام بأعمال جليلة عظيمة، وعاش حياة إيمانية طويلة، وترك خلفَه ذكراً حيّاً، وكان بمواقفه قدوةً للصالحين المجاهدين من بعده.

إنَّه من العشرة الأوائل السابقين إلى الإسلام، ومن العشرة المبشَّرين بالجنة، وهو خالُ رسول الله ﷺ، الذي كان يفخر به عليه الصلاة والسلام، ويقول: «هذا خالي فَلْيُرني امْرُؤٌ خاله»، وهو أول مَنْ أراق دم مشرك في سبيل الله، وأول من أطلق سهماً في سبيل الله، وهو الرامي الأول بين المسلمين، الذي فدَّاه رسول الله ﷺ بأبويه، وقال له: «ارْمِ أيّها الغلام الحَزَوَّر، ارمِ فداكَ أبي وأمي».

جاهد مع رسول الله ﷺ جهاد الأبطال، ولم يتخلف عن معركة حارب فيها رسولُ الله ﷺ، وله حضوره الجهادي المميَّز، في بدر وأحد والأحزاب وصلح الحديبية وفتح مكة وغزوة حنين وغزوة تبوك، وكان من المقدّمين المستشارين عند رسول الله ﷺ والخلفاء من بعده، أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

ولمّا بحثَ عمـر عن قائد مجاهد يجاهد الـفرس أكبر دولة في العالم آنذاك، التقت كلمة الصحابة عليه، ووصفه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «الأسد عادياً، الأسد في براثنه». وجعله عمر قائداً لمعركة القادسية الفاصلة، التي كانت إنهاءً لقوة الفرس، وإعلاءً لراية الإسلام، وقاد معركة القادسية وهو مريض مرضاً شديداً، ولم يقعد به مرضه عن واجبه، وخاض بجيشه المجاهد نهر دجلة أثناء فيضانه، وأكرمهم الله كرامة ربانية، بأن جعلَهم يسبحون بخيولهم في نهر دجلة أثناء فيضانه، وأكرمهم كرامة أخرى، ودخل

بهم سعد (المدائن) عاصمة الفرس، وصلّى بهم الجمعة في (إيوان كسرى). وجعل مقرّ قيادته (القصر الأبيض) الذي كان يقيم فيه كسرى. وأتمَّ فتح بلاد فارس، ومعه مجموعة من القادة الأبطال، مثل: القعقاع بن عمرو التميمي، وعاصم بن عمرو التميمي، وعمرو بن معدي كرب، وطليحة بن خويلد، وهاشم بن عتبة ابن أبي وقاص، والنعمان بن مقرّن، وجرير بن عبد الله البَجلي، وعياض بن غنم... وغيرهم رضوان الله عليهم.

وهو الذي (كوَّف) مدينة الكوفة، وجعلها القاعدة الجهادية المتقدّمة، فيها قوات الجهاد الاحتياطية الضاربة، وهو أول والٍ على الكوفة، وأول حاكم على العراق كلّه.. ولما عزله عمر عن الكوفة بعد طول ولاية له عليها، أقام بجانب عمر مشيراً ناصحاً، حتى لقي عمر رضي الله عنه ربّه، وكان مرشَّحاً للخلافة، وتنازل عن الترشيح، وكان أول مبايع لعثمان رضي الله عنه، وبقي حوله ناصحاً مشيراً.. ولما ثار الغوغاء الخوارج على عثمان، واحتلّوا المدينة، قام سعد بواجبه في حراسة الخليفة، ولما عجز عن الدفاع عنه خرج من المدينة.

وسجَّل له التاريخ موقفه الرائع من الفتنة التي عمت المسلمين بعد ذلك، حيث اعتزلها، ولم ينضم إلى أي طرف فيها، وكان على صواب في ذلك الاعتزال الإيجابي الحكيم، ولو أرادها لوجد آلاف الأتباع، وإليه تطلَّعت الأنظار ليكون خليفة، ولو أراد الخلافة وأبدى أدنى رغبة لانضمّ إليه الآلاف، لكنه عزف عن ذلك، لأنه لا يريد أن تُراق من أجله قطرة دم واحدة، ولما طلب منه ابن أخيه هاشم بن عتبة وابنه عمر طلب الخلافة والسعي لها طلب منهما

طلباً مستحيلاً، بأن يعطياه سيفاً ناطقاً مميّزاً، يفرّق بين المؤمن والكافر، يقول له: هذا مسلم لا تقتله، وهذا كافر اقتله.

وقال لابنه عمر: أفي الفتنة تريدني أن أكون رأساً؟ وطبّق حديث رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ يحبُّ العبدَ التقيّ الغنيّ الخفيّ» فكان هو، وبذلك نال محبّة الله سبحانه وتعالى.

لهذا كلّه يطيب لي دراسة حياته، ويحلو الحديث عنه، ليكون بتلك المواقف التي أشرت لها قدوة للأجيال الصالحة من هذه الأمة.

جعلت دراستي عن سعد في سبعة فصول، وجعلتُ لكلّ فصل مجموعة من المباحث:

الفصل الأول: سعد في أسرته.

الفصل الثاني: سعد مع النبي ﷺ في مكة.

الفصل الثالث: سعد المجاهد مع النبي ﷺ في المدينة.

الفصل الرابع: سعد قائد معركة القادسية.

الفصل الخامس: سعد فاتح المدائن والعراق.

الفصل السادس: سعد أمير على الكوفة.

الفصل السابع: سعد يعتزل الفتنة.

وأقدّمُ هذه الدراسةَ عن حياة هذا الصحابي الجليل، والمجاهد الفاتح، وأرجو أن تليق بمكانته العالية، وأن يتعرّف القرّاء منها على جوانب شخصيته،

ومواقف حياته، فيزدادوا إعجاباً به، وسيراً على طريقه.

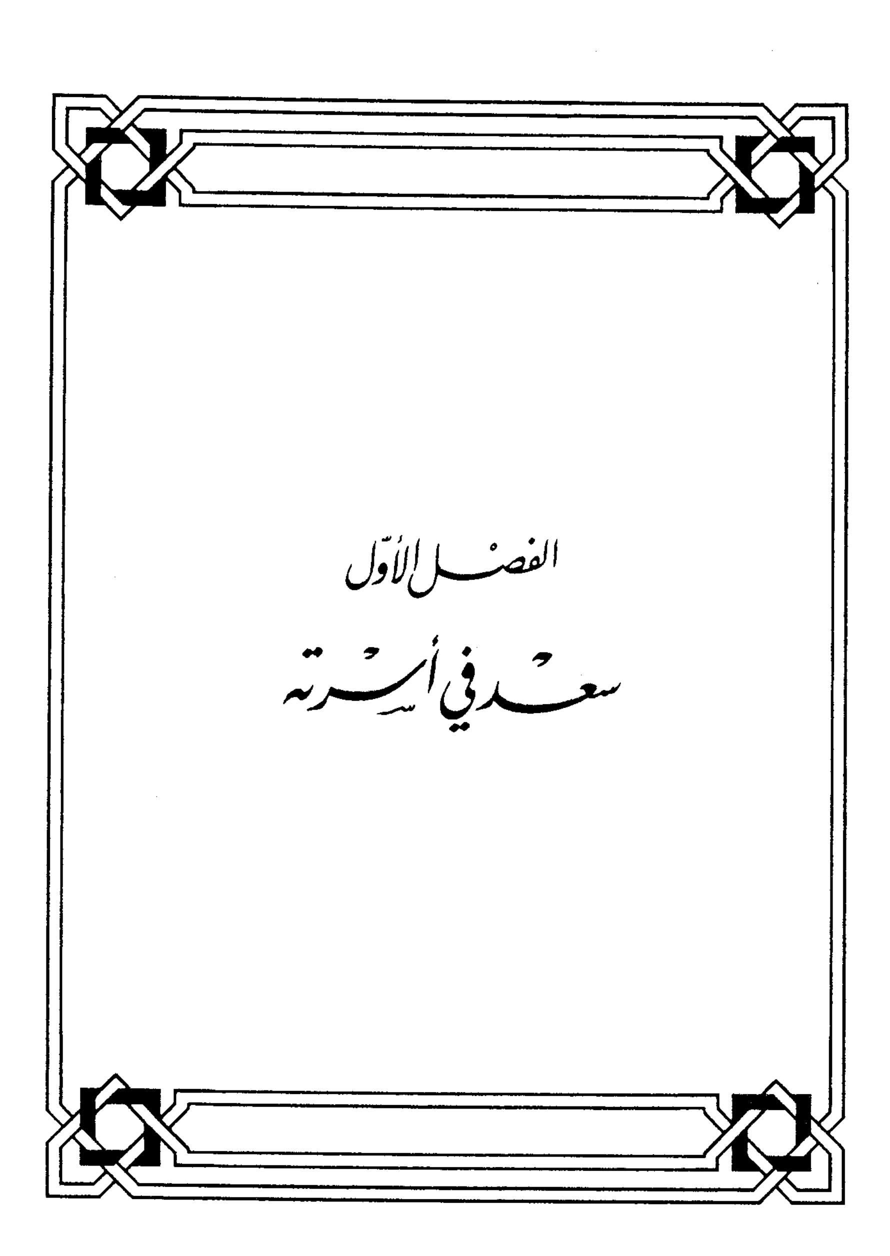
أتوجَّـه بهذا العمل إلى الله وحده، طالباً منه حُسن القَبول، وحُسن الثواب. وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الدكتور

صلاح عبد الفتاح الخالدي

الإثنين ٢٥/ ٤/ ١٤٢٢هـ

١٦/ ٧/ ٢٠٠١م



الفصل الأوّل

سعد في أسرته

الفصل الأول

سعد في أسرته

(١) تعريف بسعد

هو سعدُ بنُ أبي وقّاص:

و(أبو وَقّاص) كنيةُ أبيه.

و(وقّـاص) صيغـةُ مبالغة من (الوَقْص). يقال: وَقَص، يَقِص، فهو واقص، وهو وَقّاص.

و(الوَقْص) هو: دَقُّ العنق، وكسْـرُ الرقبة. يقال: وَقَصَ عنقَ خصْمِه، إذا قتلَه.

ولا ندري لماذا كُنّيَ أبوه بهذه الكنية (أبو وقّاص). وهل كان مشهوراً بوقْصِ الرقاب، سواء كانتْ للبشرِ أم للدواب؟ أم كان مشهوراً بوقْصِ العيدان وتكسيرها للنيران، أم كان مشهوراً بوقْصِ أشـياءَ أُخرى.. أم هي مجرَّدُ كنيةٍ كنّاهُ قومُه بها.

واسمُ أبيه: مالك.

فهو سعدُ بن مالك.

واشتهرَ باسم (سعد بن أبي وقَّاص) أكثرُ من شهرتِه باسم (سعد بن مالك)

من سمّوا (سعد بن مالك):

وهناكَ أكثرُ من صحابيّ اسمُه (سعد) واسمُ أبيه (مالك). ذكَرَ الحافظُ ابنُ حجر في كتابه (الإصابة) منهم:

١ ـ سعدُ بن مالك بن الأبيصر الأزدي، رضي الله عنه.

٢ ـ سعدُ بن مالك الزهري ـ ابن أبي وقاص ـ رضي الله عنه.

٣ ـ سعدُ بن مالك بن سِنان الخُدري الأنصاري ـ أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنهما.

٤ ـ سعدُ بن مالك بن خالد الساعدي الأنصاري ـ والدُ سهلِ بنِ سعد الساعدي ـ رضي الله عنهما[1].

ومن اللطيفِ القولُ: قد يقعُ بعضُهم في إشكالٍ حولَ اسمِ والدِ سعدٍ رضي الله عنه، فينسى أنَّ اسمه (مالك) ويظنُّ أنَّ اسْمَه الحقيقي (أبو وقّاص) ويعتبرُ أنَّ الكنية هي الاسم.

واعتبرَ أحدُ المفسّرين أنَّ سعدَ بن أبي وقاص هو غيرُ سعدِ بن مالك الزهري، وأنهما صحابيان اثنان! وبهذا زادَ عدد الصحابةِ واحداً!!

---

(١) انظر تراجم هؤلاء الصحابة الأربعة في الإصابة: ٢/ ٣٢ ـ ٣٥.

إنَّ سعدَ بنَ أبي وقاص هو نفسُه (سعدُ بنُ مالك الزهري) رضي الله عنه.

واسمُ جدّه (وُهَيْب). وهو تصغيرُ (وَهْب)[1].

وبعضُهم يبدلُ الواوَ همزة، فيقول: أُهيب. ويقول: سعدُ بنُ مالك بن أُهيب.

(٢) نسب سعد

هو سعْدُ بنُ مالك بنِ وُهَيْب بنِ عبدِ مناف بنِ زُهرةَ بن كِلابِ بنِ مُرّة بنِ كعبِ بن لُؤَي.

يَجتمعُ مع رسول الله ﷺ في (كِلاب بن مُرَّة) لأنَّ رسولَنا ﷺ هو: محمد بنُ عبدِ الله بنِ عبدِ المطلب بنِ هاشم بنِ عبدِ مناف بن قُصَيّ بنِ كِلاب بن مُرّة بنِ كعبِ بن لُؤي.

وسعدٌ (زُهْرِيٌّ) من بني زُهرة، أحدِ بطونِ قريش المعروفين، المنسوبين إلى (زُهرة بن كلاب)، أخو (قُصَي بن كلاب) أحدِ أجدادِ رسول الله ﷺ.

سعد خال النبي ﷺ:

و(بنو زُهرة) هم أخوالُ رسول الله ﷺ. وسعدٌ من أخوالِه القريبين.

وكان رسولُ الله ﷺ يفتخرُ بهذه (الخُؤُولة).

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ١٠١.

رَوى الحاكمُ عن جابرٍ رضي الله عنه قال: كُنّا جلوساً عندَ رسولِ الله ﷺ، فأقبلَ سعدُ بنُ أبي وقاص، فقالَ النبي ﷺ: «هذا خالي، فَلْيُرِني امْرُؤٌ خالَه»[1].

أُمُّ الرسولِ ﷺ هي: آمنةُ بنتُ وهب بن عبدِ مناف بن زهرة.. فأبوها (وَهْب) وَجَدُّ سعدٍ (وُهيب) أخَوان شقيقان. أي: هو عمُّ آمنة. وأبو سعد (مالك) هو ابنُ عمّها المباشر.

بهذا الاعتبار كان سعدٌ رضي الله عنه خالَ رسولِ الله ﷺ.

أمُّ سعد:

وأُمُّه من بني أمية، وهي: حَمْنَةُ بنتُ سفيانَ بنِ أمية بنِ عبدِ شمس بن عبد مناف بن قصي، وهي بنتُ عمٍّ أبي سفيان ـ صخرِ بن حرب بن أمية ـ زعيم مكة[2].

وكانت أُمُّه كافرةً، شديدةَ العداوةِ للإسلامِ، ولها معَ ابنها سعدٍ قصّةٌ عجيبة، أنزلَ اللهُ فيها آيةً من القرآن، سنذكرُها عند حديثنا عن إسلامِ سعد رضي الله عنه.

(٣) إخوة سعد

ذكرَ المؤرخون خمسة إخوةٍ لسعد: أربعةٌ من الذكور، وواحدة من الإناث.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: ٣/ ٤٩٨. وصحّحه ووافقه الذهبي.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ١٠١؛ والإصابة: ٢/ ٣٣.

١ ـ عُتْبَة: كان عُتْبَةُ بنُ أبي وقاص كافراً مصرّاً على كفره، وكان حرباً على رسولِ الله ﷺ وعلى المسلمين، وخرجَ في غزوةِ أُحُد مع قريش، وآذى رسولَ الله ﷺ، وأصابَه بجراحٍ بالغة، فدعا عليه رسولُ الله ﷺ، وماتَ بعدَ المعركةِ كافراً. وسيأتي تفصيلُ قصّتِه يومَ أُحُد عند حديثنا عن جهادِ سعدٍ رضي الله عنه[1].

ولعُتْبة ابنان من الصحابة، وقد أسلما يومَ فتْحِ مكّة، هما:

أ ـ نافعُ بنُ عتبة بن أبي وقاص: ذكره ابنُ سعد في (الطبقات)، ضمنَ مَنْ نَزَلَ بالكوفةِ من الصحابة[2]، كما ذكره ابنُ حجر في (الإصابة)[3].

وبعدَ إسلامه جاهدَ مع رسولِ الله ﷺ. وأخرجَ له مسلم حديثاً في (صحيحه)، وللحديث مناسبة طيبة.

عن جابرِ بن سَمُرة ـ هو ابنُ عمةِ نافعِ بن عتبة ـ عن نافع بنِ عُتْبة رضي الله عنه، قال: كنّا مع رسولِ الله ﷺ في غزوة، فأتى النبيَّ ﷺ قومٌ من قِبَلِ المغرب، عليهم ثيابُ الصوف، فوافقوه عند أَكَمَة، فإنهم لقيام، ورسولُ الله ﷺ قاعِد. فقالَتْ لي نفسي: ائتهم، فقُم بينَهم وبينَه، لا يغتالونَه! ثم قلتُ: لعلّه نَجِيٌّ معهم! فأتيتُهم، فقمتُ بينهم وبينه، فحفظْتُ منه أربعَ كلمات، أَعُدُّهُنَّ بيدي!

---

(١) انظر مغازي الواقدي: ١/ ٢٤٥.
(٢) الطبقات الكبرى: ٦/ ١٠٧.
(٣) الإصابة: ٣/ ٥٤٥.

قالَ ﷺ: «تَغْزونَ جزيرةَ العربِ فيفتَحُها الله، ثم فارس فيفتَحُها الله. ثم تغزونَ الرُّومَ فيفتَحُها الله. ثم تغزون الدجّال فيفتحُه الله».

ثم قال نافعٌ لجابر بن سَمُرة: لا نرى الدجالَ يخرجُ حتى تُفتَحَ الروم»[1].

نافع بن عتبة يحرس رسول الله ﷺ:

كان نافعُ بنُ عتبة رضي الله عنه مع رسولِ الله ﷺ في إحدى الغزوات، ونزلَ (أَكَمَة) ـ وهي التلّة المرتفعة ـ وحْدَه، وكان نافعٌ جالساً قريباً منه يراقبُه ويحرسُه متبرّعاً.

وأتى قومٌ من الجهةِ الغربيةِ للمنطقةِ التي ينزلُ فيها المجاهدون، وتوجَّهوا نحو النبيّ ﷺ، ووقفوا أمامَه يُحَدِّثونه!

ونافعٌ لا يعرفُهم، لأنه أسلمَ يومَ فتحِ مكة في السنةِ الثامنةِ من الهجرة، ولذلك كان لا يعرفُ كثيراً من المسلمين خارجَ مكة والمدينة.

خشيَ نافعٌ رضي الله عنه على رسولِ الله ﷺ منهم، لأنه ظنَّ أنهم كفارٌ أعداء، فَهَمَّ أنْ يقفَ بينهم وبين رسولِ الله ﷺ، يحرسُه منهم لئلا يغتالوه! ثم تردَّدَ في ذلك لاحتمالِ أنْ يكونَ بينهم وبينه حديثٌ خاص، يناجونه به، ولكنّه رجّح فعْلَ ذلك حراسةً للنبيّ ﷺ!

---

(١) صحيح مسلم (٥٢) كتاب الفتن، (١٢) باب ما يكون من فتوحات المسلمين قبل الدجال، حديث رقم: ٢٩٠٠.

وتوجَّهَ نافعٌ رضي الله عنه، ووقفَ بين القومِ وبينَ رسولِ الله ﷺ، حراسةً له، فوجَدَهم مسلمين، وكان رسولُ الله ﷺ يُعَلِّمُهم ويحدِّثُهم ويبشِّرُهم بمستقبل الإسلام.

وسمعَ من رسول الله ﷺ البشرى بانتشارِ الإسلام، والانتصار في الجهاد، وفتحِ جزيرة العرب، والانتصار على فارس والروم، ثم الانتصار على الدجّال.

ولما روى نافعٌ لابنِ عمّتِه جابر بن سَمُرةَ رضي الله عنهما الحديثَ، ذكَرَ له دلالةً استنبطها منه، وهي أنَّ الدجالَ لن يخرجَ حتى تُفتَحَ بلادُ الروم! وهذا من حُسْنِ فطنتِه رضي الله عنه.

وهذا الحديثُ مع مناسبتِه يقدّمُ دلالةً كاشفةً على شخصيةِ نافعِ بنِ عتبة رضي الله عنه.

ب ـ هاشمُ بنُ عُتبة بن أبي وقاص: أسلم يومَ فتحِ مكة، وصحبَ رسولَ الله ﷺ بعد ذلك، وحضرَ معه الغزوات.

وكان هاشمُ بنُ عتبةَ مجاهداً شجاعاً، وبطلاً جريئاً، ولَقَبُه هو (المِرْقال).

قال الدولابي: لُقِّبَ بالمرقال: لأنه كان (يَرْقُلُ) في الحرب. أي: يسرع فيها. وهو مأخوذٌ من (الإرْقال): وهو ضربٌ من العَدْوِ والإسراع!

ولم يلقَّبْ هاشمٌ رضي الله عنه بالمرقالِ إلا لإسراعه في خوضِ المعارك، وهجومِه على الأعداء، وإرقالُه وإسراعُه في الهجوم دليلٌ على شجاعتِه وفروسيتِه وجرأتِه، وهذا واضحٌ في المعارك التي اشترك فيها.

جهاد هاشم بن عتبة:

اشترَكَ هاشمُ بنُ عتبة رضي الله عنه في فتحِ العراقِ وفارس، وكان من قادةِ الجهادِ في تلك الجبهة، تحتَ إمرةِ خالدِ بنِ الوليد رضي الله عنه، وكان من قادةِ معركة اليرموك في بلاد الشام، ولما أَمَرَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه بإعادةِ جيشِ العراق بعد انتهاء معركة اليرموك، وإبقاءِ خالدٍ وحدَه في بلاد الشام، كان هاشمُ بن عتبة قائداً لهذا الجيش، واشترَكَ بفاعليةٍ في معركة القادسية، وكان أحدَ أبطالها الكبار.

وبعدَ فتْحِ المدائنِ عاصمةِ كسرى، تجمَّعَ (يَزْدَجِرْد) ملكُ الفرس في آلافٍ من الفرس، في آخر محاولةٍ منه لمواجهةِ المسلمين، فجهّزَ له سعدٌ رضي الله عنه جيشاً بقيادةِ ابنِ أخيه هاشمٍ رضي الله عنه، وهزَمَ هاشمٌ يزدجرد في معركة (جَلولاء) المشهورة.

وأقامَ هاشمُ بن عتبة في الكوفة. ولما وقعت الفتنةُ بين المسلمين وأدَّتْ إلى استشهادِ عثمان رضي الله عنه، كان هاشمٌ يرى أنَّ عمَّه سعداً هو أولى المسلمين بالخلافة، فجاءَه وعَرَضَ عليه الأمر، وأخبره أنَّ معه الأُلوفَ من المسلمين يؤيّدونه، وعلى استعدادٍ للقتالِ معه، ولكن سعداً أبى واعتزلَ الفتنة، كما سيمرُّ معنا إن شاء الله.

وبعدَ عزوفِ سعدٍ عن المطالبةِ بالخلافة، انحازَ هاشمُ بن عتبة إلى جيش علي رضي الله عنه، واشترَكَ معه في معركة صفّين، ضدّ جيش الشام، واستُشهِدَ في (صفّين) هو وعمار بن ياسر في وقتٍ واحد، رضي الله عنهما[1].

---

(١) انظر ترجمة هاشم بن عتبة في الإصابة: ٣/ ٥٩٣.

٢ ـ **عُميرُ بنُ أبي وقاص**: كان عميرٌ من السابقين للإسلام، أسلمَ بعدَ أخيه سعدٍ بفترةٍ قصيرة. وكان إسلامُه مع عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنهما[١].

وكان عميرٌ رضي الله عنه من السابقين للهجرة أيضاً.

وصحبَ رسولَ الله ﷺ في المدينة مع أخيه سعد.

وجرتْ حادثةٌ آثرَ فيها سعدٌ أخاهُ عُميراً بالخير.

روى أحمد وأبو يَعلى عن مصعبِ بن سعدِ بن أبي وقاص، عن أبيه رضي الله عنه قال: أُتِيَ النبيُّ ﷺ بقصعةٍ من ثريد، فأكلَ، ففضلَ منها فضلة، فقالَ ﷺ: «يدخلُ من هذا الفجِّ رجلٌ من أهلِ الجنَّة، يأكُلُ هذه الفَضلة». وقد كنتُ تركتُ أخي عُمَيْرَ بن أبي وقاص يتوضَّأ، يتهيَّأ لأنْ يأتيَ النبيَّ ﷺ، فطمعتُ أنْ يكونَ هو، فجاءَ عبدُ اللهِ بن سلام فأكلها[٢]!

كانت الحادثةُ قبلَ غزوةِ بدر، فقد كانَ سعدٌ عند رسول الله ﷺ، وأخبرَ أنه قُدِّمَ لرسول الله ﷺ طعامٌ من ثريد، ولما أكلَ منه بقيتْ منه بقية، فأخبرَ ﷺ أصحابَه أنه يأكلُ من هذه الفضلة رجلٌ يدخُلُ من هذه الجهة.

وكان سعدٌ قد ترك أخاهُ عميراً يتوضأ، استعداداً للمجيء إلى رسولِ الله ﷺ، وتوقَّع سعدٌ أن يكونَ عميرٌ هو أول داخل، وأن يأكلَ تلك الفضلة،

---

(١) السيرة النبوية: ١/ ٢٧٢.
(٢) مسند أحمد، بتحقيق شعيب الأرناؤوط، حديث رقم: ١٤٥٨، ١٥٩١؛ ومسند أبي يعلى، بتحقيق حسين أسد، حديث رقم: ٧٢١.

وبذلك تتحققُ فيها شهادةُ رسول الله ﷺ بأنه من أهل الجنة .

ولكنَّ عُمَيْراً لم يدخل، وإنما دخل عبدُ الله بن سلام رضي الله عنه ـ وهو الذي كانَ من كبارِ أحبارِ اليهود، وأسلمَ بعد الهجرة مباشرة ـ ولما أكلَ تلك الفضلة من الثريدِ علمَ سعدٌ والصحابةُ أنّه من أهل الجنّة!

خروج عمير إلى غزوة بدر:

واشتركَ عميرُ بن أبي وقاص رضي الله عنه في غزوة بدر، وكان من صغار الصحابةِ المجاهدين، وطلبَ الشهادة، ورجى أن يكونَ من أهل الجنة، فرزقه اللهُ الشهادةَ في بدر .

روى الواقديُّ وابنُ سعدٍ عن عامر بنِ سعد بن أبي وقاص، عن أبيه رضي الله عنه قال: رأيتُ أخي عُمَيْرَ بنَ أبي وقاص، قبلَ أنْ يعرضنا رسولُ الله ﷺ، يتوارى! فقلتُ له: ما لَكَ يا أخي؟

قال: إني أخافُ أنْ يراني رسول الله ﷺ ويستصغرني فيردّني، وأنا أُحبُّ الخروج، لعلَّ اللهَ يرزقَني الشهادة!

فَعُرِضَ على رسولِ الله ﷺ، فاستصغرَه وقال: ارجع! فبكى عمير، فأجازه رسولُ الله ﷺ.

قالَ سعد: كنتُ أعقدُ له حمائلَ سيفِهِ من صِغَرِه، فقُتِلَ ببدرٍ وهو ابنُ ستَّ عشرة سنة[1]!!

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢١؛ والطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ١١٠ ـ ١١١؛ والإصابة لابن حجر: ٣/ ٣٥ ـ ٣٦.

الرسول ﷺ يجيز عميراً للمعركة:

كان عميرٌ رجلَ جهادٍ كأخيه سعدٍ رضي الله عنهما، رغم صغرِ سنِّه، وخرجَ مع الصحابةِ المجاهدين إلى بدر، وبعدَ الخروجِ من المدينة، وقفَ رسولُ الله ﷺ يستعرضُ أصحابَه، وخشيَ عميرٌ أن يردَّهُ رسولُ الله ﷺ لصغرِ سنّه، فكان يتوارى لئلا يراهُ الرسولُ ﷺ.

ورأى سعدٌ أخاهُ عميراً يتوارى، فقال له: ما لكَ يا أخي؟ لماذا تتوارى عن رسولِ الله ﷺ؟

فقال له: أخشى أنْ يراني رسولُ الله ﷺ فيردَّني إلى المدينةِ لأنني صغير، وأنا أُحبُّ الخروجَ للجهادِ، لعلَّ اللهَ يرزقَني الشهادة!

لقد كان حريصاً على الجهاد، وراغباً في الشهادة، وأُمنيتُه أنْ يكونَ من أهلِ الجنّة!

وعُرِضَ عميرٌ على رسول الله ﷺ، فرآهُ صغيراً، فقال: ارجع إلى المدينة! فبكى، وتوسَّلَ بدموعِه إلى رسول الله ﷺ ليبقيه مع المجاهدين، فأبقاه!

ولما وصلوا إلى ميدانِ المعركة على أرضِ بدر، أقبلَ سعدٌ على أخيهِ عميرٍ رضي الله عنه يُصلحُ من شأنه، ويجهزُه للجهاد، وربَطَ له حمائلَ سيفه على جنبِه، وشدَّه عليه! وكان السيفُ لا يكادُ يثبتُ عليه لصغرِ سنِّه ونحافةِ جسمه.

استشهادُ عمير في بدر:

ولما نشبت المعركةُ، جاهدَ الفتى عميرٌ جهادَ الأبطالِ، ورآهُ زعيمٌ من

زعمـاء الكفار المشـهورين بالقتال، هو (عمرُو بنُ عبد ودّ)، وكان ضخمَ الجسمِ، طويلاً عريضاً، فرماهُ فقتله[1]! وبذلك تحققَ لعمير ما كان يتمنّى، حيث نال الشهادةَ في غزوة بدر!

ولعلَّ سـعداً رضي الله عنه عندما حدَّد عمرَ أخيه يومَ استشـهادِه أرادَ التقريبَ وليس التحديد، حيث ذكرَ أن عمرَه كان ستَّ عشرة سنة!

ومن المعلومِ أنَّ غزوة بدرٍ كانت في السنةِ الثانيةِ للهجرة، كما أنّه من المعلومِ أنَّ الدعـوةَ الإسـلاميةَ في مكةَ اسـتمرّتْ ثلاثَ عشرةَ سنة، أيْ أنَّ عميرَ بنَ أبي وقاص رضي الله عنه عاشَ في الإسلامِ خمسةَ عشر عاماً، لأنّه أسلمَ في أيامِ الدعوةِ الأُولى، فكان من السابقين للإسلام.

كم كان عمرُه عندما أسلم إذاً؟

لعلَّه كانَ بين السابعةِ والعاشرة من عمره، فلو كان عمرُه أقلَّ من سبع سنين لما ذُكِرَ في السابقين إلى الإسلام، لأنَّ الإنسانَ لن يكون مميِّزاً قبلَ السابعة!

فإذا قلنا: كان عمرُه يومَ إسلامِه سبعَ سنوات، يكونُ عمرُهُ يوم استشهادِه في بدر اثنتين وعشرين سنة!

فيكونُ قولُ سعد: «قُتِلَ ببدرٍ وهو ابنُ ستَّ عشرةَ سنة» من باب التقريب وليس التحديد.

---

(١) الطبقات الكبرى: ٣/ ١١١.

ولو أخذنا كلامَ سعدٍ على ظاهرِه يكونُ عميرٌ قد أسلمَ وهو في السنةِ الثانية ـ أو الثالثة ـ من عمره! وهذا ما لا يمكن أنْ يُقال[1]!

ولعلَّ عميراً ـ الذي كانَ في العشرينَ من عمرِه يوم استشهادهِ ـ كان صغيرَ الجسم قصيرَ القامة، ولذلك ردّه الرسولُ ﷺ يومَ بدر، ولعلَّه لقصرِ قامتِه ونحافتِه كان السيفُ لا يتماسكُ على جسمه، مما اضطرَّ أخاه سعداً إلى أن يعقدَ ويربطَ حمائلَ السيف على جسمه[2]. . والله أعلم!

٣ ـ عامرُ بن أبي وقاص: كان عامرٌ من السابقين إلى الإسلام وذكرَ ابنُ سعد عن محمد بن سعد بن أبي وقاص أنَّ عامراً ـ عمّه ـ أسلمَ بعدَ عشرةٍ من الرجال، فكان ترتيبُه بين السابقين إلى الإسلام هو الحادي عشر[3].

صبر عامر على أمّه:

وكانتْ أمُّه (حَمْنَة) شديدةً عليه بسببِ إسلامه، كما كانتْ شديدةً على أخويه، وذكرَ ابنُ أخيه محمدُ بن سعد أنه لقيَ من أمِّه من الصياحِ به والأذى له، ما لم يلْقَه أحدٌ ممن أسلمَ من قريش، ومع هذا كان يصبرُ على أذى أمِّه أكثر من صبرِ أخيه سعد.

---

(١) ويحتمل أن يكون أسلم في السنة السابعة للبعثة، وعند الهجرة كان عمير قد ناهز الحلم فهاجر مع أخيه سعد. انظر ما أورده المؤلف عن ابن سعد في (الطبقات)، ص٩٦؛ وأنساب الأشراف للبلاذري: ٥/ ٩٩. (الناشر)

(٢) لو كان هذا الاحتمال وارداً لرد عبد الله بن مسعود لضالة جسمه. (الناشر)

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٤/ ٩٢؛ والاستيعاب لابن عبد البر ـ على هامش الإصابة: ٣/ ٤.

روى ابنُ سعدٍ في (الطبقات) عن عامرِ بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: جئتُ من الرمي، فإذا الناسُ مجتمعونَ على أُمي حمنةَ بنتِ سفيان، وعلى أخي عامرٍ حينَ أسلم!

فقلتُ: ما شأنُ الناس؟

قالوا: هذه أُمُّكَ، قد أخذَتْ أخاكَ عامراً، تُعطي اللهَ عهداً، ألاّ يُظِلَّها ظل، ولا تأكلَ طعاماً، ولا تشربَ شراباً، حتى يدَعَ الصَّباوة!

فأقبلَ سعدٌ حتى وصل إلى أُمّه، فقال: احْلِفي يا أمي عليّ أنا!

قالت له: لماذا؟

قال: حتى تبقي لا تستظلّي في ظلّ، ولا تأكُلي طعاماً، ولا تشربي شراباً، حتى تريْ مقعدَكِ من النار!

قالت: إنما أحلفُ على ابني البَرّ[1]!

أرادَتْ أنْ تضغطَ على ابنِها عامر ضغطاً نفسياً، ليرجعَ عن الإسلام، ولهذا وقفتْ في شمسِ مكة الحارقة، وحلَفَتْ عليه يميناً أنْ يتخلّى عن الإسلامِ، فإن لم يفعلْ ستبقى واقفةً في الحَرّ من دونِ طعامٍ أو شراب!

ويبدو أنَّ عامراً كان أكثر برّاً بأُمِّهِ من أخيه سعد، لأنَّ سعداً لما عرف يمينها طلبَ منها أنْ لا تحلفَ على أخيه، وإنما تحلفُ عليه هو! ولما سألَتْهُ عن

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٤/ ٩٢.

السبب، أجابها بسخرية مرة: لأنكِ لو حلفتِ عليَّ أنا فلنْ أستجيبَ لك، وسأثبتُ على الإسلام، أمّا أنتِ فستبقيْن من دونِ طعام أو شراب، وواقفةً في الشمس، حتى تموتي، وتذهبي إلى نار جنهم! وأنا لن أسألَ عنك، ولن أهتمّ بك!

فأخبرتْه أنَّ أخاهُ عامراً هو البارُّ بأمِّه الذي يعرفُ ليمينها معناه! ومع ذلك لم يستجب عامرٌ لها، وثبتَ على إسلامه!

هجرة عامر وجهاده:

ولما اشتدَّ أذاها له هاجرَ عامرٌ الهجرةَ الأُولى إلى الحبشة.

وكان عامرٌ من المهاجرينَ بعدَ ذلك إلى المدينة، حيثُ شهدَ معركة أُحُد.

ويبدو أنَّ عامراً لم يكنْ كأخيه سعد في مواقفه ومشاهدِه وفضائله، ولذلك لم يَرِدْ له ذكْرٌ في الغزوات مع رسولِ الله ﷺ.

واشتركَ عامرُ بن أبي وقاص في الجهاد على جبهة الشام، وكان في معركة اليرموك جندياً مجاهداً، وذكَرَ المؤرِّخون أنه استُشهدَ في تلك المعركة[١]!

٤ ـ عمارة بنُ أبي وقاص: لم يتحدّث المؤرِّخون والإخباريُّون كثيراً عن عمارة هذا، ولم يذكروا: هل أسلمَ أمْ بقيَ كافراً؟

---

(١) أعلام الحفاظ والمحدّثين لعبد الستار الشيخ: ٢/ ١٤٨.

ووردَ اسمُه مرةً واحدةً في خبرٍ رواهُ سعدٌ رضي الله عنه عن موقفِ أُمِّه منه بعدما أسلم.

روى مسلمٌ عن مصعبَ بن سعد، عن أبيه رضي الله عنه، أنه نزلتْ فيه آياتٌ من القرآن:

قال: حَلَفَتْ أمُّ سعدٍ أنْ لا تكلِّمَه أبداً حتى يكفرَ بدينه، أو لا تأكلَ ولا تشرب! وقالتْ له: زَعَمْتَ أنَّ اللهَ أوصاكَ بوالديْك، وأنا أُمُّك، وأنا آمرُكَ بهذا!

ومَكَثَتْ ثلاثاً، حتى غُشِيَ عليها من الجَهْد.. فقامَ ابنٌ لها، يقال له (عُمارَة) فسقاها، فجعلتْ تدعو على سعد.. فأنزلَ اللهُ هذه الآية: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ ﴾ [لقمان: ١٥][1].

ونطرحُ هنا تساؤلاً: هلْ (عُمارةُ) المذكورُ هنا هو أخٌ رابعٌ لسعد، كان بارّاً بأمه، ولم يذكر المؤرِّخون عنه شيئاً، أم هو (عامرٌ) نفسه، الذي ذكرناه قبل قليل؟

من الممكنِ أنْ يكونَ عمارة هو عامر، ووهم أحدُ الرواةِ فوضعَ اسمَ (عُمارة) مكانَ اسمِ (عامر)!! وهذا قد يقعُ من الرواة.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٤) كتاب فضائل الصحابة، (٥) باب في فضائل سعد، حديث رقم: ١٧٤٨.

ونكادُ نميلُ إلى أنَّ عُمارةَ هو نفسُه عامر، ونقولُ هذا من بابِ الاحتمال وليس من بابِ الجزم، وبذلك يكونُ لسعدٍ ثلاثةُ إخوة، هم: عتبة، وعمير، وعامر!

٥ ـ **خالدة بنت أبي وقاص**: ذكرَ الإخباريـون لسـعدٍ أُختـاً هي (خالدة) ولا ندري هل له أختٌ غيرُها أم لا.

وأخْتُه من السابقات إلى الإسلام، وقد تزوَّجَها (سَمُرَةُ بنُ جُنادة بنِ جندب السَّوائيُّ) حليفُ بني زهرة.

وخرجَ سَمُرَةُ السَّوائيُّ للجهادِ على جبهة العراق، وكان جندياً في معركة القادسية، ولما انتهت فتوحات العراق، استقرَّ في الكوفة، وبقيَ فيها إلى أن مات، رضي الله عنه[١].

وأنجبَتْ خالدةُ من سمرة أولاداً، من أَشهرِهم (جابرُ بن سمرة)، الذي صحبَ النبيَّ ﷺ، وروى عدةَ أحاديـثَ عنه، أخرجَ بعضَها الإمامُ مسـلمٌ في (صحيحـه)، واشـتركَ جابرٌ مع أبيه، وخالِه سعد في معركة القادسـية وما بعدَها، ثم اسـتقرَّ في الكوفة، إلى أنْ توفيَ عام أربعـة وسبعين. رضي الله عنه[٢].

---

(١) الطبقات الكبرى: ٦/ ١٠٠ ـ ١٠١؛ والإصابة: ٢/ ٧٨.
(٢) الطبقات الكبرى: ٦/ ١٠١؛ والإصابة: ١/ ٢١٢.

(٤) نسوة سعد

تزوجَ سعدُ بن أبي وقاص رضي الله عنه عدداً من النساء، وصلَ إلى اثنتي عشرة امرأة!

ومن المعلومِ أنّه لا يجوزُ للمسلمِ أن يجمعَ أكثرَ من أربعِ نساءٍ في عصمتِه، فإن أرادَ أن يتزوَّجَ الخامسة فلابدَّ أنْ يُطلقَ واحدةً من الأربعة، فالمحرَّمُ هو أنْ يجتمعَ أكثرُ من أربعِ نساءٍ في عصمتِه في وقتٍ واحد. أما إذا طلَّقَ بعضَهنّ أو مات بعضُهن، فيمكنُ ذلك. وعند النظرِ إلى مجموعِ النساءِ اللواتي تزوّجهنَّ يكونُ أكثرَ من أربع.

على هذا الأساس نفهمُ زواجَ سعدٍ رضي الله عنه بأكثر من عشرِ نساء، فلم يجتمعْ في عصمتِه أكثرُ من أربعِ نساءٍ من الحرائر، ومجموعُ مَنْ تزوَّجَهن هو اثنتا عشرةَ امرأة، بعدَ طلاقِ مَنْ طَلَّقَ منهن، وموتِ مَنْ مات منهن، وبعضُهنّ كنَّ من الإماءِ والجواري، أخذهنَّ من سبايا الحروب!

أسماء نسائه:

والنساءُ اللّواتي تزوَّجهن هن:

١ ـ بنتُ شهاب بن عبد الله الزُّهرية. من أقاربه من بني زهرة.

٢ ـ ماوِيَةُ بنتُ قيس بن معدي كرب الكِندية. من كندة.

٣ ـ أمُّ عامر بنت عمرو. من بهراء.

٤ ـ زُبَيدةُ ـ أو زبدة ـ بنت الحارث بن يعمر. من بكر بن وائل.

٥ ـ خولةُ بنت عمرو بن أوس. من تغلب.

٦ ـ أمُّ هلال بنت ربيع بن مُرَيّ. من مَذْحِج.

٧ ـ أمُّ حكيم بنت قارظ. من كِنانة.

٨ ـ طَيِّبَةُ بنتُ عامر بن عتبة. من الخزرج.

٩ ـ سلمى بنت خَصَفَة التَّيْمِيَّة. من تيم اللات. وكانت امرأةً للمثنّى بن حارثة الشيباني قائدِ المجاهدين على جبهة العراق، فلما توفّي المثنى تزوّجها سعد.

١٠ ـ سلمى التغلبية. من تغلب.

١١ ـ أمُّ حجير.

١٢ ـ امرأة من سبي العرب[١].

(٥) أبناء سعد

تزوَّجَ سعدٌ قريبتَه بنتَ شهاب بن عبد الله الزهرية، ومكثَ معها سنوات عديدة، حتى الأربعين من عمره تقريباً، ولم يُنجبْ منها إلاّ بنتاً واحدة، هي (أمُّ الحَكَم الكبرى).

---

(١) انظر أسماء نسائه في: الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ١٠٢؛ وصفة الصفوة لابن الجوزي: ١/ ٣٥٧؛ وأعلام الحفاظ والمحدّثين للشيخ: ٢/ ١٤٨ـ١٤٩.

بقيَ على هذا حتى حَجَّةِ الوداع التي حَجَّها رسولُ الله ﷺ، وكان مع رسول الله ﷺ، ومرضَ في مكة مرضاً شديداً.

فحتى السنة العاشرة من الهجرة لم يكن عنده إلاّ بنتٌ واحدة!

ودليلُ هذا ما رواه مسلمٌ عن عامرِ بن سعدٍ عن أبيه رضي الله عنه قال: عادَني رسولُ الله ﷺ في حجّةِ الوداع، من وَجعٍ أشفيتُ منه على الموت، فقلتُ: يا رسولَ الله: بَلَغَني ما ترى من الوجع، وأنا ذو مال، ولا يرثُني إلاّ ابنةٌ لي واحدة، أفأتصدَّقُ بثُلثَيْ مالي؟ قال: «لا». قلت: أفأتصدَّقُ بشَطرِه؟ قال: «لا». قلتُ: فبالثلث؟ قال: «الثلث، والثلث كثير. إنك إنْ تَذَرْ ورثتكَ أغنياءَ، خيرٌ من أنْ تذرهم عالةً يتكفّفون الناس. ولستَ تنفقُ نفقةً تبتغي بها وجْهَ اللهِ إلاّ أُجِرْتَ بها، حتى اللقمةَ تجعلُها في في امرأتك».

قلتُ: يا رسول الله: أُخَلَّفُ بعد أصحابي؟

قال: «إنك لنْ تُخَلَّفَ فتعملَ عملاً تبتغي به وجْهَ اللهِ إلاّ ازدَدْتَ به درجةً ورفعةً. ولعلَّكَ تُخَلَّفُ حتى يُنْفَعَ بك أقوام، ويُضَرَّ بك آخرون»[1].

له ابنةٌ واحدة حتى السنةِ العاشرة، وعمره جاوزَ الأربعين عاماً. وبعد ذلك أعطاهُ اللهُ أولاداً كثيرين.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥) كتاب الوصية، (٢) باب الوصية بالثلث، حديث رقم: ١٦٢٨.

أسماء أولاده وبناته:

ذكرَ الإخباريون والمؤرِّخون أنَّ اللهَ وهبه ستاً وثلاثين ولداً، بين ذكر وأنثى، وكانوا متساوين بالعدد: ثمانيةَ عشر ولداً ذكراً، وثماني عشرة بنتاً!!

أولادُه الذكور هم:

(١) إسحاق الأكبر. وبه كان يُكنَّى، فيُقال له: أبو إسحاق (٢) عمر (٣) محمد (٤) عامر (٥) إسحاق الأصغر (٦) إسماعيل (٧) إبراهيم (٨) موسى (٩) عبد الله (١٠) مصعب (١١) عبد الله الأصغر (١٢) بجير - اسمه عبد الرحمن - (١٣) عمير الأكبر (١٤) عمير الأصغر (١٥) عمرو (١٦) عمران (١٧) صالح (١٨) عثمان.

وبناته هن:

(١) أم الحكم الكبرى. وهي أُولى بناته (٢) حفصة (٣) أمُّ القاسم (٤) أُمُّ كلثوم (٥) أُمُّ عمران (٦) أم الحكَم الصغرى (٧) أم عمرو (٨) هند (٩) أُم الزبير (١٠) أُم موسى (١١) حميدة (١٢) حمنة (١٣) أُم أيوب (١٤) أُم عمرو الصغرى (١٥) أُم إسحاق (١٦) رملة (١٧) عمرة (١٨) عائشة. وهي صغرى بناته[١].

وأشهرُ أولادِه: عمر، وعامر، ومصعب، ومحمد، وإبراهيم، وابنتُه

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ١٠٢؛ وصفة الصفوة لابن الجوزي: ١/ ٣٥٧؛ وأعلام الحفاظ والمحدّثين لعبد الستار الشيخ: ٢/ ١٤٩.

عائشة، وهي آخِر مَنْ وُلِدَ له.

ترجمَ ابنُ سعد في (الطبقات) لكلٍّ من: محمد بن سعد، وعامر بن سعد، وعمر بن سعد، وعمرو بن سعد، وعمير بن سعد، ومصعب بن سعد، وإبراهيم بن سعد، ويحيى بن سعد، وإسماعيل بن سعد، وعبد الرحمن بن سعد.

وذَكَرَ هؤلاء العشرة ضمنَ الطبقةِ الأُولى من أهلِ المدينة من التابعين، ممن رووا عن عثمانَ وعليٍّ وابنِ عوف وطلحة والزبير وسعدٍ وحذيفة وأُبيّ بن كعب وسهل بن حنيف وزيد بن ثابت وغيرهم، رضي الله عنهم[1].

وذكرَ الذهبيُّ أولادَ سعدِ العشرة المذكورين في كتابه (سير أعلام النبلاء)[2].

كما ترجمَت لهم معظمُ كتبِ الرجال والتاريخ مثل: (التاريخ الكبير) للبخاري، و(الطبقات) لخليفة بن خياط، و(الثقات) لابن حبان، و(الجرح والتعديل) لابن أبي حاتم، و(تاريخ الإسلام) للذهبي، و(تهذيب التهذيب) لابن حجر... وغيرهم.

وذكرَ الحافظ المِزي في (تحفةِ الأشراف) ما رواه الأبناءُ عن أبيهم سعد، وهم: إبراهيم، ومحمد، وعامر، وعمر، ومصعب، وعائشة بنت سعد[3].

---

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد: ٥/ ١٢٧ ـ ١٣٠.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي: ٤/ ٣٤٨ ـ ٣٥١.

(٣) انظر تحفة الأشراف للمزي: ٣/ ٢٧٧ ـ ٣٢٦.

كما عرَّفَ الحافظُ المِزّي بهم في كتابه (تهذيب الكمال)، وعنه نقدّمُ هذا التعريفَ المجملَ بهم.

١ - **إبراهيم بن سعد**: كان ثقةً كثيرَ الحديث، روى عن أبيه، وعن أُسامة بن زيد، وخزيمة بن ثابت، رضي الله عنهم.

وروى له البخاريُّ ومسلم والنسائي وابن ماجه[1].

٢ - **عامر بن سعد**: هو أكثرُ أبناءِ سعدٍ روايةً عن أبيه، حيث روى عنه أكثـر من ثلاثين حديثاً، كما روى عن صحابةٍ آخريـن، مثل: أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وأبي أيوب الأنصاري، وعبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد، وعائشة، وأم سلمة، رضي الله عنهم.

ورى له البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

وتُوفيَ في المدينة سنةَ مئة وأربع، كما قال الواقدي[2].

٣ - عمر بن سعد: لم يكنْ عمرُ كإخوتِه مقبلاً على العلمِ والتعليم، وإنما كان منصرفاً إلى الدنيا، راغباً في الولايةِ والزعامة والقيادة، ولهذا أنكرَ على أبيه اعتزالَه الفتنةَ بعدَ استشهادِ عثمان رضي الله عنه، وأتاهُ هو وابنُ عمه (هاشمُ بن عتبة) يطلب منه السعيَ للخلافة، وأنَّ الأُمّةَ ستجتمعُ عليه، ولكنَّ سعداً رضي الله عنه رفضَ ذلك، وسنفصّل القولَ في بعض ما جرى بينَ عمر وأبيه

---

(١) تهذيب الكمال: ١/ ١١٢، ترجمة رقم: ١٧١.
(٢) المصدر السابق: ٤/ ٢٦، ترجمة رقم: ٣٠٢٥.

بهذا الخصوص فيما بعد إن شاء الله.

ولم يكنْ سعدٌ رضي الله عنه راضياً عن توجُّه ابنِه عمر، وسعيهِ للقيادة والزعامة، وكان ينكرُ عليه ذلك.

انحياز عمر بن سعد للأمويين:

وانحاز عمرُ بن سعد إلى بني أمية، لأنَّ الدنيا كانتْ بأيديهم، وكان مقيماً في الكوفة. وبعد وفاةِ معاوية رضي الله عنه واستخلاف ابنِه يزيد، عَيَّنَ يزيدُ عبيدَ الله بن زياد والياً على البصرةِ والكوفة، واتّصل عمرُ بنُ سعد بابن زياد، فعيَّنَه ابنُ زياد والياً على الرّيّ وهمذان، وبعثَ معه جيشاً لاستتبابِ الأمر فيها لبني أمية.

وقبلَ توجُّهِ عمرَ بنِ سعد إلى عملِه خرجَ الحسينُ بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما إلى الكوفة، فانزعجَ عبيدُ الله بنُ زياد، وبعدَ أن قضى على أنصارِ الحسين في الكوفة، وقَتَلَ ابنَ عمِّه مسلمَ بن عقيل بن أبي طالب، أَمَرَ عمرَ بنَ سعدٍ بالتوجُّهِ بجيشه لقتالِ الحسين!

أبى عمرُ ذلك، وطلبَ من ابنِ زياد إعفاءَه، ولكنَّ ابنَ زياد أصرَّ على ذلك، وهدَّدَهُ بأنَّه إنْ لم يفعلْ ما يأمره به فسيقتُلُه ويهدمُ دارَه، فوافقَ عمرُ مكرَهاً، وتوجَّه بجيشه نحو الحسين في (كربلاء) متثاقلاً.

فاوضَ عمرُ بن سعد الحسينَ بن علي، فخيَّرَهُ الحسينُ بينَ أنْ يعودَ إلى الحجاز، أو يتوجَّهَ إلى يزيد في الشام، أو يتوجَّه مجاهداً إلى الثغور! فوافق عمرُ على ذلك وكتب إلى ابنِ زياد في الكوفة، ولكنَّ ابنَ زياد رفض، وأصرَّ

على استسلامِ الحسين له.

ورأى ابنُ زياد تثاقُلَ عمرَ عن قتالِ الحسين، فقالَ لِشمْرِ بن ذي الجَوْشَن: إنْ لم يتحرَّك عمرُ لقتالِ الحسين فاقتُلْه وقاتِلْ أنتَ الحسينَ مكانه! فاضطرَّ عمرُ إلى قتالِ الحسين، وأقدمَ شِمْرُ بن ذي الجوشن على قتلِ الحسين رضي الله عنه في عاشوراء من سنة ستين للهجرة[1]!

وحمَّلَ الناسُ عمرَ بنَ سعد مسؤوليةَ قتْلِ الحسين، لأنّه كان قائد الجيش الذي نفَّذَ ذلك، مع أنَّ عمرَ لم يباشرْ ذلك بنفسه!

قتل المختار لعمر بن سعد:

ولما خرجَ المختارُ بن أبي عبيد الثقفي في الكوفة على بني أُمية، ادَّعى أنه يطالبُ بدمِ الحسين بن علي رضي الله عنه، ويريدُ أنْ يقتلَ قَتَلَةَ الحسين، فَقَتَلَ شِمْرَ بن ذي الجوشن قاتلَ الحسين، كما قتلَ عمرَ بن سعدٍ وابنَه حفصاً، سنةَ ستٍّ وستّين[2].

ورغم مواقفِ عمرَ بن سعد السياسية التي لا يوافقُ عليها، ورغمَ كونه قائدَ الجيش الذي قاتلَ الحسين بن علي رضي الله عنه إلا أنه كان في نفسهِ ثقةً صادقاً.

روى عن أبيه سعد، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما، وروى

---

(١) انظر تفاصيل قتل الحسين بن علي في تاريخ الطبري: ٥/ ٣٨٢ ـ ٤٦٧؛ وتهذيب الكمال للمزي: ٢/ ١٨٣ ـ ١٩٦.

(٢) انظر تفاصيل قتل عمر بن سعد في تاريخ الطبري: ٦/ ٥٩ ـ ٦٣.

عنه ابنُه إبراهيم، وابنُ ابنِه أبو بكر بن حفص بن عمر، كما روى عنه آخرون.

وروى له النسائيُّ حديثاً عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قتالُ المسلمِ كُفر، وسبابُه فُسوق، ولا يحلُّ لمسلمٍ أنْ يهجرَ أخاهُ فوقَ ثلاثةِ أيام»[1].

والعجيبُ أنَّ عمرَ بن سعد هو الذي روى عن أبيه حديث النهي عن قتالِ المسلم، واعتباره من الكفر، هو الذي أقدم على قتال الحسين بن علي رضي الله عنه، ولا يُعفيه من المسؤولية أنه قاتَلَه مُكْرَهاً!!

واعتبرَ بعضُهم عمرَ بنَ سعد من الصحابة، ولكنَّ هذا مردود، لأنَّ الصحيحَ أنَّ عمرَ بن سعد لم يدرك رسول الله ﷺ!!

٤ ـ **محمد بن سعد**: كان يُكنَّى أبا القاسم، وهو من العلماء، روى عن أبيه أكثرَ من عشرةِ أحاديث، كما روى عن عثمان بن عفان وأبي الدرداء، رضي الله عنهم، وروى عنه ولداه إبراهيمُ وإسماعيل.

وكان يلقَّبُ بلقبِ (ظلِّ الشيطان) لقِصَرِه[2].

ولما ثارَ القُرَّاءُ والعلماءُ على ظلم الحجاج بن يوسف الثقفي، بقيادةِ عبد الرحمن بن الأشعث، كان محمدُ بن سعد معهم، وكان من قادتهم، ولكنَّ الثورةَ فشلتْ في وقعةِ (دير الجماجم) سنةَ ثلاث وثمانين، وانهزمَ ابنُ الأشعث،

---

(١) أخرجه النسائي (٣٧) كتاب تحريم الدم، (٢٧) قتال المسلم، حديث رقم: ٤١٠٤؛ وأحمد في المسند بتحقيق شعيب الأرناؤوط رقم: ١٥١٩.

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر: ٩/ ١٨٣.

وهربَ ابنُ الأشعث ومعه القادة، ولكن أُلقيَ القبضُ عليهم، وجيءَ بمحمدِ بن سعد مع الأسرى إلى الحجاج، ولما أُوقفَ محمدُ بن سعد أمامَ الحجاج قال له: إيه يا ظِلَّ الشيطان، يا أعظمَ الناسِ تيهاً وكبراً..

وصارَ يضربُ رأسَه بعودٍ في يده، حتى نزلَ الدمُ من رأسه.

فقال له ابنُ سعد: أيها الرجل: ملكْتَ فأسْجِحْ!

فكفَّ الحجاجُ يدَه، لكنه أمر بقتْلِه[1]!

وروى له البخاريُّ ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه.

٥ ـ مصعب بن سعد: كان مصعبُ بن سعدٍ من علماءِ المدينة من التابعين، وتلقّى العلمَ عن أبيه سعد، وروى عنه أكثر من خمسةَ عشرَ حديثاً، وكان مقيماً عند أبيه، وتوفيَ سعدٌ رضي الله عنه ورأسُهُ في حِجْرِ ابنه مصعب، من بِرِّهِ به.

كما روى مصعب عن طلحةَ بنِ عُبيد الله، وصُهيبِ الرومي، وعبدِ اللهِ بن عمر، وعديّ بن حاتم، وعكرمة بن أبي جهل، وعليِّ بن أبي طالب، رضي الله عنهم.

وكان يكنّى (أبا زُرارة)، وقد عمِّرَ طويلاً، حيث كانتْ وفاتُه سنةَ مئةٍ وأربع للهجرة.

---

(١) تاريخ الطبري: ٦/ ٣٧٩؛ وتهذيب الكمال للمزي: ٦/ ٣٢٠ ـ ٣٢١، ترجمة رقم: ٥٨٢٩.

وكان ثقةً صَدوقاً، وروى له البخاريُّ ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم[1].

٦ ـ **عائشة بنت سعد**: هي آخرُ مَنْ وُلِدَ لسعدٍ رضي الله عنه، وكانتْ عالمة محدِّثة، روتْ عن أبيها خمسةَ أحاديث أخرجها أصحابُ الكتبِ الستّة. كما روتْ عن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها. ويقال: إنها رأتْ ستاً من أزواجِ النبيِّ ﷺ أمّهاتِ المؤمنين.

وروى عنها عدد من التابعين وأتباعِ التابعين. وقد أدركَها الإمامُ مالك بن أنس رحمه الله، وروى عنها.

وروى لها البخاريُّ وأبو داود والترمذي والنسائي.

وتوفيتْ سنةَ مئةٍ وسبعَ عشرةَ للهجرة. رحمها الله[2].

(٦) صفة سعد

تاريخ ولادتِه:

وُلِدَ سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه في مكة، قبلَ بعثةِ رسولِ الله ﷺ بسبعَ عشرةَ سنة.

وهو الذي حَدَّد ذلك.

---

(١) تهذيب الكمال: ٧/ ١٢٠ ـ ١٢١، ترجمة رقم: ٦٥٧٥.

(٢) انظر تهذيب الكمال للمزي: ٨/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥، ترجمة رقم: ٨٤٨١.

روى ابنُ سعد في (الطبقات) عن سَلَمَةَ بنِ بُخت، عن عائشةَ بنتِ سعد قالت: سمعتُ أبي يقول: أسلمتُ وأنا ابنُ سبعَ عشرةَ سنة[1].

وبما أنَّ هذه الروايةَ صحيحة، وبما أنَّ سعداً حَدَّدَ سنةَ إسلامه، أيْ أنه حددَ سنةَ ميلادِه، فلا أرى داعياً للخلافِ حولَ تحديدِ ذلك، لأنه هو أدرى به!

وإذا كان قد وُلِدَ قبلَ البعثةِ بسبع عشرة سنة، فإنه يكونُ قد عاشَ مع رسولِ الله ﷺ طيلةَ مدّةِ بعثتِه، في الفترةِ المكيّة والمدنيّة، ويكون عمرُه يومَ وفاةِ رسول الله ﷺ أربعين سنة!

تاريخ وفاته:

واختلفَ المؤرِّخون في تحديدِ سنةِ وفاتِه، والراجحُ أنه توفيَ سنةَ خمسٍ وخمسين للهجرة رضي الله عنه.

قال عبدُ الستار الشيخ: «والمشهورُ أنه توفيَ سنةَ خمسٍ وخمسين. وعليه الأكثر. قالَه المدائنيُّ والواقديُّ وخليفةُ وعمرُو بن علي الفلاس، وغيرهم.

وقال الذهبيُّ والصفديُّ: هو الصحيح».

ثم قال: «قد علمْنا أنه أسلمَ وهو ابنُ سبعَ عشرةَ سنة، وقد أسلمَ في أيامِ الدعوةِ الأُولى. فعلى هذا يكونُ عمره يومَ الهجرةِ ثلاثين سنة.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ١٠٣.

ولما كانتْ وفاتُه ـ على الصحيح ـ سنةَ خمسٍ وخمسين، فعمرُه على التحديدِ خمسٌ وثمانونَ سنة.

وهو آخرُ العشرةِ المبشَّرين بالجنّةِ وفاة.

وكان قد ذهبَ بصرُه.. ولهذا ترجمه الصفديُّ في (نكْتِ الهيمان)[1].

توفيَ سعدٌ رضي الله عنه عن خمسٍ وثمانين سنة، عاشَ منها في الإسلام ثماني وستين سنة!

قالَ عنه الإمامُ الذهبي في بدايةِ ترجمتِه في (سير أعلام النبلاء): «هو الأميرُ أبو إسحاق القرشيُّ الزهريُّ المكيُّ. أحدُ العشرة، وأحدُ السابقين الأوَّلين، وأحدُ مَنْ شهدَ بدراً والحديبية، وأحدُ الستةِ أهلِ الشورى..»[2].

وكُنيَ بأبي إسحاق، لأنّ ابنَه (إسحاق الأكبر) كان من أوائلِ مَنْ وُلِدَ له، أُمُّه هي ابنةُ شهابِ بن عبد الله بن الحارث الزهري، قريبةٌ له. وهي أُولى أزواجِه.

وحتى السنةَ العاشرة من الهجرة لم يكنْ عند سعدٍ إلاّ ابنةٌ واحدة، هي (أُمُّ الحَكَمِ الكبرى). ثم وُلِدَ له ابنُه الذّكَرُ الأول إسحاق بعد ذلك.

فحتى الأربعين من عمره لم يكن عندَه إلاّ بنتٌ واحدة، ثم رزقه اللهُ خمساً وثلاثين ولداً وبنتاً بعد ذلك، وهذا من فضلِ الله عليه!!

---

(١) أعلام الحفاظ والمحدثين لعبد الستار الشيخ: ٢/ ١١٣ ـ ١١٤.
(٢) سير أعلام النبلاء: ١/ ٩٣.

حلية سعد:

كان قصيراً غليظَ الجسم.

وقَدْ وصفَتْه ابنتُه عائشة، فقالتْ: «كان أبي رَجُلاً قصيراً، دَحْداحاً، غليظاً، ذا هامَةٍ، شَثْنَ الأصابع، أشعر، وكان يخضِبُ بالسَّواد..»[1].

والدَّحداحُ هو القصيرُ السمين. وكونُه (ذا هامة): أيْ ضخم الرأس. ومعنى (شَثْن الأصابع): غليظ الأصابع. والأَشْعَر: كثيفُ الشعر.

ولما غزا الشيبُ شعرَه كان يخضِبُ شعرَه بالسواد.

وقال حفيدُه إسماعيل بن محمد بن سعد يصفه: «كان سعدٌ جَعْدَ الشعر، أشعرَ الجسد، آدمَ، أفطس..»[2].

وقالَ ابنُ مِنْدَة: «أسلمَ سعدٌ وهو ابنُ سبعَ عشرة سنة، وكان قصيراً، دَحْداحاً، شَثْنَ الأصابع، غليظاً، ذا هامةٍ، توفيَ بالعقيقِ في قصره، على سبعةِ أميالٍ من المدينة، وحُمِلَ إليها سنةَ خمسٍ وخمسين»[3].

حدّة بصر سعد:

وكان سعدٌ رضي الله عنه حادَّ البصر، يرى الأشياءَ البعيدةَ بدقّة، قالَ ابنُه

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ١٠٥.
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي: ١/ ٩٦ ـ ٩٧.
(٣) المرجع السابق نفسه.

عامر: «كان سعْدٌ من أحَدِّ الناسِ بصراً، فرأى ذاتَ يومٍ شيئاً يزول[1]. فقال لمنْ مَعَه: تَرَوْنَ شيئاً؟ قالوا: نرى شيئاً كالطير. قال: لكنّي أرى راكباً على بعير! ثم جاءَ بعدَ قليلٍ عمرُ بن سعدٍ على بُخْتِي. . .»[2].

يخبرُ عامرٌ أنَّ سعداً كانَ بين أهله في العقيق، عندما اعتزلَ الفتنةَ بعد استشهادِ عثمان رضي الله عنه، ونظرَ إلى بعيدٍ فرأى شيئاً يتحرك، فسألَ مَنْ حولَه عن ما يرون، فقالوا: نرى شيئاً كالطير، ولم يُمَيِّزوا ما يرون، ولكنَّه مَيَّزَه، فقال: أرى راكباً على بعير! وبعدَ قليلٍ وَصَلَ الراكبُ على بعير، فإذا هو ابنُه عمر يركبُ بُخْتِيّاً، والبُخْتيُّ هو البعير.

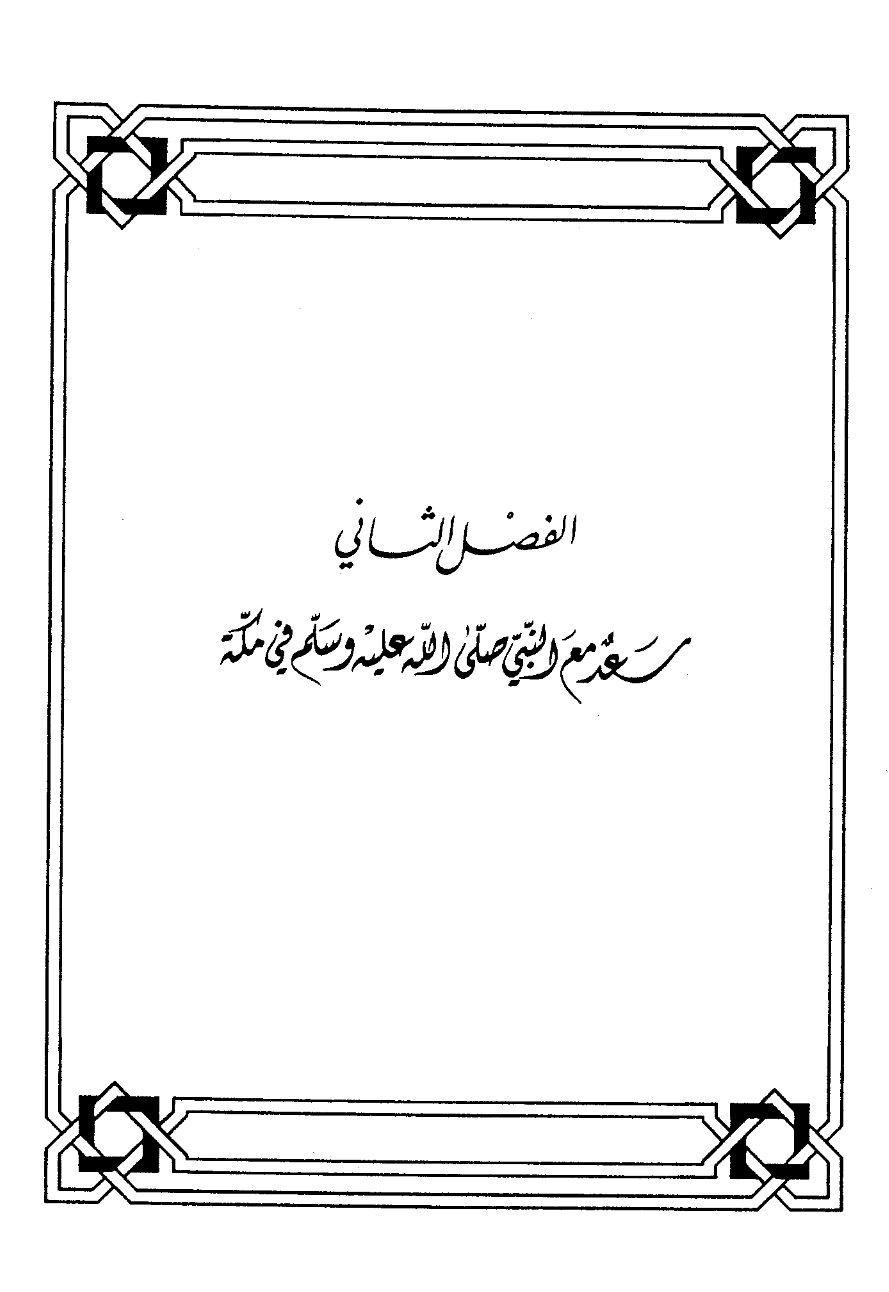
فدلَّت الحادثةُ على حِدَّةِ بصرِ سعد رضي الله عنه.

ولكنَّه في آخرِ عمرِه أُصيبَ بالعمى.

* * *

(١) يزول: يتحرك.

(٢) مسند أبي يعلى: ٢/ ٩٤، حديث رقم: ٧٤٩.



الفصل الثاني

سعد مع النبي صلى الله عليه وسلم في مكة



الفصل الثاني

سعد مع النبي صلى الله عليه وسلم في مكة

(١) سعد من أوائل المسلمين

يومَ بعثَ اللهُ محمداً ﷺ رسولاً كان سعدٌ شابّاً، عمره سبعَ عشرةَ سنة.

قالتْ عائشةُ بنتُ سعد: سمعتُ أبي يقول: أسلمتُ وأنا ابنُ سبعَ عشرةَ سنة(١).

وما إنْ سمعَ سعدٌ رضي الله عنه الدعوةَ حتى سارعَ بالدخولِ في الإسلام.

وقد أخبرَ سعدٌ بذلك، متحدِّثاً بنعمةِ الله وفضلِه عليه.

روى البخاريُّ عن عامرِ بن سعد، عن أبيه رضي الله عنه، قال: لقد رأيتني وأنا ثلثُ الإسلام(٢).

يحدُ سعدٌ بأنه ثالثُ مَنْ أسلم، وأنّه لم يسبقه إلى الإسلام إلاّ اثنان.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ١٠٣.

(٢) البخاري (٦٢) كتاب فضائل الصحابة، (١٥) باب مناقب سعد بن أبي وقاص، حديث رقم: ٣٧٢٦.

وأخبرَ سعيدَ بنَ المسيب بأنه بقي ثالثَ مَنْ أسلم لمدةِ سبعةِ أيام:

روى البخاريُّ عن هاشمِ بن هاشمِ بن عتبة بن أبي وقاص قال: سمعتُ سعيدَ بن المسيِّب يقول: سمعتُ سعدَ بنَ أبي وقاص يقول: ما أسلمَ أحدٌ إلا في اليوم الذي أسلمتُ فيه، ولقد مكثتُ سبعةَ أيامٍ وإني لثُلُثُ الإسلام»[1].

متى كان إسلام سعد؟

هل كان سعدٌ هو الثالثَ في الإسلام؟ ومَنْ هما الشخصان اللّذان أسلما قبله؟

من المعلومِ أنَّ أولَ مَنْ أسلمَ خديجةُ بنتُ خويلد رضي الله عنها، ثم عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم زيدُ بن حارثة رضي الله عنه، وهؤلاء الثلاثة كانوا أقربَ الناسِ إلى رسولِ الله ﷺ، خديجةُ زوجُه، وزيدٌ خادمُه، وعليٌّ ابنُ عمِّه وكان مقيماً عنده، ومن الطبيعي أن يوجِّهَ الرسولُ ﷺ الدعوةَ إلى أقربِ الناسِ إليه.

وبعدما أسلمَ أفرادُ أُسرتِه توجَّهَ الرسولُ ﷺ بالدعوةِ إلى خارج بيته، فدعا أقربَ أصدقائه إليه، وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وسارعَ بتلبيةِ الدعوة والدخولِ في الإسلام، فالصّدّيقُ هو الرابع.

وفي نفسِ اليومِ الذي أسلمَ فيه قامَ أبو بكر بدعوةِ مجموعةٍ من الشباب المتقاربين في أعمارهم، فأسلموا جميعاً في يومٍ واحد. وهم: الزبيرُ بن

---

(١) البخاري، نفس الكتاب والباب السابق، حديث رقم: ٣٧٢٧.

العوّام، وطلحـةُ بن عبيد الله، وسعدُ بن أبي وقـاص، وعثمان بنُ عفـان، وعبدُ الرحمن بن عوف، رضي الله عنهم.

هؤلاء الأربعةُ هم الدفعة الأُولى من السابقين للإسلام.

ثم دعا أبو بكـر رضي الله عنه مجموعـةً أخرى من أصحابِـه وأصدقائـه، فلبّوا الدعوةَ وأسلموا على يديه، وكانوا الدفعةَ الثانيـة، وهـم: أبو عبيدة بنُ الجراح، وأبو سلمةَ بنُ عبد الأسد المخزومي، والأرقمُ بن أبي الأرقم، وعثمان ابن مظعون، وأخواه قدامةُ وعبدُ الله، وعبيدةُ بن الحارث، وسعيد بن زيد... رضي الله عنهم[1].

قول سعد: كنت ثلث الإسلام:

إذن سبق سعداً إلى الإسلامِ أربعة، فكيف أخبرَ أنّه ثالثُ مَنْ أسلم؟

قالَ ابنُ كثير في توجيه هذا: «أما قولـه: ما أسـلمَ أحدٌ في اليومِ الذي أسلمتُ فيه، فسهل. ويُروى عنه قولُه: ما أسلمَ أحدٌ إلاّ في اليوم الذي أسلمتُ فيه! وهو مشكل.

لأنه يقتضي أنه لم يسـبقْهُ أحدٌ بالإسلام! وقد عُلِمَ أنَّ الصدّيقَ وعليـاً وخديجة وزيد بن حارثة أسلموا قبله. كما قد حكى الإجماع على تقدُّمِ إسلامِ هؤلاءِ غيرُ واحد، منهم ابنُ الأثير..

---

(١) انظر ترتيب ابن إسحاق لأسماء السابقين إلى الإسلام، في سيرة ابن هشام: ١/ ٢٥٧ ـ ٢٧٠.

وأما قولُـه: ولقد مكثتُ سبعةَ أيام وإني لثُلُثُ الإسلام، فمشكل. ولا أدري على مـاذا يوضَعُ عليه، إلاَّ أنْ يكـونَ أخبرَ بحسـبِ ما علمه.. واللهُ أعلم..»[1].

إنَّ سعداً رضي الله عنه يَنفي أنْ يكونَ أسلمَ أحدٌ قبلَ اليومِ الذي أسلم فيه، وذلك في قوله: «ما أسلمَ أحدٌ إلا في اليوم الذي أسلمتُ فيه». وهو الثالثُ فيمن أسلموا في ذلك اليوم.

ووجَّهَ ابنُ كثيرٍ قولَه بأنَّه قالَهُ حسبَ علمِه، لأنَّ الدعوةَ كانتْ سريةً في بدايتها، فلم يكنْ أحدٌ ممن أسلم يعلمُ بإسلام غيره! واستمرّت الدعوةُ سريةً ثلاث سنوات.

سعد ضمن الدفعة الأولى:

ولا أرى في قولِ سعدٍ رضي الله عنه خطأً، فقد سبقَ أنْ ذكرْنا أنَّ سعداً كان ضمنَ الدفعةِ الأولى من السابقين للإسلام، وهم خمسةُ رجال: طلحة، والزبير، وسعد، وعثمان، وابن عوف، رضي الله عنهم.

وقد أسلمَ هؤلاءُ الخمسةُ في وقتٍ ويومٍ واحدٍ، على يدِ أبي بكر رضي الله عنه، في أيام الإسلام الأُولى، ولم يُسلِمْ أحدٌ من خارجِ بيت النبيّ ﷺ وبعدَ أبي بكر غيرُهم، ولذلك حصرَ سعدٌ إسلامَ إخوانِه الأربعة بإسلامه!

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ٣/ ٣٢.

ولعلَّ اعتبارَه نفسَـهُ ثلثَ الإسلام، وثالثَ مَنْ أسلموا، لأنه جاءَ بعدَ رسولِ الله ﷺ وأبي بكر الصديق رضي الله عنه! ولعلَّه يومَ إسلامِه لم يكن قد علمَ بإسلام خديجة وعلي وزيد رضي الله عنهم، أو لعلَّه أرادَ المسلمين خارجَ بيتِ رسولِ الله ﷺ، ولاشكَّ أنه الثالثُ بهذا الاعتبار!

وما أحسنَ ما قالَ ابنُ إسحاق في دعوةِ أبي بكر وإسلامِ مَنْ أسلموا على يديه: «فلما أسلمَ أبو بكر رضي الله عنه، أظهرَ إسلامَه، ودعا إلى اللهِ وإلى رسولِه ﷺ. . وكانَ أبو بكر مُؤَلَّفاً لقومه، مُحَبَّباً سَهْلاً، وكان أنسبَ قريشٍ لقريش، وأعلمَ قريشٍ بها، وبما كانَ فيها من خيرٍ وشر، وكانَ رجلاً تاجراً ذا خُلُقٍ ومعروف، وكان رجالُ قومِه يأتونَه لعلمِه وتجارتِه وحسنِ مجالستِه.

فجعلَ يدعو إلى الله وإلى الإسلام مَنْ وثقَ به من قومه، ممَّنْ يَغْشـاهُ ويجلسُ إليه.

فأسلمَ على يديه ـ فيما بَلَغني ـ عثمانُ بن عفان، والزبيرُ بن العوام، وعبدُ الرحمن بن عوف، وسعدُ بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله. .

فجاءَ بهم إلى رسولِ الله ﷺ حين استجابوا له، فأسلموا وصَلّوا. . فكانَ هؤلاءِ النفرُ الثمانيةُ هم الذين سَبقوا الناسَ بالإسلام. . »[١].

والثمانيةُ هم هؤلاء الخمسة، وأبو بكر وزيدٌ وعلي، رضي الله عنهم، فهؤلاء الرجالُ الثمانية هم السابقون إلى الإسلام.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٢٦٦ ـ ٢٦٨ باختصار.

والخلاصةُ أنَّ سعداً رضي الله عنه كان من السابقين للإسلام، أسلمَ منذُ الأيام الأُولى للدعوة، وهو واحدٌ من الدفعةِ الأولى المكونةِ من خمسةِ أفراد، أسلموا على يدِ أبي بكر، وكانوا من خارج بيتِ النبيِّ ﷺ.

أسماء الخمسين السابقين للإسلام:

وقد ذكر الإمام المؤرخ الذهبيُّ في (سيرِ أعلامِ النبلاء) الخمسين السابقين إلى الإسلام، ونقدمُ أسماءَهم للفائدة.

هم: خديجةُ بنت خويلد، وعليُّ بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، وزيدُ بن حارثة، وعثمانُ بن عفان، وسعدُ بن أبي وقاص، وطلحةُ بن عبيد الله، وعبدُ الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وأسماءُ بنتُ أبي بكر، وعثمانُ بن مظعون، وعبيدةُ بن الحارث، وسعيدُ بن زيد، والأرقم بن أبي الأرقم، وخَبَّابُ بنُ الأرتِّ، وعميرُ بن أبي وقاص، وعبدُ الله بن مسعود، ومسعود بن ربيعة القاري، وسَليطُ بن عمرو العامري، وعَيَّاشُ بن أبي ربيعة، وامرأتُه أسماءُ بنتُ سلامة، وخُنَيْسُ بنُ حذافة السهمي، وعامرُ بن ربيعة العنزي، وعبدُ الله بن جحش، وجعفرُ بن أبي طالب، وامرأتُه أسماءُ بنتُ عميس، وحاطبُ بن الحارث الجمحي، وامرأتُه فاطمةَ بنت المجلل، وأخوهُ خَطَّاب بن الحارث، وامرأتُه فَكيهةُ بنتُ يسار، وأخوه معمرُ بن الحارث، والسائبُ بنُ عثمان بن مظعون، والمطَّلبُ بن أزهر، وامرأتُه رملةُ بنت أبي عوف، والنّحامُ نعيمُ بن عبد الله، وعامرُ بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق، وخالدُ بن سعيد بن العاص، وامرأتُه أميمةُ بنتُ خلف، وحاطبُ بن عمرو العامري، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وواقدُ بن عبد الله، وخالدُ بن

البُكَيْر الليثي، وإخوته: عامر، وعاقل، وإياس، وعمارُ بن ياسر، وصهيبُ بن سنان الرومي، وأبو ذر الغفاري، وعمرُو بن عبسة السُّلَمي. رضي الله عنهم أجمعين.

ثم أسلمَ بعدَ هؤلاءِ الخمسين حمزةُ بن عبد المطلب، وعمرُ بن الخطاب، رضي الله عنهما، فأعـزَّ اللهُ بهما الإسـلام والمسـلمين، وصارت الدعـوةُ جهرية[1].

العشرة المبشرون بالجنة:

وبما أنّ سعداً كان من الثمانيةِ الأوائلِ السابقين إلى الإسلام، فقد كان من السابقين العشرة، الذين بشَّرهم رسولُ الله ﷺ بالجنّة.

والعشـرةُ المبشَّرون بالجنّة هم: أبـو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسـعد، وسـعيد بن زيد، وطلحـة، والزبير، وأبو عبيـدة بن الجـراح، وعبدُ الرحمن بن عوف. رضي الله عنهم.

روى أبو داود عن سعيدِ بن زيد رضي الله عنه قال: أشهدُ على رسول الله ﷺ أني سمعتُه وهو يقول: «عشرةٌ في الجنة: النبيُّ ﷺ في الجنة، وأبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعليٌّ في الجنة، وطلحةُ في الجنة، والزبيرُ بن العوام في الجنة، وسعدُ بن مالك في الجنة، وعبدُ الرحمن بن عوف في الجنة».

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي: ١/ ١٤٤ ـ ١٤٥.

ولو شئتُ لسمّيتُ العاشر. فقالوا: مَنْ هو؟ فسكت. فقالوا: مَنْ هو؟ فقال: هو سعيد بن زيد»[1].

وفي لفظٍ آخر لأبي داود أنَّ سعيدَ بن زيد رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ وهو على حِراء: أُثبتْ حِراء، إنّه ليس عليك إلاّ نبيٌّ أو صدّيق أو شهيد.

فسأله الراوي عنه ـ عبدُ الله بن ظالم المازني ـ مَنْ التسعة؟ قال: رسولُ الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف.

قلت: ومن العاشر؟ فتلكّأ هُنَيَّة، ثم قال: أنا..»[2].

ولم يذكُرْ سعيدُ بن زيد في الحديث السابق أبا عبيدة رضي الله عنه ضمن العشرة، لأنه ذكر مكانه رسولَ الله ﷺ، ومعلومٌ أنَّ رسولَ الله ﷺ في الجنة قطعاً، فلا داعي لأنْ يكونَ ضمن العشرة، والعاشرُ أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه.

(٢) سعد أوَّل من أراق دماء المشركين

بما أنَّ سعداً رضي الله عنه كانَ من السابقين للإسلام، فقد استوعبَ الإسلامَ منذُ أيامه الأُولى، سواء الآيات والسور النازلة، أو الأحكام التشريعية.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٤) كتاب السنة، (٩) باب فضائل الصحابة، حديث رقم: ٤٦٤٩.

(٢) سنن أبي داود. نفس الكتاب والباب السابق، حديث رقم: ٤٦٤٨.

روى ابنُ سعدٍ في (الطبقات) عن سعدٍ رضي الله عنه قال: «لقد أسلمتُ يومَ أسلمتُ، وما فرضَ اللهُ الصلوات»[1].

ومن المعلوم أنَّ اللهَ فرضَ الصلاة منذُ أيامِ الإسلام الأولى، وكانت ركعتين في الصباح، وركعتين في المساء، وفُرضت الصلوات الخمسُ بعد ذلك في ليلة المعراج!

فسعدٌ رضي الله عنه أسلمَ قبلَ فرضِ الصلوات، وبذلك تفاعلَ مع الصلواتِ منذُ بداية فرضها.

أولية جهادية لسعد:

ولما كانت الدعوةُ الإسلاميةُ سريّةً في سنواتِها الثلاثِ الأُولى، كانت حركةُ سعد سرية، وهذا يتطلّبُ منه مزيداً من الحذرِ والفطنة، حتى لا يَكشفَ المشركون الأمر. وقد تحقَّقَت للصحابةِ السابقين في هذه المرحلة درجةٌ عاليةٌ من الحذر والفطنة في الحركة والدعوة.

وقد سجَّل الرواة (أولية جهادية) لسعد رضي الله عنه في مرحلة (العهد المكي) وهي اشتباكه مع مجموعة من المشركين، وسفكه دم أحدهم!

فقد كان المسلمونَ في مرحلةِ الدعوةِ السرية يستَخْفون بدينهم، ولا يُظهرون إسلامهم ولا عباداتهم، لئلا يعرفَ المشركون الأمر! وكانوا يخرجون من مكـةَ بحذرٍ وسـرية، ويتوجَّهـون إلى الشِّـعابِ التي حولَها، ليعبدوا الله،

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ١٠٣.

أو يتعلّموا من رسول الله ﷺ.

وفي مرةٍ من مراتِ خروجِهم كشفَ المشركون الأمر، حيثُ رأوا المسلمين في شِعْبٍ من تلك الشِّعاب، وهم يصلّون مع رسول الله ﷺ!

قالَ ابنُ إسحاق: «كانَ أصحابُ رسولِ الله ﷺ إذا صَلّوا ذهبوا في الشِّعاب، فاستَخْفوا بصلاتِهم من قومِهم! فبينما سعدُ بن أبي وقاص في نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ في شِعبٍ من شِعابِ مكة، إذ ظهرَ عليهم نفرٌ من المشركين وهم يصلّون!

فناكروهم، وعابوا عليهم ما يَصنعون، حتى قاتلوهم! فضربَ سعدُ بنُ أبي وقاص يومئذٍ رجلاً من المشركين بلَحْيِ بعير، فشَجَّه! فكانَ أولَ دمٍ أُريقَ في الإسلام»[1]!

سعد يضرب المشرك:

فوجئ المسلمون بالمشركين أمامهم، ورؤيتِهم لهم وهم يصلّون، كما فوجئ المشركون بذلك، فأنكروا على المسلمين صلاتَهم وإسلامَهم، وعابوا عليهم فعْلَهم، لأنهم فارقوا دين آبائهم.

وتطوَّرَ الكلامُ بينهما إلى مقاتلةٍ واشتباك، ولم يكنْ مع المسلمين سلاحٌ من سهام أو قسيّ، أو نبال، لأنهم خرجوا مستَخْفين للصلاة، وكانوا مأمورين بالصبر، وكفِّ أيديهم عن القتال.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٢٨١ ـ ٢٨٢.

وبحثَ سعدٌ عن شيءٍ حولَه، يضربُ به المشركين، فوجدَ (لَحْيَ) بعير ـ واللَّحْيُ هو عظم الفك ـ فتناوَلَه وضربَ به رجلاً من المشركين، فجرحَه وأسالَ دمَه.

وبذلك كان سعدٌ أولَ مَنْ أراقَ دماً لكافرٍ في الإسلام، لأنه أولُ مسلمٍ يشتبكُ مع كافرٍ في سبيل الله، وأولُ مسلمٍ يجرحُ كافراً في سبيل الله!

وكان عمرُ سعد أقلَّ من عشرين سنة، أي كان شاباً كلُّه حيويةٌ وهمّةٌ واندفاع.

طبيعة سعد الجهادية:

وهذا الموقف الذي وقفه، والفعلُ الذي صدرَ عنه، يدلُّ على طبيعتِه الجهادية وشخصيتِه الجريئة، وهي التي طبعَتْ حياتَه بطابعها، وتمثّلَتْ في تصرفاتِه فيما بعد.

لقد كانت مجموعةٌ من الصحابةِ يصلّون في ذلك الشِّعب، وكلُّهم شباب جادّون مندفعون، عندهم غيرةٌ على الإسلام، لكنْ أنْ يتفرّد سعدٌ من بينهم بالاشتباك مع الكفار، وضرْبِ أحدهم بلحي البعير، فهذه مزيةٌ ومنقبةٌ لسعد.

وهذه أوَّلُ (أوَّلية) من أوَّلياتِه رضي الله عنه، فهو أوَّلُ مَنْ أراقَ دم كافرٍ في سبيلِ الله، وهو الذي فتحَ البابَ لإراقةِ دماءِ الكافرين، عن طريق الجهاد في سبيل الله، وكم أراقَ سعدٌ وإخوانُه المجاهدون من دماء الكافرين بعد ذلك.

يكفي سعداً فضلاً ومنقبةً هذه الأوليةُ الجهادية، التي كشفتْ عن تعمّقِ الجذرِ الجهاديّ في شخصيتِه الإسلامية المجاهدة، رضي الله عنه!

(٣) موقف سعد من أمه الكافرة

لسعدٍ موقف إيماني عظيم، وقفه من أمه الكافرة، عندما ضغطَتْ عليه، وجاهدَتْه ليرجعَ عن إسلامه، فثبتَ على الحقّ.

وأمُّه هي (حمنةُ بنتُ سفيان بن أمية) بنتُ عمٍّ أبي سفيان زعيم مكة، كما سبقَ أنْ ذكَرْنا! وكانت معاديةً للإسلام، شديدةَ الكراهيةِ لرسول الله ﷺ، وفوجئَتْ بإسلامِ ثلاثةٍ من أولادِها: سعد وعامر وعمير، أما ابنها عتبة فقد كان مثلها كارهاً للإسلام محارباً للمسلمين.

نزول آية في موقفه من أمه:

أخبرَ سعدٌ عن ما جرى بينه وبين أمه، ونزول آيات قرآنيةٍ تتحدَّثُ عن ذلك.

روى مسلمٌ عن مصعبِ بنِ سعد، عن أبيه رضي الله عنه، أنه نزلتْ فيه آياتٌ من القرآن.

قال: حلفَتْ أُمُّ سعدٍ أنْ لا تكلِّمَه أبداً حتى يكفرَ بدينه، أو لا تأكلَ ولا تشرب! وقالتْ له: زعمتَ أنَّ اللهَ أوصاكَ بوالدَيْك، وأنا أُمُّكَ، وأنا آمرُكَ بهذا! ومكثَتْ ثلاثاً، حتى غُشيَ عليها من الجَهد.

فقامَ ابنٌ لها يُقالُ له (عُمارة) فسقاها، فجعلَتْ تدعو على سعد.. فأنزلَ اللهُ هذه الآية: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ [لقمان: ١٥][1].

---

(١) مسلم (٤٤) كتاب فضائل الصحابة، (٥) باب فضائل سعد بن أبي وقاص، =

وفي روايـةٍ أُخرى عند أحمد في (المسـند) عن مصعبِ بنِ سعدٍ عن أبيه رضي الله عنه قال: قالَتْ أُمي: أليسَ اللهُ يأمرُكَ بصلةِ الرحمِ وبرِّ الـوالدين؟ واللهِ لا آكُلُ طعاماً، ولا أشربُ شراباً، حتى تكفرَ بمحمدٍ ـ ﷺ ـ!

فكانتْ لا تأكلُ حتى يَشْجروا فَمَها بعصا، فيصبُّون فيه الشرابَ والطعام! فأنزلَ اللهُ قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان: ١٤ ـ ١٥](١).

رواية الذهبي للحادثة:

روى الإمام الذهبيُّ حادثةَ سعدٍ مع أمه في (سير أعلام النبلاء) عن أبي عثمان النهدي قال: قالَ سعدُ بن أبي وقاص: ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ [لقمان: ١٥] نزلَتْ هذه الآيةُ فيَّ.

كنتُ بَرّاً بأُمي، فلما أَسلمْتُ قالَتْ: يا سعدُ: ما هذا الدينُ الذي قد أحدثْتَ؟ لَتَدَعَنَّ دينَك هذا، أو لا آكلُ ولا أشربُ حتى أموت، فتعيَّرُ بي فيقال: يا قاتلَ أُمِّه!

= حديث رقم: ١٧٤٨.

(١) مسند أحمد بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط، رقم: ١٥٦٧، وقال الشيخ شعيب: سنده حسن.

قلْتُ: لا تفعلي يا أمّه، إني لا أدَعُ ديني هذا الشيء.

فمكثَتْ يوماً وليلةً لا تأكلُ ولا تشربُ، وأصبَحَتْ وقد جُهِدَتْ! فلما رأيتُ ذلك قلتُ: يا أُمّه: تعلمين واللهِ لو كان لك مئةُ نَفْس، فخرجَتْ نَفْساً نَفْساً، ما تركتُ ديني! إن شئتِ فكُلي، أو لا تأكُلي!

فلما رأتْ ذلك أكلتْ..»[1].

رواية ابن سعد للحادثة:

وهناك روايةٌ رابعةٌ لحادثةِ سعدٍ مع أُمّه، رواها ابنُ سعد في (الطبقات)، فيها بعضُ الإضافات:

روى ابنُ سعد عن عامرِ بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، رضي الله عنه قال: جئتُ من الرَّمْي، فإذا الناس مجتمعون على أمي حمنةَ بنتِ سفيان، وعلى أخي عامر حين أسلم.

فقلتُ: ما شأْنُ الناس؟

قالوا: هذه أُمُّك، قد أخذَتْ أَخاكَ عامراً، تُعطي الله عهداً، أنْ لا يظلّها ظلّ، ولا تأكلَ طعاماً، ولا تشربَ شراباً، حتى يَدَعَ الصَّباوة!

فأقبلَ سعدٌ حتى وصَلَ إلى أُمّه، فقال: احْلِفي يا أُمي عليَّ أنا!

قالت: لماذا؟

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي: ١/ ١٠٩ ـ ١١٠.

قـال: حتى تبقي، لا تسـتظلّي في ظِلّ، ولا تأكلي طعامـاً، ولا تَشربي شراباً، حتى تريْ مقعدَكِ من النار!!

قالت: إنما أحلفُ على ابني البَرّ!»[1].

أمه تضغط عليه ليرتد:

أخبرَ سـعدٌ رضي الله عنه ابنيْه عامراً ومصعباً وأبا عثمان النَّهدي بما جرى بينه وبين أُمّهِ بعدَ إسلامِه هو وأخويْه عامر وعمير.

فقد بدأَتْ أُمُّه به لتردَّه عن إسلامِه، لأنَّه كان الأسبقَ إلى الإسلام، ولأنه كان بارّاً بها، حريصاً على طاعتِها ومرضاتِها!

خاطبتْه بالخطابِ العاطفيِّ لتثنيه عن موقفه، وقالت له: ما هذا الدينُ الذي دخلْتَ فيه؟ وما هذا الحَدَثُ الذي أَحدثْتَه؟

أليسَ اللهُ يأمرُكَ بصلةِ الرحم؟ وأنا أُمُّك رحمُك! أليس يأْمركَ اللهُ ببرِّ الوالدين؟ وأنا أُمُّك وآمرُك، ويجبُ أن تطيعَني وتنفّذَ أمري. اتركْ هذا الدينَ الذي دخلْتَ فيه، وعُدْ إلى دينِ آبائك وأجدادِك!!

أمه تُضرب عن الطعام:

ولما لم ينفّذ أمرها ولم يستجبْ لها، صَعَّدَت ضغطَها عليه، ومجاهدتَها له، فحلَفَتْ أن لا تأكلَ ولا تشربَ حتى يتخلّى عن دينه، وأضربتْ عن الطعام

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٤/ ٩٢.

والشراب، ليتأثَّرَ ابنُها بها، ويرقَّ قلبُه لها، فيتخلَّى عن دينه ويرضيها! ولعلَّها أولَ من استخدمَ سلاحَ (الإضراب) عن الطعامِ والشراب، لتحقيقِ غايةٍ لها، هذا السلاحُ الذي كَثُرَ استخدامُه في هذا الزمان، حيثُ يُضربُ كثيرون عن الطعامِ والشراب، لتحقيقِ غاياتٍ سياسية أو اقتصادية أو أمنية أو غير ذلك.

ومضى يومٌ، ويومان، وثلاثة، وأُمّه لا تأكلُ ولا تشرب، حتى أصابَها الإجهادُ والإعياءُ والتعب، وكادَ يُغمى عليها.

وفكَّرَ سعدٌ البارُّ بأمّه، ماذا يفعل؟ إنّها أُمُّه وهو بارٌّ بها ويعطفُ عليها، ويتألَّم وهو يراها تُعاني الجوعَ والعطشَ والتعب، ولكنْ ماذا يفعل؟ إنها تطلبُ منه المستحيل! كيف يتخلَّى عن الإسلام؟ إذنْ فلْتُضرِبْ كما تشاء، وهو لن يرجعَ عن دينه.

أشـفق عليها أقاربُها، وخشَـوْا عليها الهلاك، فصاروا يفتَحـون فمَها بالعصا، ويصبّون فيه الطعامَ والشراب رغماً عنها لئلا تهلك!

واستمرّتْ أُمُّهُ في تصعيدِ ضغطها عليه ومجاهدتِها له، فأقسمتْ له أنّها لن تذوقَ طعاماً، ولن تشربَ شراباً، حتى تموت، وبذلك يعرفُ الناسُ أنَّ سعداً هو السببُ في موتِها، وسيعيّرُونَه بعد موتها، وسيقولون له: أنتَ الذي قتلْتَ أُمَّك!! وهذا تعييرٌ كبيرٌ في عرفِ ذلك المجتمعِ الجاهلي!

سعد يصارح أمه بثباته:

ولكنَّ سعداً لم يستجب لضغطِها، لأنَّ دينَه أَعَزُّ عليه منها، وأفهمَها ذلك بأَنْ قال لها: لا تفعلي ذلك يا أمي، ولا تُضرِبي عن الطعام، لأنّي لَنْ أدعَ ديني هذا

لشيءٍ مهما كان، حتى لو كنتِ أنتِ في خطر، وأنتِ عزيزةٌ عليّ، ولكنّ ديني أعزُّ عليَّ منكِ!!

ولكنّها لم تسْمَع كلامَه، واستمرَّتْ في إضرابِها، رغبةً في استجابته لها، حتى أُجهدَتْ، وأُصيبَتْ بالإعياء!

أرادَ سعدٌ أنْ تيأسَ منه، وأنْ يقطعَ أملها في إمكانيةِ تركِه لدينه، فخاطبها بلغـةٍ محدَّدةٍ واضحةٍ فصيحـةٍ عنيفة، ولعلَّها أولُ مـرةٍ يخاطبُها بهذه الحِدَّة والعنف، وذلك لتكونَ على بيّنة، قال لها: تعلمينَ يا أُمي أنّه لو كان لكِ مئةُ نَفْسٍ، فخرَجَتْ نفساً نفساً، ما تركتُ ديني! فإنْ شئتِ أنْ تأكلي فكلي، وإلا فلا تأكلي! فأنتِ التي تخسرين إن لم تأكلي، حتى لو فقدتِ حياتك!!

عند ذلك فقدَتْ أمُّه أملَها فيه، وعرفَتْ أيَّ نوعٍ هو من الرجال، وأنَّه رغمَ برِّه بأُمِّه وعطفِه عليها إلاّ أنَّ دينَه أعزُّ وأغلى عليه منهاً، فتوقَّفَتْ عن الإضرابِ، وعادَتْ إلى طعامِها وشرابها.

ولعلَّها بعدما فقدتْ أملَها فيه توجَّهَتْ نحـو أخيه عامر لتضغطَ عليـه بالأسلوب نفسه: الإضرابِ عن الطعام والشراب، وتهديدِه بأنها ستموتُ إنْ لم يتركْ دينَه، وهو المسؤولُ عن موتها، وكأنه هو الذي قتلَها!

ونَفَّذَتْ إضرابَها وتهديدَها، ووقفَتْ في حرِّ مكةَ اللاهب، وحلفَتْ لابنها عامر أنها لن تذوقَ طعاماً، ولن تشربَ شراباً، ولن تستظلَّ بظلٍّ من حرِّ الشمس، حتى يتركَ الإسلام، ويعودَ إلى دينِ آبائِه وأجداده!

ووقفتْ في الطريقِ منفِّذَةً تهديدَها، وتجمَّعَ حولَها الناس، وعرفوا القصّة، وعجبوا من موقفِها!

سعد يتحدّى أمه:

وكان سـعدٌ خارجَ مكّة، يرمي نبالَه كعادته، وفوجيءَ بالناس متجمعين في الطريق، فسأل عن السبب، ولما عرفَ ما فعلَتْهُ أُمه تعجَّبَ منها، فلماذا هي مصرّةٌ على موقفِها في الضغطِ عليه وعلى أخيه؟ ولماذا توجَّهَتْ إلى أخيه بعدما يئستْ منه!

وأرادَ أنْ يُؤيسها من أخيه أيضاً، فتوجَّه إليها، وقال لها: لا تحلفي يا أُمي على أخي، واحلفي عليّ أنا!

فاستغربَتْ من كلامِه، وسألَتْه مستوضِحةً: لماذا أحلفُ عليكَ أنت؟

أجابها بكلِّ سـخريةٍ: احلفي عليَّ، حتى لا تستظلّي بظلّ، ولا تأكلي طعاماً، ولا تشربي شراباً، وبذلك يُسرعُ إليك الموت، وتموتين سريعاً، فترَيْنَ مقعدَكِ من النار.

ولم تُفاجأ الأمُّ بكلامِه، لأنّها عرَفَتْ موقفَه الثابتَ على دينه، وهي يائسةٌ منه، ولذلك ما زادَتْ على أنْ قالَتْ له: أنا لا أحلفُ عليك، لأنّك عاقّ، وإنّما أحلفُ على ابني البارّ بي.

ولكنَّ عامراً ثبتَ على الإسلام كأخيه سعد، وبذلك فشلَ ضغطُ أُمِّهِما عليهما، وتحطَّمَتْ كلُّ محاولاتِها على صخرةِ ثباتِهما على الحق!

القرآن وحدود بر الوالدين:

وأنزلَ اللهُ فيما جرى بين سعد رضي الله عنه وأُمّه قولَه: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ

ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤ ـ ١٥].

تبدأُ الآيتان بوصيةِ الإنسان بوالديه، وتخصُّ أُمَّه بالوصية، لأنّها حملَتْه وهناً على وهن، وبعدما وضعَتْهُ أرضعتْهُ عامين، وعليه أنْ يقابلَ آلامَها في الحملِ والوضعِ والرضاعِ بالإحسانِ والبرِّ والشكر.

لكن إذا كان الأبوان ـ أو أحدُهما ـ كافرين، وجاهدَ الابنَ على أنْ يكفرَ بالله، ويشركَ به غيرَه، وضَغطَ عليه ليتركَ دينه، فلا يجوزُ أنْ يُطيعَهما في هذا، لأنه لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالق.

وإذا كان مأموراً بمخالفتِهما عندما يطلبان ـ أو أحدهما ـ منه الكفر، فليس معنى هذا أنْ يُسيءَ إليهما، أو أَنْ يَهجرهما أو يقاطعَهما، وعليه أن يُصاحبَهُما في الدنيا معروفاً، وأنْ يُحسنَ صحبتَهما، وأن يكونَ بارّاً بهما، رغمَ كفرِهما! ويكفيه أنْ لا ينفذَ طلبَهما.

وهذا هو العدلُ الإسلاميُّ في هذا التوجيه، حيثُ جمعت الآيتان بين وجوبِ ثباتِ المسلم على الحق، وحرمةِ اتّباعِه للباطل، وبين وجوبِ برِّ الوالديْن، وإن كانا كافرين، فأمرت الابنَ المسلمَ بالبرِّ بالوالديْن الكافرين في كل شيء، إلا إذا أمراه بمعصية، فلا يُطيعُهما في هذا الأمر، ويطيعُهما فيما سواه!

وهذا إقرارٌ لسعدٍ على موقفِه من أُمه، فهي قد جاهدَتْه، وضغطَتْ عليه ليتخلّى عن الإسلام، وحلَفَتْ عليه، وأضربَتْ عن الطعامِ والشراب، وهو لم

يستجبْ لها، ولم يُطعْها، وخالفَها في طلبها، وآثرَ الإسلامَ عليها، لأنّها أَمرَتْه بالمعصية، وهو على صوابٍ فيما يفعل. وعليه أنْ يستمرَّ في مصاحبتِها في الدنيا معروفاً، وفي البرِّ بها، وإحسانِ التعاملِ معها، إلاَّ إذا أمرتْه بالمخالفةِ لأمرِ الله!

وتلقَّى سعدٌ التوجيهَ القرآنيَّ بالتنفيذ، واستمرَّ يُحسنُ التعاملَ مع أُمِّه الكافرة، والبرّ بها، وطاعتِها في أوامرِها التي لا تخالِفُ شرعَ الله. لكنّها لم تقبَلْ ذلك منه، ولم ترْضَ عنه، لأنّه خالفَ دينَ آبائِه! ولا عليه، لأنه لم يُغضب اللهَ في فعله!

(٤) سعد يخبر عن معاناة المسلمين في مكة

واجهت الدعوةُ الإسلاميةُ في مكةَ شدّةً ومشقّة، وواجهها كفارُ قريش بكلِّ ما يملكون من قوة، وأُوذيَ المسلمون إيذاءً شديداً، وابتُلوا ابتلاءً كبيراً، وقدَّموا التضحياتِ، وعانوا من كلِّ ذلك ما عانوا.. ولكنهم صَبَروا واحتسبوا، ولم يُغيّروا أو يبدّلوا أو يتراجعوا، لأنّهم يعلمونَ أنَّ هذه طبيعةُ الدعوات، وأنَّ عليهم أنْ يتعاملوا معها بالصبرِ والجهاد والمجاهدةِ والثبات، وأذِنَ اللهُ بزوالِ تلك المحنةِ والشـدّةِ والمعاناة، بعدما هاجروا إلى المدينة، حيثُ أنعمَ عليهم بـالنصر والتمكين.

وبما أنَّ سعداً رضي الله عنه كان من السابقين إلى الإسلام، فقد عاشَ المحنةَ والشدةَ والمعاناةَ منذُ أيامِها الأُولى، وتعامَلَ مع كلِّ ما يمرُّ به من ذلك بالصبر والثبات، سواءٌ في محيطِه البيتي كما ظهرَ في مشكلتِه مع أُمه التي

تحدَّثْنا عنها، أو في محيطِه الاجتماعي في مكة، حيثُ إيذاءُ المشركين واضطهادُهم وتعذيبُهم للمسلمين.

سعد يسأل الرسول ﷺ عن الابتلاء:

وسعد الذي عاش تلك المحنةَ والمعاناةَ هو الذي روى حديثَ رسولِ الله ﷺ عن أشدِّ الناس بلاءً، لأنّه ينطبقُ عليه تماماً.

روى أحمدُ وغيرُه عن مصعب بن سعد، عن أبيه رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله: أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً؟

فقالَ ﷺ: «الأنبياءُ، ثم الصالحون، ثم الأَمْثَلُ فالأمثلُ من الناس، يُبتَلى الرجلُ على حسبِ دينِه، فإنْ كان في دينِه صلابة، زيدَ في بلائِه، وإنْ كانَ في دينِه رقّة، خُفِّفَ عنه.. وما يزالُ البلاءُ بالعبدِ حتى يمشيَ على ظهرِ الأرض، ليس عليه خطيئة..»[1].

يسألُ سعدٌ رسولَ الله ﷺ عن أشدِّ الناسِ بلاء، فيجيبُه الرسولُ ﷺ بأنَّ الشدةَ في البلاءِ مبنيةٌ على القوةِ والمتانةِ في الدين، فالأشدُّ بلاءً هم الأقوى إيماناً وتديّناً، ولهذا كان الأنبياءُ في الدرجةِ الأولى، ثم الصالحون بعدهم! ومن كان رقيقَ التديُّنِ ضعيفَ الإيمانِ خفَّفَ اللهُ عنه البلاء، لأنه لو ابتلاه اللهُ لما تحمَّلَ ذلك، وقد يتخلّى عن الدين!

---

(١) مسند أحمد بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط: ٣/٧٨، حديث رقم: ١٤٨١، وقال الشيخ شعيب: إنّ إسناده حسن.

والأمتنُ التزاماً، الثابتُ على الحق، الصابرُ على الابتلاء يزداد بذلك قرباً من الله، بحيثُ يمشي على الأرضي وليس عليه خطيئة.

وكان سعدٌ رضي الله عنه وإخوانُه السابقون إلى الإسلام من أشدِّ الناس بلاءً، وواجَهوا البلاءَ بالصبرِ والثبات، وكانوا في ذلك قدوةً لأهلِ البلاءِ والابتلاء من بعدِهم!

سعد يخبر عن طعامهم:

وقد أخبرَ سعد رضي الله عنه عن بعض ما كانَ المسلمون الأوائلُ يعانونَه من الشدةِ والمحنة، وما يمرّونَ به من البلاءِ والابتلاء.

روى البخاريُّ عن قيسِ بن أبي حازم، عن سعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: «رأيتُني سابعَ سبعةٍ مع النبيِّ ﷺ، ما لنا طَعامٌ إلا ورقُ الحُبْلَة، حتى يضعَ أحدُنا كما تضعُ الشاة...»[1].

هذه الحادثة كانت في أيامِ الدعوةِ الأولى، حيث كان المسلمون ما زالوا قلائل، فسعدٌ سابعُ سبعةٍ كانوا مع النبيِّ ﷺ.

ومن الشدةِ التي عانوها أنه لم يكن عندَهم طعامٌ يأكلونه، وكانوا يخرجون مع رسولِ الله ﷺ خارجَ مكة، مُسْتَخْفين بدينهم، ليعبدوا اللهَ في شِعابِ مكة، بعيدين عن عيون قريش.

---

(١) البخاري (٧٠) كتاب الأطعمة، (٢٣) باب ما كان النبيُّ ﷺ وأصحابه يأكلون، حديث رقم: ٥٤١٢.

ماذا كانـوا يأكلون في تلك الشِّـعاب؟ لم يجدوا إلا ورقَ (الحُبْلَـةِ)، والحُبْلَةُ شجرٌ صحراويٌّ قصير، له شوك، وأوراقُه صغيرة.

فكان الصحابةُ في تلك الشعاب يتناولون تلك الأوراقَ الصغيرة من شدةِ الجوع، وهي غيرُ صالحةٍ للأكل، لأنّها طعامٌ للأنعامِ والماشية، لكن ماذا يفعلون!

وذكرَ سعدٌ أنَّ فضلاتِ الطعام كانت تخرجُ جافّة، بسبب ذلك الورقِ الصحراوي، فكان أحدُهم يضعُ كما تضعُ الشاة، يشبهُ بَعْرَ الغنم في يُبْسِـه وجفافِه.

الشدة في مكة وفي المدينة:

وفي روايـةٍ أخرى عند البخاريِّ ومسـلم عن قيسِ بن أبي حازم قال: سمعتُ سعدَ بنَ أبي وقاص رضي الله عنه يقول: «ولقد كنّا نغزو مع رسولِ اللهِ ﷺ ما لنا طَعامٌ نأكُلُه إلاّ ورقُ الحُبْلَة، وهذا السَّمُر، حتى إنَّ أحدَنا ليضعُ كما تضعُ الشاة..»[1].

يقرر سعدٌ رضي الله عنه في هذه الروايةِ الثانية أنَّ الشدةَ والمعاناةَ لم تكن خاصةً في الفترةِ المكية، وإنما استمرَّت في العهدِ المدني، فكم جاعَ الصحابةُ

---

(١) البخاري (٨١) كتاب الرقاق، (١٧) باب كيف كان عيش النبيّ وأصحابه، حديث رقم: ٦٤٥٣؛ ومسلم (٥٣) كتاب الزهد والرقائق، (١) باب الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر، حديث رقم: ٢٩٦٦.

في المدينة، وكم جاءوا عندما كانوا يخرجون للغزوِ والجهادِ في سبيل الله، سواءٌ مع رسولِ الله ﷺ أو بدونه.

يقولُ سعد: «لقد كنَّا نغزو مع رسولِ الله ﷺ..» والغزو كان في المدينة.

مرّتْ على المسلمين فتراتٌ لم يجدوا فيها طَعاماً يأكلونه إلاّ ورقَ الشجرِ الصحراوي، وكان سعدٌ رضي الله عنه يعيشُ تلك الفترات، وهو شاهدٌ عليها، وأخبرَ جيلَ التابعين بها، ليعرفوا كم كانتْ معاناةُ الصحابة.

كانوا يأكلون ورقَ الحُبْلَة، وورَقَ السَّمُر، والسَّمُر شجرٌ صحراويٌّ قصير مثلُ الطلح، وورقُه صغيرٌ مثلُ الحُبْلَة.

ولْنتصورْ مدى الشدةِ والمعاناةِ التي عاشَها الصحابة، ومقدارَ الجوع الذي مَرُّوا به، وتغلَّبوا على تلك الفتراتِ الشديدةِ بالصبرِ والثبات، وكانوا سعداءَ رغم ما يعيشونه، لأنهم اهتدوا للحق، ولم تكن الدنيا وما فيها من طعامٍ وشرابٍ ولباس تساوي عندهم شيئاً.

وقد حاربَتْ قريشٌ المسلمين في مكةَ واضطهدَتْهم، وبلغَ من ذلك أنّها قاطَعَتْهم في شِعبِ أبي طالب، لمدةِ ثلاثِ سنوات، عانوا فيها ما عانوا من الجوع والحاجة.

سعد وقطعة الجلد في مكة:

وقد أخبرَ سعدٌ رضي الله عنه عن حادثةٍ عجيبةٍ حصلَتْ معه.

روى عنه أبو نعيم الأصبهانيُّ في (حليةِ الأولياء) قولَه: «كنا قوماً يُصيبُنا

شَظَفُ العيشِ وشدّتُه بمكة مع رسولِ الله ﷺ، فلما أصابَنا البلاءُ اعترفْنا لذلك، ومرنّا عليه، وصبرْنا له . . ولقد رأيتني مع رسولِ الله ﷺ بمكة، خرجتُ من الليلِ أبـول، وإذا أنا أسـمعُ قعقعةَ شيء تحت بولي، فإذا قطعةُ جلدِ بعير! فأخذْتُها، فغسلْتُها ثم أحرقتُها، فوضعْتُها بين حجريْن ثم استفَفْتُها، وشربتُ عليها من الماء، فقويتُ عليها ثلاثاً! !»[1].

إلى هذه الدرجـةِ من الجـوعِ والحاجـةِ وصلَتْ بهم حـالتُهم ومعاناتُهم، فقد خرجَ سعدٌ رضي الله عنه ليلة، واللهُ يعلم كم مضى عليه من الوقتِ دون أنْ يأكلَ طعاماً!

وقعدَ في الظلامِ يقضي حاجتَـه، فسمعَ قعقعةَ شيء تحت بولِه، لأنَّ البولَ نزلَ على شيءٍ صلب. فأخرجَ قعقعةً وصوتاً. ولما نظرَ إلى ذلك الشيء، إذا هو قطعـةُ جلدِ بعيرٍ يابسةٍ جافة، لا يعلمُ إلا الله كما مضى على إلقائها، فأخَذَها وغسلَها ثم أحرقَها، ودقَّها بين حجريْن، ثم استفّها وبلَعَها، ثم شربَ عليها الماء ليُسيغَها! واكتفى بها ثلاثةَ أيام، منحتْه شيئاً من الطاقة! !

إنَّ جلدَ البعير لا يصلحُ للأكلِ مطلقاً، فكيفَ يمكنُ أنْ يُؤكَل بعد مضيّ شهورٍ على ذبح البعير؟ ولكنَّ الحاجةَ ماسة إليها! تناولَها سعدٌ وغسلَها من آثارِ البول، وأحرقَها ليزيلَ وبر البعير الذي عليها، ودقَّها وأكلها!

ما أظنُّ الحيوانَ يقدرُ على أكلِ قطعةِ جلد بعيرٍ يابسة، ولكنَّ الجوعَ

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني: ١/ ٩٣.

الشديدَ دفعَ سعداً رضي الله عنه إلى تحمُّلِ مشقّةَ سَفِّها وبلْعِها، مع منزلتِه العالية عند الله!

الصحابة والتربية الجهادية:

شاءَ اللهُ الحكيم للصحابةِ السابقين إلى الإسلام أنْ يتربَّوا تربيةً خاصةً في بدايةِ الدعوة، فأخذَهم بالشدّة وشَظَفِ العيش وقلَّتِه وخشونتِه، وأوقعَ بهم الجوعَ والعطش والتعبَ والمعاناة، وابتلاهم ابتلاءً شديداً، واجَهوهُ بالصبرِ والثبات، وتجاوزوا تلك المحنةَ رجالاً ذوي طاقاتٍ وهمم وعزائم، فنصر الله بهم دينه، وفتح بهم الدنيا..

ركَّزَ سعدٌ رضي الله عنه على هذا البُعدِ التربويِّ ـ وهو المربّي الحكيمُ الناجح ـ وذلك في قوله: «كنَّا قوماً يصيبُنا شظفُ العيشِ وشدّتُه بمكة، مع رسول الله ﷺ، فلما أصابَنا البلاءُ اعترفْنا لذلك، ومرنّا عليه وصبرنا له...».

هكذا تنشأُ الدعوات، وهكذا يُربَّى الدعـاة، وعلى هذا رَبّى الرسولُ ﷺ أصحابَه، ومن هذه المدرسة التربويةِ تخرّجَ سعدٌ رضي الله عنه، فنجحَ في حياتِه الجهادية والإدارية والقيادية والدعوية.

بين عتبة بن غزوان وسعد:

ومما يؤكدُ خبرَ سـعدِ السابق ويشـهدُ له، ما قالَه الصحابيُّ المجاهدُ (عُتبَةُ بن غَزْوان) رضي الله عنه، وكان من السابقين للإسلام، وعلى صلةٍ وثيقةٍ بسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، واشتركَ معه في عدّة معارك، وكان أحدَ قادةِ الغزوِ والجهاد في العراق.

خطبَ عُتبَـةُ بن غزوان في البصرةِ يـوماً، فقارنَ بين حالتَيْن: حالـةِ الصحابةِ في العهدِ المكي، وما مَرُّوا به من معاناةٍ وشدةٍ وجوع، وحالتِهم بعد الجهاد والفتح، وما صاروا إليه من نعيمٍ ومال.

روى الإمامُ مسلمٌ عن خالدِ بن عميرِ العدوي، قال: خَطَبَنا عتبةُ بنُ غزوان، فحمدَ الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: فإنَّ الدنيا قد آذَنَتْ بِصُرْم، وَوَلَّتْ حَذّاء، ولم يبقَ منها إلا صُبابةٌ كَصُبابةِ الإناء، يتصابُّها صاحبُها، وإنّكم منتقلون منها إلى دارٍ لا زوالَ لها، فانتقِلوا بخيرِ ما بحضرتِكم، فإنّه قد ذُكِرَ لنا أن الحجرَ يُلقى من شفةِ جهنم، فيهوي فيها سبعين عاماً لا يدركُ لها قَعْراً، واللهِ لَتُمْلأَنَّ، أفعجبتُم؟ ولقد ذُكِرَ لنا أنَّ ما بين مصراعيْن من مصاريعِ الجنة مسيرةَ أربعين سنة، وليأتينَّ عليها يومٌ وهو كظيظٌ من الزحام!!

ولقد رأيتُني سابعَ سبعةٍ مع رسولِ الله ﷺ ما لنا طعامٌ إلاَّ ورقُ الشجر، حتى قرِحَتْ أشداقُنا! فالتقطتُ بُرْدَة، فشقَقْتُها بيني وبين سعد بن مالك، فاتزرتُ بنصفِها، واتزرَ سعدٌ بنصفِها! فما أصبحَ اليومَ منّا أحدٌ إلا أصبحَ أميراً على مصرٍ من الأمصار! وإني أعوذُ بالله أنْ أكونَ في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً.

وإنها لن تكونَ نبوّةٌ قطّ إلا تناسَخَتْ، حتى يكونَ آخرُ عاقبتِها مُلكاً، فَسَتَخْبَرون وتجرِّبون الأُمراءَ بعدنا..»[1].

---

(١) مسلم (٥٣) كتاب الزهد، (١) باب الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر، حديث رقم: ٢٩٦٧.

سجَّلنا ما أوردَهُ الإمامُ مسلمٌ من خطبةِ عُتْبَة رضي الله عنه كاملاً، لما فيه من إشاراتٍ ودلالاتٍ وحقائقَ عديدة، ليس هذا موضعَ الحديثِ عنها، ونقفُ عند المقطعِ الذي تحدَّث فيه عن معاناتِهم في مكة، وما جرى بينَه وبين سعدٍ رضي الله عنهما!

كان عُتبةُ رضي الله عنه سابعَ سبعةٍ من الصحابةِ، وكان سعدُ بن أبي وقاص ضمنَ أولئكَ السبعة، وكانوا يتحرّكون في شِعابِ مكة، فارّين من قريش، مستَخْفين بدينهم يتعلّمون في تلك الشِّعاب من رسولِ الله ﷺ.

ولم يكن معهم طعامٌ يأكلونه، فكانـوا يأكلونَ ورقَ الشـجرِ الصحراوي - الحُبْلَة والسَّمُر في رواية سعد - تَقَرَّحَتْ أشداقُهم وتشقَّقَتْ، ونزلَ منها الدم، وهم يمضَغون ذلك الورق القاسي الجاف.

عتبةُ يخبرُ أنَّ أكلَهم لورقِ الشجر الصحراوي قرَّحَ أشداقَهم، وسعدٌ يخبرُ أنَّ فضلاتِهم كانتْ كبعْرِ الغنم من جفافِه ويُبْسِه، بسبب الورقِ الذي مضغوه!

وكانت ملابسُهم في تلك الشدّة والمعاناة قليلةً زهيدة، فها هو عتبةُ يجدُ بُرْدَة، فيأخذُها ليلبسَها، ولكنَّه يتذكَّرُ أخاه سعداً، وحاجتَه إلى لبسِ الإزارِ وسترِ العورة، فيقسمُها قسمين، اتَّزَرَ هو بالقسمِ الأول، واتَّزَرَ أخوه سعدٌ بالقسم الثاني..

المشركون يطلبون طرد المستضعفين:

ومع ما لقي الســابقون الأوائلُ من معاناةٍ وشدّة، فقد كانوا ملازمين

لرسولِ الله ﷺ، يشاركونَه المعاناةَ والمحنة، ويزدادون إيماناً وعلماً وفهماً ومجاهدةً وتربية.

وكان كثيـرٌ منهم من المستضعفين في مكة، كالعبيد والموالي والخدم، يَنظرُ إليهم رجالُ قريش المستكبرون نظرةَ ازدراءٍ واحتقار.

وقد طلبوا من رسولِ الله ﷺ أنْ يطردَ هؤلاء المستضعفين، فأنزلَ اللهُ آيةً قرآنية يأمره فيها بالبقاءِ مع الصالحين، وعدمِ الاستجابةِ لطلبِ المشركين.

وقد روى سعدٌ رضي الله عنه هذه الحادثة.

روى الإمامُ مسلمٌ عن شُرَيْحِ بنِ عُبَيْدِ الحمصي، عن سعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنَّا مع النبيِّ ﷺ ستةَ نفر. فقال المشركون للنبيِّ ﷺ: اطردْ هؤلاء، لا يَجْترؤون علينا!

وكنتُ أنا وابنُ مسعود، ورجلٌ من هذيل، وبلال، ورجلان، لستُ أُسمِّيهما، فوقعَ في نفسِ رسولِ الله ﷺ ما شاءَ اللهُ أنْ يقع، فحدَّث نفسَه، فأنزلَ اللهُ قولَه تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢][١].

كانوا ستةَ نفرٍ يجلسونَ حولَ رسولِ الله ﷺ، عبدُ الله بن مسعود، وبلال بن أبي رباح، وهما رجلان من العبيد، في نظرِ زعماء قريش، وسعدُ بن

---

(١) مسلم (٤٤) كتاب فضائل الصحابة، (٥) باب مناقب سعد بن أبي وقاص، حديث رقم: ٢٤١٣.

أبي وقاص، ورجلٌ من هذيل، ورجلان آخران لم يسمِّهما سعد، لأنَّه نسي اسميْهما.

فنظرَ لهم المشركونَ بازدراءٍ واحتقارٍ لأنَّهم عبيدٌ لهم، وطلبوا من رسولِ الله ﷺ أنْ يطردَهم من مجلسِه، لئلا يجترئوا على أسيادِهم، ويعصوهم ويُخالفوهم!

فوقعَ في نفسِ رسول الله ﷺ ما شاءَ اللهُ أنْ يقع، وكأنّ نفسَه مالَتْ قليلاً إلى أنْ يستجيبَ لطلبِ المشركين، طمعاً في إسلامهم، بحيثُ يخصصُ مجلساً للزعماء، ومجلساً آخر للمستضعفين، ويمنعُ المستضعفين من الجلوس في مجلس الزعماء، لأنَّ لهم مجلسَهم الخاص!!

إبقاء الرسول ﷺ مع المستضعفين:

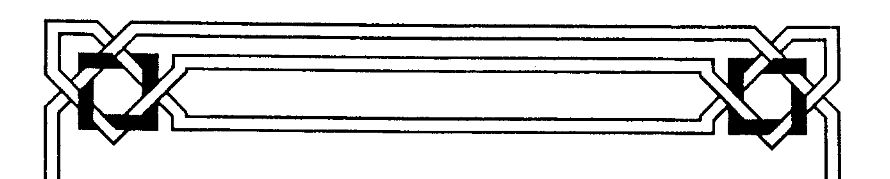
ولم يرضَ الله لرسولِه هذا، رغمَ أنَّه ليس خطأً، لأنَّ المستضعفين يجلسونَ في مجلسِهم الخاص، يتعلَّمون فيه من رسولِ الله ﷺ أنه خلافُ الأوْلى، واللهُ يريدُ لرسوله ﷺ أنْ يفعلَ دائماً الأَوْلى والأفضل والأكمل، ولذلك أنزلَ آيةً كريمةً ينهى فيها رسولَه ﷺ عن طردِ المستضعفين عن مجلسِ الزعماء، وتخصيصِ مجلسٍ خاصٍّ بهم، وأمره أنْ يبقى معهم، لأنهم صادقون سابقون مخلصون، يريدون وجْهَ الله، فمَنْ أرادَ من زعماءِ المشركين أنْ يتواضَع ويجلسَ معهم فهو خير، ومَنْ أصرَّ على استكباره فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنه، وهو الخاسر، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ

عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢ ـ ٥٣].

سعدٌ رضي الله عنه راوٍ لأحداثِ السيرة، لذلك روى هذه الحادثةَ في سببِ نزولِ الآية، وأخبرَ فيها عن بعضٍ ما عاناه المسلمون السابقون من المحنةِ والشدّة، والازدراء والاحتقار من زعماءِ الكفار.

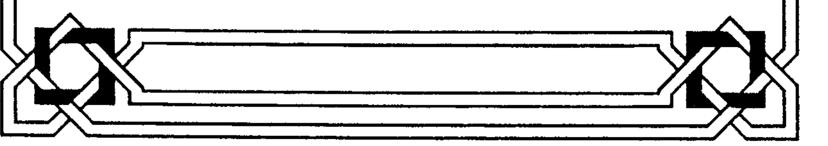
* * *





الفصل الثالث

سَعْدٌ المجاهِد مع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في المدينة





الفصل الثالث

سعد المجاهد مع النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة

(١) هجرة سعد إلى المدينة

بعدما بايعَ الأنصارُ رسولَ الله ﷺ بيعةَ العقبة، على أنْ ينصُروه ويمنعُوه مما يمنعون منه أنفسهم وأموالَهم، أرسلَ رسول الله ﷺ الداعيةَ المجاهدَ مُصعبَ ابن عمير رضي الله عنه، يعلِّمُهم ويَدعوهم، فانتشرَ الإسلامُ في كلِّ بيت!

بعد ذلك أَذِنَ رسولُ الله ﷺ لأصحابِه بالهجرةِ إلى المدينة، فهاجروا تباعاً.

سعد من أوائل المهاجرين:

وكان سعدُ بن أبي وقاص رضي الله عنه من أوائلِ مَنْ هاجر، حيثُ وصلَ المدينةَ قبلَ هجرةِ رسول الله ﷺ بفترة.

روى البخاريُّ عن البراءِ بن عازب رضي الله عنهما قال: أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ علينا مصعبُ بن عمير وابنُ أُمِّ مكتوم، وكانا يُقْرِئان الناس، فَقَدِمَ بلال، وسعد، وعمار بن ياسر، ثم قَدِمَ عمرُ بن الخطاب في عشرين من أصحابِ رسول الله ﷺ.

ثم قَدِمَ النبيُّ ﷺ، فما رأيتُ أهلَ المدينةِ فرحوا بشيءٍ فَرَحَهم برسولِ الله

ﷺ، حتى جَعَلَ الإماءُ يقلْن: قَدِمَ رسولُ الله ﷺ..»[1].

لم يسبق سعداً في الهجرة إلا مصعبُ بن عمير، وعبد اللهِ بن أُمِّ مكتوم، رضي الله عنهما، وهاجرَ هو مع أخويْه عمارِ بنِ ياسر، وبلال بن أبي رباح، رضي الله عنهم[2]، وسار الثلاثةُ معاً من مكةَ إلى المدينة، وهاجَرَ بعدَهم عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه في عشرين من الصحابة.

ومسارعةُ سعدٍ بالهجرةِ إلى المدينة تتوافقُ مع طبيعته الحركيةِ العملية، ورغبتِه في المسارعةِ إلى تنفيذِ ما يُكلَّفُ به، وحرصِه على أن يكونَ السابقَ إلى المبادرة والعمل، فهو مِنْ أوائلِ مَنْ أسلم في مكة، وها هو مِنْ أوائلِ مَنْ هاجرَ إلى المدينة، وهو أوّلُ مَنْ أراقَ دمَ كافرٍ في مكة، وهو أوّلُ من ابتُلِيَ بفتنةِ ومحنةِ أُمِّه.

وذكرَ ابنُ سعد في (الطبقات) أنَّ سعداً هاجرَ مع أخيه عمير. قال: أخبرَنا محمد بن عمر، قال: حَدَّثني أبو بكر بنُ إسماعيل بن محمد، عن أبيه قال: **لما هاجر سعدٌ وعميرٌ ابنا أبي وقاص من مكةَ إلى المدينة**، نَزَلا في منزلٍ لأخيهما عُتبَةَ بنِ أبي وقاص، كانَ بناهُ في بني عمرو بن عوف في حائطٍ له، وكان عُتبةُ أصاب دماً بمكة فهرب، فنزلَ في بني عمرو بن عوف، وذلك قبلَ (بُعاث)[3].

---

(١) البخاري (٦٣) مناقب الأنصار، (٤٦) باب مقدم النبيِّ وأصحابه المدينة، حديث رقم: ٣٩٢٥.

(٢) وهاجر معه أيضاً أخوه عمير كما في خبر ابن سعد الآتي. (الناشر)

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ١٠٣.

سعد يقيم في بيت أخيه:

الرواية عند ابن سعد عن حفيدِ سعد، وهو إسماعيلُ بنُ محمد بن سعد ابن أبي وقاص، ويبدو أنَّ سعداً أخبرَ حفيدَه إسماعيل بها، لأنَّه كان حريصاً على رواية أحداثِ السيرة لأبنائِه ومَنْ حولَـه، ليعلمـوا بها، ويَرْووها لمن بعدهم.

ولعلَّ أخاهُ عتبةَ كان أكبرَ منه، وقد تحدَّثنا عنه سابقاً، وأشرنا إلى إصرارِه على الكفر، وقد قَتَلَ شخصاً في مكة قبلَ الهجرة بفترة، وهربَ إلى المدينة، ونزلَ في منطقةِ بني عمرِو بن عوف، وكأنه اشترى فيها حائطاً ـ هو البستان ـ ثم بنى فيه منزلاً، وأقامَ فيه فترة، وبعدما تمَّ الصلحُ عادَ عتبةُ إلى مكة، وبقيَ المنزلُ والبستانُ له في المدينة.

ولما هاجرَ سـعدٌ وعميرٌ أقاما في منزلِ أخيهما عتبة، وكأنّهما أخذاه عِوَضاً عن تركِهما لمنزلهما في مكة، ولعلَّ عتبةَ أخذ منزلهما.

ولما هاجرَ رسولُ الله ﷺ إلى المدينة كان سعدٌ بجانبه ملازماً له.

وآخى رسولُ الله ﷺ بينَه وبين سعدِ بن معاذ، كما قالَ ابنُ سعد، وقيل: آخى بينَه وبينَ مصعبِ بن عمير[1]!

والقولُ الثاني ضعيف لأنَّ مصعبَ بن عمير مهاجر، ولم يُؤَاخِ الرسولُ ﷺ بين مهاجريّ ومهاجريّ، وإنما آخى بين مهاجريّ وأنصاري.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ١٠٣.

(٢) سعد مقدّم عند رسول الله ﷺ

سعد خال رسول الله ﷺ:

كان سعدٌ رضي اللهُ عنه من المقدَّمين عند رسول الله ﷺ، يحفظُ له منزلتَه وجهدَه وسبقَه، ويفخر به.

روى الترمذيُّ والحاكمُ في (المستدرك) عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنّا جلوساً عند النبيِّ ﷺ، فأقبلَ سعدُ بنُ أبي وقاص. فقالَ النبيُّ ﷺ: «هذا خالي، فلْيُرِني امرؤٌ خالَه». قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ غريب.

وكان سعدُ بنُ أبي وقاص من بني زُهرة، وكانتْ أمُّ النبيِّ ﷺ من بني زهرة، فلذلك قالَ النبيُّ ﷺ: «هذا خالي..»[1].

وهذه شهادةٌ عاليةٌ من رسولِ الله ﷺ لسعدٍ رضي الله عنه، وماذا يريدُ سعدٌ أكثرَ من أنْ يفخرَ أفضلُ الخلقِ وأكرمُهم على الله، ويعتزَّ بخؤولتِه له، ويقولَ للمسلمين: فلْيُرِني امرؤٌ خالَه! وكأنَّه يقول: مَنْ له خالٌ مثلُ خالي في فضلِه وشجاعتِه؟!

وقد بيّنّا فيما مضى خُؤولةَ سعدٍ للنبي ﷺ، فآمنةُ بنتُ وهب ـ أمُّ النبيِّ ﷺ ـ من بني زهرة. أبوها (وَهْبٌ) وجَدُّ سعدٍ (وُهيبٌ) أَخَوانِ شقيقان. وأبو سعد (مالك) ابنُ عمِّ أُمِّ النبي ﷺ، فبيتُه هم أخوالُ النبي ﷺ.

---

(١) الترمذي (٥٠) كتاب المناقب، (٢٧) باب مناقب سعد بن أبي وقاص، حديث رقم: ٣٧٥٢؛ والحاكم: ٣/ ٤٩٨.

الرسول ﷺ يفدّيه بأبويه:

وكان سعدٌ من الرماةِ المذكورين المشهورين، ومن أمهرِ الصحابةِ في الرماية.

وكان في الغزوات يرمي بين يدَيْ رسول الله ﷺ. ومن ذلك ما فعلَه في غزوةِ أُحُد، التي حصلَ فيها ما حصلَ، وكانَ لسعدٍ بلاءٌ عظيمٌ في الرماية فيها، حتى إنَّ رسولَ الله ﷺ كان يناولُه النِّبالَ ليرمي بها، وفَدَّاه بأبيه وأمّه.

روى مسلمٌ عن عامرِ بن سعد، عن أبيه رضي الله عنه قال: كان رجلٌ من المشركين يومَ أُحُد قد أحرقَ المسلمين، فقالَ لي النبيُّ ﷺ: «ارْمِ فِداكَ أبي وأمي»[1].

وروى الترمذيُّ عن عليٍّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه، قال: ما جمعَ رسولُ الله ﷺ أباه وأمه لأحد إلا لسعد. قالَ له يومَ أُحُد: «ارمِ فداكَ أبي وأمي..» وقال له: «ارمِ أيُّها الغلام الحَزَوَّر!»[2].

إنها منزلةٌ عاليةٌ لسعدٍ رضي الله عنه أَنْ يقولَ له رسولُ الله ﷺ: ارمِ فداكَ أبي وأُمي. والرسولُ ﷺ لا يُفَدّي أحداً بأَبَويه، ولا يجمعهُما له، إلا إذا كان مقدَّماً عنده، وله جهودٌ عظيمةٌ يستحقُّ بها هذا الثناء.

---

(١) مسلم (٤٤) كتاب فضائل الصحابة، (٥) باب فضائل سعد بن أبي وقاص، حديث رقم: ٢٤١١.

(٢) الترمذي (٥٠) كتاب المناقب، (٢٧) باب مناقب سعد، حديث رقم: ٣٧٥٣.

ومدح الرسولُ ﷺ سعداً بقوله: «ارمِ أيُّها الغلامُ الحَزَوَّر».

والغلامُ الحَزَوَّر: الغلامُ الذي شَبَّ وقويَ، وأدركَ واشتدَّ[1]. وكلمةُ (حَزَوَّر) تـدلُّ على الشدةِ والقوّةِ والصلابةِ والمتانةِ، بحروفِها وجَرْسِـها وإيقاعِها.

ولم يصفه رسـولُ الله ﷺ بهذه الصفة إلا بعد أن رأى شـدته وقوته وشجاعته وإقدامه، ومهارته في رمْيِ المشركين.

سعد يحرس رسول الله ﷺ:

وكان سعد يتطوَّع بحراسةِ رسولِ الله ﷺ، من دونِ أنْ يطلبَ أحدٌ منه ذلك، وهذا من فطنتِه وشجاعتِه وحيويته.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: أَرِقَ رسولُ الله ﷺ ذاتَ ليلـة، فقال: «لَيْتَ رجـلاً صالحاً من أصحابـي يحرسُني الليلة».

فسمعْنا صوتَ السلاح.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ هذا؟»

قال سعدُ بن أبي وقاص: أنا يا رسولَ الله: جئتُ أَحْرُسُك!

قالت عائشة: فنامَ رسولُ الله ﷺ، حتى سمعْتُ غطيطَه![2].

---

(١) لسان العرب لابن منظور الأفريقي: ٤/ ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢) البخاري (٥٦) كتاب الجهاد، (٧٠) باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، =

وكثيراً ما كان سعدٌ يحرسُ رسولَ الله ﷺ، متطوِّعاً من نفسِه، من محبَّتِه له، وحرصِه عليه، حتى حازَ لقبَ: حارسَ رسولِ الله ﷺ.

كما حازَ لقب: (فارس الإسلام) لفروسيته وشجاعته وإقدامه.

وكان مِنْ أشدِّ الصحابةِ في دين الله، ومِنْ أقواهم شخصية، وأكثرهم هيبة.

قالَ ابنُ إسحاق: كان أشدُّ أصحابِ رسول الله ﷺ أربعةً: عمرُ بن الخطاب، وعليُّ بن أبي طالب، والزبيرُ بن العوام، وسعدُ بن أبي وقاص. رضي الله عنهم[1].

ولأنّه كان مقدَّماً عند رسولِ الله ﷺ فقد شهدَ الغزواتِ كلَّها مع رسولِ الله ﷺ، في بدرٍ وأُحُدٍ والخندق وفتح مكة وحنين وتبوك، وغيرها..

(٣) سعد يطلق أول سهم في سبيل الله

بمجرد أنْ وصل رسولُ الله ﷺ إلى المدينة، أرسلَ سرايا مجاهدةً من المهاجرين، يتعرَّضون لعيرِ قريش، أو يلاحقونَ المشركين.

وهذا يدلُّ دلالةً واضحةً على طبيعةِ الجهاد في الإسلام، وتعمُّقِه في

= حديث رقم: ٢٨٨٥؛ ومسلم (٤٤) كتاب فضائل الصحابة، (٥) باب مناقب سعد، حديث رقم: ٢٤١.

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر: ٢/ ٣٣ـ٣٤.

شخصيةِ الرسولِ ﷺ وسيرتِه وحياةِ أصحابِه.

وصلَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ في الثاني عشر من شهرِ ربيع الأول، وبعدَ سبعةِ أشهر بعثَ حمزةَ بنَ عبد المطلب في سَرِيَّةٍ لمواجهةِ المشركين.

كان ذلك في رمضان، وكان معه ثلاثون من المهاجرين، ووجَّهَ رسولُ الله ﷺ حمزةَ نحو (سيف البحر) على ساحلِ البحرِ الأحمر - وهي طريقُ قوافلِ قريشٍ التجاريةِ المتوجِّهةِ إلى الشام والعائدةِ منها - وأمَرَه أن يعترضَ قافلةً تجاريةً قادمةً من الشام، بقيادةِ أبي جهل ومعه ثلاثمئة راكب..

وتواجَه الصّفّان في منطقةِ سيفِ البحر، وكادت المعركةُ أنْ تنشبَ بينهما، لولا تدخُّل (مجدي بن عمرو) أحدِ رجالِ المنطقة، حيثُ فصلَ بينهما، فعادَ حمزةُ ومَنْ مَعهُ إلى المدينة، ولم يحصل اشتباكٌ في هذه السرية[1].

سعد جندي في سرية عبيدة بن الحارث:

وبعد شهرٍ من هذه الأحداث شكَّلَ رسولُ الله ﷺ السَّرِيَّةَ الثانية، ووجَّهها لملاقاةِ المشركين.

في شوال عقدَ رسولُ الله ﷺ لواءً لعبيدةَ بنِ الحارث بن المطلب رضي الله عنه.

كان الرسولُ ﷺ حكيماً في تشكيلِ سراياه، فجعل أقاربه يتحمَّلون جهداً في الجهادِ والمواجهة مع المشركين، وليس غريباً أنْ يكونَ قائدُ السريةِ الأولى

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٩ - ١٠.

عَمَّه حمزة رضي الله عنه، وأن يكون قائدُ سريتِه الثانية ابنَ عمه عبيدةَ بن الحارث، رضي الله عنه.

وضمَّتْ سريةُ عبيدةَ بنِ الحارث ستين صحابياً مجاهداً، كلُّهم من المهاجرين، من بينهم سعدُ بنُ أبي وقاص، رضي الله عنه.

وجَّههم رسولُ الله ﷺ نحو منطقة (رابغ) على شاطئ البحر الأحمر، ليرصدوا مجموعةً من مشركي قريش.

ولما اقتربوا من رابغ، قابلوا أبا سفيان ومعه مئتان من مشركي قريش، على ماءٍ يقال له: (الأحياء).

سعد يطلق أول سهم:

واشتبكَ الفريقان، وأطلقَ سعدُ بنُ أبي وقاص سهامَه نحو المشركين، وهو الوحيدُ الذي أطلقَ سهامَه نحوهم!

طلبَ منه المسلمون أنْ يرميَ المشركين، لِما يعرفونَ من مهارتِه في الرمي، وإصابتِه الهدف، وكان سهمُه لا يخطئ، وهو من أمهرِ المسلمين في الرماية، ويمكنُ أنْ يلقَّبَ بلقب (الرامي الأول)! وهذا من مواهبِه ومزاياه!

اتّخذَ سعدٌ موقعاً مناسباً للرمي، مواجهاً للمشركين، وطلبَ من إخوانِه أن يَتَتَرَّسوا خلفَه، حمايةً له، ليصُدُّوا سهامَ المشركين. ونثرَ كنانتَه، وكان فيها عشرون سهماً، وصارَ يرمي المشركين!

رمى العشرين سَهْماً، وكلُّ سهمٍ كان يصيب هدفَه، فيجرحُ إنساناً أو دابة! وذلك من مهارةِ سعدٍ في الرماية.

وبهذا كان أولَ مَنْ أطلقَ سهماً في سبيل الله. وهذا الأوليّة تُضافُ إلى أولياتِه السابقة، فهو أولُ مَنْ أراقَ دماً لكافر في سبيل الله، وهو أولُ مَنْ أطلقَ سهماً في سبيل الله، وهذه الأوَّليات تُعطي مزيةً عاليةً لسعد رضي الله عنه، وتدلُّ على طبيعتِه المجاهدة، وشجاعتِه الرائدة، ومهارتِه الفائقة، فهو الرامي الأوَّلُ بين المسلمين في الإتقانِ والمهارة، وسهْمُه هو أولُ سهمٍ لمسلم يوجَّهُ ضدَّ كافرٍ فيصيبه!

ولم يُطلقْ أحدٌ من المسلمين سهماً غيرَ سعد، ولم يحصل اشتباكٌ بينهم وبين المشركين بالسيوف.

وفوجىءَ أبو سفيان ومَنْ معه بسهامِ سعدٍ تجرحُهم وتقعُ فيهم، وآثرَ أبو سفيان الانسحاب من الموقع، والعودةَ إلى مكة، وكان هذا السلاحُ المنطلقُ من كنانةِ سعد البدايةَ للأسلحةِ الإسلاميةِ الموجَّهةِ ضدَّ الكفار في الغزوات والمعارك اللاحقة.

وشاهدَ سعدٌ من موقعِهِ المشركين ينسحبون مرعوبين خائفين، فأرادَ أنْ يستفيدَ من ذلك، وأنْ يُلاحقَهم ليوقعَ فيهم المزيدَ من القتلى والجرحى! وهذا من حماستِه وحيويتِه وهمّتِه المجاهدة.

اقترحَ سعدٌ على أميرِه عبيدةَ بن الحارث رضي الله عنهما أنْ يَتبَعوا المشركين، وأنْ يلحقوا بهم، ليقتُلوا ويَجرحوا ويأسروا منهم، ويغنموا مما معهم، فهم مرعوبون خائفون، وهذا لصالحِ المسلمين، فإنهم لا يقوون على قتالِهم! ولكنَّ الأميرَ لم يوافقْه على اقتراحِه، لأنَّ مهمتَهُ الجهادية محددة، حدَّدَها له رسولُ الله ﷺ، وملاحقةُ المشركين ليستْ منها!

سعد ينشد شعراً:

بذلك انتهتْ مهمةُ هذه السريةِ المجاهدة، انتهتْ بعودةِ أبي سفيان إلى مكـة، ومعه بعضُ الجرحى من رجاله، وعودةِ عبيدةَ بن الحارث بإخوانِـه المجاهدين إلى المدينة، رضي الله عنهم. وسجّل المؤرخون الأوليةَ الجهاديةَ لسعدِ المجاهدِ الرائد، صاحبِ أول سهمٍ أُطلقَ ضدَّ كافر.

وبينما كان المجاهدون عائدين إلى المدينة أنشدَ سعدٌ رضي الله عنه شعراً على مسمعٍ من إخوانِه. قال:

ألا هَــلْ أتــى رســولَ اللهِ أنّــي ... حَمَيْـتُ صَحـابَتـي بصُـدورِ نَبْلـي
أذودُ بهـــا أوائِلَهـــم ذيـــاداً ... بِكُـــلِّ حُـــزونَـــةٍ وَبِكُـــلِّ سَهْـــلِ
فمـــا يَعْتَـــدُّ رامٍ فـــي عَـــدُوٍّ ... بِسَهْـــمٍ يـــا رسُـــولَ اللهِ قَبْلـــي

يخبرُ سعد رضي الله عنه في هذه الأبيات عن ما فعلَه في تلك السـريةِ المجاهدة، متحدِّثاً بفضْلِ الله ونعمتِـه عليه، فهو قد حمى أصحابَه بسـهامِه ونِبالِه، التي أطلقها على المشركين، وبذلك كان هو أَوّلَ رامٍ يُطلقُ أولَ سهمٍ على الأعداء، ولا يُمكنُ لأيِّ مسلمٍ رامٍ أنْ يدَّعي أنّه رمى سهماً قبل سـعد، رضي الله عنه[1].

---

(١) انظر أخبار سرية عبيدة بن الحارث ودور سعد فيها في: مغازي الواقدي: ١/ ١٠ ـ ١١؛ وسيرة ابن هشام: ٢/ ٢٤١ ـ ٢٤٥؛ ودلائل النبوّة للبيهقي: ٣/ ٩ ـ ١٠؛ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٠٢؛ وتاريخ ابن كثير: ٣/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤؛ =

(٤) سعد أمير سرية إلى الخرَّار

ما أنْ وصلَ المجاهدونَ في سريةِ عبيدة بن الحارث المدينة ، حتى شكَّل رسولُ الله ﷺ السريةَ المجاهدةَ الثالثة ، وكان ذلك في شهرِ ذي القعدة .

سعد أميرُ السرية الثالثة:

وكانَ أميرُ هذه السريةِ سعدَ بنَ أبي وقاص نفسه رضي الله عنه .

وقد روى الواقديُّ خبرَ هذه السريةِ في (المغازي) عن ابنِ حفيدِ سعد ، قال : حدَّثني أبو بكر بنُ إسماعيل بن محمد بن سعد ، عن أبيه إسماعيل ، عن عمه عامرِ بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه سعد . أيْ أنَّ سعداً أخبرَ ابنَه عامراً بهذه السرية ، وعامرٌ أخبرَ ابنَ أخيه إسماعيل بها ، وإسماعيلُ أخبرَ ابنَه أبا بكر بها .

في الشهرِ التاسعِ من هجرةِ رسولِ الله ﷺ ـ شهر ذي القعدة ـ عقدَ رسولُ الله ﷺ لواءً لسعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وبعثَ معه عشرين مجاهِداً من المهاجرين ، ووجَّه إلى (الخَرَّار) .

و(الخَرّار) قريبٌ من (الجُحْفَة) ومن (خُمّ) ، على الطريقِ التجاريِّ الذي تسلكُه قوافلُ قريش المتّجهةِ إلى الشام .

ولما وجَّهه إلى الخرَّار ، قالَ له ﷺ : اذهبْ إلى الخَرّار ، فإنَّ عيراً لقريش ، ستمرُّ به ، ولا تجاوِزْه!

= وسير أعلام النبلاء للذهبي : ١/ ١٠١ .

مهمة سرية سعد إلى الخرار:

كانت مهمةُ سعدٍ في الخرار جهادية، بأنْ يكمنَ فيه، ويرصدَ هو وإخوانُه عيرَ قريش التجارية، وعندما تقتربُ منهم يهجمونَ عليها، ويأخُذونَ ما بها، ويقتلون أو يأسرون حُرّاسَها ورجالَها.

سارَ سعدٌ بإخوانِه رضي الله عنهم، وكان حريصاً على التخفّي وعدم انكشافِ أمرِهم، ولذلك كان يسيرُ بإخوانِه في الليل، حيثُ يسترُهم الليلُ بظلامِه، فلا يراهم أحد، ويكمنُ بهم في النهار خشية انكشافِ أمرهم. وهذا من فطنتهِ وبُعدِ نظره، وموهبتِه العسكرية الجهادية، وهذه الطريقةُ في السير ـ الحركةُ في الليل والسكونُ في النهار ـ قلَّما كان يسلكُها الناس في ذلك العصر!

وهذا السيرُ الحذِرُ جعلَهم يتأخَّرون قليلاً في الوصولِ إلى الخَرَّار، حيثُ وصلوها صباحَ اليومِ الخامس!

ولما وصلوا فوجئوا بأنَّ العيرَ التجارية هدفَهم مرَّتْ بالأمسِ، وغادرَت المكان قبلَ وصولِهم، وبذلك فاتتهم! ولو أسرعوا السيرَ قليلاً لأدركوها، فالحذرُ الزائدُ أدّى إلى فواتِ المقصود! ولكلِّ شيءٍ ثمنُه!

سعد ملتزم بامر رسول الله ﷺ:

فكَّرَ سعدٌ قليلاً، إنَّ العيرَ قد تجاوزت المنطقة، لكنّها ليست بعيدةً عنه، ولو لحقَ بها فسيدركُها ويحققُ هدفَه منها! وهمَّ أنْ يلحقَ بها مع إخوانِه، لكنَّه تذكَّر عهدَ رسولِ الله ﷺ ألا يتجاوزَ الخَرَّار، فعدلَ عن تنفيذِ ما همَّ به، والتزمَ بتكليفِ رسولِ الله ﷺ.

وهذا الالتزامُ بالعهدِ دليلٌ على جنديّتِه وطاعتِه، وعدمِ التحايلِ على التكليف، وعدمِ مخالفته مهما كانَ السبب، ولو بَدا أنَّ المصلحةَ في المخالفة، لاسيما أن الآمرَ المكلِّفَ هو رسولُ الله ﷺ.

وإنَّ الجندية، والسمعَ والطاعةَ للقيادة، والالتزامَ الدقيقَ بأوامرها، سمةٌ واضحةٌ، برزَتْ في شخصيةِ سعدِ الجهادية رضي الله عنه!

وعادَ سعدٌ بإخوانِه المجاهدين إلى رسولِ الله ﷺ، وأخبره بما جرى معه[1].

(٥) سعد في سرية عبد الله بن جحش

الرسول ﷺ يشكّل السرية:

في رجب من السنةِ الثانيةِ للهجرة، شكَّل رسولُ الله ﷺ سريةً مجاهدةً أُخرى، جعلَ أميرَها عبدَ الله بن جحش الأسدي رضي الله عنه، ومعه سبعةٌ من المهاجرين.

وجنودُ السرية هم: سعدُ بن أبي وقاص، وعُتبةُ بنُ غزوان، وعُكّاشَةُ بن مُحْصِن، وأبو حذيفة بن عتبة، وعامرُ بن ربيعة، وواقدُ بن عبد الله، وخالدُ ابن أبي البُكَيْر.. رضي الله عنهم.

---

(١) انظر خبر سرية الخرار في: مغازي الواقدي: ١/ ١١؛ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٠٣؛ وتاريخ ابن كثير: ٣/ ٢٤٨.

قالَ عبدُ الله بن جحش رضي الله عنه : صلّيتُ العشاءَ يوماً مع رسولِ الله ﷺ في المسجد، ولما فرغنا من الصلاةِ دَعاني رسولُ الله ﷺ، وقال لي : وافِني غداً مع الصبح، ومعَكَ سلاحُك، سأبعثُكَ في مهمة!

وعندما طلعَ الفجرُ حملَ عبدُ الله بنُ جحش رضي الله عنه سلاحَه، وأتى المسجد، وصلَّى مع رسول الله ﷺ الفجر. وبعد انتهاءِ الصلاة وقفَ على بابِ المسجد، ووجدَ مجموعةً من المهاجرين واقفين على باب المسجد.

دعا رسولُ اللهِ ﷺ أُبيَّ بن كعب الأنصاري رضي الله عنه، وأمرهُ أنْ يكتبَ كتاباً، أملاه عليه، ثم أمر بلفِّهِ في قطعةِ جلدٍ، وإحكامِ لفّه.

الأمر السرّي المكتوم:

ثم دعا رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بن جحش رضي الله عنه، وقال له : قد استعملتُكَ على هؤلاءِ النَّفَر، فاخرجْ بهم، واحملْ كتابي هذا، وامضِ في الطريق إلى مكة، وبعدَ أنْ تسيرَ ليلتين افتح الكتاب، ونَفِّذْ ما فيه.

ودعا رسولُ الله ﷺ المجاهدين السبعة، وأخبرَهم أنه أمَّرَ عليهم عبدَ الله بن جحش، وأمرهم أنْ يسمعوا له ويُطيعوا.

استخدمَ رسولُ اللهِ ﷺ مع هذه المجموعة المجاهدة أُسلوبَ (الرسائل السرية المكتومة) : أَمْرٌ حركيٌّ مكتوبٌ على ورقة، والمجموعةُ مطالبةٌ بتنفيذِه، ولا يعرف أحدٌ من أفرادِها هذا الأمر.. ويسيرون جميعاً مسافةً طويلة، ولم يُفكِّرْ أحدٌ بفتحِ الرسالةِ ومعرفةِ ما بداخلِها..

يدلُّ هذا على طاعةِ الصحابةِ لرسولِ الله ﷺ، وعلى ثقتِهم به وبحكمتِه.

ولما سارَ المجاهدون ليلتيْن كاملتيْن، جلسوا عند بئر (ابنِ ضميرة).

وفتحَ الأميرُ عبدُ الله بن جحش الكتاب، وقرأه، فإذا به: «سِرْ حتى تأتيَ (بطنَ نخلة)، على اسمِ الله وبركاتِه، ولا تُكْرِهَنَّ أحداً من أصحابِكَ على المسير معك، وامضِ لأمري فيمنْ تبعَك، حتى تأتيَ بطْنَ نَخْلَة، فترصَّدْ بها عيرَ قريش...».

قرأ الأميرُ الكتابَ على إخوانِه المجاهدين، وقال لهم: قد أمرَني رسولُ الله ﷺ أنْ أمضيَ إلى نخلَة، لأرصدَ فيها عيراً لقريش، وقد نهاني أنْ أستكرِه منكم أحداً، فمن كان منكم يريدُ الشهادةَ ويرغبُ فيها فلينطلقْ معي، ومَنْ كرهَ ذلك فلْيَرجِع من الآن، ولا شيءَ عليه! أما أنا فماضٍ لأَمْرِ رسول الله ﷺ.

لماذا نهى الرسولُ ﷺ الأميرَ عن أن يستكرهَ أحداً على السيرِ معَه؟

إنَّ الرسولَ ﷺ يريدُ من المجاهد أنْ يسيرَ للجهادِ بتفاعلٍ وحيويةٍ ونشاط، لا أنْ يُساقَ إليه سوقاً وهو مكْرَه! ويريدُ أنْ يُحضرَ نيتَه للجهاد، وهذا لا يكونُ إلا إذا كان راضياً مختاراً.

مع أنَّ الرسولَ ﷺ يَعرفُ أصحابَه، ويعرفُ حرصَهم على الجهاد، ورغبتَهم فيه، وحماسَهم له، وعندما يخيَّرون بين الجهادِ والقعودِ فسيختارون الجهاد!

ولذلك لما خَيَّرَ عبدُ الله بنُ جحش إخوانَه المجاهدين رضي الله عنهم قالوا جميعاً: نحنُ سامعون ومطيعون لرسولِ الله ﷺ ولك، فسِرْ بنا حيثُ شئت، على بركةِ الله!

سارَ المجاهدون إلى (نخلة) الواقعةِ بين مكة والطائف، وكان معهم أربعةُ جِمال، كلُّ اثنين على بعير، يعتقبانه ويتناوبان ركوبَه، بحيثُ يركبُ أحدُهما نوبة، ويمشي أخوهُ على قدميه.

سعد وعتبة يطلبان البعير:

ولما وصل المجاهدون منطقةَ (بُحْران) أَضَلَّ سعدُ بنُ أبي وقاص وعتبةُ ابن غزوان رضي الله عنهما بعيرهما، الذي كانا يعتقبانه.. وبحَثا عنه فلم يجداه، وأذِنَ لهما الأميرُ بالتخلّفِ بحثاً عنه، وعندما يجدانِه يلحقانِ بالمجموعة.. وتابعَ المجاهدون الستةُ سيرَهم إلى نخلة.

ووصلوا إلى (نخلة) في أواخرِ شهرِ رجب، ومعلومٌ أنَّ رجب أَحَدُ الأشهرِ الحُرُم التي يَحرُمُ فيها القتال. و(نخلةُ) على حدودِ الحرم، الذي يحرمُ القتالُ داخله..

وبعد أيامٍ من رصدِهم عيرَ قريش، مَرَّتْ بهم العير قادمةً من الطائف، متّجهةً إلى مكة، تحملُ زبيباً وجلوداً وأمتعة.. ومعها أربعةُ رجالٍ من الكفار يحرسونها، هم: عمرُو بن الحضرمي، والحَكَمُ بن كيسان، وعثمان بن عبد الله، وأخوهُ نوفل بن عبد الله. ونزلَ الحراسُ قريباً من المجاهدين الستة، لكنّهم لم يروهم، بينما رآهم المجاهدون.

وفكَّرَ المجاهدون في التصرّف، واختلَفوا فيما بينهم، هل هذا اليومُ هو آخرُ يوم من شهرِ رجب الذي يحرمُ فيه القتال، أم هو أولُ يومٍ من شهرِ شعبان الذي يحلُّ فيه القتال؟

وأخيراً رجَّحوا أنَّ هذا اليوم هو أوّلُ يومٍ من شعبان، فقتالُ الكفارِ جائز. . وقرروا قتالَ الكفار، ووجَّهَ المجاهد واقدُ بن عبد الله إلى أميرِ القافلةِ عمرو بن الحضرمي سهامَه فأصابهُ في مقتل.

فوجِىءَ الحراسُ الثلاثةُ بأميرهم قتيلاً، والسهامُ تتساقطُ عليهم، فتركوا الجِمالَ المحمّلَةَ بالبضائع، وولّوا هاربين. . ولحق بهم المجاهدون، فأسروا عثمانَ بنَ عبد الله والحكَمَ بن كيسان، وتمكَّن نوفلُ بنُ عبد الله من الإفلات، فذهبَ إلى قريش وأخبرهم بما جرى. .

أخذَ المجاهدون الأسيرَيْن، واستاقوا القافلة، وعادوا إلى المدينة بالغنائم!

ولما وصلوا المدينة فوجئوا بخطئِهم. . لقد قتلوا ابن الحضرمي في آخرِ يومٍ من شهرِ رجب! أيْ: قتلوه في الشهرِ الحرام، وقاتلوا الكفارَ في الشهر الحرام!

أنكرَ رسولُ الله ﷺ قتالَهم وقتْلَهم في الشهرِ الحرام، واعتبرَ هذا اجتهاداً خاطئاً منهم! وقالَ لهم: ما أمرتُكم بقتالٍ في الشهرِ الحرام! ولامَهم المسلمون وعَنَّفوهم على ما فعلوا، وأُسقطَ في يدِ المجاهدين الستة، وندموا على ما فعلوا، بعدما ثبت لهم الخطأُ في الحسابِ والاجتهاد.

وحبسَ رسولُ الله ﷺ الأسيريْن، وأوقفَ العيرَ وما فيها، بانتظارِ تطوّرِ الأحداث!

ولما علمتْ قريشٌ بما جرى لرجالِها وقافلتِها شَنَّتْ (حرباً إعلامية) ضدَّ رسول الله ﷺ والمسلمين، واتهمتْه بانتهاكِ حرمةِ الشهرِ الحرام، وأنه أمرَ رجالَه بقتل ابن الحضرمي في الشهر الحرام..

نزول آية في أحداث السرية:

وأنزل اللهُ آيةً من القرآن تردُّ على إشاعاتِ واتّهاماتِ قريش. قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

اعتبرت الآيةُ المجاهدين مخطئين، بسببِ قتْلِهم ابنَ الحضرمي في الشهرِ الحرم، لكنّه خطأ في الاجتهاد، وليس خطأً مقصوداً متعمَّداً، وهذا الخطأُ لا يكادُ يُذكَرُ أمام جرائم المشركين العديدة التي ارتكبوها في الشهرِ الحرام وفي المسجد الحرام، حيث كفروا بالله، وصدّوا عن سبيل الله، وأخرجوا المسلمين من المسجد الحرام، وفتنوهم وعذّبوهم ليصدّوهم عن دينهم، وفتنةُ المسلمين أكبرُ من قتْلِ مشركٍ خطأً في الشهرِ الحرام. هذه الكبائرُ الصادرةُ عن المشركين أكبرُ وأفظعُ من قتلِ المسلمين لرجلٍ مشركٍ في الشهر الحرام.

بعد ذلك أخذَ رسولُ الله ﷺ العير، وقَسَّمَها على المسلمين، وبعثَتْ قريش الفداءَ لرجليْها الأسيريْن . .

فقالَ لهم رسولُ الله ﷺ: لا نقبلُ منكم الفداءَ حتى يأتيَ صاحبانا، لأننا نخشى أنْ تقتلوهما، فإنْ عادا سالميْن أخذناه منكم!

والرسولُ ﷺ يقصدُ سعدَ بن أبي وقاص وعُتبةَ بن غزوان.

ماذا جرى لهما؟

ما جرى لسعد وعتبة في الطريق:

روى الواقديُّ في (المغازي) عن أبي بكرِ بنِ إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، عن سعدٍ رضي الله عنه يخبرُ عن ما جرى لهما: كانا يعتقبان البعيرَ هو وعُتبةُ بن غزوان، ولما نزلوا في منطقةِ (بُحْران) أضلاً بعيرَهما، فتخلَّفا يبحثان عنه . .

بحثا عنه يوميْن، وبعدَ ذلك وجداه، فلحقا بإخوانهم المجاهدين، ولكنهما أخطأا الطريقَ إلى نخلة، ولم يهتديا إليهم، وبذلك لم يتمكَّنا من الالتحاقِ بهم، فلم يشهدا ما جرى على أرضِ (نخلة) . .

استمرّا يتجوَّلان ويسيران في المنطقة، وظنَّ إخوانُهما أنّهما قد أُصيبا أو هلكا أو قُتلا، وأُصيبا بجوعٍ شديد، لأنه نفدَ ما معَهما من طعام . . وأخيراً اهتديا إلى طريق المدينة، فقطعا الصحراء وتوجَّها نحو المدينة، ومضى عليهما أيامٌ لا يجدان ما يأكلان.

قالَ سعد: توجَّهْنا من المُلَيْحَةِ إلى المدينة، وبينهما ستةُ بُرُد، وما معنا ذَوْقٌ نذوقُه أو طعام نأكله! حتى وصلْنا المدينة!

قال قائلٌ لسعد: يا أبا إسحاق: كم كان بينهما؟

قال سعد: بينهما مسيرةُ ثلاثةِ أيام.

قال الرجل: ماذا كنتم تأكلون؟

قال سعد: كنا نأكُلُ وَرَقَ (العِضاهِ) ـ وهو شجرٌ صحراويٌّ صغيرُ الورق ـ نمضغُه ونشربُ عليه الماء[1]!!

فلما وصلا المدينة سالمَيْن، فادى رسولُ الله ﷺ الأسيرين القرشيَّيْن!

وأكْلُ سعدٍ لورقِ شجرِ (العِضاه) بسببِ الجوع الشديد، يذكِّرُنا بما أخبرَ به هو عن جوعِه مع إخوانِه الصحابة في العهد المكّي، بحيثُ أكلوا ورقَ السَّمُرِ والحُبْلَة، حتى تقرَّحت أشداقُهم!!

(٦) جهاد سعد في غزوة بدر

خرجَ رسولُ الله ﷺ من المدينةِ إلى بدرٍ في رمضان، لملاقاة قريش،

---

(١) انظر خبر هذه السرية المفصّل في: مغازي الواقدي: ١/ ١٣ ـ ١٩؛ والسيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٢٥٢ ـ ٢٥٦؛ ودلائل النبوة للبيهقي: ٣/ ١٧ ـ ٢١؛ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤١٠ ـ ٤١٥؛ وتاريخ ابن كثير: ٣/ ٢٤٨ ـ ٢٥٢؛ وانظر حديثنا عن هذه السرية المجاهدة في كتابنا (صور من جهاد الصحابة)، ص٢١ ـ ٣٦.

وعلى مشارفِ المدينةِ وقفَ يتفقّدُ أصحابَه الخارجين معه.

قال الواقدي في (مغازيه): «وخرجَ رسولُ الله ﷺ بمنْ معه، حتى انتهى إلى نَقْبِ بني دينار، ثم نزلَ بالبُقْع، وهي بيوتُ السُّقيا (البُقْعُ نَقْبُ بني دينار بالمدينة، والسُّقْيا متصلٌ ببيوت المدينة) يومَ الأحدِ لاثنتي عشرةَ خلَتْ من رمضان، فضربَ عسكرَه هناك، وعرضَ المقاتِلَةَ: فَعَرَضَ عبدَ الله بن عمر، وأُسامةَ بن زيد، ورافع بن خديج، والبراءَ بن عازب، وأُسيدَ بن ظهير، وزيدَ بن أرقم، وزيد بن ثابت.. فردَّهم، ولم يُجزْهم...»[1].

ردَّ رسولُ الله ﷺ هؤلاء الفتيانَ السبعةَ لِصِغَرِ سنِّهم، فعادوا إلى المدينة متأثّرين.

سعد وعمير في الطريق إلى بدر:

وخرجَ مع رسولِ الله ﷺ سعدُ بنُ أبي وقاص، وأخوه عميرٌ رضي الله عنهما.

ولما كان الجيشُ معسكراً بالبُقْع، ورسولُ الله ﷺ يتفقَّدُ الجيش، ويُعيدُ الفتيانَ الصغار، رأى سعدٌ أخاهُ عميراً يتوارى، ويحرصُ على أنْ لا يراهُ رسولُ الله ﷺ.

استغربَ سعد، وتوجَّه إلى أخيه قائلاً: ما لك يا أخي تتوارى عن رسولِ الله ﷺ؟

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢١.

قال عمير: إنّي أخافُ أنْ يراني رسولُ الله ﷺ ويستصغرَني، فيردَّني كما ردَّ فتياناً صغاراً، وأنا أُريدُ الخروجَ للجهاد، لعلَّ اللهَ أنْ يرزقني الشهادة!!

ولكنَّ عميراً عُرِضَ على رسولِ الله ﷺ، ولما رآهُ استصغرَه، فردَّه وقال له: ارجع إلى المدينة!

فبكى عمير، لأنَّ هذا يحولُ بينه وبين الجهادِ طمعاً في الشهادة.

وَرَقَّ له رسولُ الله ﷺ، وأَذِنَ له بالخروجِ مع الجيش.

فرحَ عميرٌ وأخوه سعدٌ رضي الله عنهما.. ولكنَّ عميراً صغيرُ الجسم، قصيرُ القامة، لا يكادُ سيفُه يثبتُ على عاتقِه. فأقبلَ سعدٌ على أخيه يهيئُه للمعركة، وصارَ يَعقدُ ويُثبتُ له حمائلَ سيفه.

سعد يشتري منطقة (السقيا):

تحرَّكَ رسولُ الله ﷺ من (البُقْع) إلى منازل (بني سَلِمَة). ومن زعماء بني سَلِمَة (عبدُ اللهِ بن حرام) رضي الله عنه. وبجانبِ منازِلهم منطقةٌ اسمُها (حُسَيْكة)، فيها مجموعات من اليهود.

جاءَ عبدُ الله بنُ حرام رضي الله عنه إلى رسولِ الله ﷺ متفائلاً مستبشراً بانتصارِ المسلمين على جيش قريش، لأنَّ الرسولَ ﷺ وقفَ بأصحابه عند ديارِ بني سَلِمَة المقابلةِ لليهود. في نفسِ المكانِ الذي وقفَ فيه بنو سَلِمَة عندما حاربوا اليهود في (حُسَيْكة) وانتصروا عليهم وأذلّوهم.

كما جاءَ عمرُو بن الجموح رضي الله عنه مستبشراً أيضاً، وقال: نِعْمَ

الفأل، واللهِ إني لأرجو أنْ تغنموا، وأنْ تظفروا بمشركي قريش، إنَّ هذا منزلُنا يومَ سِرْنا إلى يهودٍ في حُسَيْكة وهزمناهم!

وغيَّرَ رسولُ الله ﷺ اسْمَ المنطقة من (البُقْعِ) إلى (السُّقْيا)، وهي منطقةٌ زراعيةٌ خَصْبَة فيها عيونُ ماءٍ عذب.

وقد اشترى سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه المنطقةَ بسبعِ أواقٍ من الذهب ـ وقيل ببكْرَيْن من الإبل ـ وسُرَّ رسولُ الله ﷺ بذلك، ودعا لسعدٍ بالربح، وقال: ربحَ البيعُ[1]!

وشراءُ سعدٍ رضي الله عنه لتلكَ الأرضِ الخصبةِ دليلٌ على أنّه كانَ غنياً، يملك مالاً وفيراً.

وسارَ رسولُ الله ﷺ بالجيشِ المجاهد إلى بدر، وأخبرَ سعدٌ ابنَه عامراً عن ذلك الجيش، وذكرَ أنه لم يكنْ مع الجيش إلا سبعون بعيراً، وكانوا يتعاقبون ركوبَ البعير، الثلاثة، والأربعة، والاثنان.

أيْ أنَّ الرسولَ ﷺ قَسَّمَ الجِمالَ بينهم، كلُّ اثنين أو ثلاثة لهم جملٌ يركبونَه متعاقبين، بأنْ يركبَ أحدُهم مسافةً بينما يمشي الآخرون.

سعد يمشي في الذهاب والعودة:

وسعد لم يركب جملاً، لا في الذهاب ولا في الإياب، ولهذا قال لابنه عامر: «وكنتُ أنا من أعظمِ أصحابِ النبيِّ ﷺ عنه غناءً، أَرْجَلُهم رُجْلَة،

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٣.

وأرماهم بسهم، لم أركَبْ خطوةً ذاهباً ولا راجعاً. .»[1].

لقد كان سعدٌ يتمتعُ بلياقةٍ بدنيةٍ عالية، وصحةٍ جيدة، وكان في هذا يتفوَّقُ على باقي إخوانِه من الصحابة، مع أنّهم على مستوى عالٍ من ذلك، لكنّه كان متفوّقاً عليهم، بدليل أنه قطعَ المسافة من المدينة إلى بدر، ذهاباً وإياباً، وهو ماشٍ على رجلَيْه، لم يركب بعيراً ولا فرساً! وهي مسافةٌ طويلة!

تحدَّثَ سعدٌ بنعمةِ الله عليه، فذكَرَ ثلاثةَ مظاهر لهذه النعمة: استغناؤُه عن ركوب البعير، بحيث كان أعظمَ الصحابةِ عنه غناءً. وقوَّتُه على المشي ذهاباً وإياباً، بحيث كان أرجلَ إخوانه رُجْلَة. ومهارتُه في الرمي، وتفوُّقه في ذلك على الصحابة، بحيث كانَ أرماهم بسهم.

سعد يصيد ظبياً في الطريق:

وبينما كانوا متوجِّهين إلى بدر، وقعَتْ حادثةٌ لطيفة، أخبرَ عنها سعدٌ رضي الله عنه، تدلُّ على مهارتِه في الرمي، ومنزلتِه عند رسولِ الله ﷺ.

مَرَّ الجيشُ المجاهدُ بمنطقةِ (تُرْبان)، وكان سعدٌ يسيرُ بالقربِ من رسولِ الله ﷺ. فناداه الرسولُ ﷺ قائلاً: يا سعد انظر إلى الظبي.

شاهدَ الرسولُ ﷺ ظبياً من بعيد، فمنْ يَدْعو لرمْيِه؟ إنه لن يدعوَ إلا (الراميَ الأول)!

وقفَ سعدٌ، ونظرَ إلى الظبي، ووجَّه له سَهْمَه، وقامَ رسولُ الله ﷺ

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٦.

خلْفَه، ووضعَ رأسَه بين منكبَيْ سعدٍ وأُذُنيه، ونظرَ مع سعدٍ إلى الظبي، وقال: ارمِ سعد! اللهمَّ سَدِّدْ رميتَه!

هذه الحركةُ من رسولِ الله ﷺ تدلُّ على محبّتِه لسعد، وثنائِه عليه، وإشادتِه بموهبتِه، وقد دعا لسعدٍ أنْ يسدِّدَ اللهُ رميتَه، بحيثُ يصيبُ هدفَه!

رمى سعدٌ الظبي، فلم يخطئ السهمُ نحْرَه، وخَرَّ الظبيُ صريعاً. فتبسَّمَ رسولُ الله ﷺ، مسروراً بما فعلَ سعد، مثنياً على مهارتِه.

توجَّه سعدٌ مسرعاً نحوَ الظبيِ الصريع، فوجدَه به رَمَق، فتناولَ سِكِّينَه فذبَحه وذكَّاه، وحَمَلَه، وعادَ به إلى رسولِ الله ﷺ. فقسمَ ﷺ لحمه بين أصحابه[1].

«اللهمَّ سَدِّدْ رميتَه»: دعاءٌ دعا به رسولُ الله ﷺ، طالباً من اللهِ أنْ يسددَ رميةَ سعد، بحيثُ يصيبُ الهدف، واستجابَ اللهُ دعاءَ رسولِه ﷺ، وسدَّدَ رمية سعد. وليس المهمُّ صيدَه للظبي، إنما المهمُّ صيدُه لرؤوسِ الكفار، سدَّدَ الله رميتَه، عندما كان يصوِّبُ سهْمَه نحو خصمِه، وقلَّما أخطأَ في رميتِه، وكم من الكفارِ صُرِعَ بهذه الرميات المباركات!

سعد وإخوانه في مهمة استطلاعية:

وتابع رسولُ الله ﷺ سَيْرَه بأصحابِه حتى وصلَ إلى وادي بدر، فنزلَ بهم بعيداً عن ماءِ بدر، وأرادَ أنْ يعرفَ أخبارَ المشركين، فبعثَ أربعةً من أصحابِه

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٦ ـ ٢٧.

لهذه المهمة، هم: عليٌّ بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعدُ بن أبي وقاص، وبَسْبَسُ بنُ عمرو، رضي الله عنهم. وطلبَ منهم أنْ يذهبوا إلى ماءِ بدر، وأنْ يتحسَّسوا أخبارَ قريش، وكان بين منزلِ الصحابةِ وماءِ بدرٍ جبلٌ صغير، فقال لهم: أرجو أنْ تجدوا الخبرَ عندَ هذا القَليبِ الذي يلي الظُّرَيْب!

والظُّرَيْبُ هو الجبلُ الصغير، والقَليبُ هو ماءُ بدر.

ذَهبوا إلى القليب حيث الماء، ووجدوا الخبرَ الذي أشارَ إليه رسولُ الله ﷺ، وجدوا اثنيْن من الغلمانِ يستقيانِ الماء، فأخذوهما وعادوا بهما إلى رسولِ الله ﷺ، فوجدوه قائماً يصلّي.

سألهما المسلمون: مَنْ أنتما؟ فقالوا: نحنُ غلمانُ قريش، بعثونا نستقي لهم الماء، وهم خلْفَ هذا الجبل!

فوجىءَ المسلمون بكلامِهما، ولم يصدّقوهما، لأنهم خرجوا لملاقاةِ قافلةِ أبي سفيان، ولم يخرجوا لمحاربةِ جيش قريش، وكلامُ الغلاميْن معناه أنَّ القافلةَ نجَتْ، وأنَّ المعركة مع الجيشِ قادمة، لذلك كرهوا ذلك.

ضربوهما ضرباً شديداً، وقالوا: كَذَبْتُما، أنتما غلامان لأبي سفيان!

اضطرَّ الغلامان إلى تغييرِ كلامِهما لينجُوَا من الضرب، فقالا: نحنُ غلامان لأبي سفيان. فصدَّقهما المسلمون وكفّوا عنهما!

كلُّ هذا ورسولُ الله ﷺ يصلّي! فلما قضى صلاتَه قال للمسلمين منكِراً عليهم: إذا صَدَقاكم ضربْتُموهما، وإذا كَذَباكم تركْتُوهما! صَدَقا! إنّهما لقريش!

ثم سألَ ﷺ الغلامين عن جيشِ قريش، وعن عَدَده، وعن قادتِه وزعمائه من أشراف قريش، وعن مكانه. . فأجاباه عن كلٍّ ما سألَهما عنه[1].

وإرسالُ رسولِ الله ﷺ سعداً ليتحسَّسَ ويستطلعَ أخبارَ قريش مع ثلاثةٍ من إخوانه دليلٌ على منزلتِه عند رسولِ الله ﷺ، وعلى موهبتِه في هذا المجال! ولقد كان رسولُ الله ﷺ يعرفُ مواهبَ أصحابِه، ويكلِّفُ كلَّ واحدٍ منهم بما يتفقُ مع تلك الموهبة.

استشهاد عمير بن أبي وقاص:

ولما نشب القتالُ في بدرٍ كان لسعدٍ جهدٌ كبيرٌ في القتال، قاتلَ المشركين بشجاعةٍ، وأخذَ منهم أسرى وأسلحة.

وقُبَيْلَ نشوبِ القتالِ أقبلَ سعدٌ على أخيه عمير، وهيَّأه للقتال، وشدَّ حمائلَ سيفه على جسمِه الصغير.

ودخلَ الصحابةُ الميدان، واشتبكَ سعدٌ مع المشركين، ورماهم بالسِّهام، كما اشتبكَ أخوه عميرٌ معهم، وكتبَ اللهُ لعميرِ الشهادة، فكانَ من أوائل مَنْ استُشْهِدوا. والذي قَتَلَه هو (عمرُو بنُ عبدِ وُد)[2]، وهو قائدٌ من كبارِ قادةِ الكفار، وكان شُجاعاً في الحرب، عنيفاً فيها، مشهوداً له بذلك، وقد قتلَه عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه في معركةِ الخندق!

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٥١؛ وسيرة ابن هشام: ١/ ٢٦٨.

(٢) مغازي الواقدي: ١/ ١٤٥؛ وسيرة ابن هشام: ١/ ٣٦٤؛ والطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ١١١.

وعجيبٌ أنْ يُقْدِمَ رجلٌ كبيرٌ ضخمٌ شجاعٌ كعمرو بن عبد وُدّ على قتلِ شابٍّ صغيرٍ ـ عميرِ بنِ أبي وقاص ـ وهذا يدلُّ على الحقدِ الذي ملأَ قلبَ ذلك الرجل على المسلمين صغاراً وكباراً.

ولم يعلَمْ سعدٌ باستشهادِ أخيه أثناءَ المعركة، لأنه كان مشغولاً بجهادِ الكفار.

وكانَ جُهْدُ سعدٍ في القتال كبيراً، شاهدَه الصحابة، وأُعجبوا به، وشهدوا له.

سعد يقاتل في بدر قتال الفارس والراجل:

قالَ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لقد رأيتُ سَعْداً يقاتِلُ يومَ بدرٍ قتالَ الفارسِ في الرجال[1]!

وفي روايةٍ أُخرى قال عليٌّ رضي الله عنه: كان سعدٌ يقاتلُ مع رسولِ الله ﷺ يومَ بدرٍ قتالَ الفارسِ والراجل[2].

كان سعدٌ يقاتلُ راجلاً ماشياً على قدميه، لأنَّه لم يكنْ له فرسٌ يركبُها، لكنَّه كان في غايةِ الشجاعةِ والجرأةِ والإقدام، وفَعَلَ بالكفارِ الأفاعيل، بسهامِه التي يطلقُها عليهم وهو الرامي الماهر.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ١٠٤.

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي: ٦/ ٨٢؛ وقال الهيثمي: رواه البزار بإسنادين أحدهما متصل والآخر مرسل، ورجاله ثقات.

قاتلَ وهو راجلٌ على قدميه قِتالَ الراجل، وقاتلَ أيضاً قِتالَ الفارس، أي: الجهدُ الذي بذلَه كان يساوي جهدَ الفارس! فكأنّه جمعَ بين رجليْن: الراجلِ الماشي على قدميْه، والفارسِ الراكبِ فرسَه.

ولهذا شهدَ له عليٌّ رضي الله عنه بأنّه قاتلَ قِتالَ الفارسِ في الرجال، وجمعَ بين قتالِ الفارسِ وقتال الراجل!

الرسول ﷺ يدعو لسعد في بدر:

وشاهد رسولُ الله ﷺ سعداً رضي الله عنه وهو يقاتلُ ببسالةٍ وشجاعة، وهو يسدِّدُ رميتَه ضدَّ الكفار، ويدعو اللهَ أنْ يزلزلهم، فدَعا له رسولُ الله ﷺ بأَنْ يسدِّدَ اللهُ رميتَه، ويستجيبَ دعوتَه!

روى الطبرانيُّ عن عامرِ الشعبي قال: قيلَ لسعدِ بن أبي وقاص: متى أَصَبْتَ الدعوة وكنتَ مُجابَ الدعوة؟

قالَ سعد: كان ذلك يومَ بدر. كنتُ أرمي بين يديْ رسولِ الله ﷺ، فأضعُ السهمَ في كبدِ القوس، ثم أقول: اللهمَّ زلزلْ أقدامَهم، وارعبْ قلوبَهم، وافْعلْ بهم وافْعل.

فيقولُ النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ استجبْ لسعد»(١).

سعدٌ يرمي الكفارَ بسهامِه، ويدعو اللهَ عليهم، ويذكرُ اللهَ عند رمي السهام،

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٦/ ٨٢: رواه الطبراني، وروى الترمذي طرفاً منه.

وبذلك يجمعُ بين الجهادِ والذكر، ويجعلُ الجهادَ وسيلةً للاتصال بالله.

ودعاؤُه اللهَ عند رميه السهام اعترافٌ بفضْلِ الله، وتوكُّلٌ منه عليه، فقوَّتُه لا تنفعُه إلا بعونِ الله وتوفيقِه، وهو يطلبُ من ربِّه أنْ يزلزلَ أقدامَهم ويُرعِبَ قلوبَهم.

يقولُ هذا وهو يجاهدُ في سبيل الله، وبذلك يجمعُ بين الأخذِ بالأسبابِ، والتوكّلِ على الله، والاعتمادِ عليه.

ومن إعجابِ الرسولِ ﷺ به أنّه أمّنَ على دعائه، وقال: اللهمَّ استجبْ لسعد. ودعاءُ الرسول ﷺ مستجاب، ولذلك مَنَّ اللهُ على سعدٍ باستجابة دعائه، فكان (مُجاب الدعوة)، متميّزاً بهذه المنقبةِ بين الصحابة.

سعد ممن نعسوا في بدر:

وكان سعد من بينِ الصحابةِ الذين أنعمَ اللهُ عليهم بالنعاسِ في غزوةِ بدر، ليشعروا بالأمانِ والطمأنينةِ والسكينة.

هذا النعاسُ المذكورُ في قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [الأنفال: ١١].

روى الواقديُّ عن الزبيرِ بن العوام رضي الله عنه قال: سُلِّطَ علينا النعاسُ تلك الليلة، حتى إني كنتُ لأتَشَدَّد، فتجلدُني الأرض، فما أُطيقُ إلا ذلك!

وروي عن سعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: رأيتني وإنَّ ذقني بين

ثديَيّ، فما أشعرُ إلا وأنا أقعُ على جنبي[1].

ألقى اللهُ على سعدٍ النعاسَ في بدر، ومن شدةِ نُعاسِه أنَّ رأسَه كان بينَ يديْه، وأنَّ ذقْنَه بين ثدييْه، حتى إنه وقعَ على جنبه دونِ شعور!

والنعـاسُ في المعركـةِ نعمـةٌ من الله، وهو دليلٌ على شـجاعةِ وقـوةِ المجاهدين، لأنه لا ينعسُ إلا الشجاعُ المطمئن، أما الخائفُ القلقُ فمن أينَ يأْتيه النُّعاس؟

وقد قَتَلَ سعدٌ في بدر: حذيفةَ بن أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي[2].

واشتركَ مع حمزةَ بن عبد المطلب رضي الله عنه في قَتْلِ (نُبَيْهِ بنِ الحجاج ابن عامر السهمي)[3].

سعد يقتل العاص بن سعيد ويأخذ سيفه:

وقَتَلَ سعدٌ العاصَ بن سعيد بن العاص الأُموي[4].

وهنـاك اختلافٌ في الذي قَتَلَ العاصَ بن سـعيد، فقيل: قَتَلَهُ عليُّ بنُ أبي طالب، وقيل: قَتَلَهُ أبو اليسر كعبُ بن عمرو. ولكنَّ الراجحَ أنَّ الذي قتلَهُ هو سعد[5].

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٥٤.
(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٧٣.
(٣) المرجع السابق: ٢/ ٣٧١.
(٤) المرجع السابق: ٢/ ٣٦٦.
(٥) انظر كلام السهيلي في الروض الأنف: ٥/ ١٨٣ و٣٤٧.

وكان العاصُ بن سعيد يقاتِلُ بسيفِ أبيه سعيد بن العاص الشهير، الذي يُسمَّى (ذا الكَتيفَة)، وهو من أشهرِ السيوفِ عند قريش والعرب، ولما قَتَلَ سعدٌ العاصَ بنَ سعيد أخذَ سيفه، فأمره رسولُ الله ﷺ أنْ يضعَه في الغنائم.

روى أحمد وغيره عن محمد بن عبيدِ الله الثقفي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لما كان يومُ بدر، قُتِلَ أخي عمير، وقَتَلْتُ سعيدَ بن العاص، وأخذْتُ سيفَه، وكان يُسمَّى (ذا الكَتيفَة)، فأتيتُ به النبيَّ ﷺ، فقال: «اذهب فاطرحْه في القبض»!

فرجعْتُ، وبي ما لا يعلمه إلا الله، من قَتْلِ أخي، وأخْذِ سلبي، فما جاوزْتُ إلا يسيراً حتى نزلَتْ سورةُ الأنفال. فقالَ لي رسولُ الله ﷺ: «اذهب فخذ سيفَك»[1].

تحقيق القول في اسم العاص بن سعيد:

وفي قوله: «قتلت سعيد بن العاص» وَهْمٌ، فإنَّه قَتَلَ العاصَ بن سعيد. وهذا ما ذكَرَهُ ابنُ إسحاقَ في (السيرة)[2]، والسُّهيلي في (الروض الأُنف)[3]، وابنُ حجر في (الإصابة)[4].

---

(١) مسند أحمد بتحقيق شعيب الأرناؤوط، حديث رقم: ١٥٥٦؛ وتفسير الطبري ـ طبعة محمود شاكر ـ: ٣/ ٣٧٤، رواية رقم: ١٥٦٥٩.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٦٦.

(٣) الروض الأنف للسهيلي: ٥/ ١٨٣.

(٤) الإصابة: ٣/ ٣٦.

ويَحسنُ أنْ نوردَ تصحيحَ محمود شاكر رحمه الله اسمَ مَنْ قَتَلَهُ سعد، وذلك في تعليقه على تلك الرواية في تفسير الطبري.

قال: «فالذي جاءَ في الخبر هنا (سعيد بن العاص) وَهْم، فإنَّ سعيدَ بن العاص بن سعيدِ بن العاص بن أُمية الأُموي، متأخر، قُبِضَ رسولُ الله ﷺ وله تسعُ سنين، وهو لم يشركْ قطّ، وقُتِلَ أبوه (العاصُ بن سعيد) يومَ بدر كافراً، أمّا جدُّه (سعيد بن العاص بن أمية) فماتَ قبلَ بدرٍ مشركاً.

ويكون الصوابُ كما قالَ ابنُ حجر في (الإصابة)، في ترجمة (عمير بن أبي وقاص) هو: (العاص بن سعيد بن العاص)»[1].

ويؤكِّدُ هذا التصحيحَ ما رواهُ الطبريُّ في التفسيرِ عن مجاهد عن سعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «كنتُ أخذتُ سيفَ سعيدِ بن العاص بن أمية، فأتيتُ به رسولَ الله ﷺ، فقلتُ: أَعْطِني هذا السيفَ يا رسولَ الله! فَسَكَتْ. فنزلَ قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١]، فأعطانيه رسولُ الله ﷺ»[2].

قال محمود شاكر في تعليقه على هذه الرواية: «قوله في هذا الخبر: «أخذْتُ سيفَ سعيد بن العاص» مستقيم، فسيفُه بلا ريب كان مشهوراً معروفاً عند سعد بن أبي وقاص، وكان عند ولدِه المقتول ببدر (العاص بن سعيد بن العاص)، وظاهرٌ أنّه كان معه يقاتلُ به يومَ بدر، فَقُتلَ وهو معه، فأخذَهُ سعدُ بن

---

(١) تفسير الطبري بتحقيق محمود شاكر: ١٣/ ٣٧٤، حاشية.

(٢) المرجع السابق: ١٣/ ٣٧٦ـ٣٧٧، رواية رقم: ١٥٦٦٤.

أبي وقاص . . »[1].

سعد وسيف (ذي الكتيفة):

كان سيف (سعيد بن العاص) الذي قاتلَ به ابنُه العاصُ بنُ سعيد مشهوراً معروفاً، وكان يسمّى (ذا الكتيفة).

و(الكَتيفَة) من (الكَتْف)، وهي حديدةٌ عريضةٌ طويلةٌ، تكونُ مع السيف[2].

فرحَ سعدٌ رضي الله عنه بقتلِ العاصِ بن سعيد وأخْذِ سيفِه المشهور، وهو يحبُّ هذا السيفَ لمضائِه وشهرتِه، وها هو بين يديه غنيمةً عزيزةً ثمينة! ولذلك طلبه من رسولِ الله ﷺ، طلبَه لحرصِه على الجهاد، وتملُّكِ السلاحِ الحادِّ المؤثِّر في الكفار، ولو لم يكن هذا الاعتبارُ لما طلبَه، لأننا عرفْنا عنه زهدَه في الدنيا ومتاعِها.

ولكنَّ الرسولَ لم يعطِه السيفَ رغمَ بسالتِه وشجاعتِه، لأنّه من (الغنائم)، وهي للمجاهدين على العموم، فأمَرَهُ بوضعِه في الغنائم والأقباض.

تألَّمَ سعدٌ من عدمِ تلبيةِ رسول الله ﷺ طلبه، فأعادَ عليه الطلب، وقال: يا رسولَ الله: قد شفى الله صدري بهذا السيفِ من المشركين، فهبْه لي!!

فأعادَ له الرسولُ ﷺ القول: إنَّ هذا السيف ليس لك، ولا لي، ضَعْه!!

---

(١) تفسير الطبري: ١٣/ ٣٧٧، حاشية.
(٢) المرجع السابق: ١٣/ ٣٧٣، حاشية.

عرَفَ سعدٌ الحزمَ والحسمَ من كلامِ رسول الله ﷺ، فذهبَ ووضعَهُ في الأقباض، ثم عادَ إلى النبيِّ ﷺ، فقال له بألَم: عسى أنْ يُعطَى هذا السيف من لم يُبْلِ بلائي!!

أي أنه يخشى أنْ يكونَ هذا السيفُ المشهورُ من نصيبِ رجلٍ ليس في مستوى سعدٍ في بلائِه وبسالتِه وإقدامِه وشجاعته، فلا يستحقه، ولا يفيه حقَّه!

ولكنَّ الرسولَ ﷺ لم يُعَلِّقْ على كلامِ سعد.. سارَ سعدٌ قليلاً في الميدان.

وبعدما سارَ قليلاً، سمعَ رجلاً يدعوه من ورائه، فخافَ أنْ يكونَ حَدَثَ حَدَثٌ، وأنْ يكونَ اللهُ قد أنزلَ فيه قرآناً، بسبب مراجعتِه لرسول الله ﷺ.

والْتَفَتَ خلْفَه، فإذا المنادي هو رسولُ الله ﷺ، فقال له: يا سعد: كنتَ سألْتَني السيفَ، وليس هو لي، وإنه قد صارَ لي، فهو لك!!»[1].

وهكذا أخذَ سعدٌ رضي الله عنه سيفَ (ذا الكَتيفَة) أشهرَ سيفٍ في قريش، بعد قتلِه لحامله.

سعد يقتل ثلاثة من الكفار:

الخلاصة أن سعداً قتل اثنين من الكفار بمفرده، هما: العاصُ بن سعيد بن العاص، وحذيفةُ بن أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي.

---

(١) مسند أحمد بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ٣/ ١١٧، حديث رقم: ١٥٣٨؛ ومسند أبي يعلى بتحقيق حسين أسد: ٢/ ٨٤ ـ ٨٥، حديث رقم: ٧٣٥؛ وتفسير الطبري بتحقيق محمود شاكر: ١٣/ ٣٧٢.

واشتركَ مع حمزةَ بن عبد المطلب في قتل (نُبَيْه بن الحجاج).

وقَتْلُهُ ثـلاثةً من قريشٍ السبعين يدلُّ على حسنِ بلائِه وبسالتِه وشجاعتِه ومهارتِه!

ولم يَعلمْ سعدٌ باستشهادِ أخيه عميرٍ رضي الله عنهما إلاّ بعدَ انتهاءِ المعركة، لأنه كان مشغولاً بقتالِ الكفار. وطلبَ الرسولُ ﷺ عدمَ إخبارِه بذلك.

روى الواقديُّ عن عامرِ بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا تُخبروا سَعْداً بقتْلِ أخيه، فيقتُلَ كلَّ أسيرٍ في أيديكم!»[1].

وهذا ـ إنْ صحَّ ـ يدلُّ على قوةِ شخصيةِ سعدٍ رضي الله عنه، وعلى حيويتِه وعاطفتِه واندفاعِه، فإنْ علمَ بقتْلِ أخيه فسوفَ يهجمُ على الأسرى يقتلُهم!

وياسر أربعة:

ولم يكتفِ سعد بقتل ثلاثةٍ من المشركين إنّما أخذَ مجموعةً من الأسرى، بينما لم يأخذْ بعضُ الصحابةِ المجاهدين أسيراً واحداً.

روى أبو داود وغيرُه عن عبدِ الله بنِ مسعود رضي الله عنه قال: اشتركتُ أنا، وعمار، وسعد، فيما نُصيبُ يومَ بدر. فجاءَ سعدٌ بأسيريْن، ولم أجئ أنا

---

(١) مغازي الواقدي: ١/١٠٦.

وعمار بشيء. . . »[1].

يخبرُ ابنُ مسعود رضي الله عنه أنَّه اتفقَ هو وسعدٌ وعمارُ بن ياسر رضي الله عنهم على أنْ يشتركَ الثلاثةُ في كلٍّ ما يصيبونَه ويأخذونَه ويَغنمونَه من الكفار، بحيثُ يقتسمون كلَّ ذلك فيما بينهم.

ولذلكَ أوردَ أبو داود الحديثَ في سننِه في باب الشركةِ على غيرِ رأسِ مال، مستدلاً به على جوازِ هذا النوعِ من الشركة، لأنّه مِنْ فعْلِ الصحابة، ونحنُ مأمورون باتّباعِ سنة الصحابةِ المهديّين.

ولم يجئ ابنُ مسعودٍ وعمارٌ رضي الله عنهما بشيء، رغم قتالِهما وشجاعتِهما، أما سعدٌ رضي الله عنه فقد جاءَ بأسيرين!!

وهذا واضحُ الدلالةِ على بسالةِ وشجاعة وبلاءِ سعدٍ في غزوة بدر!!

من الكفار الذين أَسَرَهم سعدٌ في غزوة بدر: الحارثُ بنُ أبي وَجْزَة. وجاءَ الوليدُ بن عقبة بنُ أبي معيط بفدائه، وكان أربعةَ آلاف درهم، دفعها إلى سعد![2].

ومنهم سالمُ بنُ شَمَّاخ، وقَدِمَ في فدائِه عثمانُ بن أبي حبيش، وبلغَ أربعةَ آلافِ درهم أيضاً[3]!

---

(١) سنن أبي داود (١٧) كتاب البيوع، (٣٠) باب الشركة على غير رأس مال، رقم: ٣٣٨٨.
(٢) مغازي الواقدي: ١/ ١٣٩.
(٣) المرجع السابق: ١/ ١٤٠.

ومنهم عبدُ الله بن السائب، بلغ فداؤُه ألف درهم[1].

ومنهم الفاكِه، مولى أُميةَ بن خلف[2].

لقد أسرَ سعدٌ رضي الله عنه أربعةً من المشركين. ومجموعُ أسرى المشركين كان سبعين أسيراً، فهو أسَرَ أربعةً من سبعين! وهذا دليلٌ على بسالتِه وبلائِه في الغزوة أيضاً!

ويصيب سهيل بن عمرو:

ورمى سعد أحد زعماء قريش (سهيلَ بن عمرو) فأصابه في عِرْقِ النِّسا، وسالَ دمُ ابنِ عمرو بغزارة، وهربَ من الميدان، فلقيَه مالكُ بن الدُّخْشُم وقد أُنهكتْ قواه فألقى عليه القبض.. وبحثَ سعدٌ عن سهيل بن عمرو، وتتبَّعَ أثَرَ الدم، فوجَدَهُ مكتَّفاً عند ابن الدخشم، فقال له: هذا أسيري أنا الذي رميتُه بقوسي وجرحتُه!

فقالَ له ابنُ الدخشم: إنّه أسيري أنا، لأني أنا الذي أخذتُه وكتّفتُه!

ولما اختصما فيه إلى الرسول ﷺ أخذَه منهما[3]!

وهكذا كان جهادُ سعدٍ رضي الله عنه في غزوةِ بدرٍ كبيراً، فاقَ جهادَ كثيرٍ من الصحابة المجاهدين في الغزوة، رغم بسالتِهم وشجاعتِهم!

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ١٤١.

(٢) المرجع السابق: ١/ ١٤٢.

(٣) المرجع السابق: ١/ ١٠٥.

قتلَ ثلاثةً من سبعين، وأسرَ أربعةً من سبعين، وجرحَ واحداً من زعماءِ المشـركين! هذا ما سجَّلَه المؤرّخون، وقد يكونُ عددُ مَنْ قَتَلَهم أو شاركَ في قتلهم أكثر!

ولهذا شهدَ له أخوهُ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أنّه قاتلَ في بدر قتالَ الفارس والراجل.

ورغمَ أنّه كان يجاهدُ في سبيل الله، لرفعِ كلمةِ الله، إلاَّ أنّ اللهَ أعطاهُ المالَ من الغنائم، حيثَ أخذَ خمسة آلاف درهمٍ فِداءَ ثلاثةٍ من أسـراه، وهو مبلغٌ كبير، كما أخذَ سيف (ذا الكَتيفة) أشهر سـيف في قريش.

وكان سـعدٌ يعتزُّ بدورِه وجهادِه في غزوة بدر، ويشـكرُ اللهَ على ما وفَّقَهُ له، لأنها أولُ غزوةٍ ضدَّ المشركين، نصرَ اللهُ فيها المسلمين نصراً عظيماً.

سعد يحتفظ بالجبة التي حارب بها:

لما حارب المشركين في بدر كان يلبَسُ جُبَّةً من صوف، ولهذه الجبّةِ منزلةٌ خاصةٌ عنده! حافَظَ عليها، واحتفظَ بها، وكانتْ معه في أيِّ منطقةٍ ذهبَ إليها، وبقيَ محتفِظاً بها حتى آخرِ عمره!

ولما أدركتْه الوفاةُ سـنةَ خمسٍ وخمسين للهجرة، كان بجانبِه ابنُـه مصعب، فطلبَ منه أن يفتحَ صندوقاً بجانبه، ولما فتحه استخرجَ منه جبةَ صوفٍ خَلِقَةً بالية، وأمام استغرابِ أهله قال لهم: إذا أنا مِتُّ فكَفِّنوني بها، فإنني لقيتُ المشركين بها يومَ بدر، وإنما خبّأتُها لهذا اليوم[1]!.

---

(١) المستدرك للحاكم: ٣/ ٤٩٦.

خبّأَ الجبةَ لهذا اليوم، واحتفظ بها ثلاثاً وخمسين سنة، واعتبرها بركة، لأنه حاربَ بها المشركين في أولِ غزوة عظيمة، ولذلك أرادَ أنْ يُكَفَّنَ بها، ليلقى اللهَ بها!

وهذا يدلُّ على جوازِ أنْ يحتفظَ المسلمُ بشيءٍ عزيزٍ لديه، يرمزُ إلى حادثـةٍ مهمةٍ عنده، وعلى جوازِ التقرّبِ إلى الله به، ونحن مأمورون بالاقتداءِ بالصحابة الكرام رضوان الله عليهم!

(٧) جهادُ سعد في غزوة أحد

كانت غزوةُ أُحُد في شوال من السنةِ الثالثة، وسببُها رغبةُ قريش في الثأرِ من المسلمين، لهزيمتها في بدر، وقتْلِ وأسرِ عددٍ من رجالِهم، ولما علمَ الرسولُ ﷺ بخروجِهم لقتالِه استشارَ أصحابَه، ثم خرجَ بهم إلى أُحُد.

وكان سـعدُ بن أبي وقاص رضي الله عنه من الخارجيـن إلى المعركة.

دعوة سعد قبيل أحد:

والتقى سعد مع عبد الله بن جحش رضي الله عنهما قبلَ نشوبِ القتال، وتحدَّثا بشأنِ المعركة، وتذاكرا الأَجْرَ والثواب، والجنةَ ونعيمَها، ووجوبَ الإقدامِ وحسنَ الجهادِ والبلاءِ والثبات.

ثم قال عبدُ الله بن جحش: تعال يا أخي نَدْعُ اللهَ تعالى.

دعا سعدٌ ربّه قائلاً: «يا ربِّ: إذا لقينا العدوَّ غداً، فلَقِّني رجلاً شديداً

بأْسُـه، شديداً حَرْدُه، أُقاتِلُـه ويُقاتلُني، ثم ارزقْني الظَّفَرَ عليه، حتى أقتله وآخذَ سَلَبَه. . »! وأمَّنَ عبدُ الله بن جحش على دعوته.

سـألَ سعدٌ اللهَ أنْ ييسـرَ له رجلاً كافراً شـجاعاً شديداً قوياً، فيقتتلان ببسـالةٍ وشجاعة، ثم سألَ ربَّه أنْ يرزقَه الظفرَ عليه، ليقتلَه ويـأخُذَ سلاحَه.

هذه الدعوةُ تدلُّ على طبيعةِ سعدٍ وشخصيتِه الجهادية، إنه يريدُ رجلاً كافراً قوياً، ليكونَ من مستواهُ في القوة، فهو لا يريدُ قتالَ رجلٍ ضعيفٍ جبان، ليس أهلاً لمقاتلتِه، ويريدُ بعدَ ذلك أنْ يتغلَّبَ عليه ويقتلَه، ويأخذَ سَـلَبَه وسلاحَه، ليقاتِلَ به أعداءَ اللهِ مرةً أخرى.

إنّه رجلٌ مجاهدٌ، وطَّن نفسَه على الجهاد، يَخرجُ من جهادٍ إلى جهاد، رغبتُه هي قتالُ الكفار وقتْلُهم وأخْذُ سلاحِهم، ويحبُّ أن يبقى حياً ليمارسَ هذه الرغبة باستمرار!

ودعوة عبد الله بن جحش:

هذه دعوة سعد، فماذا كانت دعوةُ عبدِ الله بن جحش رضي الله عنهما؟

قال: «اللهمَّ ارزقني رجلاً شديداً حَرْدُه، شديداً بأسُه، أقاتلُه فيكَ ويقاتلُني، ثم يأخذني، فيجدعُ أنفي وأُذُني! فإذا لقيتُكَ غداً قلتَ: فيمَ جُدِعَ أنفُك وأُذُنُك؟ فأقول: فيك وفي رسولِك! فتقول: صدقت» وأمَّنَ سعدٌ على دعوته!

قال سعد: كانت دعوتُه خيراً من دعوتي! فلقد رأيتُه آخرَ النهارِ وإنَّ أنفه

وأذنَه لمعلَّقانِ في خيط. . . »[1].

ودعوةُ عبدِ الله بن جحش تدلُّ على طبيعته وشخصيته، وهو رجلُ جهادٍ وإقدام، وكان يتصفُ بالشجاعة، وجاهدَ في غزوةِ أُحُد جهادَ الأبطال.

ولكنّه كان يتمنّى الشهادة في سبيل الله، ويرنو بنظرِه إلى الجنة ونعيمها، ولذلك سأل اللهَ أن ييسرَ له رجلاً كافراً قوياً، يقاتلَه قتالاً شديداً، لينالَ أجْرَ القتالِ الجزيل، ثم يكتبَ اللهُ له الشهادة، وتُقطعَ أُذُنُه، ويُجدَعَ أنفُه، في سبيل الله!

لم يكنْ عبدُ الله بن جحش رضي الله عنه بهذه الدعوة كارهاً للدنيا، يائساً منها، راغباً في التخلُّصِ من الحياة، إنما كان حريصاً على الجنة، مقبلاً على الآخرة، كان يريدُ ما هو أبقى، ويطلبُ الشهادةَ التي توصلُه إلى ذلك!

واستجابَ اللهُ الدعوتَين! فيسَّرَ لسعدٍ قتالَ كفارٍ أقوياءٍ، تغلّبَ عليهم بفضلِ الله، وكتَبَ لعبدِ الله بن جحش الشهادة على أرضِ أُحُد.

ولذلك علَّقَ سعدٌ على دعوتيهما بقوله: كانت دعوةُ عبدِ الله بن جحش خيراً من دعوتي. لقد رأيتُه آخر النهار وإنَّ أنفَه وأُذنَه لمعلقان في خيط!

فضل سعد على عبد الله بن جحش:

دعوة عبد الله بن جحش خير، لأنه نال الشهادةَ في سبيل الله، وهي ثمنٌ عظيمٌ كريم.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي: ١/ ١١٢.

لكنَّ سعداً كانَ أفضلَ من عبدِ الله بن جحش رضي الله عنهما، لأنه عاشَ بعد هذه الدعوةِ حوالي خمسين سنة! وهي مدّةٌ طويلة، جاهَدَ في هذه المدةِ جهاداً كبيراً، وفتحَ بلادَ العراق، وهذا ضاعفَ أجرَه وثوابَه، وكم عملَ أعمالاً صالحةً خلال هذه المدّة!!

وسعدٌ روى عن حادثةٍ أمامَ رسولِ الله ﷺ بهذا المعنى.

روى الحاكمُ وأحمد وغيرهما عن عامرِ بنِ سعد بن أبي وقاص، عن أبيه رضي الله عنه قال: كان رجلان أخَوانِ في عهد رسول الله ﷺ، وكان أحدُهما أفضلَ من الآخر، فتوفِّيَ الذي هو أفضلُهما، ثم عمَّرَ الآخرُ بعده أربعين ليلة، ثم توفي..

فذُكر لرسولِ الله ﷺ فضْلُ الأولِ على الآخر. فقالَ ﷺ: «ألم يكنْ يصلي؟»

فقالوا: بلى يا رسول الله! فكان لا بأس به!

فقال ﷺ: «وما يدريكم ماذا بلغَتْ صلاتُه؟..» ثم قال: «إنما مَثَلُ الصلاةِ كمَثَل نهرٍ جارٍ ببابِ رجل، غَمْرٍ عَذْب، يقتحمُ فيه كلَّ يوم خمسَ مرّات، فماذا ترونَ يبقى من درنِه؟..»[1].

---

(١) مسند أحمد بتحقيق الأرناؤوط: ٣/ ١١٥، حديث رقم: ١٥٣٤. وقال الأرناؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم، ورجاله ثقات؛ والمستدرك للحاكم: ١/ ٢٠٠.

يقررُ رسولُ الله ﷺ أنَّ مَنْ طالَ عمرُه وتأخَّرَتْ وفاتُه، وكثُرَتْ طاعاتُه، يكونُ أكثرَ أجراً من رجلٍ أفضلَ منه، لكنه ماتَ قبلَه!

ولهذا كان أجرُ سعدٍ أكثرَ من أجْرِ عبدِ الله بن جحش، رضي الله عنهما، مع أنّه لم يمُتْ شهيداً مثلَه، لأنَّه عاشَ بعده خمسين سنة! وهو أفضلُ منه أصلاً، لأنَّه من العشرةِ المبشَّرين بالجنّة، كما سبقَ أنْ بيَّنَّا.

سعد يقتل حامل لواء المشركين:

ولما نشبَ القتالُ يوم أحد كان قوياً شديداً، وكانت الغلبةُ للمسلمين في الجولةِ الأُولى، وكان لواءُ المسلمين مع مصعب بن عمير رضي الله عنه، ولواءُ المشركين مع طلحةَ بن أبي طلحة من بني عبد الدار، فخرجَ يطلبُ المبارزة، فخرجَ له عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فبارزَه وقتلَه.

ثم حملَ لواءَ المشركين بعدَه أخوه عثمانُ بن أبي طلحة، فحملَ عليه حمزةُ بن عبد المطلب رضي الله عنه، فقتَلَه.

ثم حملَ لواءَهم أبو سعد بنُ أبي طلحة، بعدما شاهدَ مصرعَ أَخوَيْه، فقامَتْ نساءُ المشركين خلْفَه يحمِّسْنَه ويقُلْن:

ضَرْباً بَني عَبْدِ الدَّارْ ضَرْباً حُماةَ الأَدْبارْ
ضَرْباً بكُلِّ بَتَّار

وكانَ أبو سعد دارعاً يلبسُ درعَه، وعلى رأسِه مغفر، ونظرَ إليه سعدُ بن أبي وقاص رضي الله عنه ليرميَه بسهمِه، وأمعنَ النظرَ ليجدَ في جسمِه مكاناً

يُصيبُه السهم، فوجَدَ حنجرتَه مكشوفة، ووجَّه سهمَه إليها، فوقَعَ فيها، وأدلعَ لسانَه من شدةِ الإصابةِ وخَرَّ صريعاً[1].

وقيل: إنَّ سعداً رضي الله عنه لما رأى أبا سعد بن طلحة يحملُ لواءَ المشركين بعدَ مقتلِ أَخَوَيْه، هجمَ عليه بسيفِه ولم يرْمِه بسهمه، فضربَهُ به ضربةً قويةً قطعَ بها يدَه اليمنى، فأخذَ اللواءَ بيدِه اليسرى، فقطَعَها سعدٌ بسيفه، فأخذَ اللواءَ بذراعيْه وضمَّه إلى صدره، فتناولَ سعدٌ قوسَه، وأدخلَ طرفَه بين درعِه الذي على جسمِه ومغفرِه الذي على رأسه، وقلعَ المغفرَ عن رأسِه، فبدَتْ رقبتُه، فضربَهُ بالسيف وفصلَ رأسَه عن جسمِه، وقضى عليه[2]!

إنَّ سعدَ بنَ أبي وقاص هو قاتلُ حاملِ لواء المشركين أبي سعد بنِ أبي طلحة، سواءٌ قَتَلَهُ بسهمِه أمْ بسيفِه، وسعدٌ ماهرٌ في القتال، سواءٌ رميُه بالسهامِ أمْ ضربُه بالسيوف، وما تفصيلُ قتْلِه لأبي سعد بسيفِه إلا دليلٌ على هذه المهارة!

قالَ ابنُ إسحاق: «قَتَلَ أبا سعدِ بنِ أبي طلحة سعدُ بنُ أبي وقاص»[3]

وبعدَ قتْلِ أبي سعد حملَ لواءَ المشركين ابنُ أخيه مسافعُ بنُ طلحةَ بنِ أبي طلحة، فقَتَلَه عاصمُ بن ثابت، فحملَه أخوهُ الجلاسُ بن طلحة، فقَتَلَه عاصمٌ أيضاً، ثم حملَه كلابُ بن طلحة فقتلَه الزبيرُ بن العوام رضي الله عنه[4]!

---

(١) انظر مغازي الواقدي: ١/ ٢٢٧.
(٢) المرجع السابق نفسه.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ٧٨.
(٤) مغازي الوقدي: ١/ ٢٢٨.

وهكذا قُتِلَ ستةُ أقارب من حملةِ لواءِ المشركين: طلحةُ بن أبي طلحة، ثم أخوه عثمان، ثم أخوه أبو سعد، ثم مسافعُ بن طلحة، ثم أخوه الجلاس، ثم أخوه كلاب!

ثم حملَ لواءَ المشـركين غلامٌ حبشـيٌّ لبني أبي طلحة، فقُتل. واختُلِفَ فيمنْ قَتَله: «فقائل: قتلَهُ سعدُ بن أبي وقاص، وقائلٌ: قتَلَه عليُّ بن أبي طالب. وقائل: قتلَه قُزْمان. وهو الراجح»[1].

مفاجاة هزّت المسلمين:

ثم هزم الله المشركين، وفَرُّوا من ميدانِ أُحُد، وتركوا لواءَهم ملقًى على أرض المعركة.

قالَ الزبيرُ بن العوام رضي الله عنه: واللهِ لقد رأيتُني أنظر إلى (خَدَم) هند بنت عتبة - امرأة أبي سفيان - وصواحِبِها مُشَمِّرات هوارب، ما دونَ أخذهن قليلٌ ولا كثير.

وبدأَ الصحابةُ بجمعِ الغنائم، ورآهم إخوانُهم الرماة، الذين وضَعَهم الرسولُ ﷺ على الجبل، وأَمَرَهم بعدمِ مغادرةِ الجبل مهما كانت النتائج، فظنّـوا أنَّ المعركةَ قد انتهت، ولذلكَ نَزَلوا يجمعـون الغنائم مع إخوانهم، ولم يَبْقَ على الجبلِ إلا عددٌ قليلٌ من الرماة. وكان قائدُ خيلِ المشركين خالد بن الوليد، فلما رأى الجبلَ مكشوفاً قد نزلَ عنه الرماة، استدارَ إليه بالخيل، فقَتَلَ مَنْ بقيَ عليه من الصحابة، ثم نزلَ على المسلمين في ميدانِ أُحُد!

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٣/ ٨٢.

وفوجِىءَ المسلمونَ بالمشركين يَهجمونَ عليهم، ولم يتوقَّعوا ذلك، وانقلبَ الميزانُ لصالح المشركين، وأُصيبَ المسلمون بالجِراح، واستُشهِدَ منهم مَن استُشهِد . .

ثبات سعد وإخوانه أمام رسول الله ﷺ:

وهجم المشـركون على رسـولِ الله ﷺ يريدون قَتْلَـه، ووقفَ أمامه أصحابُه يُدافعون عنه، منهم طلحةُ بنُ عبيد الله، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، وأبو دجانة سِماكُ بن خَرَشَة رضوان الله عليهم.

وكان سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه في مقدَّمةِ هؤلاء، حيث أبلى بلاءً حسناً عظيماً، واستخدمَ مهارتَه في الرمي على أرفعِ صورة.

قال الواقدي: ثبتَ رسولُ الله ﷺ يومَ أُحُد في مجموعةٍ من الصحابة، منهم: أبو بكر الصديق، وعليُّ بن أبي طالب، وعبدُ الرحمن بن عوف، وسعدُ ابن أبي وقاص، وطلحةُ بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح، والزبيرُ بن العوام، وأبو دجانة، وعاصمُ بن ثابت، والحبابُ بن المنذر، والحارثُ بن الصِّمَّة، وسهلُ بن حنيف، وأُسيدُ بن حضير، وسعدُ بن معاذ، ومحمدُ بن مسلمة[1].

سعد يرى الملائكة يوم أحد:

ومن كراماتِ سعدٍ في غزوةِ أُحُد أنَّ الله كشفَ له عن بصرِه وبصيرتِه،

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٤٠.

فرأى مَلَكيْن من الملائكـة، في صورةِ رجليْن، يَلبسـانِ الملابـسَ البيض، يُقاتلان عنه، ويَدفعان عنه المشركين.

روى البخاريُّ عن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن أبيه، عن جده، عن سعدِ بنِ أبي وقاص رضي الله عنه قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يـومَ أُحُد، ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثيـابٌ بيض، كأَشَدِّ القتال، ما رأيتُهما قبلُ ولا بَعد...[1].

وروى مسـلمٌ عن سـعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «لقد رأيتُ يومَ أُحُد عن يمينِ رسولِ الله ﷺ وعن يساره رجلين، عليهما ثيابٌ بيض، ما رأيتُهمـا قبلُ ولا بعد. يعني جبريـل وميكائيل، عليهمـا السلام..»[2].

كان سعدٌ بجانبِ النبيِّ ﷺ، لما هجمَ المشركون على المسلمين، في ميدانِ أُحُد، وشاهَدَ المَلَكين جبريل وميكائيل، أحدُهما عن يمينِ النبيِّ ﷺ، والثاني عن شماله، يلبسان الملابسَ البيض، ويقاتلان عنه كأشدِّ القتال، ولم يرهما قبلَ ذلك اليوم ولا بعده.

وهذا يدلُّ على أنَّ اللهَ أنزلَ الملائكةَ يومَ أُحد على المسلمين، كما أنزلها عليهم يومَ بدر، وأنَّ الملائكة قاتلت المشركين يومَ أُحُد، كما قاتَلَتهم يومَ

---

(١) البخاري (٦٤) كتاب المغازي، (٨) باب «إذا همّت طائفتان..»، حديث رقم: ٤٠٥٤.

(٢) مسلم (٤٣) كتاب الفضائل، (١٠) باب في قتال جبريل وميكائيل عن النبي يوم أُحُد، حديث رقم: ٢٣٠٦.

بدر، وهذا ما دلَّ عليه ظاهرُ القرآن والأحاديثِ الصحيحة، ورجَّحه جمهورُ العلماء.

ويدلُّ أيضاً على تكريمِ اللهِ لسعد رضي الله عنه حيث رأى المَلَكين على صورتهما البشرية، وهما يقاتلان بين يدي رسول الله ﷺ!

وروى الواقديُّ عن عائشة بنتِ سعدِ بن أبي وقاص، عن أبيها رضي الله عنه، قال: لقد رأيتُني أرمي بالسهم يومئذ، فيردُّه عَلَيَّ رجلٌ أبيضُ حسنُ الوجه، لا أعرفُه، حتى كان بَعد، فظننتُ أنّه مَلَك(١)!

مهارة سعد في الرماية:

وقف سعد أمام رسولِ الله ﷺ، في مجموعةٍ من الصحابة، في مقدّمتهم طلحةُ بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبو دجانة، رضي الله عنهم.

واستخدمَ سعدٌ مهارتَه الفائقة في رميِ السهام، حيثُ نثرَ كنانتَه ورمى ما فيها من سهام، ثم نَثَرَ له رسولُ الله ﷺ كنانته، فرمى ما فيها من سهام.

روى ابنُ عساكر عن ابن شهاب الزهري أنَّ سعداً رضي الله عنه قَتَلَ يومَ أُحُدٍ ثلاثةً من الكفارِ بسهمٍ واحد! رمى بالسهمِ المشركين فأصابَ أحَدَهم فقَتَلَه، فردَّه المشركونَ به فلم يُصِبْه، فتناوَلَه ورمى به مرةً ثانية، فأصابَ أحدَهم فقتلَه، فردَّه عليه المشركون فلم يُصبْه، فرمى به سعدٌ مرةً ثالثة، فأصابَ أحدَهم فقتَلَه!

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٣٤.

فتعجَّب المسلمون من فعْلِه ودقَّتِه ومهارتِه، فقال: أَنبَلَنيهِ رسولُ الله ﷺ! فهو الذي ناولَني إيّاه[1]!

الرسول ﷺ يفدِّي سعداً بأبويه:

ومن إعجابِ الرسولِ ﷺ بسعدٍ ومهارتِه في الرمي أنَّه فَدَّاهُ بأَبَوَيْه، وقال له: فِداكَ أبي وأمي.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن سعيد بن المسيب، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «لقد جمعَ لي رسولُ الله ﷺ أبويْه يومَ أُحُد»[2].

وفي لفظٍ آخر للبخاري عن سعيد بن المسيب قال: «قالَ سعدُ بن أبي وقاص: لقد جمعَ لي رسولُ الله ﷺ يومَ أُحُد أَبَوَيْه كلَيْهما.. يريدُ حينَ قال: فِداكَ أبي وأمي، وهو يقاتل»[3].

وروى البخاريُّ ومسلم عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «ما جمعَ رسولُ الله ﷺ أَبَوَيْه لأحد، غيرِ سعدِ بنِ مالك، فإنه جعلَ يقولُ له يومَ أُحُد: ارمِ، فداكَ أبي وأُمّي..»[4].

---

(١) حياة الصحابة: ٢/ ١٨، نقلاً عن كنز العمال للمتقي الهندي.

(٢) البخاري (٦٢) كتاب فضائل الصحاية، (١٥) باب مناقب سعد، حديث رقم: ٣٧٢٥؛ ومسلم (٤٤) كتاب فضائل الصحابة، (٥) باب فضائل سعد، حديث رقم: ٢٤١٢.

(٣) البخاري (٦٤) كتاب المغازي، (١٨) باب إذ همت طائفتان، حديث رقم: ٤٠٥٧.

(٤) البخاري (٥٦) كتاب الجهاد، (٨) باب المحن، حديث رقم: ٢٩٠٥؛ =

إنها منزلةٌ عاليةٌ لسعد رضي الله عنه عند رسولِ الله ﷺ، أنْ يقولَ له: ارمِ يا سعدُ، فداك أبي وأُمي.

يُفَدِّيه بأبيهِ وأمِّهِ لجهدِه الكبيرِ في الجهاد، ودقتِه الفائقةِ في الرمي، ويسألُ الله أنْ يُسدِّدَ رميتَه، ليصيبَ هدفَه.

وكان رسولُ الله ﷺ يناولُه السهامَ والنبالَ ليرمي بها المشركين.

روى ابنُ إسحاق عن سعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ يناولُني النَّبْل، وهو يقول: ارمِ، فِداكَ أبي وأُمي! حتى إنّه ليناولُني السهمَ ما لَه نصل، فيقول: ارمِ به[1]!

فَعَلَ رسولُ الله ﷺ ذلك بعد أنْ نَثَلَ كِنانتَه، وأخرجَ ما فيها من سهام.

روى البخاريُّ عن سعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: نَثَلَ لي النبيُّ ﷺ كِنانتَه يومَ أُحُد، فقال: «ارمِ فِداكَ أبي وأمي»[2].

والكِنانةُ هي الجعبةُ التي توضَعُ فيها السهام، ونَثْلُها إخراجُ ما فيها من السهام.

وقد كانَ سعدٌ رضي الله عنه يفخرُ بهذا الموقف، وبَجمعِ الرسولِ ﷺ

= ومسلم كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم: ٢٤١١.

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٨٧.

(٢) البخاري (٦٤) كتاب المغازي، (١٨) باب إذ همت طائفتان، حديث رقم: ٤٠٥٥.

أَبَوَيْه له، ويشكرُ اللهَ على ما أنعمَ به من هذه النِّعمة، كما كانَ أولادُه يفخرون بذلك.

ذكرَ الذهبيُّ أنَّ عائشةَ بنتَ سعد كانت تقول: أنا ابنةُ المهاجر، الذي فدَّاه رسولُ الله ﷺ يومَ أُحُد بالأبوَيْن[1].

سعد يصرع (حِبّان بن العَرِقَة):

من الذين رماهم سعدٌ وصرَعَهم (حِبَّانُ بن العَرِقَة)، وكانَ من أمهرِ رماةِ المشركين، وقد آذى المسلمينَ بسهامه، وأوقعَ بهم الجراح.

وبينما كان القتالُ مستمراً، وسعدٌ بين يدي النبيِّ ﷺ يُدافعُ عنه، ويرمي بسهامِه، والرسولُ ﷺ يدعو له ويقول: ارْمِ سعدٌ فِداكَ أبي وأمي. إذ جاءتْ أُمُّ أيمن ـ بركةُ بنتُ ثعلبة، رضي الله عنها، حاضنةُ رسولِ الله ﷺ ـ تحملُ معها الماءَ لتسقي الجرحى، فرآها حِبَّانُ بنُ العَرِقَة، فرماها بسهْمِه، فأصابَها وصرعَها وسقطَتْ على الأرض! وانكشفَ عنها ثوبُها، وظهرَتْ عورتُها! ولما رأى ابنُ العَرِقَة ذلك، شَمَتَ بها، واستغرقَ في الضحك!

فتألَّم النبيُّ ﷺ، وحزنَ لما جرى، وشقَّ ذلك عليه، إنَّ أُمَّ أيمن حاضنتُه وهو صغير، وهي امرأةٌ صالحة، فكيفَ يصرعُها ذلك المشرك ويكشفُ عورتَها؟!

تناولَ الرسولُ ﷺ سهماً لا نصلَ له، وناولَه إلى سعدٍ رضي الله عنه

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي: ١/ ١٠١.

الـواقفِ أمامه، يرمي المشركين، وأَمَرَه أنْ يرميَ (حِبَّانَ بنَ العَرَقَـة) المتستِّـرَ خلف صخرة!

صَوَّبَ سعدٌ الرامي الماهرُ سهْمَه إلى حِبَّان، ولما أظْهَرَ نفْسَه رماهُ سعدٌ بذلك السهم، فوقعَ في ثغرَةِ نَحْره، ووقعَ مستلقياً على ظهرِه من شدّةِ الضربة، وانكشَفَتْ عورتُه!!

حمدَ سعدٌ ربَّه على حُسنِ إصابتِه، ونظرَ إلى رسولِ الله ﷺ، فإذا به فرحٌ مسرور، حيثُ ضحكَ رسولُ الله ﷺ، حتى بدَتْ نواجذُه.

وقال: لقد اسْتَقَدْتَ يا سعد، سَدَّدَ اللهُ رميتك، وأجابَ دعوتَك[1]!

أي: لقد أخذتَ بثأرِ أُمِّ أيمن، فقد صرعْتَ ابـنَ العَرَقَـة الذي صرَعَها، وانكشفَتْ عورتُه كما انكشفَتْ عورتُها!

سعد يقتل مالك بن زهير:

ومن الذين رماهم أيضاً مالكَ بنَ زهير الجُشَمي، وكانَ من أمهرِ رماةِ قريش، مِثْلَ ابنِ العرقة، وقد تستَّرَ خلْفَ صخرة وآذى المسلمين بسهامه، وأوقعَ فيهم الجراح.

نظرَ إليه سعد، ووجَّه إليه سَهْمَه، وانتَظَرَ أنْ يُظهِرَ نفْسَه، ورفعَ ابنُ زهيرِ رأسه ليرمي المسلمين، فرماهُ سعدٌ بسهمه، ووقعَ السهمُ في عينه، وخرجَ من قفاه، ووثبَ إلى أعْلى من شدّةِ الضربة، ثم سقط على الأرضِ جثةً هامدة[2]!

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٤١.
(٢) مغازي الواقدي: ١/ ٢٤١ ـ ٢٤٢.

وهكذا تخلَّصَ سعدٌ من أمهرِ راميَيْن عند المشركين، حِبَّان بنِ العَرَقَة ومالك بن زهير، فصرَعَ الأولَ وشلَّ حركتَه، وقضى على الثاني وأزهقَ روحَه!

أربعة مشركين يؤذون رسول الله ﷺ:

واشتدَّت المعركةُ في ميدانِ أُحُد، حتى وصلَتْ إلى رسولِ الله ﷺ، وكان الذي آذاه عتبةُ بن أبي وقاص ـ شقيقُ سعدٍ رضي الله عنه ـ وكان من أشدِّ قريشٍ عداوةً لرسولِ الله ﷺ!

وكان عتبةُ واحداً من أربعةٍ من المشركين كانوا قد تعاهدوا وتعاقدوا في مكةَ قبلَ خروجِهم إلى أُحُد، على قتْلِ رسولِ الله ﷺ، والثلاثةُ الآخرون: عبدُ الله بن شهاب، وأُبيُّ بن خَلَف، وابنُ قميئة.

ولما أُصيبَ المسلمون في الجولةِ الثانيةِ من المعركة، أراد هؤلاء الأعداءُ تنفيذَ ما تعاهَدوا عليه من قَتْلِ رسولِ الله ﷺ، فصاروا يبحثونَ عنه في ميدان المعركة.

وكانَ أبو عامر الفاسقُ قد أَمَرَ رجالَه بحفرِ حُفَرٍ في أرضِ أُحُد، ثم تغطيتِها، لتكونَ مصايدَ للمسلمين يقعون فيها.

وقفَ رسولُ الله ﷺ على حفرةٍ منها، وهو لا يشعرُ بها، فرآهُ رجلان منهم، هما ابنُ قميئة وعتبةُ بن أبي وقاص. وكان ﷺ يلبسُ درعيْن، ويضعُ المغفرَ على رأسِه.

رماهُ عتبةُ بنُ أبي وقاص بأربعةِ أحجار، فأصابَ رباعيتَه السفلى اليمنى،

فكَسَرَها ـ والرباعيةُ سِنٌّ بين النابِ والثنية ـ وسالَ الدمُ من وجهِه الشريفِ ﷺ، بسببِ حجارةِ عُتبة.

ورماهُ ابنُ قميئة بالحجارة، فَشَجَّهُ في وجنتيْه، حتى دخلَتْ حلقاتُ المغفرِ في وجنتيه، وسالَ الدمُ منهما.

وهجمَ عليه ابنُ قميئة بالسيف ليقتلَه، فسقطَ ﷺ في الحفرةِ التي كان واقفاً عليها، ولذلك لم يُصِبْهُ السيف، ولكنْ جُحِشَتْ ركبتاه وجُرِحَتا.

أقبلَ عليه طلحةُ بن عبيد الله رضي الله عنه ليرفَعَه من الحفرة، وصارَ أبو عبيدةَ رضي الله عنه يعالجُه ليوقفَ نزيفَ الدمِ من وجهه الشريف، ويُخرجَ حَلَقاتِ المغفرِ من وجنتيه.

وسالَ الدمُ الشريفُ على لحيتِه ﷺ، وهو يقول: كيفَ يفلحُ قومٌ فعلوا هذا بنبيّهم، وهو يدعوهم إلى الله؟!

سعد يحرص على قتلِ أخيه عتبة:

وكان سعدُ بن أبي وقاص رضي الله عنه قريباً من رسولِ الله ﷺ، وشاهدَ ما فعلَه به أخوه عتبةُ وابنُ قميئة فحزِنَ لأجْلِه، وغضبَ عليهما.

ولحقَ سعدٌ بأخيه عتبةُ ليقتلَه، جزاءَ جريمتِه، وفرَّ عتبةُ منه، ودَخَلَ في صفوفِ المشركين، واخترقَ سعدٌ صفوفَهم وهو يقاتلُهم بحثاً عن أخيه، فعلَ ذلك مرتين، وأخوه يروغُ منه روغانَ الثعلب، ولما أرادَ أنْ يخترقَ صفوفَهم المرةَ الثالثةَ قالَ له رسولُ الله ﷺ: أتريدُ أنْ تقتلَ نفسَك؟ فكفَّ عنه.

قالَ سعدٌ رضي الله عنه عن هذه الحادثة: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: اشتدَّ غضبُ الله على قومٍ أدْمَوا فَمَ رسولِ الله ﷺ، اشتدَّ غضبُ اللهِ على قومٍ أدْمَوا وجْهَ رسولِ الله ﷺ، اشتدَّ غضبُ الله على رجلٍ قتلَه رسولُ الله ﷺ!

قال سعد: لقد شفاني من عتبة أخي، دعاءُ رسولِ الله ﷺ.. ولقد حرصْتُ على قتْلِه حرصاً ما حرصْتُه على شيءٍ قط..

وإنْ كانَ ما علمْتُه، لعاقّاً بالوالد، سيِّءَ الخُلق.. ولقد تَخَرَّمْتُ صفوفَ المشركين مرَّتين، أطلبُ أخي لأقتلَه، ولكنه راغَ مني روغانَ الثعلب.. فلما كانت المرةُ الثالثةُ قالَ لي رسولُ الله ﷺ: يا عبدَ الله: ما تريد؟ أتريدُ أنْ تقتلَ نفسَك؟ فكَفَفْتُ عنه.

ثم قال رسولُ الله ﷺ: اللهمَّ لا يحولَنَّ الحولُ على أحدٍ منهم!!

وواللهِ ما حالَ الحولُ على أحدٍ ممن رماه أو جرحه، ماتَ عتبةُ وابن قميئة![1].

ماتَ عتبةُ كافراً بعد غزوةِ أُحُد، ولا ننسى أنَّ أَحَدَ أبنائِه كان مسلماً مجاهداً، وهو هاشمُ بن عتبة، وقد اشتركَ مع عمِّه في فتوحِ العراق وفارس!

سعد يثني على جهاد طلحة:

وقد أثنى سعدٌ على طلحةَ بن عبيد الله رضي الله عنهما، لِما قامَ به من الجهادِ يومَ أُحُد، حيثُ وقفَ بين يدي رسولِ الله ﷺ يدافعُ عنه.

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٤٥.

قالَ سعد: يرحمُ اللهُ طلحة، إنّه كانَ أعظَمَنا غِناءً عن رسولِ الله ﷺ يومَ أُحُد!

قيل: كيف كان يا أبا إسحاق؟

قـال: لزمَ النبيَّ ﷺ، وكنّا نتفرقُ عنه ثم نثوبُ إليه. ولقد رأيتُه يدورُ حولَ النبيِّ ﷺ يترّسُ بنفسِه[1].

يخبرُ سعدٌ رضي الله عنه أنّه كان ممَّنْ دافعَ عن رسولِ الله ﷺ يومَ أُحُد مع مجموعـةٍ من الصحابـة، كانوا يتحرَّكون ويَصولون ويجولـون، ويذهبون ويأتون، يُقاتلونَ الكفار من كلِّ جانب، وهذه بطولةٌ عظيمة، وشجاعةٌ قوية!

لكنَّ طلحةَ بن عبيد الله رضي الله عنه لم يكنْ مثْلَهم، ولم يفعلْ فعلَهم، وإنّما فعلَ ما هو أعظمُ وأكبر، حيثُ جعلَ نفسَه (تُرْساً) للنبيِّ ﷺ وحماية، وقف أمامَه بشجاعة، وصارَ يتلقّى بجسمِه السِّهامَ والنِّبالَ التي يُطلقُها رماةُ المشركين على رسولِ الله ﷺ، فتقعُ في جسمِه، حتى أُغمي عليه، وسقط على الأرض من كثرةِ ما أصابه منها.

ووجَّه مالكُ بنُ زهير - أمهرُ رامٍ عند المشركين سهمَه إلى وجْهِ رسولِ الله ﷺ - قبل أنْ يقتله سعدٌ رضي الله عنه - ورأى طلحةُ من بعيدِ السهمَ موجَّهاً إلى وجْهِ الرسول ﷺ، وأيقنَ أنّه سيصيبه، فلما أطلقَ المشركُ سهْمَه تلقَّاهُ طلحةُ بيده، فوقعَ السهمُ فيها، وسَلِمَ وجهُ رسولِ الله ﷺ! وقد قطعَ السهمُ أصابعَ

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٥٤.

طلحة، وشلَّ يدَه، فكانتْ يدُه مشلولةً بعد ذلك.

روى البخاريُّ عن قيسِ بن أبي حازم قال: «رأيتُ يَدَ طلحة التي وقى بها النبيَّ ﷺ وقد شُلَّتْ...»[1].

وأخبرَ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه عن جهادِه هو وسعدٌ وأبو دجانة، ودفاعِهم عن رسولِ الله ﷺ. قال: ولقد رأيتُني يومئذٍ وإني لأذُبُّهم في ناحية، وإنَّ أبا دجانة لفي ناحيةٍ يذبُّ طائفةً منهم، وإنَّ سعدَ بن أبي وقاص يذبُّ طائفةً منهم، حتى فرَّجَ اللهُ ذلك كلَّه[2].

سعد يثني على جهاد المزني:

وممن أبلى بلاءً عظيماً يومَ أُحُد، حتى نالَ الشهادة (وَهْبُ بنُ قابوس المزني) وقد روى سعدُ بنُ أبي وقاص لابنِ أخيه بلالِ بنِ الحارث المزني ما فعلَ في ذلك اليوم، وكان ذلك في معركةِ القادسية.

قال بلالُ بن الحارث المزني: شهدْنا القادسيةَ مع سعدِ بنِ أبي وقاص، فلما فَتَحَ اللهُ علينا، وقُسِمتْ بيننا غنائمنا، أُسقطَ اسمُ فتى من آلِ قابوس المزني، فجئتُ سعداً حينَ فَرَغَ من نومِه. فقال: بلال؟ قلتُ: بلال! قال: مرحباً بك، مَنْ هذا معك؟ قلتُ: رجلٌ من قومي من آل قابوس.

فقال له سعد: ما أنتَ يا فتى من المزني الذي قُتِلَ يومَ أُحُد؟ قال: أنا ابنُ

---

(١) البخاري (٦٢) كتاب فضائل الصحابة، (١٤) باب ذكر طلحة بن عبيد الله، حديث رقم: ٣٧٢٤.

(٢) مغازي الواقدي: ١/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

أخيه. قال سعد: مرحباً وأهلاً، وأنعمَ اللهُ بك عيناً.

ثم قالَ سعد: ذلك الرجلُ - يقصدُ وهبَ بن قابوس المزني - شهدْتُ منه يومَ أُحُدٍ مشهداً ما شَهِدْتُه من أَحَد. لقد أحدقَ بنا المشركون من كلِّ ناحية، ورسولُ الله ﷺ وسْطنا، وكتائبُ المشركين تطلعُ من كلِّ ناحية، ورسولُ الله ﷺ يـرمي ببصرِه في النـاس يتوسَّـمُهم، يقول: مَنْ لهذه الكتيبـة؟ فيقولُ ذلك المزني: أنا لها يا رسولَ الله! فيقومُ لها يَرُدُّها!! فعلَ ذلك عدَّة مرّات..

ولا أنسى آخرَ مرةٍ قامَها، فقالَ له رسولُ الله ﷺ: قم وأبشِرْ بالجنّة! فقمتُ على إِثْرِه، ويعلمُ اللهُ أني أطلبُ مثْلَ ما يطلبُ من الشهادة.. فخضْنا حَوْمَتَهم حتى رجعْنا فيهم الثانية..

وأصابوهُ رحمه الله، ووددتُ واللهِ أني كنتُ أُصِبْتُ يومئذٍ معه! ولكنَّ أجلي استأخر!!

وأشهدُ أني رأيتُ رسولَ الله ﷺ واقفاً عليه وهو مقتول، وهو يقول: رضيَ اللهُ عنك، فإنّي راضٍ عنك!

ثم رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ قام على قدميه على قبرِه، حتى وُضِعَ في لَحْدِه، وعليهِ بُرْدَة، فمدَّ رسولُ الله ﷺ البردةَ على رأسِه فخمَّرَه، وأدرجَه فيها طولاً، وبلغَتْ نصفَ ساقيه، وأمَرَنا فجمعْنا الحَرْمَل، فجعلْناه على رِجليْه وهو في لحدِه، ثم انصرف!!

فما حـالٌ أموتُ عليها أحـبُّ إليَّ من أنْ ألقى اللهَ على حـالِ المزني[1].

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٧٦ - ٢٧٧.

سعد يرصد حركة المشركين:

وفَرَّجَ اللهُ عن المسلمين، وكشفَ عنهم الغمَّ والكرب، وانسحبَ المشركون من الميدان، واستُشهِدَ من المسلمين مَن استُشهد، وجُرحَ منهم مَنْ جُرِح.

ولما خلا ميدانُ أُحُدٍ من المشركين خشيَ الرسولُ ﷺ أن يتوجَّهوا إلى المدينة، ليحتلُّوها ويُفسدوا فيها! وأصحابُه على أرضِ المعركة، منهم الشهيدُ ومنهم الجريحُ ومنهم المصدوم!

وأحبَّ أنْ يستطلعَ الأمر، ويَعرفَ ماذا يريدُ المشركون أنْ يفعلوا، فانتدبَ لذلك سعدَ بنَ أبي وقاص رضي الله عنه!

قالَ له: يا سعد، قم فأْتِنا بخبرِ القوم. إنْ رَكبوا الإبلَ وجَنَّبوا الخيلَ فهو الظَّعنُ إلى مكة.. وإنْ ركبوا الخيلَ وجنَّبوا الإبل فهي الغارةُ على المدينة! والذي نفسي بيده، لئن ساروا إلى المدينة وأغاروا عليها، لأسيرنَّ إليهم، ثم لأُناجزَنَّهم!

قامَ سعدٌ رضي الله عنه مسرعاً منفِّذاً ما كلَّفه به رسول الله ﷺ، ولحقَ وحْدَه بخيلِ المشركين المنسحبين، وراقبهم بحكمةٍ وفطنة، وكان حريصاً على أنْ يَراهم ويسمعَ ما يقولون، على أنْ لا يروه! ولذلك كان يجيدُ الاختفاءَ مع الاقتراب! والجمعُ بين الاقترابِ والاختفاء فَنٌّ لا يتقنُه كثيرٌ من الناس!

قطعوا مسافةً طويلةً، وسعدٌ خلفَهم يعدو على قدَميْه، وهو المتمتّعُ باللياقةِ البدنية العالية، التي تمكِّنُه من الجريِ لمسافاتٍ طويلة، وقد مَرَّ مَعَنا أنَّه

ذَهَبَ إلى بدرٍ وعادَ منها إلى المدينة مشياً على قدميْه!

وقف المشركون في (العقيق) يتشاورون في الخطوة التالية: هل يُغيرونَ على المدينة أم يعودون إلى مكة؟ ووقفَ سعدٌ المتخفِّي قريباً منهم، بحيثُ يسمعُهم وهم يتكلَّمون، وهم لا يرونَه!

أشارَ أحدهم عليهم بركوبِ الخيل والإغارة على المدينة!

ولكنَّ صفوانَ بنَ أُميـة ردَّ هذا الرأي، وقال لهم: قد أصبتُم القـوم، وأوقعتُم فيهم القتلى والجرحى، وأرى أن تنصرفوا إلى مكة، فلا تدخلوا عليهم المدينة، وأنتم كالّون مُتْعَبون، واكتفوا بهذا الظفرِ الذي حقَّقْتُموه عليهم، فإن أغرتُمْ على المدينة فإنكم لا تدرون ما يغشاكم! ويومَ بدرٍ وَلَّيتُم وانتصروا عليكم، ولم يتَّبعوكم بعدما ظفروا بكم، فافْعَلوا بهم ما فعلوا بكم!

استجابوا الرأيِ صفوان بن أُمية، وقَرَّروا العودةَ إلى مكة. فركبوا الإبل، وجَنَّبوا الخيلَ، وانصرفوا إلى مكة!

«إن سعداً لمجرب»:

ورجع سعدٌ رضي الله عنه إلى رسولِ الله ﷺ، ليقدِّمَ له تقريرَه، وكان منكسراً متأثّراً.

ولما اقتربَ من المسلمين صارَ يمشي متمهِّلاً، حتى وصلَ إلى النبيِّ ﷺ، ثم قال له: يا رسولَ الله: لقد توجَّه القومُ إلى مكة، امتطَوا الإبلَ وجَنَّبوا الخيل!

ورأى رسولُ الله ﷺ آثارَ الانكسارِ والحزنِ على وجْهِ سعد، فقال له: ما لي أراكَ منكسراً؟

قالَ سعد: يا رسولَ الله: كرهْتُ أنْ آتيَ المسلمين فَرِحاً بقفولِهم إلى بلادِهم[1]!

وأثارَ انتباهَ الرسولِ ﷺ عودتُه يمشي متمهِّلاً، فقال له: ذهبْتَ شديداً مسْرِعاً، فلماذا جئْتَ على هينتِك؟

فقال: يا رسولَ الله: كرهتُ أنْ آتي أسعى وأجري، فيظنُّوا بي أني أجري خائفاً هارباً!!

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ سعداً لمجرِّب»[2]!

مجيءُ سعدٍ لرسولِ الله ﷺ حزيناً منكسراً بسببِ انسحابِ المشركين، يدلُّ على شخصيتِه المجاهدة، وهمَّتِه العالية، ورغبتِه في قتال المشركين والقضاءِ عليهم، لذلك لم يفرحْ بانسحابِ المشركين وتخليصِ المسلمين منهم، وكانَ يتمنَّى لو قاتلَهم المسلمون، وانتقموا منهم، وأوقعوا فيهم القتلى والجرحى!

بينما يفرحُ كثيرونَ بانسحابِ الأعداء، وإراحةِ المسلمين من خطرهم،

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي: ٩/ ١٥٤ ـ ١٥٥؛ وأعلام الحفاظ والمحدّثين لعبد الستار الشيخ: ٢/ ١٣٤ ـ ١٣٥.

فالذي يُفرحُ الآخرين من المجاهدين يُحزنُ سعداً المجاهدَ رضي الله عنه.

ومن عزّةِ سعدٍ وشجاعتِه أنّه لا يريدُ أنْ يؤخَذَ عليه مأخذُ ذلّ، أو يُظَنَّ به ظنُّ الجبن والخوف، فلما كلَّفه رسولُ الله ﷺ بمتابعةِ أخبارِ جيش المشركين ذهبَ خلفَهم مسرعاً حذراً، لكنّه عندما عادَ إلى المسلمين، لم يَجْرِ مسرعاً، وإنما كان يمشي على هينته وتمهُّلِه! فلماذا لم يسرع؟

إنّه خشيَ أنْ يراهُ المسلمون عائداً وهو يجري، فيظنُّوا أنّه خائفٌ هارب! وهو لا يريدُ أنْ يُظَنَّ به هذا الظن!

نفسُه الأبيّةُ العزيزةُ تأْبى اتّهامَها بالجبنِ والخوفِ والفَرَق، لأنَّها نفسٌ مجاهدةٌ شجاعة، وهو حسَّاسٌ تجاهَ هذا الأمر، وحريصٌ على أنْ يظهرَ بالمظهرِ الجهاديِّ الكريم، ولذلك جاءَ يمشي على مَهْلِه، رابطَ الجأش، ثابتَ القلب!

وأُعجِبَ رسولُ الله ﷺ بموقفِه، وبحُسْنِ تعليله لتصرُّفه، فأعطاهُ شهادةً عزيزة، بأنه إنسانٌ مجرِّب، حيث قال: «إنَّ سعداً لمجرِّب..».

إنَّه موقفٌ عظيمٌ يَدعو إلى الفخرِ، وحُقَّ لسعدٍ رضي الله عنه أنْ يفخرَ بهذه الشهادةِ العاليةِ له من رسولِ الله ﷺ.

وهو رضي الله عنه مجرِّبٌ ذكيٌّ فطنٌ، جَرَّبَ الحياة، وعرفَ ما يناسبُه من مظاهرِها، واختارَ المواقفَ الرجوليةَ الجهادية التي تتفقُ مع طبيعتِه الجادة.

(٨) جهاد سعد في غزوة الأحزاب

كان لسعدٍ رضي الله عنه دورٌ في الجهادِ بعدَ غزوةِ أُحُد. فبعدَ فترةٍ قصيرةٍ

من هذه الغزوة اشتركَ في سريَّةٍ وجَّهها الرسولُ ﷺ لقتال المشركين .

سعد في سرية أبي سلمة إلى قطن:

كانت غزوةُ أُحُد في شوال من السنةِ الثالثة ، وفي محرَّم من السنةِ الرابعةِ اشتركَ سعدٌ في سريةِ أبي سلمة إلى (قطَن) بعد شهريْن من غزوةِ أُحُد .

شهدَ أبو سلمة بنُ عبد الأسد رضي الله عنه غزوةَ أُحُد ، ومعه زوجته أُمُّ سلمة ، وجُرِحَ في الغزوةِ جُرْحاً شديداً في عضُده ، فأُخِذَ إلى منزِله للعلاج . .

ولما خرجَ رسولُ الله ﷺ بجرحى أُحُد إلى حمراءِ الأسدِ للحاقِ بقريش ، علمَ أبو سلمة بذلك ، وهو الجريحُ المريضُ في بيتِه ، فلم يشأْ أنْ يتخلَّفَ عن رسولِ الله ﷺ ، فركبَ حمارَه ، ولحقَ بالنبيِّ ﷺ ، وسارَ معه إلى حمراءِ الأسد . .

وعادَ أبو سلمةَ مع رسولِ الله ﷺ من حمراءِ الأسد إلى المدينة ، وبقيَ شهراً يداوي جرحَه ، حتى ظنَّ أنّه قد برئ .

وفي شهرِ محرّم من السنةِ الرابعةِ دعا الرسولُ ﷺ أبا سلمة بنَ عبد الأسد رضي الله عنه ، وعَقَدَ له لواء ، ووجَّهه إلى (قَطَن) ، ومعه مئةٌ وخمسون من المهاجرين والأنصار ، منهم سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه !

وسببُ هذه السرية أنَّه جاءَ الخبرُ إلى رسولِ الله ﷺ عن تجمّع أفرادٍ من قبيلةِ بني أسد في منطقة (قَطَن) لغزوِ المدينة ، فأرادَ رسولُ الله ﷺ أنْ يُفرقَهم ويهزمَهم قبل توجُّهِهم إلى المدينة .

سارَ أبو سلمة رضي الله عنه بأصحابِه ، وغذّوا السيرَ مسرعين ، وكانوا

يسيرونَ في الليل، ويكمنون في النهارِ، لئلا يراهم الكفار.

وصلَ المجاهدون ماءَ (قَطَن) في أرضِ بني أسَد ليلاً، ولم يشعرْ بهم الكفارُ من بني أَسَد ومَنْ تحالَفَ معهم، وكانت جموعُهم حولَ الماء.

وعظ أبو سلمة إخوانَه المجاهدين رضي الله عنهم، وأمرهم بتقوى الله، ورغَّبهم في الجهادِ، وحضَّهم عليه، وأمرَهم بقتالِ الكفّارِ وملاحقتِهم، وقَتْلِ مَنْ يقدرون عليه منهم، وأخذِ ما يَقْدرون عليه من الأنعام والمواشي والغنائم.

سعد يبدأ القتال في قطن:

وفي الصباحِ نشبَ القتالُ بين المجاهدين والكفار، وكان منْ أشدِّ المسلمين في القتال سعدُ بن أبي وقاص رضي الله عنه.. فهو الذي بدأ القتال، حيثُ حَمَلَ على رجلٍ من قادةِ الكفار. ضربَهُ بالسيفِ فقطَعَ رجلَه وصرعَه، ثم ذفَّفَ عليه وأزهق روحَه.

وحملَ رجلٌ من المشركين على رجلٍ من المجاهدين فقتَلَه.

وصاحَ سعدٌ في إخوانِه يَدْعوهم للقتال، وقال لهم: ماذا تنتظرون؟

فحملوا جميعاً على المشركين، وما هي إلاّ ساعةٌ حتى انهزمَ الكفارُ من الميدان، مخلِّفين وراءَهم كلَّ شيء..

استاقَ المجاهدون ما خَلَّفَه المشركون من الأنعام، ودفنوا أخاهم الذي استُشهِدَ على ماء (قطن).. وعادوا إلى المدينة.

وأعطوا الخُمُسَ من الغنائم لرجلٍ طائيٍّ، لأنَّهم كانوا في طريقهم إلى

(قطن) قد ضلّوا الطريق، فالتقوا رجلاً من طيء، خبيراً بالطريق، واشترطَ أنْ يأخذَ خُمُسَ الغنائم مقابلَ أنْ يكون دليلاً لهم!

قال سعدُ بن أبي وقاص رضي الله عنه: لما أخطأْنا الطريقَ إلى قطن استأْجَرْنا رجلاً من العربِ دليلاً يدلّنا على الطريق.

فقال: أنا أهجمُ بكم على نَعَمِهم، فما تجعلونَ لي منه؟

قلْنا: نجعلُ لك الخُمُس!

فدلَّنا على الطريق، وأَخَذَ خُمُسَ المغنم[1].

وبعدَ فترة من عودةِ سعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه من سريةِ أبي سَلَمة إلى قَطَن، وقعتْ غزوةُ الأحزاب، وكانَ لسعدٍ دورٌ باهرٌ فيها.

غزوة الأحزاب في السنة الخامسة:

كانت غزوة الأحزابِ في شهرِ شوال من السنةِ الخامسةِ للهجرة، وسببُها تأليبُ زعيم اليهود (حُيَيِّ بنِ أخطب) العربَ المشركين لقتالِ المسلمين في المدينة، حيث كان إجلاءُ يهودِ بني النضير بعدَ غزوةِ أُحُد، فذهبوا إلى بني قريظة وخيبر، وذهبَ زعيمُهم ابنُ أخطب إلى قريش، وحَرَّضَهم على قتالِ المسلمين، وذهبَ إلى زعماءِ قبائل غطفان وأقنعهم بمهاجمة المسلمين..

وسارَ عشرةُ آلافٍ من المشركين من قريشٍ وغطفان نحو المدينة، ولما علِمَ الرسولُ ﷺ بذلك استشارَ أصحابَه، فأشارَ سلمانُ الفارسيُّ رضي الله عنه

---

(١) انظر خبر هذه السرية ودور سعد فيها في مغازي الواقدي: ١/ ٣٤٠ـ٣٤٦.

بحفرِ خندقٍ حولَ المدينة، وبعدَ حفرِ الخندق أوقفَ الرسولُ ﷺ أصحابَه حرّاساً عليه، ولما وصلَ جيشُ المشركين فوجئوا بالخندق، ولم تستطعْ خيولُهم اجتيازَه.

وكانت تقعُ مناوشاتٌ بين المسلمين والمشركين عبرَ الخندق، تُطلقُ السهامُ والنبالُ من الطرفين، ويقعُ قتلى من الطرفين، ويُصابُ أفرادٌ منهما بالجراح!

وكانَ لسعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه دورٌ جهاديٌّ في غزوةِ الأحزاب ـ أو غزوة الخندق ـ حيث استمرَّ حصارُ المشركين للمسلمين حوالي شهر، ونَقَضَ يهودُ بني قريظة عهدَهم مع رسولِ الله ﷺ أثناءَ الحصار، مما زادَ الأمرَ سوءاً على المسلمين.

وأشارَ القرآنُ إلى ما أصابَ المسلمين من كرب وضيقٍ وزلزالٍ في هذه الغزوة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٩ ـ ١١].

وبما أنَّ معظمَ صورِ المناوشاتِ في الغزوةِ كانتْ رمايةً بالسهامِ والنبال، فقد كانَ لسعدٍ رضي الله عنه دورٌ كبير، لأنَّه من أمهرِ الصحابةِ في الرماية، ويمكنُ أنْ نعتبرَه الراميَ الأوّلَ بينهم، كما لاحظْنا ذلك من جهادِه في غزوةِ بدرٍ وغزوةِ أُحُد.

وقد سجَّلَ المؤرِّخون حادثتيْن من حوادثِ الغزوة، تُشيرانِ إلى جهادِ سعدٍ رضي الله عنه.

سعد يتطوّع بحراسة رسول الله ﷺ:

● الأُولى: تطوُّع سعدٍ بحراسةِ رسولِ الله ﷺ:

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: أَرِقَ رسولُ الله ﷺ ذاتَ ليلة، فقال: ليتَ رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسُني الليلة! فسمعْنا صوتَ السلاح. فقال رسول الله ﷺ: مَنْ هذا؟

قالَ سعدُ بن أبي وقاص: أنا يا رسول الله، جئْتُ أحرُسُك!

فنامَ رسولُ الله ﷺ، حتى سمعْتُ غطيطَه[1]!

حراسةُ سعدٍ رضي الله عنه لرسولِ الله ﷺ التطوّعية، مبهمةٌ مجملة، غيرُ محددة الزمان والمكان، عند البخاريّ ومسلم.

لكنَّ هذه الحراسةَ مبيّنةٌ في روايةِ الواقديّ، حيثُ بيّنَتْ عائشةُ رضي الله عنها أنَّها كانت في غزوة الأحزاب.

روى الواقديّ في (المغازي) عن عائشة رضي الله عنها قالت: لقدْ رأيتُ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦) كتاب الجهاد والسير، (٧٠) باب الحراسة في الغزو، حديث رقم: ٢٨٨٥؛ ومسلم (٤٤) كتاب فضائل الصحابة، (٥) باب فضائل سعد بن أبي وقاص، حديث رقم: ٢٤١٠.

لسعدِ بن أبي وقاص ليلةً ونحن بالخندق، لا أزالُ أُحبُّه أبداً.

كان رسولُ الله ﷺ يختلفُ إلى (ثُلْمَةٍ) في الخندقِ يحرسُها، حتى إذا آذاهُ البَرْدُ جاءَني، فأدفأتُه في حضْني! فإذا دَفِيءَ خرجَ إلى تلك الثلمةِ يحرسُها، ويقولُ: ما أخشى أنْ يؤتى الناسُ إلاّ منها..

فبينما رسولُ الله ﷺ في حضْني قد دفِئ، قال: ليتَ رجلاً صالحاً يحرسُني الليلة!

فسمعتُ صوتَ السلاحِ وقعقةَ الحديد!

فقالَ رسولُ الله ﷺ: مَنْ هذا؟

قال الرجل: سعدُ بنُ أبي وقاص.

فقالَ له رسولُ الله ﷺ: عليكَ بهذه الثلمةِ فاحرسْها.

فنامَ رسولُ اللهِ ﷺ، حتى سمعْتُ غطيطه[1].

تخبرُ عائشةُ رضي الله عنها في هذه الروايةِ عن حراسةِ رسولِ الله ﷺ في غزوة الخندق، وقد اختارَ أخطرَ ثغرةٍ في الخندقِ ليحرسَ المسلمين منها، بينما قامَ أصحابُه بحراسةِ المواقع الأُخرى في الخندق.

واختيارُ رسولِ الله ﷺ أخطرَ موقعٍ في الخندقِ ليحرسَه، واضحُ الدلالةِ على شخصيتِه الجهاديةِ عليه الصلاة والسلام.

---

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٤٦٣.

وكانتْ تلك الليلةُ شديدةَ البرودة، فكانَ ﷺ يقفُ على تلك الثُّلْمَة ـ الثغرة ـ فترةً، فإذا تأثَّرَ بالبردِ الشديدِ رجعَ إلى عائشةَ رضي الله عنها لتُدفئَه! فعلَ هذا أكثرَ من مرة.

بعدَ ذلك تمنَّى لو يَسَّرَ اللهُ له رجلاً صالحاً من المسلمين يتطوّع بحراسةِ الثلمة عنه . . .

الثناء على سعد لموقفه:

وألهمَ اللهُ سعداً رضي الله عنه أنْ يأتيَ متطوّعاً للحراسة، ويبدو أنَّه لم يكنْ له في تلك الليلةِ مهمةٌ عمليةٌ محدّدة، ولعلَّه كان في شبه (إجازة) فيها! ولكنْ أنّى لسعدِ المجاهدِ صاحبِ الهمّةِ العاليةِ في الجهادِ أنْ يجلسَ ويستريح؟ بما أنّه ليسَ في (وظيفةٍ) جهاديةٍ محدّدة، فلْيَبحثْ عن عملٍ جهاديٍّ (تطوّعي)!

بحثَ سعدٌ رضي الله عنه عن عملٍ جهاديٍّ يقومُ به في (استراحته) فوجَدَه عندَ رسولِ الله ﷺ.

إنّه يحبُّ رسولَ الله ﷺ محبةً عظيمة، ورسولُ الله ﷺ بذلَ جهداً في جهادِه وحراستِه تلك الليلة، ولذلك أرادَ سعدٌ أنْ يسدَّ مسدَّ رسولِ الله ﷺ، ليأخذَ ﷺ قسطَه من الراحة!

جاءَ سعدٌ رضي الله عنه بسلاحِه وحديدِه، ومعه سيفُه ودرعُه وسهامُه ونبالُه، وسمعَتْ عائشةُ رضي الله عنها صوتَ السلاح، ولم تعرفْ صاحبَه، كما لم يعرِفْه رسولُ الله ﷺ.

ولما علمَ رسولُ الله ﷺ أنَّ القادمَ هو سعدٌ رضي الله عنه، جاءَ متطوّعاً

لحراستِه، كلَّفَه بحراسةِ تلك الثلمة، ونامَ مطمئناً، متوكِّلاً على الله، ومحسِناً الظنَّ بسعدٍ وحراستِه وبفطنتِه وانتباهِه!

وقيامُ سعدٍ بالحراسةِ تلك الليلة نالَ به شهادة رسولِ الله ﷺ له بالصلاح، حيثُ قال: ليتَ رجلاً صالحاً يحرسُنا الليلة! فجاءَ الرجلُ الصالحُ سعدٌ رضي الله عنه!

وقد أُعجِبَتْ عائشةُ رضي الله عنها بهذا الموقفِ الجهاديِّ التطوعيِّ لسعدٍ رضي الله عنه، ولم تَنْسَهُ له، فما زالَتْ تحبُّه بعد ذلك أبداً، ومَنْ ذا الذي لا يحبُّ سعداً وقد وقفَ ذلك الموقف؟

سعد يرمي المشرك والرسول ﷺ يضحك:

● **الثانية**: رميُه للمشرك وإعجابُ الرسول به:

روى أحمد والبزار عن عامرِ بن سعدٍ عن أبيه رضي الله عنه قال: لما كان يومُ الخندق، ورجلٌ يَتَتَرَّسُ، جعلَ يقولُ بالتُّرْسِ هكذا، فوضَعَه فوقَ أنفه، ثم يقول هكذا، يُسفِلُه بعد..

فأَهويتُ إلى كنانتي، فأخرجْتُ منها سهماً مُدَمّى، فوضعْتُه في كبدِ القوس.. فلما قال هكذا، يُسْفِلُ الترس، رميتُ، فما نسيتُ القدحَ على كذا وكذا من الترس.. وسقط، فقال برجلِه، فضحكَ نبيُّ الله ﷺ حتى بدَتْ نواجذُه.

قال عامر لأبيه: لِمَ؟

قال: لفعْلِ الرجل[1]!

وزادَ البزارُ في روايتِه عن عامرِ بن سـعدٍ قولَه: كان رجلٌ معـه تُرْسان، وكان سعدٌ رامياً، فكانَ يقولُ كذا وكذا بالتُّرْسَيْن، يغطّي جبهتَه، فنزعَ له سعدٌ بسهم، فلما رفعَ رأسَه رماه، فلم يُخطئ هذه منه، يعني جبهَتَه[2].

يخبرُ سعدٌ رضي الله عنه ابنَه عامراً عن تفاصيلِ رميةٍ له يومَ الخندقِ أعجبَتْ رسولَ الله ﷺ. فقد كانَ في مواقعِ جيشِ قريش رامٍ ماهر، آذى المسلمين كثيراً بالسهام التي أطلقها عليهم.

ولعلَّ هذا الرامي هو أمهرُ رماةِ قريش (حِبَّان بنُ العَرِقَة)، الذي ذَكَرْنا ما فعلَه في غزوةِ أُحُد، عندما رمى أُمَّ أيمن وصرَعها وانكشَفَتْ عورتُها، وكيفَ صـوَّبَ إليه سـعدٌ سهمَه ورماهُ وصَرَعـه، وضحـكَ رسولُ الله ﷺ، معجَباً بفعله!

اتّخذ ابنُ العَرِقَة موقعاً حصيناً يومَ الخندق، وجَّهَ منه سهامَه للمسلمين، وقد رمى سعدَ بنَ معاذ رضي الله عنه بسهم، أصابه في أكحله إصابةً خطيرةً، توفي ابنُ معاذ بعد ذلك بسببها، ولما رمى سعداً قال: خُذْها وأنـا ابنُ العَرِقَة! فلما سـمعَ رسولُ الله ﷺ ذلك قال: عَرَّقَ اللهُ وجْهَك في النار[3]!

---

(١) مسـند أحمد بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ٣/ ١٦٦ ـ ١٦٧، حديث رقـم: ١٦٢٠.

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي: ٦/ ١٣٦.

(٣) المرجع السابق: ٦/ ١٣٦.

وكان حِبَّانُ بنُ العَرِقَة معه تُرسان اثنان، يتترّسُ بهما، ويحتمي خلْفَهما لئلا تُصيبَه سهامُ المسلمين.

ولعلَّ سعدَ بن أبي وقاص رضي الله عنه شاهدَ إيذاءَ ابنِ العَرِقَة للمسلمين، وكان بجانبِ رسولِ الله ﷺ، ولعلَّه شاهدَ مصرعَ سعدِ بنِ معاذٍ رضي الله عنه، وتأثَّرَ من ذلك تأثّراً كبيراً!

سهم سعد المدمّى:

نظر سعد رضي الله عنه إلى الرامي المشرك يتترسُ بتُرسِه، ويُحسِنُ وضْعَه أمامَه، يضعُه فوقَ أنفِه ليحمي جبهتَه، ويُنزلُه إلى أسفل رقبته، يفعلُ ذلك ليوجِّهَ سهماً من سهامِه ضدَّ المسلمين.

أراد سعدٌ أن يُخلصَ المسلمين من هذا الرامي الخطير، فأهوى بيده إلى كنانته التي يضعُ فيها سهامه، وبعضُ سهامِه مصبوغةٌ بالدم، لأنّها كانت لا تخطئُ أجسام الأعداء، فتصيبُهم وتسفكُ دماءَهم، وكان يحتفظُ بهذه السهامِ المدَمَّاةِ، ليرميَ بها الكفار مرةً ثانية.

تناولَ سهماً مُدَمَّى، ووضَعه في كبدِ القوس، وراقبَ الراميَ الكافر المتترس، فلما حَرَّكَ تُرْسَه إلى أسفل، وانكشَفَتْ جبهتُه، رماهُ سعدٌ فأصابَه في جبهتِه، وكانت ضربةُ سعدٍ قويةً هَزَّت الرجل، فارتفعَ عن الأرض، ورفعَ رجليه، ثم سقط على الأرض صريعاً، والدماءُ تنزفُ منه!

كلُّ ذلك والرسولُ ﷺ بجانبِ سعدٍ يراقبُ فعلَه، ولما شاهدَ أَثَرَ سهمه على المشرك، الذي دفعَه إلى رفعِ رجلِه والارتفاعِ بجسمِه وسقوطِه على

الأرض، ضحك رسولُ الله ﷺ حتى بدَتْ نواجذُه.

لماذا ضحكَ رسولُ الله ﷺ؟ ضحكَ معجباً برميةِ سعدِ القاتلة، ومهارةِ سعدِ الفائقة، وإصابتِه للهدف بدقة، وضحكَ شامتاً بذلك الرامي المشرك، الذي آذى المسلمين، ولم يقضِ عليه إلاّ سعدٌ رضي الله عنه بسهمه.

وهذه المرةُ الثانيةُ التي يفرحُ بها رسولُ الله ﷺ لرمية سعد، ويضحكُ معجَباً به وبجهادِه، فقد سبق أنْ حصلَ ذلك يومَ أُحُد، عندما رمى سعدٌ حِبَّانَ ابنَ العرقة وأصابه، وأدّت الإصابةُ إلى ارتفاعِه عن الأرض، ثم سقوطِه وانكشافِ عورتِه!

جهادُ سعدٍ رضي الله عنه ورميُهُ الدقيقُ يقودُ إلى فرحِ الرسولِ ﷺ وسروره، وضحكِه وإعجابِه، وهذه منقبةٌ لسعدٍ تُسجَّلُ له!

المسلمون يحاصرون بني قريظة:

ولما هزم اللهُ أحزابَ المشركين، وردَّهم بغيظِهم لم ينالوا خيراً، أَمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ أصحابَه بالتوجُّهِ إلى يهود بني قريظة لحصارهم وقتالِهم، بسببِ نقضِهم عهدَهم مع رسولِ الله ﷺ، واتفاقِهم مع أحزابِ المشركين ضدَّه.

لبسَ رسولُ اللهِ ﷺ درعَه ولأْمَتَه، وحملَ سلاحَه، وركبَ فرسَه، وسارَ أصحابُه المجاهدون حولَه، وكان معه من الخيلِ ستةٌ وثلاثون فرساً..

ومن الفرسانِ راكبي الخيولِ الذين كانوا يمشونَ حولَه سعدُ بن أبي وقاص رضي الله عنه.

واستمرّوا في سيرِهم حتى وصلوا ديارَ بني قريظة. وكان لواءُ رسولِ الله ﷺ مع عليٍّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه.

ولما شاهدَ اليهودُ المسلمين يحاصرونَهم أيقنوا بالخطر، وشَتَموا رسولَ الله ﷺ.

وقالَ لهم أُسَيْدُ بنُ حُضَيْر رضي الله عنه: يا أعداءَ الله، لا نُغادرُ حصنكم حتى تموتوا جوعاً، وإنما أنتم بمنزلةِ ثعلبٍ في جحر!!

فقالوا له: يا ابنَ الحضير: إنما نحنُ مواليكم، فأَحْسِنوا إلينا.

فقالَ لهم: لا عهدَ بيننا وبينكم، وقد نقضتُم العهدَ مع رسول الله ﷺ!

ولما اقتربَ منهم رسولُ الله ﷺ قالَ لهم: يا إِخوةَ القردةِ والخنازير وعبدَةَ الطاغوت[1]!

سعد يرمي بني قريظة:

ثم حاصر رسولُ الله ﷺ بني قريظة، وشَدَّدَ عليهم الحصار، وقدَّمَ الرماةَ من أصحابِه، ليرموا اليهودَ بالسهامِ والنبال.

ولا بدَّ أنْ يكونَ في مقدِّمةِ هؤلاء الرماة الرامي الأوّلُ سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه.

كان مع سعدٍ أكثر من خمسين نَبْلاً، فأمرَه رسولُ الله ﷺ أنْ يبدأَ هو الرميَ، وقال له: يا سعدُ: تقدَّم فارمِهم!

---

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠.

أخَذَ سعدٌ موقعَه، وصوَّبَ سلاحَه إلى حصونِ اليهود، وأخذَ إخوانُه الرماةُ مواقعَهم حولَه، وصوّبوا سلاحَهم إلى اليهود.. وأطلقوا السهامَ والنبالَ عليهم، فكانت تتساقطُ عليهم مثلَ الجراد!

جَبُنَ اليهودُ عن الرَّدّ، وبقوا مختبئين في حصونهم خائفين.

وتناوبَ الصحابةُ الرماةُ الرماية، واستمرّت الرمايةُ حتى الليل!

قالَ سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه لابنتِه عائشة: قالَ لي رسولُ اللهِ ﷺ: يا سعدُ: تقدَّمْ فارمِهم! فتقدَّمْتُ حيثُ تبلُغُهم نَبْلي، ومعي نَيِّفٌ على الخمسين. فرمَيناهم ساعة، وكأنَّ نَبْلَنا مثلُ الجرادِ! فانجَحَروا ولم يطلعْ منهم أحد. وأشفقنا على نبلِنا أنْ يذهب، فجعلَ يرمي بعضنا ويمسك البعض[1].

وهكذا كانت مشاركةُ سعدٍ رضي الله عنه في الجهاد في غزوةِ الأحزاب فعالة، حيث كان في مقدّمةِ الرماة الذين رموا المشركين في الخندق، ومقدمةِ الرماةِ الذين رموا اليهودَ بعد انسحابِ المشركين!

(٩) جهاد سعد في فتح مكة والطائف

سعد يشارك في الحديبية:

شارك سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في المشاهدِ التي حضرَها رسولُ الله ﷺ بعد غزوة الأحزاب!

---

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٥٠٠.

من ذلك صلحُ الحديبية، الذي عقَدَه رسولُ الله ﷺ في ذي القعدة من السنةِ السادسةِ من الهجرة، بعد مفاوضاتٍ شاقةٍ مع مندوبي قريش، فقد اتفقَ مع سهيلِ بنِ عمرو على عقدِ صلحٍ بينه وبين قريش، وكتبَ كتابًا بذلك تضمَّنَ بنودَ الصلح.

وشهدَ على كتابِ الصلح مجموعةٌ من المسلمين، منهم: أبو بكر الصدّيق، وعمرُ بن الخطاب، وعثمانُ بن عفان، وعبدُ الرحمن بن عوف، وسعدُ بن أبي وقاص، ومحمدُ بن مسلمة الأنصاري، رضي الله عنهم[1].

وشاركَ سعدٌ في عمرةِ القضاءِ في السنةِ التالية، وهي السنةُ السابعة.

سعد يشارك في (ذات السلاسل):

وشاركَ سعدٌ رضي الله عنه بعدَ ذلك في سريةِ ذات السلاسل. وكان ذلك في جمادى الثانية من السنةِ الثامنةِ للهجرة، حيث استدعى رسولُ الله ﷺ عمرَو ابنَ العاص رضي الله عنه، وكان حديثَ الإسلام، وعَقَدَ له لواء، وبعثَه في ثلاثمئة من المهاجرين والأنصار، منهم: سعدُ بن أبي وقاص، وسعيدُ بن زيد، وسعدُ بن عبادة، وأُسيدُ بن حضير، رضي الله عنهم.

ووجَّههم إلى بلادِ قضاعة وبَلِيٍّ وبَلْقين وعذرة، لأنَّ عمرَو بن العاص كان ذا رحمٍ بهم، فأُمُّ أبيه العاصِ بنِ وائل بَلَوِيَّة، ولما سارَ ابنُ العاص في بلاد قضاعة طلبَ من رسولِ الله ﷺ مدداً، لأنَّ أعدادَ المشركين كثيرة، فأَمَدَّهُ رسولُ الله ﷺ بأبي عبيدة بن الجراح، ومعه مئتان من المهاجرين والأنصار،

---

(١) المرجع السابق: ٢/ ٦١٢.

فيهم أبو بكر وعمر، رضي الله عنهم!

ووصلَ المجاهدون إلى منطقةِ (ذات السلاسل) وحصلتْ مناوشاتٌ واشتباكاتٌ بين المسلمين والمشركين، كان لسعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه دورٌ بارزٌ فيها..

وانتصرَ المسلمون في تلك الاشتباكات، وهُزِمَ المشركون، وأخذَ المسلمون الكثيرَ من الغنائم، وعادوا إلى المدينة.

وحدثَ في سريةِ ذاتِ السلاسل أحداثٌ مثيرة، واحتكاكاتٌ بين الأميرِ عمرو بن العاص وجنوده عالجَها أبو عبيدة وأبو بكر بحكمة[1].

سعد قائد فرقة في فتح مكة:

وبعد شهورٍ من مشاركةِ سعدٍ في سريةِ ذات السلاسل كان فتحُ مكة، وكان سعدٌ مشاركاً في هذا الفتحِ العظيم.

في العاشرِ من شهرِ رمضان من السنةِ الثامنةِ للهجرة توجَّه رسولُ الله ﷺ لفتح مكة، ومعه عشرةُ آلافِ مجاهدٍ من المهاجرين والأنصار وباقي المسلمين.

وعقدَ رسولُ الله ﷺ الألويةَ والرايات، وكان عددُ المهاجرين في جيشِ الفتح سبعمئة، ومعهم ثلاثمئةِ فَرَس، وجعلَ لهم رسولُ الله ﷺ ثلاثَ رايات: رايةٌ مع سعد بن أبي وقاص، ورايةٌ مع عليٍّ بن أبي طالب، ورايةٌ مع الزبيرِ بن العوام، رضي الله عنهم[2].

---

(١) انظر أحداث سرية ذات السلاسل في مغازي الواقدي: ٢/ ٧٦٩ ـ ٧٧٤.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٨٠٠.

وهذا دليلٌ على منزلةِ سعدٍ عند رسولِ الله ﷺ، فهو أميرٌ على فرقةٍ من فرقِ جيش الفتح، وصاحبُ لواءٍ من ثلاثةِ ألويةٍ للمهاجرين.

وهكذا عادَ سعدٌ رضي الله عنه إلى مكةَ فاتحاً، بعد ثماني سنواتٍ من خروجِه منها مهاجراً إلى اللهِ ورسولِه ﷺ.

وأقامَ سعدٌ رضي الله عنه بمكةَ أياماً، عزيزاً كريماً، شاكراً لله على فضلِه ونعمِه، يمرُّ على البقاعِ والمناطق التي قضى فيها طفولتَه وصباه وشبابَه، فمن المعلومِ أنّه هاجرَ من مكةَ إلى المدينة وهو في الثلاثين من عمرِه، ولا شكَّ أنَّ له ذكرياتِ الطفولةِ والشباب في مكة، فها هو الآن يمرُّ بها وهو على مشارفِ الأربعين من عمره.

ولكنَّ مكةَ تغيَّرَتْ فلم تعدْ دارَ كفر، وإنما أصبحتْ دارَ إسلام، والكعبةُ التي كانت مليئةً بالأصنامِ، تمَّ تطهيرُها منها، وجعلُها خالصةً لعبادةِ الله.. والمشركون الذين كانوا يُعَذِّبون سعداً رضي الله عنه قبلَ الهجرة انتهوا، منهم مَنْ قُتِلَ في الحروب مع المسلمين، ومنهم مَنْ ماتَ حتفَ أنفه، ومَنْ بقيَ منهم حيّاً أصبحَ الآنَ مسلماً بعد الفتح.

وها هو سعدٌ يستذكرُ ماضيه في مكة، ويستمتعُ بحاضرِه في هذه الأيامِ المباركة، فيحمدُ اللهَ ويستغفرَه، ويطبقُ عملياً قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [سورة النصر].

مشكلة بين سعد وعبد بن زمعة في مكة:

وبعدَ أيامٍ من إقامتِه بمكة حصلَتْ قضيةٌ بينه وبينَ أَحَدِ مسلمةِ الفتح، الذين أسلموا يومَ فتحِ مكة، اختَصَما فيها إلى رسولِ الله ﷺ.

كان لزَمْعَةَ بنِ قيس أَمَة، وكانتْ هذه الأَمَةُ سيئةَ السمعة، يأْتيها الرجالُ لارتكابِ الفاحشة، وكان ممن أتاها عتبةُ بنُ أبي وقاص، فحملَتْ منه، وأنجبتْ ولداً.

وقبلَ وفاةِ عُتبة ـ بعد غزوة أُحُد ـ عهدَ إلى أخيهِ سعدٍ رضي الله عنه بابنِه من هذه الأَمة، وأوصاهُ به خيراً.

وكانَ رسولُ الله ﷺ قد تزوَّجَ أمَّ المؤمنين سَوْدَةَ بنتَ زَمْعَة رضي الله عنها في العهد المكي، بعدَ وفاةِ خديجةَ مباشرة رضي الله عنها، وكانَ شقيقُ سودة (عَبْدُ بنُ زَمْعَة) من المشركين، وأسلمَ عبدُ بنُ زمعة رضي الله عنه يوم الفتح.

فلما أقامَ سعدٌ في مكة أياماً أرادَ تنفيذَ وصيةِ أخيه عتبة، فبحثَ عن ابنه واحتضنَه وأخذه! وقال: هذا ابنُ أخي!!

لكنَّ عَبْدَ بن زَمْعَةَ رفضَ ذلك، وقال: هذا أخي!

فاختصمَ سعدٌ وعبدٌ إلى رسولِ الله ﷺ.

قالَ سعدٌ: يا رسولَ الله: هذا ابنُ أخي عتبة، عَهِدَ به إليَّ قبلَ وفاتِه!

وقال عبدٌ: يا رسولَ الله: هذا أخي، ابنُ أبي، ووُلِدَ على فراشِه من أَمَتِه.

ونظرَ رسولُ الله ﷺ إلى الشخصِ المتنازَع فيه، وكان فتى، فوجدَه يُشبهُ عُتبةَ بن أبي وقاص كثيراً، أي أنه ابنُه! لكنّه وُلِدَ على فراشِ زَمْعَة بن قيس، لأنه هو المالكُ لتلك الأَمَةِ الزانية.

حكم الرسول ﷺ في المشكلة:

فحكمَ النبيُّ ﷺ لعبدِ بن زَمْعَة، وقالَ له: هو أخوكَ يا عبد! ولكنَّه أمرَ أُختَه سودةَ بنت زَمْعَة رضي الله عنها أنْ تحتجبَ عنه، لأنَّه يشبهُ عُتبةَ، فهو ليس أخاها حقيقة، وقال: «الولدُ للفراشِ، وللعاهر الحجر»!

أي: يتبعُ الولدُ الرجلَ الذي وُلِدَ على فراشِه، من امرأتِه أو أمَتِه، حتى لو كانت الزوجةُ أو الأَمَةُ زانية، ولو أشبه الرجلَ الذي زنى بها، فالعاهرُ الزاني له الحجر!!

وقدْ روَتْ عائشةُ رضي الله عنها حادثةَ اختصامِ سعدٍ وعَبْدٍ في الغلام، وحكمَ رسولِ الله ﷺ.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: «كان عتبةُ بن أبي وقاص عَهِدَ إلى أخيه سعد أنْ يقبضَ ابنَ وليدةِ زَمْعة، وقالَ عتبةُ: إنّه ابني.

فلما قَدِمَ رسولُ الله ﷺ مكةَ في الفتح، أَخَذَ سعدُ بن أبي وقاص ابن وليدةِ زَمْعة، فأقبلَ به إلى رسولِ الله ﷺ، وأقبلَ معه عَبْدُ بن زمعة.

فقالَ سعد: هذا يا رسولَ الله ابنُ أخي عتبة بن أبي وقاص، عهدَ إليَّ أنَّه ابنُه، انظر إلى شَبَهِه!

وقالَ عَبْدُ بنُ زَمْعَة: يا رسولَ الله: هذا أخي، هذا ابنُ زَمْعَة، وُلِدَ على فراشِه من وليدته!

فنظرَ رسولُ الله ﷺ إلى ابنِ وليدةِ زَمْعَة، فإذا هو أشبهُ الناسِ بعُتبة.

فقال ﷺ: هو لك، هو أخوك يا عَبْدُ بن زَمْعة.. الولدُ للفراش وللعاهر الحجر!

ثم قالَ ﷺ لسودةَ بنتِ زمعة: احتجبي منه يا سودة.. لِما رأى من شَبَهه بعُتبة بن أبي وقاص»[1].

خروج الرسول ﷺ لحرب ثقيف:

وبعدما فتحت مكة وأصبحت دارَ إسلام، لم يبقَ من قلاع الشِّرْكِ في الحجازِ إلا الطائف، وكانت مدينةً حصينة، تسكنُها قبيلةُ ثقيف، وكانت قبيلةً كافرةً معاديةً لرسولِ الله ﷺ.

وفوجىءَ أهلُ الطائفِ ومَنْ حولَهم من القبائلِ مثلُ (هوازن) بفتْحِ مكة، فتحالَفوا فيما بينَهم على حربِ رسولِ الله ﷺ، وكانوا بإمرةِ مالكِ بنِ عوف النصري، وجَهَّزوا جيشَهم لمهاجمةِ رسولِ الله ﷺ في مكة..

ولما علمَ رسولُ الله ﷺ بجموعِهم خرجَ إليهم لقتالِهم، ومعَه اثنا عشرَ ألفاً من المجاهدين، عشرةُ آلاف الذين قَدِموا معه من المدينة، وألفان من مسلمة الفتح في مكة.

---

(١) البخاري (٦٤) كتاب المغازي، باب (٥٣)، حديث رقم: ٤٣٠٣؛ ومسلمٌ (١٧) كتاب النكاح، (١٠) باب الولد للفراش، حديث رقم: ١٤٥٧.

سعد قائد فرقة في (حنين):

وقبل وصولِهم إلى وادي حُنَيْن نظَّمَ رسـولُ الله ﷺ الجنـود، وعَقَدَ الرايات، راياتِ للمهاجرين، وراياتِ للأنصار، وراياتِ للقبائلِ الأُخرى، وكانت رايـاتُ المهاجرين ثلاثة: رايةٌ مع عمرَ بن الخطاب، ومعه لواءٌ من المجاهدين، ورايةٌ مع عليٍّ بن أبي طالب، ومعه لواءٌ من المجاهدين، ورايةٌ مع سعد بن أبي وقاص، ومعه لواءٌ من المجاهدين[1].

إنَّ سعداً رضي الله عنه مُقَدَّمٌ عندَ رسولِ الله ﷺ، له عنده المنزلةُ العالية، فهو يعقدُ له لواءَ، ويسلِّمُه رايةً من راياتِ المهاجرين الثلاثة!

وفوجِىءَ المسلمون بهجومِ جيشِ ثقيف وهوازن عليهم، فانهزموا في وادي حُنَيْن، ولم يَثْبُت إلاّ رسـولُ الله ﷺ، وحولَـه فئةٌ قليلـةٌ من الصحابة.

وأَمَرَ رسولُ الله ﷺ عَمَّهُ العباسَ رضي الله عنه أنْ ينادِيَ السابقين من المسـلمين، فنادى: يا لَلْمهاجرين، يا لَلأنصار، يـا أصحابَ الشجرة.. فعادوا مسرعين للميدان.

وكَتَبَ اللهُ النصْرَ للمسـلمين في وادي حُنَيْن، وانهزمَ جيـشُ ثقيف وهوازن، وغنمَ المسلمون الكثيرَ من غنائمهم، وأخَذوا السبايا منهم!

وامتنَّ اللهُ على المسلمين بنصره، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا

(١) مغازي الواقدي: ٣/ ٨٩٥.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٦].

المسلمون يحاصرون الطائف:

ولما انهزَمَتْ ثقيفٌ وهوازن في وادي حُنَيْن، هربَتْ ثقيفٌ إلى الطائفِ، فتحصنـوا بها، وهربَتْ هوازنُ إلى (أَوْطاس)، فوجَّهَ لهم رسولُ الله ﷺ جيشاً هزمهم! وأخذ غنائم عديدةً من الإبلِ والغنمِ والأمتعة، كما أخَذَ العديدَ من الإماء والسبايا. وأبقى الغنائم في (الجِعِرَّانة)، وتوجَّهَ بجيشِه نحو الطائفِ لفتْحِها والقضاءِ على مقاومةِ ثقيف.

تحصَّنَ أهلُ الطائف داخلَ المدينة، وكان لها أسوارٌ منيعة، وحاصرَهم رسولُ الله ﷺ أربعين يوماً، وكانت تحصُلُ مناوشاتٌ بين الفريقيْن عبْرَ أسوارِ الطائف، يرمي كلُّ فريقٍ خصْمَه بالنبال.

وحثَّ رسولُ الله ﷺ الرماةَ بالنبال والسِّهامِ على رميِ المشركينَ عبرَ الأسوار.

قال عمرُو بن عَبَسَة السُّلَمِّيُ رضي الله عنه: حاصَرْنا مع رسولِ الله ﷺ قَصْرَ الطائف، فسمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ بَلَغَ بسهمٍ فَلَهُ درجةٌ في الجنَّة». فبَلَغْتُ يومئذٍ ستَّةَ عشر سهماً. وسمعْتُه يقول: «مَنْ رمى بسهمٍ فله عَدْلُ مُحَرَّر..»[1].

---

(١) رواه الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل=

نَشَـطَ الرماةُ لرمي المشركين، بعدما سمعوا هذا الحديـثَ من رسولِ الله ﷺ راغبين في الأجرِ والثواب من الله. فها هو عمرُو بنُ عَبَسَةَ رضي الله عنه يرمي ستةَ عشرَ سهماً يبلغُ بكلِّ سهمٍ منها المشركين داخلَ أسوارِ الطائف، يريدُ بكلِّ سهمٍ منها درجةً في الجنة.

سعد يرمي (مروح).

ولا شكَّ أنَّ الرامي الأوَّلَ سعدَ بنَ أبي وقاص رضي الله عنه كانَ له دورٌ كبيرٌ في الرميِ أثناءَ حصارِ الطائف، وأنّه رمى مجموعةً من السهام والنبال.

وكان رجلٌ من ثقيف اسْـمُه (مُرَوِّحٌ)، وكان يقفُ على سـورِ الحصنِ يومياً، ويشتمُ المسلمين، وكان مما يقولُه: رُوحوا يا رُعاءَ الشّاء، رُوحوا يا جلابيب محمد، رُوحوا يا عبيدَ محمد..

فدعا عليه رسولُ الله ﷺ: اللهمَّ رَوِّحْ مُرَوِّحاً إلى النار!

وَجَّهَ سعدٌ رضي الله عنه إلى مروِّحٍ سهْمَه، فلما وقفَ على الحصنِ رماهُ به، فوقعَ في نحرِه، وسَقَطَ ميتاً! ففرحَ رسولُ الله ﷺ بذلك[1].

طالَ حصارُ أهلِ الطائف، واستمرَّ أربعين يوماً، فاستشارَ رسولُ الله ﷺ فيهم نوفلَ بن معاوية رضي الله عنه، وقال له: يا نوفل: ما ترى في المقامِ عليهم؟

= الله، حديث رقم: ١٦٣٨.

(١) مغازي الواقدي: ٣/ ٩٢٩ ـ ٩٣٠.

فقال نوفل: يا رسولَ الله: هم كالثعلبِ في جحر، إنْ أَقَمْتَ عليهِ أخذْتَه، وإنْ تركْتَه لم يضرَّك!

فنـادى رسـولُ الله ﷺ بالرحيل، وفكَّ الحصارَ عن الطائف.. وبعدَ حوالي سنة جاءَ وفْدُ ثقيف مسلمين، وذلك في رمضان من السنةِ التاسعة، وبذلك أسلمَ أهلُ الطائف دونِ قتال!

الرسول ﷺ يقسم غنائم هوازن:

وعادَ رسولُ الله ﷺ إلى (الجِعِرَّانة) حيث غنائمُ وسبايا قبائلِ هوازن..

وكانت السبايا ستةَ آلاف! وكانت الإبلُ أربعةً وعشرين ألفَ بعير، أما الغنمُ فلا يُحصى عددُها.

وقد قسَّمَ رسولُ الله ﷺ السبايا على المجاهدين، وممنْ أعطاهم: عليُّ بن أبي طالب، وعثمانُ بن عفان، وعبدُ الرحمن بن عوف، وطلحةُ بن عبيد الله، وسعدُ بن أبي وقاص، رضي الله عنهم[١].

بعد ذلكَ أتاهُ وفدُ هوازن مسلمين، وفيهم بنو سعد، الذين رضعَ فيهم رسـولُ الله ﷺ عند حليمةَ السعدية، ورجوْهُ أنْ يمنَّ عليهم بإعادةِ ما أخذَهُ المسلمون منهم من غنائم وسبايا.

فقالَ لهم رسـولُ الله ﷺ: نسـاؤُكم وأبناؤُكم أحـبُّ إليكم أمْ أموالُكم؟

---

(١) مغازي الواقدي: ٣/ ٩٤٤.

أيْ أنَّ الرسولَ ﷺ خيَّرَهم بينَ أن يُعيدَ إليهم أموالَهم أو يُعيدَ إليهم السبايا من نسائِهم وأبنائِهم.

فقالوا: يا رسولَ الله: خَيَّرْتَنا بين أحسابِنا وأموالنا، بل نساؤُنا وأبناؤُنا أحبُّ إلينا.

أعادَ لهم الرسولُ ﷺ نساءَهم وأبناءَهم الذين وُزِّعوا على بني عبد المطلب، ولما رأى المهاجرون والأنصارُ ذلك أعادوا لهم ما عندهم من السبايا مُقْتَدين برسولِ الله ﷺ.

سبية سعد تختاره على أهلها:

وكانت النساءُ من السبايا تُخَيَّرُ بينَ أنْ تعودَ إلى أهلِها، أو تبقى مع الرجلِ الذي أَخَذَها سَبِيَّة.

وقد اختارت النساءُ السبايا أنْ يَعُدْنَ إلى أهلِهنَّ حرائر.. والمرأةُ الوحيدةُ التي آثَرَتْ سيِّدَها الجديدَ على أهلِها السابقين هي المرأةُ التي كانتْ من نصيبِ سعدِ بنِ أبي وقاص رضي الله عنه.

خَيَّرَ سعدٌ رضي الله عنه المرأة، فاختارَتْه على أهْلِها، فأَعْتَقَها وأبقاها زوجةً له، وأنجَبَتْ منه أولاداً[1].

إنَّ اختيارَ تلك المرأةِ لسعدِ رضي الله عنه على أهلِها، مع أنّها أَمَةٌ عندَه، وحُرَّةٌ عندَ أهلِها، دليلٌ على كرمِ سعدِ وحُسْنِ خُلُقِه وقوةِ شخصيّته، فهذه

---

(١) مغازي الواقدي: ٣/ ٩٥٢.

المرأةُ ترضى أن تكونَ أَمَةً عنده، مع أنَّ بابَ الحريـةِ والعودةِ إلى الأهلِ مفتوحٌ أمامَها! وهي لم تفعلْ ذلك إلاّ لإعجابِها بسعد رضي الله عنه، شخصيةً وخُلُقاً وسلوكاً وكَرَماً!

وهذا يذكِّرُنا بزيدِ بن حارثةَ رضي الله عنه، الذي اختارَ رسولَ الله ﷺ، مع أنّه عبدٌ عنده، على أنْ يعودَ إلى أهلِه حُرّاً! فأعتقَه رسولُ الله ﷺ وتبَنَّاه ـ قبل البعثة ـ وسعدٌ رضي الله عنه يَقتدي برسولِ الله ﷺ.

ووزَّعَ رسولُ الله ﷺ الآلافَ من الإبلِ والغنمِ التي غنمَها من قبائلِ هوازن على المؤلَّفةِ قلوبُهم من مُسلمة الفتح، كأبي سفيان بن حرب، وصفوانِ بن أمية، والعباس بن مرداس السلمي، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، رضي الله عنهم. ولم يُعْطِ إخوانَه من المهاجرين والأنصارِ منها شيئاً، لأنَّه وَكَلَهم إلى إيمانهم!

سعد يشير على الرسول ﷺ بإعطاء جعيل:

وشهد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه توزيعَ غنائمِ هوازن في الجِعِرَّانة، ورأى الرسولَ ﷺ يعطي هؤلاء، فأشارَ عليه بإعطاءِ أَحَدِ الصحابةِ المؤمنين الصادقين.

روى الواقديُّ عن سعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلتُ: يارسولُ الله: أعطيتَ عُيينةَ بنَ حصن والأقرعَ بنَ حابس مئة مئة، وتركْتَ جُعَيْلَ بنَ سُراقةَ الضَّمْري!

فقالَ رسولُ الله ﷺ: أما والذي نفسي بيده لَجُعَيْلُ بنُ سراقة خَيْرٌ من ملءِ

الأرضِ مثلَ عُيينة والأقرع، ولكنّي تألَّفْتُهما ليُسْلِما، ووَكَلْتُ جُعَيْلَ بنَ سراقة لإسلامه[1].

وروى البخاريُّ هذه الحادثـةَ بتفصيلٍ أكثـر، فقد روى عن عامرِ بنِ سعد بن أبي وقاص، عن أبيه رضي الله عنه قال: «أعطى رسولُ الله ﷺ رَهْطاً، وأنا جالسٌ فيهم، فتركَ رسولُ الله ﷺ منهم رجلاً لم يُعْطِه، هو أعجبُهم إليّ، فقمْتُ إلى رسولِ الله ﷺ، فسارَرْتُه، فقلتُ: ما لكَ عن فلان، واللهِ إنّي لأراهُ مُؤمِناً؟ قال: أوْ مُسْلماً.

فسكتُّ قليلاً، ثم غَلَبَني ما أعلمُ فيه، فقلت: يا رسولَ الله: ما لكَ عن فُلان، واللهِ إنّي لأراهُ مؤمناً؟ قال: أوْ مسلماً.

فسكتُّ قليلاً، ثم غَلَبَني ما أعلمُ فيه، فقلتُ: يا رسولَ الله: ما لَكَ عن فلان، واللهِ إنّي لأراهُ مؤمناً؟ قال: أوْ مُسْلِماً.

فضربَ رسولُ الله ﷺ بيدِه، فجمعَ بينَ عُنُقي وكَتِفي، ثم قال: أقْبِلْ أيْ سعد: إنّي لأُعطي الرجل، وغيرُه أَحَبُّ إلَيَّ منه، خشيةَ أنْ يُكَبَّ في النارِ على وجهه..»[2].

وروى مسـلمٌ عن عامرِ بنِ سـعد، عن أبيه رضي الله عنـه: «أنَّ رسولَ الله ﷺ أعطى رهطاً، وسعدٌ جالسٌ فيهم. فتركَ رسولُ الله ﷺ منهم مَنْ لم يُعْطِه،

---

(١) مغازي الواقدي: ٣/٦٤٨.

(٢) البخاري (٢٤) كتاب الزكاة، (٥٣) باب قول الله: لا يسـألون الناس..، حديث رقم: ١٤٧٨.

وهو أعجبُهم إليّ. فقلتُ: يا رسولَ الله: ما لَكَ عن فلان، فوالله إنّي لأراهُ مؤمناً؟ فقالَ رسولُ الله ﷺ: أوْ مسلماً.

فسكتُّ قليلاً، ثم غَلَبَني ما أعلمُ منه، فقلتُ: يا رسولَ الله: ما لَكَ عن فلان، فوالله إني لأراهُ مؤمناً؟ فقالَ رسولُ الله ﷺ: أوْ مسلماً.

فسكتُّ قليلاً، ثم غَلَبَني ما أعلمُ منه، فقلتُ: يا رسولَ الله: ما لكَ عن فلان، فوالله إني لأراهُ مؤمناً؟ فقالَ رسولُ الله ﷺ: أوْ مسلماً.

فضربَ رسولُ الله ﷺ بيدِه بين عُنُقي وكتِفي، ثم قال: أقتالاً؟ أيْ سعد: إنّي لأُعطي الرجل، وغيرُه أحبُّ إليَّ منه، خشيةَ أنْ يُكَبَّ في النارِ على وجهه..»[1].

بين سعد والرسول ﷺ بشأن جعيل:

كان سعدٌ رضي الله عنه بجانبِ رسولِ الله ﷺ وهو يُقَسِّمُ غنائمَ هوازنَ على المؤلَّفةِ قلوبُهم من مسلمةِ الفتح، وكان ذلك في (الجِعِرَّانة) بعد عودةِ رسولِ الله ﷺ من الطائف.

لم يُعْطِ رسولُ الله ﷺ المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصارِ شيئاً من تلك الغنائم، وأعطى المؤلَّفةَ قلوبُهم الكثيرَ منها...

ولاحظَ سعدٌ رضي الله عنه هذا، ولم يَفْهَم حكمةَ رسولِ الله ﷺ من هذه

---

(١) مسلم (١) كتاب الإيمان، (٦٦) باب تأليف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه رقم: ٢٩٦.

القسمة، وهو لا يُريدُ شيئاً له، لأنَّه زاهدٌ في متاع الدنيا، وإنما تشفَّعَ لأحدِ الصحابة عند رسولِ الله ﷺ، هو (جُعَيْلُ بنُ سُراقةَ الضَّمْري)، لأنَّه يعلمُ أنّه محتاجٌ للعطاء، وأنَّ مستحقٌّ له لإيمانِه وصدْقِه وجهادِه، وهو أحبُّ إليه، وأفضلُ عنده من الأقرعِ بن حابس وعيينة بن حصن وأبي سفيان . .

ظنَّ سعدٌ أنَّ رسولَ الله ﷺ غَفَلَ عن جُعَيْل، فأحبَّ أنْ يذكِّرَه به . . فقامَ إلى رسولِ الله ﷺ وسارَرَه، أيْ: حدَّثَه سرّاً بينه وبينه!!

وهذا التصرُّفُ من فطنةِ سعدٍ وذكائِه، وأدَبه مع رسولِ الله ﷺ! فهو لمْ يُحدِّثْهُ بصوتٍ مرتفعٍ، ولم يُسمع المؤمنين مِن حوله، منعاً للتشويشِ عليه، وحرصاً على الأدَبِ معه!!

قالَ سعدٌ لرسولِ الله ﷺ: يا رسولَ الله: ما لَكَ عن جُعَيْلِ بنِ سُراقة؟ ولماذا لم تُعطِه من الغنائم؟ فوالله إنّي لأراهُ مؤمناً!

وهذا الموقفُ من سعدٍ تذكيرٌ لرسول الله ﷺ وإشارةٌ عليه، يذكِّرُه بجُعَيْل، ويشيرُ عليه بأنْ يُعطيه من الغنائم، كما أعطى الآخرين، ويُقسِمُ سعدٌ على أنَّ جُعَيْلاً مؤمنٌ بالله سبحانه.

فهمَ الرسولُ ﷺ إشارةَ سعد، ولم يُحَدِّثْه عن العطاء، وإنما أنكر عليه قَسَمَه بإيمان جُعَيْل، وقال له: أَو مسلماً!

أي: لا تقسمْ على أنه مؤمن، لأنَّ الإيمانَ أمر قلبي، واحكمْ له بالإسلام، لأنّ الإسلامَ يمكنُ الجزمُ به والشهادةُ عليه، فهو يقومُ على الشهادتينِ والصلاةِ والعملِ الصالح!

سكتَ سعدٌ رضي الله عنه، واستمرَّ رسولُ الله ﷺ في توزيعِ الغنائم على المؤلَّفة قلوبهم، وسعدٌ ينظرُ إليه، وهو يفكرُ في جُعَيْلِ بن سراقة واستحقاقِه من الغنائم، فغَلَبه ما يعرفُه عنه، وخشيَ أنْ تنتهيَ الغنائمُ ولم يأخذْ منها شيئاً، فأعادَ اقتراحَه على رسول الله ﷺ بإعطائِه، وقال له: يا رسولَ الله: ما لكَ عن جُعَيْل، فوالله إنّي لأراهُ مؤمناً؟

فأعادَ عليه رسول الله ﷺ إنكاره بأنْ لا يحلفَ له بالإيمان، ونصحَه أن يشهدَ له بالإسلام، فقال له: أوْ مسلماً.

وبعد سكوتِه قليلاً غلَبَه ما يجدُ من جُعَيْل، فأعادَ الكلامَ للمرةِ الثالثة مع رسول الله ﷺ، وعادَ الرسولُ ﷺ إلى الإنكارِ عليه لحلْفِه للمرةِ الثالثة!

دلالة الحادثة على شخصية سعد:

إنَّ هذه الحادثة تدلُّ على قوةِ شخصيةِ سعدٍ رضي الله عنه، وعلى جرأتِه وجهره بالحق وصراحتِه، وإبداءِ رأيه، وتقديمِ نصحه فيما يراهُ مناسباً وصواباً، كما يدلُّ على حسنِ أدبه مع رسولِ الله ﷺ، واحترامِه له، فهو يقترحُ عليه، ويُعيدُ الاقتراحَ عليه ثلاث مرات! ولو لم يكنْ قويَّ الشخصيةِ لما فعلَ ذلك! وكان يمكنُ أنْ يقولَ ذلك مرةً واحدة!

وأرادَ رسول الله ﷺ أنْ يبينَ لسعدٍ رضي الله عنه طريقتَه في توزيعِ الغنائم، وأنْ يوضِّحَ له حقيقةَ الأمر، لئلا يبقى في نفسه شيء!

وقبلَ أنْ يوضِّحَ له الأمر، قامَ ﷺ بحركةٍ عمليةٍ للَفْتِ انتباهِه ومداعبتِه، فضربَه بيده بين عنُقه وكتفه، وهي ضربةٌ تحبُّب للمداعبة، وقالَ له: أقتالاً؟

وهذا استفهامٌ للتحببِ أيضاً. يقولُ له: يا سعد: أتقاتلُ قتالاً؟ شَبَّهَ كلامَ سعدٍ واقتراحَه ثلاثَ مرات بمن يقاتلُ قتالاً!!

ثم بيَّـنَ له أنَّ لجعيلِ بن سـراقة عنده منزلـةً عالية، فهو خيرٌ من مِلءِ الأرضِ من أمثالِ الأقرعِ وعيينة، وأنه لم يُعْطِ المسلمين من الغنائم على أساسِ إيمانهم وإسلامهم، إنما أعطاهم على أساسِ تأليف قلوبهم.

إنه يُعطي الرجلَ المفضولَ من الغنائم ليقوِّيَ إيمانَه، ولا يُعطي المؤمن الصالح منها، لأنه يَكلُ الفاضلَ إلى إيمانِه، ويخشى أنْ يتخلَّى ضعيفُ الإيمانِ عن الإيمان، فيكبَّهُ اللهُ في النار!

بهذا التوضيحِ عرفَ سعدٌ حكمةَ رسول الله ﷺ في توزيع غنائم هوازن، وأنه قسَّمها على ضعافِ الإيمان من مسـلمةِ الفتح، ليقوِّيَ إيمانَهم.

وسَجَّلَ هذا الموقفُ لسعدٍ رضي الله عنه قوةَ شخصيته، وجرأتَه في تقديم رأيه، وصراحتَه في قولِ ما يراه مناسباً صواباً.

(١٠) سعد مريض في مكة بعدة حجة الوداع

سعد مع الرسول ﷺ إلى تبوك:

في شهرِ رجب من السنةِ التاسعةِ من الهجرة، علمَ رسولُ الله ﷺ أنَّ هرقلَ يُعدُّ جيشاً من الروم وعملائِهم من القبائل العربية لغزوِ المدينة، فجهَّزَ رسول الله ﷺ جيشاً كثيفاً لحربِ الروم، وأعلمَ المسلمين بوجهتِه ليتجهَّزوا، وأخبرهم أنه خارجٌ إلى تبوكَ لحرب الروم!

لبَّى المسلمون الدعوة، وخرجَ معه ثلاثون ألفاً! وهو عدد كبير، وكان سعدُ بن أبي وقاص رضي الله عنه في مقدمةِ الخارجين إلى غزوةِ تبوك.

واستخلفَ رسولُ الله ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه على المدينة، وسارَ بالجيشِ متوجّهاً إلى تبوك، وتوقّفَ قليلاً في منطقةِ (الجُرْف) بالقربِ من المدينةِ على طريقِ الشام.

وتكلَّمَ المنافقون في المدينة بالباطل ضدَّ عليٍّ رضي الله عنه، وقالوا: كَرِهَ رسولُ الله ﷺ أنْ يَخرجَ معه عليٌّ إلى تبوك، لأنه استثقلَه، وأرادَ أن يتخفَّفَ منه، فأبقاهُ في المدينة!

وسمعَ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه كلامَ المنافقين، فتألَّمَ وحزن، وحملَ سلاحَه، ولحقَ بالرسول ﷺ وهو بالجُرف، ليَخرجَ معه إلى تبوك.

سعد يخبر عن فضل علي:

كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بجانبِ رسولِ الله ﷺ، عندما أتاهُ عليٌّ رضي الله عنه متألِّماً، وقال: يا رسولَ الله: خلَّفْتَني مع النساء والصبيان؟ إنَّهم يقولون: إنّك استثقلْتَني وأبقيتني في المدينة لتتخفَّفَ منّي!

فقال له رسولُ الله ﷺ: «كَذَبوا في ما قالوا، إنما خَلَّفْتُك على أهلي، أما ترضى أنْ تكونَ منّي بمنزلةِ هارون من موسى! غيرَ أنّه لا نبيَّ بعدي!!».

فقال عليّ: بلى، رضيتُ يا رسولَ الله!

وعادَ عليٌّ مسرعاً إلى المدينةِ وهو فرحٌ مسرور.

قال سعد: فأدبرَ عليٌّ مسرعاً، وكأنّي أنظرُ إلى غبارِ قدميه يَسطع.

أخبرَ سعد: أبناءَه الثلاثة ـ عامر، ومصعب، وإبراهيم ـ بهذه الحادثة.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن مصعبِ بنِ سعد عن أبيه رضي الله عنه قال: «خَلَّفَ رسولُ الله ﷺ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضي الله عنه في غزوةِ تبوك. فقال: يا رسول الله: تخلِّفني في النساءِ والصبيان؟

فقالَ ﷺ: «أما ترضى أنْ تكونَ مني بمنزلةِ هارون من موسى؟ غيرَ أنّه لا نبيّ بعدي...»[1].

ابن المسيب يخبر عن هيبة سعد:

وحفظ عامرٌ الحديثَ عن أبيه سعد، وحَدَّثَ به سعيدَ بنَ المسيّب رضي الله عنه، فأُعجبَ سعيدٌ به، وجاءَ إلى سعدٍ يريدُ أنْ يتأكَّدَ منه. ولكنَّ سعداً له هيبةٌ وشخصيةٌ مؤثِّرةٌ قوية، وابنُ المسيّب يهابُ سعداً رضي الله عنه.. فذهبَ إليه وصارَحَه بهيبتِه منه، ولكن لابدَّ أنْ يسألَه ليتعلَّمَ ويتأكَّد!!

روى أحمد في (المسند) عن سعيدِ بن المسيّب رضي الله عنه قال: «قلتُ لسعدِ بنِ مالك: إني أُريدُ أنْ أسألَكَ عن حديث، وأنا أهابُكَ أنْ أسألك عنه!

فقال: لا تفعلْ يا ابنَ أخي، إذا علمتَ أنَّ عندي علماً فسلْني عنه، ولا تَهَبْني!

---

(١) البخاري (٦٤) كتاب المغازي، (٧٨) باب غزوة تبوك، حديث رقم: ٤٤١٦؛ ومسلم (٤٤) كتاب فضائل الصحابة، (٤) باب فضائل عليّ بن أبي طالب، حديث رقم: ٢٤٠٤.

فقلتُ: قولُ رسولِ اللهِ ﷺ لعليٍّ حينَ خلَّفَه بالمدينة في غزوةِ تبوك؟

فقال سعد: خلَّفَ النبيُّ ﷺ علياً بالمدينةِ في غزوةِ تبوك، فقال: يا رسولَ الله: أتخلِّفُني في الخالفة، في النساء والصبيان؟

فقال ﷺ: أما ترضى أنْ تكونَ منّي بمنزلةِ هارونَ من موسى؟.

قال: بلى يا رسول الله!

فأدبرَ عليٌّ مسرِعاً كأني أنظرُ إلى غُبارِ قدمَيْه يَسطع..»[1].

ورواه مسلمٌ بلفظٍ آخر، وزيادةٍ أُخرى، فعنْ سعيدِ بنِ المسيب، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه رضي الله عنه، قال: «قالَ رسولُ الله ﷺ لعليّ: أنتَ منّي بمنزلةِ هارون من موسى، إلاّ أنّه لا نبيَّ بعدي.

قالَ سعيدُ بن المسيب: فأحببتُ أنْ أُشافِهَ بها سعداً، فلقيتُ سعداً، فحدَّثْتُه بما حَدَّثني عامر.

فقال: أنا سمعتُه!

فقلت: آنتَ سمعْتَه؟

فوضعَ أُصبعيْه على أُذُنيْه، فقال: نعم. وإلاّ فاسْتَكَّتا...»[2].

---

(١) مسند أحمد، بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ٣/ ٨٤، حديث رقم: ١٤٩٠. وقال عنه الشيخ شعيب: الحديث صحيح.

(٢) صحيح مسلم برقم: ٢٤٠٤. وقد مرَّ بلفظ آخر قبل قليل!

طريقة سعد في تاكيد علمه:

لقد سمعَ سعيدُ بن المسيب الحديثَ عن عامرِ بنِ سعد، يَرويه عن أبيه سعدٍ رضي الله عنه، وأرادَ سعيدٌ أنْ يتأكَّدَ من الحديث، بسماعِه من سعدٍ نفسِه، فأتاهُ فحدَّثَه بما حدَّث به ابنَه عامر. فقالَ سعدٌ رضي الله عنه: أنا سمعْتُه من رسولِ الله ﷺ. فسألَهُ ابنُ المسيب: أأنتَ سمعْتَه من رسولِ الله ﷺ؟

فقامَ سعدٌ بحركةٍ للَفْتِ نظرِ سعيد، وتأكيدِ سماعِه للحديث، لقد وضعَ أصبعَيْه على أُذنيْه، ثم قال: اسْتَكَّتْ أُذُناي إنْ لم أسمَعْه من رسولِ الله ﷺ!

يدعو على نفسِه بالصَّمم إنْ لم يكنْ سمعَ الحديثَ من رسولِ الله ﷺ، ويدلُّ هذا على طريقتِه في التعليم، وتوثيقِ ما يقدِّمُه، وتأكيدِه ذلك بمختلفِ الوسائل، كما يدلُّ على طريقةِ سعيدِ بن المسيب في طلبِ العلم، والاستيثاقِ مما يسمع!

سعد يحج مع رسول الله ﷺ:

ولما توجَّه الرسولُ ﷺ إلى الحج، كان سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه ممن سارَ معه إلى الحج.

خرجَ رسولُ الله ﷺ من المدينةِ في شهرِ ذي القعدة من السنةِ العاشرة، ولما وصلَ ذا الحُليفةِ أَهَلَّ بالعمرة، وساق معه الهَدْي.

روى الواقديُّ عن سعدِ بن أبي وقاص وعبدِ الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ أهلَّ بالعمرةِ، وساق معه الهَدي[1].

(١) مغازي الواقدي: ٣/ ١٠٩٢.

أمَّا الصحابةُ الذين معه فمِنْهم مَنْ أهَلَّ بعمرةٍ متمتّعاً، ومِنهم مَنْ أهلَّ بالعمرةِ مع الحجِّ قارناً، ومِنْهُم مَنْ أهلَّ بالحجِّ وحدَه مفرداً.

روى مسلمٌ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: خرجْنا مع رسولِ الله ﷺ عامَ حجّةِ الوداع، فمنّا مَنْ أحْرَمَ ومِنّا مَنْ أهَلَّ بحج، حتى قدِمْنا مكة!

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ أَحْرَمَ بعُمرة، ولم يُهْدِ، فلْيَحْلِلْ.. ومَنْ أَحرمَ بعمرة، وأهْدى، فلا يَحْلِلْ حتى ينحرَ هَدْيَه.. ومَنْ أهلَّ بحج، فلْيُتِمَّ حَجَّه...»[1].

وروى البخاريُّ عن عائشةَ رضي الله عنها قالَتْ: «خرجْنا مع رسولِ الله ﷺ عامَ حجَّةِ الوداع، فمنَّا مَنْ أهلَّ بعمرة، ومنَّا مَنْ أهلَّ بحَجّةٍ وعمرة، ومِنّا من أهلَّ بالحج، وأهلَّ رسولُ الله ﷺ بالحج. فأمّا مَنْ أهلَّ بالحج، أو جَمَعَ الحجَّ والعمرة، لم يُحِلّوا حتى كانَ يومُ النحر...»[2].

ولم يُنكرْ رسولُ الله ﷺ على أحَدٍ منهم إحرامَه، ودلَّ هذا على جوازِ أنواعِ الإحرامِ بالحجِّ الثلاثة: الإفرادِ والتمتعِ والقِران، بينما كان حجُّ رسولِ الله ﷺ بالإفراد، لأنّه ساق معه الهَدْي!

---

(١) صحيح مسلم (١٥) كتاب الحج، (١٧) باب وجوه الإحرام، حديث رقم ١٢١١.

(٢) صحيح البخاري (٢٥) كتاب الحج، (٣٤) باب جواز الإفراد والتمتّع والقِران، حديث رقم: ١٥٦٢.

علي وسعد يردّان على مَن نهى عن التمتّع:

ودعا بعض الصحابةِ إلى عدمِ التمتّعِ بالحج، فردَّ ونهى عن المتعةِ بالحج، ولكنَّ صحابةً آخرين ردّوا عليهم.

نهى عثمانُ رضي الله عنه عن التمتّعِ بالحج، فردَّ عليه عليٌّ رضي الله عنه.

روى مسلمٌ عن سعيدِ بن المسيب قال: «اجتمَعَ عليٌّ وعثمانُ رضي الله عنهما بعُسفان، فكانَ عثمانُ يَنهى عن المتعةِ أو العمرة.

فقالَ له عليّ: ما تُريدُ إلى أَمْرٍ فَعَلَهُ رسولَ الله ﷺ تَنهى عنه؟

فقالَ عثمان: دَعْنا منك!

فقال عليّ: إنّي لا أستطيعُ أنْ أَدَعَك..

فلما أن رأى عليٌّ ذلك أَهَلَّ بهما جميعاً...»[1].

ونهى معاويةُ بنُ أبي سفيان رضي اللهُ عنهما عن التمتّع في الحج، وسُئلَ سعدٌ رضي الله عنه عن ذلك فردَّ عليه.

روى مسلمٌ عن غُنَيْمِ بنِ قيس قال: «سألْتُ سعدَ بنَ أبي وقاص رضي الله عنه عن المُتْعَة؟

فقال: فعَلْناها. وهذا يومئذٍ كافرٌ بالعُرُش.

---

(١) صحيح مسلم (١٥) كتاب الحج، (٢٣) باب جواز التمتّع، حديث رقم: ١٢٢٣.

يعني: فعلناها ومعاويةُ كافرٌ في بيوت مكة! . . .»[1].

أخبرَ سعدٌ رضي الله عنه أنهم تمتَّعوا بالعمرةِ عندما اعتمروا مع رسولِ الله ﷺ، وذلك في السنةِ السابعةِ من الهجرة، في عمرةِ القضاء، التي كانتْ في العامِ التالي لصلح الحديبية.

ولما اعتمروا في تلك السنةِ كان معاويةُ رضي الله عنه ما زالَ كافراً بالعُرُش، مقيماً في بيوتِ مكة، لأنَّه أسلمَ عام الفتح، في السنة الثامنة.

سعد مريض في مكة بعد الحج:

وبعدما أدّى سعدُ بنُ أبي وقاص مناسكَ الحجِّ معَ رسولِ الله ﷺ مَرِضَ في مكةَ مَرَضاً شديداً، ظنَّ أنه سيموتُ منه. . وجاءَه رسولُ الله ﷺ يعودُه. . فبارَكَه، ودَعا له، وجرى بينهما حوارٌ وكلام.

روى البخاريُّ عن سفيان الثوري عن الزهري قال: أخْبَرَني عامرُ بنُ سعد بن أبي وقاص، عن أبيه رضيَ اللهُ عنه قال: مرضْتُ بمكة مرضاً، فأَشفيْتُ منه على الموت، فأتاني النبيُّ ﷺ يعودُني.

فقلْت: يا رسولَ الله: إنَّ لي مالاً كثيراً، وليسَ يَرثُني إلاّ ابنتي، أَفَأَتصدَّقُ بثُلُثَي مالي؟

قال: «لا».

---

(1) صحيح مسلم (١٥) كتاب الحج، (٢٣) باب جواز التمتع، حديث رقم: ١٢٢٥.

قلتُ: فالشَّطْر؟

قال: «لا».

قلتُ: فالثُّلُث؟

قال: «الثلُث كبير، إنّك إنْ تركْتَ وَلَدَك أغنياء، خيرٌ من أنْ تتركَهم عالةً يتكفَّفون الناس! وإنَّكَ لنْ تُنفقَ نفقةً إلاَّ أُجِرْتَ عليها، حتى اللقمةَ ترفعُها إلى في امرأتِك..».

فقلتُ: يا رسولَ الله: أَأُخَلَّف عن هجرتي؟

فقال: «لن تُخَلَّف بعدي فتعملَ عملاً تريدُ به وَجْهَ الله، إلاَّ ازدَدْتَ به رفعةً ودرجةً، ولعلَّ أنْ تُخَلَّفَ بعدي حتى ينتفعَ بك أقوام، ويُضَرَّ بك آخرون! ولكنَّ البائسَ سعدُ بن خَوْلَة!».

يَرثي له رسول الله ﷺ أنْ مات بمكة!

قالَ سفيانُ الثوري: وسعدُ بنُ خولة رجلٌ من بني عامرِ بن لؤي[1].

الحادثة في (صحيح مسلم):

وروى مسلم عن عامرِ بن سعد، عن أبيه رضي الله عنه قال: عادَني رسولُ الله ﷺ في حجةِ الوداع، مِن مرضٍ أشفيتُ منه على الموت.

---

(١) صحيح البخاري (٦٥) كتاب الفرائض، (٦) باب ميراث البنات، حديث رقم: ٦٧٣٣.

فقلتُ: يا رسولَ الله: بَلَغَني ما ترى من الوجع، وأنا ذو مال، ولا يرثُني إلاّ ابنةٌ لي واحدة، أفأتصدَّقُ بثلثَيْ مالي؟

قال: «لا».

قلت: أفأتَصدَّقُ بشَطْرِه؟

قال: «لا». قلت: فالثلث. قال: «الثلثُ، والثلثُ كثير. إنّك إنْ تَذَرَ ورثَتَكَ أغنياءَ خيرٌ من أنْ تَذَرَهم عالة، يتكفَّفون الناس، ولستَ تُنفقُ نفقةً تبتغي بها وَجْهَ الله إلا أُجِرْتَ عليها، حتى اللقمةَ تَضَعُها في في امرأتك».

قلتُ: يا رسولَ الله: أُخَلَّفُ بعدَ أصحابي؟

قال: «إنّك لن تُخَلَّفَ فتعملَ عملاً تبتغي به وجْهَ الله إلا ازددْتَ به درجةً ورفعة، ولعلَّكَ تُخَلَّفُ حتى يُنفعَ بك أقوام، ويُضَرَّ بك آخرون! اللهمَّ امْضِ لأصحابي هجرتَهم، ولا تَرُدَّهم على أعقابِهم.. لكنَّ البائِسَ سعدُ بنُ خولة!».

قال: رثى له رسولُ الله ﷺ، مِنْ أنْ تُوفيَ بمكة[1].

وفي لفظِ آخرَ لمسلم: عن حُمَيْدِ بنِ عبد الرحمن الحميري، عن ثلاثةِ من وَلَدِ سعد، كلُّهم يُحدِّثُهم عن أبيه، أنَّ النبيَّ ﷺ دخلَ على سعدٍ يعودُه بمكة، فبكى.

فقال ﷺ: «ما يُبكيك؟»

---

(١) صحيح مسلم (٢٥) كتاب الوصية، (٢) باب الوصية بالثلث، حديث رقم: ١٦٢٨.

قال: قد خشيتُ أنْ أموتَ بالأرضِ التي هاجَرْتُ منها، كما ماتَ سَعْدُ ابنُ خولة.

فقالَ النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ اشْفِ سعْداً، اللهمَّ اشْفِ سعداً، اللهمَّ اشْفِ سعداً».

قال: يا رسولَ الله: إنَّ لي مالاً كثيراً، وإنما يرثُني ابنتي، أفأُوصي بمالي كلِّه؟

قال: «لا».

قال: فبالثُلثين؟

قال: «لا».

قال: فالنِّصف؟

قال: «لا».

قال: فالثُلث؟

قال: «الثلثُ، والثلثُ كثير! إنَّ صَدَقَتك من مالِكَ صدَقَة، وإنَّ نَفْقَتَكَ على عيالِكَ صدقة، وإنَّ ما تأكلُ امرأتُكَ من مالك صدقة، وإنّكَ أنْ تَدَعَ أهلك بخير، خيرٌ مِنْ أن تَدَعَهم يتكفَّفون الناس»[1].

---

(١) صحيح مسلم (٢٥) كتاب الوصية، (٢) باب الوصيبة بالثلث، حديث رقم: ١٦٢٨.

الحادثة في (مسند أحمد):

وروى أحمد عن عائشةَ بنتِ سعد، عن أبيها رضي الله عنه قال: اشتكيتُ شكوى لي بمكة، فدَخَلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ يعودُني، فقلتُ: يا رسولَ الله: إنّي قدْ تركْتُ مالاً، وليسَ لي إلا ابنةٌ واحدة، أفأُوصي بثُلُثَيْ مالي وأتركُ لها الثلث؟

قال: «لا».

قال: أفأُوصي بالنصف، وأتركُ لها النِّصْف؟

قال: «لا».

قال: أفأُوصي بالثُّلُث، وأَتركُ لها الثلثين؟

قال: «الثُّلُث، والثلثُ كثير».

فوضعَ ﷺ يَدَهُ على جبهتِه، فمسحَ وجْهي وصدري وبطني، وقال: «اللهمَّ اشْفِ سعداً، وأتِمَّ له هجرتَه».

فما زلْتُ يُخَيَّلُ إليّ أني أجدُ بَرْدَ يدِه على كبدي حتى الساعة...»[1].

سرد حادثة مرض سعد:

بعد إيرادِ تلك الرواياتِ الأربعةِ عن حادثةِ مرضِ سعدِ رضي الله عنه في

---

(١) مسند أحمد، بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ٣/ ٧٣ ـ ٧٤، حديث رقم: ١٤٧٦، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

مكة، وعيادةِ الرسولِ ﷺ له، يُمكنُ أنْ نَسْرُدَ تلك الحادثة، مستخلصَةً من تلك الروايات:

بعدما انتهى سعدٌ رضي الله عنه من أداءِ مناسِكِ الحجّ مرضَ مرضاً شديداً، أوشكَ أنْ يموتَ منه، وعلمَ رسولُ الله ﷺ بمرضِه، فأتاهُ يزورُه.

جلسَ رسولُ الله ﷺ بجانبِ سعد، فبكى سعد! وليسَ بكاؤُهُ من المرض، لأنّه رجلٌ صابرٌ على المرضِ والشدةِ والبلاء، إنما بكاؤُه لأنّه يخشى أنْ يموتَ في مكة، وهو قد هاجرَ منها.

فسألَهُ رسولُ الله ﷺ عن سبب بكائِه؟

قال له: أبكي لأنني أخشى أنْ أموتَ بسببِ هذا المرض، وأُدفنَ في مكة، وقد خرجتُ من مكة مهاجراً إلى الله ورسوله، وإنْ مِتُّ في مكة أخشى أنْ يَبطلَ أجري وثوابي! فأكونَ مثلَ سعدِ بنِ خَوْلة.

وكان سعدُ بنُ خولةَ من بني عامرِ بنِ لُؤَيّ من السابقين للإسلام، وقد هاجرَ إلى الحبشة، ثم هاجرَ إلى المدينة، وشهدَ بدراً.

ولما عقدَ رسولُ لله ﷺ صلحَ الحديبية مع قريش في أواخرِ السنةِ السادسة، عادَ سعدُ بن خولة إلى مكة باختيارِه، وأقامَ فيها مع أقاربه من قريش، فأتاهُ الموتُ ودُفِنَ في مكة.

وبذلكَ بَطَلَتْ هجرتُه، لأنَّه عادَ مختاراً إلى البلدِ التي خرج منها، وبذلك فاتَهُ ثوابُ الهجرة، فرثى له رسولُ الله ﷺ، واعتبرَه بائساً لهذا السبب!

ولو لم تكنْ عودتُه إلى مكة وإقامتُه فيها باختيارِه لما بطلَتْ هجرتُه[1].

لذلك كان سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه يبكي، لأنه يخشى أنْ يكونَ مصيرُه كمصيرِ سعد بن خولة، فيكونَ بائساً، محروماً من ثوابِ الهجرة.

طمأنَه رسولُ الله ﷺ أنه لن يكونَ كسعدِ بن خولة، حتى لو ماتَ في مكة، لأنَّ ابنَ خولَةَ ألغى هجرتَه، وأقام في مكة باختيارِه، أما هو فليسَ له اختيارٌ في مرضِه!

أَمَرَّ رسولُ الله ﷺ يَدَهُ على جبهتِه، ثم أقبلَ على سعدٍ رضي الله عنه، فمسحَ وجْهَه وصدْرَه وبطْنَه بيدِه الشريفة! ونالَتْ سعداً بركةُ رسول الله ﷺ، وأحسَّ بَرْدَ يدِه على كبدِه! ومضت السنواتُ وسعدٌ يجدُ بردَ يدِ النبي ﷺ على كبده.

ودعا رسولُ الله ﷺ لسعد، فقال: اللهمَّ اشْفِ سعداً، اللهمَّ اشْفِ سعداً، اللهمَّ اشْفِ سعداً. اللهمَّ أتِمَّ له هجرتَه.

ثم دعا ﷺ لأصحابه، فقال: اللهمَّ امْضِ لأصحابي هجهرتَهم، ولا تَرُدَّهم على أعقابهم.

بين سعد ورسول الله ﷺ بشأن الوصية:

ثم قال سعدٌ لرسولِ الله ﷺ: إنَّ لي مالاً كثيراً، وليس لي وارثٌ إلا ابنةٌ

---

(١) انظر كلام شعيب الأرناؤوط عن سعد بن خولة في تعليقه على مسند أحمد: ٣/ ١١٠، حاشية.

واحدة، أفأُوصي بكلِّ مالي؟

ودلَّ كلامُـه على أنّـهُ كان كثيرَ المال، رزقَه اللهُ إياه من الفيءِ والغنائم، لأنّه شاركَ في كلِّ الغزواتِ مع رسول الله ﷺ، كبدر وأُحُد والخندق وقريظة وخيبر وحنين وفتح مكة وتبوك وغيرها.

ودلَّ كلامُه على أنّه حتى السنةِ العاشرةِ من الهجرةِ لم يكنْ عندَه إلاّ ابنةٌ واحدة، هي أُمُّ الحَكَمِ الكبرى، وكان عمرُه أربعين سنة!

وأطالَ اللهُ عمرَه، حيث عاشَ بعد ذلك خمساً وأربعين سنة، ورزقه اللهُ ستةً وثلاثين مولوداً بين ذكرٍ وأنثى!!

ومن كرمِ سعدٍ رضي الله عنه، ورغبتِه في الأجرِ من الله أنه أرادَ أنْ يوصيَ بمالِه كلِّه في سبيله، ويجعلَه للفقراء والمساكين! فنهاهُ رسولُ اللهِ ﷺ عن ذلك. فعَرَضَ أنْ يوصيَ بثلثَيه، فنهاهُ عن ذلك، فعرضَ أنْ يوصيَ بنصفِ ماله، ويُبقيَ النصف الآخر لابنته، فنهاهُ عن ذلك.. فعرَضَ أنْ يوصيَ بثُلُثِ ماله، فقبلَ ﷺ ذلك، واستكثرَه قائلاً: الثلُثُ، والثلثُ كثير!

وهكذا أوصى سعدٌ رضي الله عنه بثُلُثِ مالِه في سبيل الله، ليُعطى للفقراءِ والمساكين، وهذا كرمٌ بالغٌ منه، فما يُعطي ثلثَ مالِه إلاّ كريمٌ راغبٌ في الأجرِ من الله.

لماذا لم يَقْبَل رسولُ الله ﷺ كلَّ ماله، لا ثُلُثَيه ولا نصفَه؟

علَّلَ لسعد ذلك بأنه يريدُ منه أنْ يُبقيَ مالاً لورثتِه، وأخبرَه بأنَّ الأَوْلى له أنْ يتـركَ مالاً لورثتِه من بعدِه ليكونـوا أغنياء، بدلَ أنْ يتركَهم عالـةً فقراء،

يتكفَّفون الناس، ويسأَلونهم المساعدةَ والصدقة!

وأخبرهُ رسولُ الله ﷺ أنَّ اللهَ يكتبُ له الأجْرَ والثوابَ على كلِّ صدقةٍ ينفقُها، يبتغي بها الأجْرَ من الله، حتى لو كانتْ تلك النفقةُ على أهلِه وعيالِه، وحتى لو كانت لقمةً يضعُها في فمِ امرأتِه!

معجزتان لرسول الله ﷺ حول ورثة سعد وطول عمره:

وكلامُ الرسولِ ﷺ لسعدٍ عن ورثته، مع أنه ليس له وارثٌ إلا ابنتُه إشارةٌ إلى أنّه سيكونُ له ورثةٌ كثيرون، من الأولادِ والبنات، فلابدَّ أنْ يتركَ لهم أموالاً ليكونوا أغنياء.

وهذه معجزةٌ لرسولِ الله ﷺ، أخبرَهُ بها ربُّ العالمين، مِنْ أنَّ سعداً لن يموتَ بهذا المرضِ في مكة، وسيمتدُّ به العمر، حتى يُنجِبَ ورثةً عديدين! وهكذا كان، حيثُ أنجبَ ستةً وثلاثين مولوداً، نصفُهم ذكور، ونصفُهم إناث.

وسألَ سعدٌ رسولَ الله ﷺ: هل أُخَلَّفُ عن هجرتي؟ وهل أُخلَّفُ بعدَ أصحابي؟

أي: هل ترى أنني سأتعافى وأبرأُ من مَرَضي، وأعيشُ بعدَ أصحابي، وأعودُ إلى المدينة؟

فطمأنه رسولُ الله ﷺ، بأنَّه إذا خُلِّفَ بعد ذلك، وعاشَ فترةً بعد وفاةِ رسولِ الله ﷺ، فسيزدادُ أجرُه وثوابُه، لأنّه لنْ يعملَ عملاً صالحاً يبتغي به وجْهَ اللهِ إلا زادَه اللهُ رفعةً ودرجة.

ثم ذكرَ ﷺ معجزةً من معجزاتِه، وعَلَماً من أعلامِ نبوّتِه، فقالَ له: لعلّك

تُخَلَّفُ حتى يَنتفعَ بك أقوامٌ، ويُضَرَّ بك آخرون!

اللهُ هو الذي أخبرَ رسولَه ﷺ بذلك، فَبَشَّرَ سعداً به.

لقد خُلِّفَ سعدٌ رضي الله عنه بعدَ رسول الله ﷺ، فعاشَ بعده خمساً وأربعين سنة، ونفعَ اللهُ به مسلمين كثيرين، عندما جاهدَ في سبيلِ الله، ونشَرَ دينَ الله، وأوصلَ إليهم الحقَّ والخيرَ والنور، فانتفعوا به.

وأُصيبَ آخرون بالضَّرر، وهم الكفارُ الذين جاهدَهم سعدٌ رضي الله عنه، من الفرسِ وأعوانِهم، حيثُ هزمَهم في معركة القادسيةِ وغيرِها!

وكم زادَ أجرُهُ، وعَلَتْ منزلتُه، وارتفعتْ درجاتُه في هذه السنواتِ العديدة، بسببِ أعمالِه الصالحة الكثيرة، وجهادِه في سبيل الله!

سعد في جيش أسامة:

وفي شهرِ صفر من السنةِ الحادية عشرة للهجرة شَكَّلَ رسولُ الله ﷺ جيشاً من المهاجرين والأنصار، بقيادةِ أُسامةَ بنِ زيد رضي الله عنهما. ووجَّهه إلى غزوِ الشام، وذلك للانتقامِ منهم، والثأرِ لمعركةِ مؤتة، حيثُ استشهِدَ فيها القادةُ الثلاثة: زيدُ بن حارثة، وجعفرُ بن أبي طالب، وعبدُ الله بن رواحة، رضي الله عنهم.

وكان سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه جندياً في جيشِ أسامة[1].

---

(١) مغازي الواقدي: ٣/ ١١٨.

ولكنَّ رسولَ الله ﷺ مرض، فتأخَّرَ مسيرُ الجيش، ينتظرونَ برءَ رسولِ الله ﷺ، واشتدَّ المرضُ بالرسول ﷺ، حتى قبضَه الله في الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنةِ الحادية عشرة.

وبعدَ وفاةِ رسولِ الله ﷺ ارتدَّتْ قبائلُ العرب، فتأخَّرَ مسيرُ جيشِ أسامة، وأشارَ كبارُ الصحابةِ على أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعدم إنفاذِ الجيش، وإبقائِه في المدينة لمحاربة المرتدّين، ومن الذين أشاروا عليه بذلك: عمر، وعثمان، وأبو عبيدة، وسعدُ بن أبي وقاص، وسعيدُ بن زيد، رضي الله عنهم[1].

ولكنَّ أبا بكر رضي الله عنه أَصَرَّ على إنفاذِ جيشِ أسامة، وكانت مصلحةُ المسلمين بذلك، وكان سعدٌ رضي الله عنه أَحَدَ أفرادِ ذلك الجيشِ المجاهد.

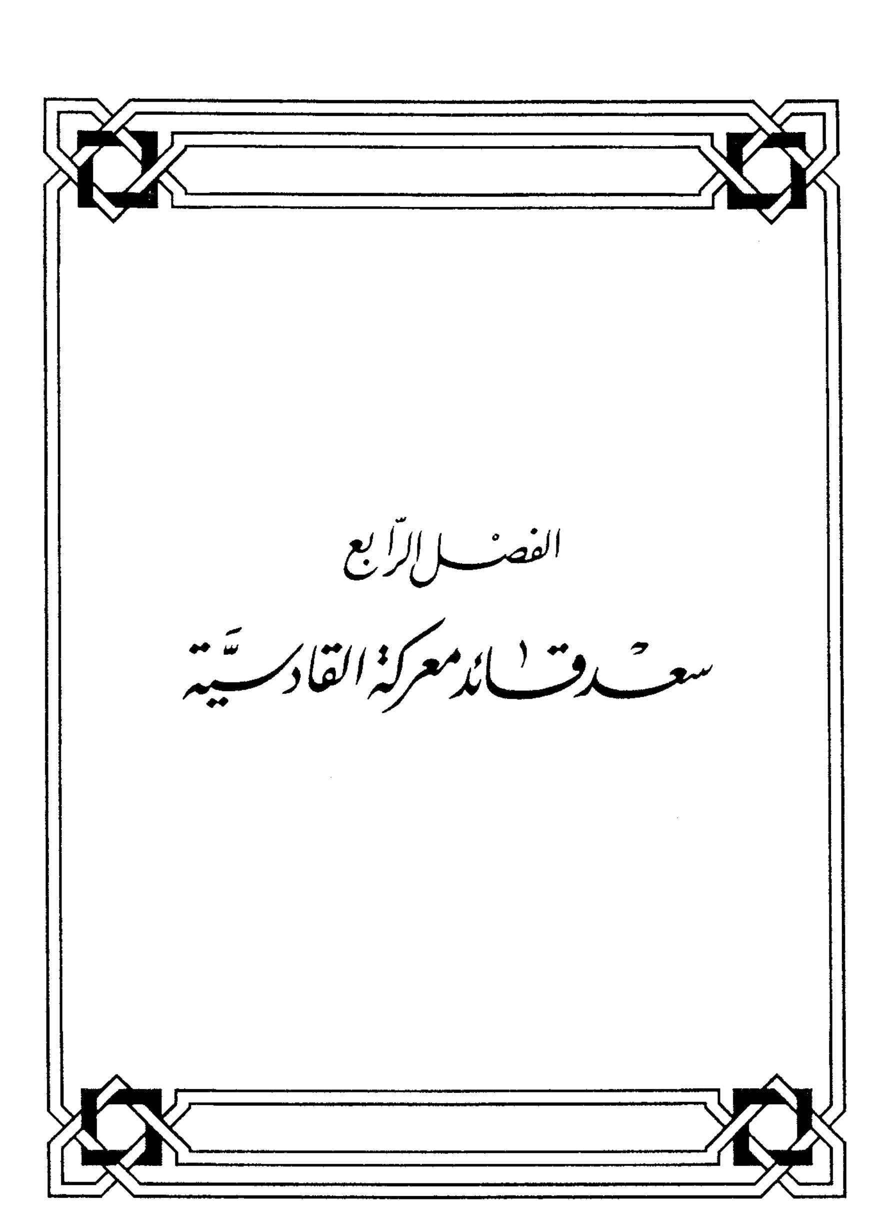
وهكذا عاشَ سعدٌ رضي الله عنه مع رسولِ الله ﷺ مجاهداً، طيلةَ السنواتِ العشر، التي عاشَها رسولُ الله ﷺ في المدينةِ بعدَ الهجرة، وشهدَ معه المعاركَ والغزواتِ كلِّها: بدرٌ، وأُحُدٌ، والأحزاب، وفتحُ مكة، وغزوةُ حُنين، وغزوةُ تبوك... وغيرها.

* * *

---

(١) المرجع السابق: ٣/ ١٢١.





الفصل الرابع

سعد قائد معركة القادسية

الفصل الرابع

سعد قائد معركة القادسيّة

(١) ما قبل معركة القادسية

كانت معركةُ القادسيةِ التي قادَها سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه ثمرةً لما سبقَها من أحداث، ونتيجةً لمعاركَ سبقَتْها على جبهةِ الجهادِ ضدَّ الفرسِ ومَنْ معهم من العرب.

استمرّت الحربُ بين المسلمين والفرسِ حوالي أربع سنواتٍ قبلَ معركةِ القادسية الحاسمة، كما كانتْ هناك معاركُ عديدةٌ في الشام على جبهةِ الجهادِ ضدَّ الروم، انتهتْ بانتصارِ المسلمينِ في معركة اليرموك، التي كانتْ قبيلَ معركةِ القادسية.

وحتى نُحسنَ فهمَ وترتيبَ أحداثِ معركةِ القادسية، نلخّصُ الحوادثَ التي وقَعَتْ قبلَها بمنتهى الإيجاز.

وقد خصَّص الأستاذُ المؤرِّخُ أحمد عادل كمال لهذه الحوادث كتابَه الجيدَ (الطريق إلى المدائن)، بينما خصّصَ لأحداثِ معركة القادسية كتابَه (القادسية)، وأرَّخَ حوادثَ ما بعدَ القادسية في كتابه الثالث: (سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية).

المثنى بن حارثة يشتبك مع الفرس:

بدأت المناوشاتُ بين المسلمين والفرسِ في وقتٍ مبكّرٍ، في أواخرِ أيامِ النبيِّ ﷺ.

كان بنو شيبان من قبيلةِ ربيعة الكبيرة مقيمين على الحدودِ بين العربِ والفرس، وظهرَ فيهم القائدُ المثنّى بن حارثة الشيباني، وأسلمَ في أواخرِ أيامِ النبيِّ ﷺ، كما أسلمَ أخواه القائدان: المُعنّى، ومسعود.

ولما وليَ أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه الخلافة، وارتدّتْ معظمُ قبائلِ العرب، ثبتَ المثنّى على الإسلام، وشاركَ في (حروب الردّة) ضدَّ المرتدّين في جزيرةِ العرب.

وبعد الانتهاءِ من حروبِ الردة عرضَ المثنّى على الصدّيق رضي الله عنهما قتالَ الفرسِ وأعوانِهم من العربِ الكفار، فوافقَ الصديقُ على ذلك!

وهكذا بدأ الجهادُ ضدَّ الفرس بقيادةِ المثنى بن حارثة الشيباني، في أواخرِ السنةِ الحادية عشرة من الهجرة.

خالد بن الوليد يحارب الفرس سنة (١٢هـ):

وبعد الانتهاءِ من حروب الردّةِ وجَّهَ الصديقُ رضي الله عنه اهتمامَه لقتالِ الفرس، فجهَّزَ جيشيْن لهذه الغاية؛ جيشاً بقيادةِ خالد بن الوليد رضي الله عنه يهاجمُ العراقَ من أسفلِه متَّجِهاً إلى الشمال، وجيشاً بقيادةِ عياضِ بن غنم رضي الله عنه يهاجمُ العراقَ من أعلاه. ويتحرّكُ الجيشان ليُطبِقا على الفرسِ

كفكّي كماشة، على أنْ يلتقيا في الحيرة، عاصمةِ المناذرة!

وأمرَ أبو بكر المثنّى أنْ يكونَ في جيشِ خالد، وأنْ يسمعَ له ويُطيع، والتحقَ المثنى مع جنودِه بجيشِ خالد، وكان عددُ الجيشِ ثمانيةَ عشر ألفاً.

تحرّكَ خالدُ بن الوليد رضي الله عنه بجيشِه المجاهدِ في شهرِ محرم من السنةِ الثانية عشرة للهجرة، وسارَ إلى ميناءِ فارس على شَطِّ العرب (الأُبُلَّة).

وكانتْ أولُ معركةٍ بين المسلمين والفرس هي معركة (ذات السلاسل) انتهتْ بانتصارِ المسلمين، وهزيمةِ الفرس بعد مقتلِ الآلافِ منهم.

ثم كانتْ معركةُ (المذار) على الشاطىءِ الشرقيِّ لنهر دجلة في أولِ شهرِ صفر من السنة الثانية عشرة، هُزِمَ فيها الفرس، وفقدوا ثلاثينَ ألفَ قتيلٍ منهم.

وفي أواخرِ صفر انهزمَ الفرسُ في معركةِ (الوَلْجة)، وبعدَ أيامٍ من انتصارِ المسلمين في معركةِ الولجة انتصروا في معركة (أُلَّيْسٍ)، وفقدَ الفرس فيها سبعين ألفاً. وبعدَ أيامٍ من معركة (أُلَّيْس) انتصرَ المسلمون في معركة (أمغيشيا).

وهكذا انتصرَ المسلمون في أربعةِ معارك وقعَتْ في شهرٍ واحد، هو شهرُ صفر من السنةِ الثانية عشرة، هي معارك: المذار، والولجة، وأليس، وأمغيشيا!

وفي شهرِ ربيع الأول من السنةِ الثانية عشرة سارَ خالدٌ بجيشِهِ إلى الحيرة، واستسلمت الحيرةُ بعد حصارِ خالدٍ لها، ثم صالحَ أهلَها وأخضَعَها، ودفعوا له الجزية.

وهكذا أتمَّ خالدٌ رضي الله عنه فتحَ جنوبِ العراق كلِّه في أقلَّ من شهرين.

خالد ينجد ابن غنم:

وبينما كان خالدٌ يواصلُ انتصاراتِه وفتوحاتِه في جنوب العراق، كانَ عياضُ بن غَنْم رضي الله عنه واقفاً بجنودِه عند (دومة الجندل)، حيث كانت حصناً منيعاً، استعصى على الفتح، واستمرَّ عياضٌ محاصراً له أكثر من شهرين.

ولما استبطأ خالدٌ عياضاً وجيشَه تحرَّك لمساعدته، وهزمَ الفرسَ في معركةِ (الأنبار)، في مطلع شهر رجب، ثم هَزَمَهم مع عملائهم من العرب في معركةِ (عين التمر)، وفي أواخر شهر رجب كان خالدٌ يحاصرُ دومةَ الجندل، وما هي إلا فترةٌ يسيرةٌ حتى افتتحه.

وعادَ خالدٌ بعياضِ بن غنم رضي الله عنهما إلى الحيرة، وبذلك نفَّذَ المهمّة التي أوكلها إليه أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، وفَتَحَ جنوبَ العراقِ كاملاً.

استخلفَ خالدٌ عياضَ بن غنم على الحيرة، وتوجَّه شمالاً ليواصلَ معاركه ضدَّ الفرس.

هزمَ الفرسَ في معركة (حصيد) التي كانت في مطلعِ شهرِ شعبان من السنةِ الثانية عشرة، وفي اليوم التالي هزمَهم في معركةِ (الخَنافس)، وبعدها بأُسبوعٍ هزمَهم في معركةِ (المصيخ) وبعد أسبوعٍ هزمهم في معركةِ (الثني) و(الزميل) في الشمال.

وفي منتصفِ شهرِ ذي القعدة هزمَهم في معركةِ الفِراض، وهي آخرُ

معركةٍ لخالدِ بنِ الوليد رضي الله عنه في العراق، حيث تركَ الجيشَ تحت قيادةِ المثنى بن حارثة الشيباني، وتوجَّه من الفراض إلى مكة، لأداءِ فريضةِ الحج!!

خالد يتوجَّه إلى الشام:

وبعد الانتهاءِ من مناسك الحج عادَ إلى مقرِّ قيادتِه في الحيرة، فأتـاه كتـابُ أبي بكرٍ الصدّيق رضي الله عنه يَدْعوه إلى التوجُّـهِ إلى الشـام بنصفِ الجيش، لنجدةِ المسلمين في معركة (اليرموك)، ويُبقي النصفَ الآخر في العراق بقيادة المثنى بن حارثة!

كان الجيشُ الإسلاميُّ المجاهد حوالي عشرين ألفاً، أخذ خالدٌ معه إلى الشام عشرة آلاف، وأبقى مع المثنى عشرةَ آلاف.

أقامَ خالدٌ في العراق مجاهداً سنةً وشهراً، السنةَ الثانية عشرة كلَّها، وفي شهر صفر من السنةِ الثالثةِ عشرة توجَّه إلى الشام، بعدَ أنْ خاضَ إحدى عشرةَ معركةً حاسمة نصره اللهُ فيها كلّها، وفتح الأرضَ الواقعةَ غربيَّ نهرِ دجلة.

وفي شهرِ ربيع الأول من السنة الثالثة عشرة هَزَمَ المثنى بن حارثة الفرسَ في معركةِ (بابل).

المثنّى في المدينة يطلب المدد:

وكان المثنّى يعلمُ أنَّ جيشَه قليلُ العدد، لا يزيدُ على عشرةِ آلاف، وأنَّ الفرسَ يَجمعون جموعَهم للقضاءِ عليه، وأنهم الآن في شبه هدنة، لها ما بعدها، ورأى أنْ يذهبَ إلى الصدّيق في المدينة يطلب منه المدد.

وصلَ المثنّى المدينةَ والصّدّيقُ يُحتضر، وحدّثه بالأمر، وكلّفَ الصديقُ

عمرَ رضي الله عنهما أنْ ينذبَ الناسَ للخروجِ مع المثنى. وتوفيَ أبو بكر رضي الله عنه في الليل.

وفيما بعد نَدَبَ عمرُ الناسَ للخروج، وكانَ أولَ من استجابَ للدعوة أبو عبيد بن مسعود الثقفي رضي الله عنه، ثم تتابعَ المسلمون بعد ذلك، وسبقَهم المثنى في العودةِ إلى العراق، ليطمئنَّ على الحالةِ هناك.

عيَّنَ أميرُ المؤمنين عمرُ رضي الله عنه أبا عبيد بن مسعود الثقفي رضي الله عنه قائداً للمجاهدين على أرضِ العراق، وتوجَّه أبو عبيد إلى هناك ومعه ألفٌ ممن تطوّعوا، وانضمَّ هؤلاء إلى المجاهدين السابقين، فصار عددُهم عشرة آلاف مجاهد.

أبو عبيد شهيد في معركة الجسر:

تسلَّم أبو عبيد القيادة من المثنى، وخاضَ في بدايةِ شهرِ شعبان من السنة الثالثة عشرة أولَ معركةٍ له ضد الفرس، هي معركة (النمارق) التي هزَمَهم فيها، وفي الأسبوع الثاني من شهر شعبان هزمهم في معركة (السقاطية)، وفي الأسبوع الثالث هزمهم في معركة (باقسياثا).

وفي أواخرِ شهرِ شعبان من السنة الثالثة عشرة وقعتْ معركةُ (الجسر) ـ وتسمَّى أيضاً: المروحة، والقرقس، وقُسّ الناطف ـ وكانتْ شديدةً قاسيةً على المسلمين.

انتصرَ المسلمون في الجولةِ الأُولى منها، وقتلوا من الفرس ستةَ آلاف، ثم أدخل الفرسُ الفيلـة، وتمكَّنوا من الوصولِ إلى أبي عبيد الثقفي قائـدِ

المعركة، فلقيَ اللهَ شهيداً تحت أقدامِ الفيلة، وتضعضعَ المسلمون، وانهزموا، واستُشهد منهم حوالي أربعة آلاف، وانهزمَ منهم مَن انهزم، وتولّى المثنى بن حارثة قيادةَ المسلمين بعدَ استشهادِ أبي عبيد الثقفي، فأمّنَ انسحابَ حوالي خمسةِ آلافٍ من المعركة، وجُرِحَ في المعركة جراحاتٍ بالغة!!

وكانتْ معركةُ الجسر أولَ معركةٍ ينهزمُ فيها المسلمون أمامَ الفرس، وقد أثَّرَتْ على المسلمين كثيراً.

انتصارات المثنى على الفرس:

وخاض المثنّى بعدَ ذلك معاركَ ضدَّ الفرس، رغمَ جراحِه يومَ الجسر، فبعدَ معركةِ الجسرِ بأيام هزمَ الفرس في معركة (أُلَّيْس) الصغرى.

وأمدَّ عمرُ المثنى بالمدد، فبلغ عددُ الجيش حوالي ثمانية آلاف، وفي رمضانَ من السنةِ الثالثة عشرة خاضَ المثنى معركة (البويب) ضدَّ الفرس، هزمَهم فيها، وقتَلَ منهم حوالي مئة ألف!! وبذلك ثأر للمسلمين، ورفعَ معنوياتهم!

وبعدَ هزيمةِ الفرسِ في معركة البويب أصبحتْ بلادُ العراقِ الواقعةُ غربيّ نهرِ دجلة خاضعةً للمسلمين، تجوبُها قواتُهم وخيولُهم حيث شاءت.

وكان المثنى يرسلُ فرسانَه يُغيرونَ على أسواقِ الفرس، ويستولون على أموالهم، بهدفِ إضعافِ معنوياتهم، وتحطيمِ اقتصادِهم، فأغاروا على سوقِ الخنافس، وعلى سوقِ بغداد شرقيَّ نهر دجلة، وعلى سوقِ الكباث في الشمال، وعلى سوقِ صِفّين.

وما أنْ أوشكت السنةُ الثالثة عشرة للهجرة على الانتهاء، حتى كانَ المسلمون قد سيطروا على معظمِ البلادِ الواقعةِ غربيَّ نهر دجلة، ومضى على الحرب على هذه الجبهة سنتان ـ السنة الثانية عشرة والسنة الثالثة عشرة ـ.

الحشود للمعركة الفاصلة:

وجمعَ الفرسُ جموعهم من مختلفِ مناطق الإمبراطورية الفارسية، واستعدّوا للمعركةِ الفاصلةِ ضدَّ المسلمين، وعلمَ المثنّى بالأمرِ فأخبرَ عمرَ أمير المؤمنين بذلك، وخشيَ أنْ يفاجئَه الفرس، فآثر الانسحاب بجيشِه إلى حدودِ الصحراء!

كان عددُ جيش المثنى ثمانيةَ آلاف، وهو عدد قليل أمامَ مئاتِ الآلاف من الجنود الذين يجمعُهم الفرس، فانسحبَ المثنى بهم إلى (ذي قار)، وأرسلَ إلى عمرَ يطلبُ منه المدد، وكان ذلك في أواخر شهر ذي القعدة من السنة الثالثة عشرة.

وجَّه عمرُ رضي الله عنه كتبَه إلى مختلفِ مناطقِ الجزيرةِ العربية، واستنصرَ الناسَ للخروجِ إلى الجهاد، على أنْ يكونَ بعدَ موسمِ الحجِّ من السنة الثالثة عشرة[1].

---

(١) لخّصنا في الصفحات السابقة الحديث عن المعارك ضد الفرس، التي استغرقت حوالي سنتين ـ الثانية عشرة والثالثة عشرة ـ واعتمدنا على الكتاب القيّم (الطريق إلى المدائن) للمؤرّخ أحمد عادل كمال، ص٢٠٢ ـ ٤٧١. وننصح القرّاء بقراءة الكتاب كاملاً، للوقوف على سير المعارك بالتفصيل.

(٢) سعد في طريقه إلى القادسية

بدأَ سعدُ بن أبي وقاص رضي الله عنه عهدَ أبي بكر الصدّيق جندياً في جيشِ أسامة، وسارَ جيشُ أسامة إلى شمالِ الجزيرة العربية في شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة، ونصرهُ اللهُ على القبائلِ التي حاربها، وعادَ الجيشُ بعدَ أربعين يوماً ظافراً منتصراً.

سعد في خلافة الصدّيق:

ولما عادَ سعدٌ إلى المدينة بقيَ مجاهداً بجانبِ الخليفة، وكان من المقرّبين عندَ أبي بكر، الذين يستشيرُهم ويعتمدُ عليهم.

وكانت القبائلُ العربيةُ المرتدةُ تجمعُ الجموعَ لغزوِ المدينة، فوضعَ أبو بكر الحراسات عليها، وكان سعدٌ ممنْ كُلِّفَ بالحراسة، مع صحابةٍ آخرين مثل: علي، وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، فقام بعمله خيرَ قيام.

ورأى أبو بكر أن يهاجمَ القبائلَ الكافرةَ المتجمعةَ لغزوِ المدينة، فخرجَ بأصحابِه في جمادى الأُولى من السنةِ الحادية عشرة إلى (ذي القصة) وفاجأ جيشَ المرتدين، ونشبتْ معركةٌ خاطفة، انتهتْ بانتصارِ المسلمين، وكان سعدٌ ممن شاركَ في هذه المعركة.

وعقدَ أبو بكر الألوية، ووجّهَ الجيوشَ لحربِ المرتدين، وعادتْ بعضُ القبائلِ المرتدة إلى الإسلام، وأقرّتْ بالزكاة.

وكـان ممن عادَ إلى الإسـلام قبائل (هوازن)، القريبين من ثقيف في الطائف، والذين حاربَهم رسولُ الله ﷺ في معركةِ حنين!

لما أقرَّتْ (هوازن) بالزكاة، وعادوا للإسلام، طلبوا من أبي بكر أنْ يبعثَ لهم رجلاً يجمعُ صدقاتهم.

أمرَ أبو بكر الصديق سعدَ بن أبي وقاص بالتوجُّه إلى هوازن لجمع صدقاتِهم، فسارَ إليهم، وقامَ بعملِه خيرَ قيام.

بقيَ سـعدٌ في هوازن طيلـةَ خلافـةِ أبي بكر، يجمعُ منهم الصدقاتِ والزكاة، ويوزعُها عليهم كما أمرَ الله، ويُرسلُ ما زادَ إلى المدينة.

ولما استُخلِفَ عمرُ أقرَّ سعداً على عملِه، فبقيَ في هوازن حتى أواخرَ السنةِ الثالثة عشرة، أيْ أنه تولَّى جمعَ صدقات هوازن ما يزيدُ على سنتين[1].

وفي أواخرِ السنةِ الثالثة عشرة بدأ الفرسُ يجمعونَ الجموعَ للمعركةِ الفاصلة ضدَّ المسلمين، فانسحبَ المثنّى بن حارثة إلى (ذي قار)، ومعه ثمانيةُ آلاف، وكتبَ إلى عمر يطلب منه المدد.

عمر يجنّد المسلمين للمعركة الفاصلة:

استعدَّ عمر للمعركةِ الفاصلة ضدَّ الفرس، وحشدَ لها الجنود، وأمرَ بالتجنيد في كلِّ بقاعِ الجزيرة، وكتبَ إلى عمَّاله في المناطق يأمُرهم بجمعِ كلِّ

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٨٢.

مَنْ عندهم من الرجال، وذلك في شهرِ ذي الحجة من السنة الثالثة عشرة، على أنْ يُرسلوا الجنودَ إلى المدينة بعدَ موسم الحج.

وجاءَ في كتاب عمرَ إلى عُمَّاله قولُه: لا تَدَعُنَّ أحداً له سلاحٌ أو فَرَس أو رأي، إلا انتخبتُموه، ثم وجَّهتُموه إليّ، والعَجَلَ العَجَل[1].

وأقسمَ عمرُ على أنْ يُرسلَ للفرس الشجعانَ من المسلمين، وقال: «والله لأضرِبَنَّ ملوكَ العجم بملوكِ العرب!» فلم يَدَعْ رئيساً، ولا ذا رأي، ولا ذا شرف، ولا ذا سِطة، ولا خطيباً، ولا شاعراً، إلاّ رماهم به[2]!

ونفَّذَ الولاةُ والعمالُ كتابَ عمر، وجَنَّدوا مَنْ عندهم من الرجال، وأرسلوهم إلى المدينة، وكان منهم سعدُ بنُ أبي وقاص، الذي جمعَ ألفَ مجاهدٍ من خيرةِ رجال هوازن، وبعثَ بهم إلى المدينة.

جعلَ عمرُ مكان تجمُّع القوات (ماء صرار) القريب من المدينة، على طريق نجد، وكلَّما أَتَتْ دفعةٌ من الجنود، أرسلَ بهم إلى صرار.

عمر مع مستشاريه بشأن المعركة:

وفي أولِ شهرِ محرم من السنةِ الرابعة عشرة استخلفَ عمرُ عليَّ بنَ أبي طالب على المدينـة، وخرجَ إلى الجنود المتجمّعين في (صرار) وخرجَ معه كبارُ الصحابة، مثلُ عثمان، وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، رضي الله عنهم.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٧٩.
(٢) المرجع السابق: ٣/ ٤٨٧.

وكأنَّ عمرَ كان يهمُّ أنْ يتوجَّهَ هو إلى العراق، وأنْ يقودَ الجيشَ ضدَّ الفرس، وذلك لأهميةِ تلك المعركةِ الفاصلة.

جمعَ عمرُ مستشاريه الموجودين وطلبَ منهم المشورة، وقال لهم: «استعدّوا وأعِدُّوا، فإنّي سائر، إلاّ أنْ يجيءَ رأيٌ هو أمثل من ذلك»[1].

أشارَ بعضُهم عليه بالخروج، وأشارَ بعضُهم عليه بالبقاء، وإسنادِ قيادةِ الجيش إلى أحدِ كبارِ الصحابة.

وكان ممنْ أشارَ عليه بالرأي الثاني عبدُ الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وكان مما قال له: «بأبي وأمي، اجعلْ عَجُزَها بي، وأقِمْ، وابعَثْ جنداً، فقد رأيتَ قضاءَ الله لك في جنودِك قبلُ وبعد، فإنه إن يُهْزَمْ جيشُك ليس كهزيمتك، وإنّك إنْ تُقْتَل أو تُهْزَمْ خَشيتُ ألاّ يُكَبِّرَ المسلمون، وأن لا يشهدوا ألا إلـه إلا الله أبداً...»[2].

ومال عمرُ إلى رأي ابن عـوف، لكنْ من هو الـرجلُ المناسـبُ ليقودَ المجاهدين في هذه المعركة؟ إنها تحتاجُ إلى قائدٍ ذي شخصيةٍ جهادية متميزة، وطبيعةٍ قياديةٍ عالية، وتاريخٍ جهاديٍّ مشرق!

كتاب سعد لعمر في جلسة الشورى:

قال عمرُ لمستشاريه: أشيروا عليَّ برجل!

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٨٠.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٤٨١ ـ ٤٨٢.

وبينما كانوا يفكِّرون في الرجلِ المناسبِ جاءَ كتابٌ من سعدِ بن أبي وقاص إلى عمر، يخبرُه فيه بأنَّه جنَّدَ له ألفَ مجاهدٍ من هوازن، ومما جاءَ في الكتاب قولُ سعد: «إني قد انتخبتُ لك ألفَ فارسٍ مُؤْدٍ، كلُّهم له نجدةٌ ورأي، وصاحبُ حيطة، يحوطُ حريَم قومه، ويمنعُ ذِمارهم، إليهم انتهتْ أحسابُهم ورأْيُهم، فشأنك بهم..»[1].

دلَّ كتابُ سعدٍ إلى عمرَ على فطنةِ وموهبةِ سعدٍ الجهادية، ومعرفتِه بالرجال الصالحين للجهاد، فقد انتخب من بين رجال هوازن الكثيرين ألفَ مجاهد، كلُّ واحدٍ منهم فارس، وكلُّ واحدٍ منهم مُؤْدٍ مسلَّح، يملكُ أدواتِ وأسلحة الجهاد، وكلُّ واحدٍ صاحبُ رأيٍ سديد، وهمةٍ عالية، يُنجدُ إخوانَه في الميدان، وصاحبُ احتياطٍ وحذر، لا يؤْخَذُ على غِرَّة، ويُحسنُ التصرف، وهو شجاعٌ لا ينهزمُ ولا يَفِرُّ من الميدان، ولا يتخلَّى عن حريم قومِه، وهو السيدُ في قومه، انتهى إليه الحسبُ والنسبُ والرأي!

وهذه الصفاتُ لا بدَّ منها لكلِّ مجاهدٍ في سبيل الله.

ابن عوف يشير على عمر بسعد:

ولما قرأ عمر كتاب سعدٍ، ومستشاروه حوله، يفكّرون في تعيينِ قائدٍ للمعركة الفاصلة، لمعَتْ في فكرِ عبدِ الرحمن بن عوف فكرة.

قال لهم ابنُ عوف: وجدْتُه!

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٨٣.

قال عمر: مَنْ هو؟

قال ابن عوف: الأسَدُ عادياً!

قال عمر: مَنْ؟

قال ابنُ عوف: الأسَدُ في براثنه، سعدُ بنُ مالك[1]!

ووافقَه المستشارون الآخرون، وانتهى عمرُ إلى رأيهم، واستقرَّ على تعيين سعدِ بن أبي وقاص قائداً للمعركةِ الفاصلة القادمة!

اللهُ هو الذي قدَّرَ وصولَ كتابِ سعدٍ إلى عمر، أثناء اجتماعِ عمر بالمستشارين، وفي لحظة تفكيرهم في تعيين القائد، واللهُ حكيمٌ في تقديره سبحانه، وكأنَّ ذلك دعوةٌ للمستشارين ليتذكَّروا موهبةَ سعدٍ الجهادية، التي تؤهِّله لقيادة المعركة.

سعد: أسد في براثنه:

واللافتُ للنظرِ وصْفُ عبد الرحمن لسعدٍ رضي الله عنهما: الأسَدُ عادياً، والأسَدُ في براثنِه.

والبراثِنُ جمعُ برثن. وهو المخلَب، والبراثِنُ هي المخالب[2]. وبَراثِنُ الأسَدِ مخالبُه القوية التي يَعدو فيها على فريستِه ليفترسَها!

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٨٣.

(٢) المعجم الوسيط، ص٤٦.

شبَّه عبدُ الرحمن سعداً بالأسدِ في براثنه، جاهِزاً مستعدّاً للهجوم على فريسته!

أيْ أنَّ سعداً الموجود الآن في هوازن من سنتين يعلِّمُهم ويفقِّهُهم، ويجمعُ صدقاتِهم، ويختارُ منهم الرجالَ المجاهدين، هو الآنَ جاهزٌ للجهاد، مستعدٌّ للقتال، متحفِّزٌ له، منتظرٌ لساعةِ تكليفِه به، فما أنْ يأتيه التكليفُ من عمر حتى يُسارعَ إلى ذلك، لأنّه مهيِّىءٌ نفسَه له منذ فترة!

وابنُ عوفٍ له نظرٌ ثاقبٌ ورأيٌ صائب، في مواهبِ وقدراتِ الرجالِ الأبطال، ولذلك اختارَ لقيادةِ المعركة الفاصلة ضدَّ الفرس أسَداً في براثِنِه، مستعدّاً لخصمه! وسعدٌ أسَد، في شجاعتِه وقوّته وجاهزيته.

وكانَ ابنُ عوف يقصدُ تشبيهَ سعدٍ بالأسد، لأنَّ العربَ كانوا يُشَبِّهون مَنْ يجترىءُ على قتالِ الفرس بالأسدِ، لقوةِ الفُرْس.

قال محمدُ بنُ حذيفةَ بن اليمان: لم يكنْ أحدٌ أجرأَ على فارسَ من ربيعة، فكان المسلمون يسمّونهم: ربيعةَ الأسد، وربيعةَ الفُرْس.. وكانت العربُ في جاهليتِها تسمّي فارس: الأسد[1]!

وباختيارِ عمرَ سَعْداً لقيادةِ المعركةِ ضدَّ الفرس يكون قد بَرَّ بيمينه: «واللهِ لأضربَنَّ ملوكَ العجمِ بملوكِ العرب»!

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٨٧.

سعد قائد المعركة ضد الفرس:

استدعى عمرُ سعداً، وطلب منه الإسراعَ بالحضور، وقَدِمَ سعدٌ المدينة، وأبلَغَه عمرُ بمهمتِه الجديدة: قيادةِ المعركة الفاصلة ضدَّ الفرس.

وأوصى عمر سعداً وصيةً جامعةً هامة، قالَ له فيها: «يا سعدَ بني وُهَيْب: لا يغرنَّكَ من اللهِ أنْ قيل: خالُ رسولِ الله ﷺ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلّ لا يمحو السيىءَ بالسيئ، ولكن يمحو السيىءَ بالحَسَن.. فإنَّ اللهَ ليس بينَه وبين أحد نَسَبٌ إلا بطاعتِه، فالناسُ شريفُهم ووضيعُهم في ذاتِ الله سواء، اللهُ ربُّهم، وهم عبادُه، يتفاضَلون بالعافية، ويُدركون ما عندَه بالطاعة.. فانْظر الأمْرَ الذي رأيتَ النبيَّ ﷺ منذُ أنْ بُعِثَ إلى أنْ فارَقَنا، فالْزَمه فإنَّه الأمْرُ.. هذه عظتي لك، إنْ تركْتَها ورغبْتَ عنها حَبطَ عملُك، وكنتَ من الخاسرين..»[1].

والتقى سعدٌ بالمجاهدين المتجمّعين في (صرار) وتفقَّدهم، فهو القائدُ لهم، وذلك استعداداً للسيرِ بهم نحو العراق! وكان عددُ المجاهدين في صرار أربعة آلاف مجاهد.

وأتى عمرُ إلى المجاهدين ليودِّعَهم، ووَعَظَهم وذكَّرَهم وأوصاهم.

وقبلَ أنْ يتحرَّكوا أوصى عمرُ سعداً قائلاً: «إني قد ولَّيتُكَ حربَ العراق، فاحفَظْ وصيتي.. فإنّكَ تُقْدِمُ على أَمْرٍ شديدٍ كريه، لا يُخلِّصُ منه إلاّ الحقُّ، فعوِّدْ نفْسَكَ ومَنْ مَعكَ الخيرَ، واستفتحْ به.. واعلمْ أنَّ لكلِّ عادةٍ عتاداً، وعتادُ الخيرِ الصبر، فالصَّبْرَ الصَّبرَ على ما أصابَك أو نابَك، يجتمعْ لك خشية الله..

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٨٥.

وإنما أطاعَه مَنْ أطاعَه ببُغضِ الدنيا وحُبِّ الآخرة، وعَصاهُ مَنْ عصاه بحبِّ الدنيا وبغضِ الآخرة.

وللقلوبِ حقائق، يُنشئُها اللهُ إنشاءً، منها السّرّ، ومنها العلانية.. فأما العلانيـة فأنْ يكونَ حامِدُه وذامُّه في الحقِّ سواء، وأمَّا السّـرُّ فيُعرَفُ بظهورِ الحكمةِ من قلْبِه على لسانِه، وبمحبةِ الناس.. فلا تَزْهَدْ في التحبُّب، فإنَّ النبيين قد سألوا محبتهم.. وإنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبداً حَبَّبَه، وإذا أبغضَ عَبْداً بَغَّضَه.. فـاعتبرْ منزلتَكَ عندَ الله تعالى بمنزلتِكَ عند النـاس، ممن يَشْـرَعُ مَعَك فـي أمرك..»[1].

سعد يتوجَّه للعراق في شعبان ١٤هـ:

تحرَّك سـعد بن أبي وقاص بـالمجاهدين، في الثالثِ عشر من شـهر شعبان، من السنة الرابعة عشرة للهجرة، وتوجَّه نحوَ طريق العراق، واجتازَ أرضَ نجد، ووصَلَ (زَرّود) في السابعِ والعشرين من شعبان، وهي بعيدةٌ عن المدينة حوالي ستمئة كيلومتر[2].

وكان عمرُ قد أمرَ سـعداً بالنزولِ إلى زَرّود، لينتظرَ المددَ من المدينة، وجاءت الأمدادُ إلى سعدٍ وهو في (زَرّود)، وأقامَ حوالي ثلاثة أشهر.

وكان المثنّى بنُ حارثة معسْكِراً في (شراف) ينتظرُ قدومَ سعدٍ لينضمَّ إليه، بينما كان سعدٌ ينتظرُ أمرَ عمرَ له بالتقدُّم.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤.

(٢) القادسية لأحمد عادل كمال، ص٢٦.

وبينما كان المثنَّى ينتظرُ قدومَ سعدٍ، مرضَ مرضاً شديداً، وشعرَ بدنوِّ أجلِه، فاستخلفَ على المجاهدين بشيرَ بن الخصاصية. وكتبَ وصيتَه إلى سعد، سجَّلَ فيها خلاصةَ خبرتِه وتجربتِه في حربِ الفرس، وسلَّمَها إلى أخيه (المعَنّى) ليسلّمها إلى سعد.

أوصى المثنى سعداً: «ألاّ يقاتلَ عدوَّه وعدوَّ المسلمين من أهلِ فارس - إذا استجمعَ أمرهم وملؤُهم - في عقرِ دارهم، وأنْ يقاتلَهم على حدودِ أرضهم، على أدنى حجرٍ من أرضِ العرب، وأدنى مدرةٍ من أرضِ العجم!! فإنْ يظهر المسلمون عليهم، فلَهم ما وراءَهم، وإن تكن الأُخرى فاؤوا إلى فئة، ثم يكونوا أعلمَ بسبيلِهم، وأجرأَ على أرضِهم، إلى أنْ يَرُدَّ اللهُ الكرةَ عليهم...»[1].

وتوفيَ المثنى في (شراف)، ودفنَه أخوه المعنى فيها، وحملَ وصيتَه، واصطحبَ زوجتَه، وسارَ إلى سعدٍ في زرود.

أحسنَ سعدٌ استقبالَ المعنّى بن حارثة، وقرأَ وصيةَ المثنى وترحَّمَ عليه ودعا له، ولما انتهَتْ عِدَّةُ زوجتِه (سلمى بنت خَصَفَة التيمية) تزوَّجها سعد.

وبعدَ إقامتِه في زَرّود ثلاثةَ أشهر، ومجيء أمدادِ المجاهدين إليه، أمَرَه عمرُ بالزحفِ نحو العراق، فغادرَ زرّود في الثلاثين من ذي القعدة من السنةِ الرابعة عشرة، ونزلَ في (شراف) في الثامنِ من ذي الحجة من

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٩٠.

السنةِ الرابعة عشرة[١].

وانضمّت القواتُ إلى جيشِ سعد، وبلغَ عددُ أفراد الجيش حوالي ثلاثة وثلاثين ألفاً، من مختلفِ المناطقِ والقبائلِ في الجزيرة العربية، من جنوبِها ووسطِها، وشرقِها وغربِها[٢].

وكان في جيشِ سعد بضعةٌ وسبعون بدريّاً، وثلاثُمئة وبضعةَ عشرَ صحابياً، وسبعُمئةٍ من أبناءِ الصحابة[٣].

وصية عمر الجامعة الهامة لسعد:

وكتبَ عمرُ إلى سعدٍ كتاباً حافلاً، يُوصيهِ فيه وجنودَه بوصايا جامعة هامة، ونصُّ الكتاب هو: «أما بعد: فإنّي آمُرُكَ ومَنْ مَعَك من الأجنادِ بتقوى الله على كلِّ حال، فإن تقوى اللهِ أفضلُ العدَّةِ على العدو، وأقوى العدَّةِ في الحرب!

وآمُرُكَ ومَنْ معَكَ أنْ تكونوا أشدَّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوّكم، فإنَّ ذنوبَ الجيشِ أخوفُ عليهم من عدوّهم، وإنما يُنصرُ المسلمون بمعصيةِ عدوّهم لله، ولولا ذلك لم تكنْ لنا بهم قوة، لأنَّ عددَنا ليسَ كعدَدِهم، ولا عُدَّتَنا كعُدَّتِهم.. فإن استوينا في المعصية، كانَ لهم الفضْل علينا في القوة، وإنْ لم نُنْصَرْ عليهم بفضْلِنا لم نغلبْهم بقوَّتِنا!

---

(١) القادسية، ص٣١.

(٢) انظر توزيع عدد الجيش على القبائل بالتفصيل في (القادسية) لأحمد عادل، ص٣٤ـ٣٨.

(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٩٠.

واعلمـوا أنَّ عليكم في سيركم حَفَظَةً من الله، يَعلمون ما تفعلـون، فاستحْيُوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله، وأنتم في سبيل الله.

ولا تقولوا: إنَّ عدوَّنا شَرٌّ منّا، ولنْ يُسَلَّطَ علينا وإنْ أسأْنا، فربَّ قومٍ سُلِّطَ عليهم شَرٌّ منهم، كما سُلِّطَ على بني إسرائيل ـ لما عملوا بمساخطِ الله ـ كفرةُ المجوس، فجاسوا خلالَ الديار، وكانَ وَعْداً مفعولاً.

واسألوا اللهَ العونَ على أنفسكم، كما تسألونَه النصر على عدوّكم، أسألُ اللهَ ذلك لنا ولكم.

وترفَّقْ بالمسلمين في مسيرِهم، ولا تُجَشِّمْهم مسيراً يُتْعِبُهم، ولا تُقَصِّرْ بهم عن منزلٍ يرفقُ بهم، حتى يبلُغوا عدوَّهم، والسفرُ لم يُنقصْ قوَّتَهم، فإنهم سائرون إلى عدوٍّ مقيمٍ جامِّ الأنفس والكِراع!

وأقِمْ بمنْ معكَ كلَّ جمعة يوماً وليلـة حتى تكونَ راحةً يَجمعون فيها أنفسَهم، ويرمُّون أسلحتَهم وأمتعتهم.

ونحِّ منـازلَهم عن قُرى أهلِ الصلحِ والذمة، فـلا يدخلْها من أصحابِكَ إلاّ مَنْ تثقُ بدينه.

ولا تَرْزَأْ أحَداً من أهلها شيئاً، فإنَّ لهم حرمةً وذمّة، ابتُليتم بالوفاءِ بها، كما ابتُلوا بالصبرِ عليها، فما صَبَروا لكم فَفُوا لهم، ولا تنتصروا على أهلِ الحربِ بظلمِ أهلِ الصلح.

وإذا وطئْتَ أدنى أرضِ العدو فَأَذْكِ العُيونَ بينك وبينهم، ولا يَخْفَ عليكَ أمرهم، وليكنْ عندكَ من العربِ أو منْ أهلِ الأرضِ مَنْ تطمئنُّ إلى

نُصحِه وصدقِه، فإنَّ الكَذوبَ لا ينفعُكَ خبرُه، وإنْ صَدَقَ في بعضه، والغاشَّ عينٌ عليك وليسَ عيناً لك!

ولْيكنْ منكَ عند دُنُوِّكَ من أرضِ العدو، أنْ تُكثرَ الطلائع، وتَبُثَّ السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا إمدادَهم ومرافِقهم، وتتبع الطلائعُ عوراتِهم! وانْتَقِ للطلائع أهلَ الرأي والبأسِ من أصحابك، وتَخَيَّرْ لهم سوابقَ الخيل، فإنْ لَقُوا عدوّاً كانَ أوّلَ مَنْ تلقاهم القوةُ من رأيك، واجعلْ أمْرَ السرايا إلى أهلِ الجهاد، والصبرِ على الجلاد . .

ولا تَخُصَّ أحداً بهوى، فيضيعَ مِنْ رأيِكَ وأمرِك، أكثرَ مما حابَيْتَ به أهلَ خاصَّتِكَ!

ولا تبعثْ طليعةً ولا سريةً في وجْهٍ تتخوَّفُ فيه ضيعةً ونكاية.

فإذا عانيْتَ العدوّ، فاضْمم إليكَ أقاصيك وطلائِعَكَ وسراياك، واجمعْ إليكَ مكيدتَك وقوّتَك، ثم لا تعاجِلْهم المناجزة، ما لم يستكرهك قتال، حتى تُبصرَ عورةَ عدوِّكَ ومقاتِلَه، وتعرفَ الأرضَ كلَّها كمعرفةِ أهلِها، فتصنعَ بعدوِّك كصنيعتِه بك!

ثم أَذْكِ حُرّاسَك على عسكرِك، وتَحَفَّظْ من البَياتِ جُهْدَك . . ولا تُؤْتى بأسيرٍ ليس له عهدٌ إلا ضربْتَ عنقَه، لتُرهِبَ بذلك عدوَّك وعدوَّ الله.

واللهُ وليُّ أمرِك ومَنْ معك، ووليُّ النصرِ لكم على عدوّكم، واللهُ المستعان . . »[١].

---

(١) القادسية لأحمد عادل، ص٣٢ ـ ٣٣.

آثَرْنا نقْلَ كتابِ عمرَ إلى سعدٍ كاملاً، لِنقفَ على صورةٍ من فقْهِ عمرَ وبُعْدِ نظرِه، في الأمورِ العبادية والعسكرية، والسننِ الحياتية، وعواملِ النصرِ وأسبابِ الهزيمة.. ويُقدّمُ الكتابُ مجموعةً من التوجيهاتِ والقواعدِ والحقائقِ العسكرية والجهادية، يحتاجُ لها المجاهدون في كلِّ زمانٍ ومكان.

وندعو القرّاءَ إلى إمعانِ النظرِ في توجيهاتِ الكتاب وحقائقِه وقواعدِه، والاستفادةِ منها. ولا يتسعُ المجالُ لشرحِها وبَسْطِ القولِ فيها.. ولْنتابعْ سعداً وجيشَه في الطريقِ إلى القادسية!!

أركان حرب جيش سعد وتوجيه عمر له:

سار سعد بجيشِه نحوَ العراق، واختارَ نائبَه (خالد بن عُرْفُطَة)، وجعلَ على المقدّمة (زُهْرَة بن الحَوِيَّة)، وعلى الميمنة (عبد الله بن المُعْتَمّ)، وعلى الميسرة (شُرَحبيل بن السِّمْط)، وعلى الساقة (عاصم بن عمرو التميمي)، وعلى الطلائع (سَواد بن مالك التميمي)، وعلى الخيل (سلمان بن ربيعة)، وعلى المشاة (حَمَّال بن مالك الأسدي)، وعلى الركبان (عبد الله بن ذي السهمين الخثعمي)، وقاضي الجيش (سلمان بن ربيعة)، وداعية الجيش وواعظهم (سلمان الفارسي)[1].

توجَّهَ سعدٌ بالجيشِ من (شراف) إلى (القادسية) بتوجيهٍ من عمرَ في المدينة، حيثُ أمرَه بالإقامةِ في القادسية.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/٤٨٨ـ٤٨٩.

ومما جاءَ في كتابه إلى سعد قولُه: «أما بعد: فَسِرْ من شراف نحوَ فارس بمن معك من المسلمين، وتوكَّلْ على الله، واستعِنْ به على أمرِكَ كلِّه..

.. وإذا انتهيتَ إلى القادسية ـ والقادسيةُ بابُ فارس في الجاهلية ـ فهي أجمعُ تلك الأبوابِ لمادّتِهم، ولما يريدونَه من تلك الآصُل (البلاد الأصلية)، وهي منزلٌ رغيبٌ خصيبٌ حصين، دونه قناطرُ وأنهارٌ ممتنعة.. فتكونُ مسالحُك على أنقابها، ويكونُ الناسُ بين الحَجَرِ والمَدَر، على حافّات الحجرِ وحافّات المدر، والجِراعُ بينهما (الأرضُ الرمليةُ المستوية).

ثم الْزَمْ مكانَك ولا تبرحْه، فإنهم إذا أحسّوك أنفضْتَهم، ورموْكَ بجمْعِهم الذي يأتي على خيلِهم ورَجِلِهم، وحَدِّهم وجَدِّهم، فإنْ أنتم صبرتُمْ لعدوّكم، واحتسبتُم لقتاله ونويتُم الأمانة، رجوتُ أنْ تُنْصروا عليهم، ثم لا يجتمعُ لكم مثلُهم أبداً، إلا أنْ يجتمعوا وليستْ معهم قلوبُهم.

وإنْ تكن الأُخرى، كان الحجرُ في أدبارِكم، فانصرفْتُم من أدنى مَدَرَةٍ من أرضِهم، إلى أدنى حجرٍ من أرضِكم، كنتُم عليها أجرأ، وبها أعلم، وكانوا عنها أجبن، وبها أجهل، حتى يأتيَ اللهُ بالفتحِ عليهم، ويردَّ لكم الكرّة..»[1].

سعد في القادسية في صفر ١٥هـ:

وصلَ سعدٌ بجيشِه إلى (القادسية) في السادسِ عشر من شهر صفر من السنة الخامسة عشرة، وقد أخذَ بنصيحةِ المثنّى في اختيارِ المكانِ المناسبِ

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٩٠ ـ ٤٩١.

للمعركة، ونفَّذَ توجيهَ عمر.

(القادسية) هي المكانُ المناسبُ لخوضِ المعركةِ الفاصلةِ ضدَّ الفرس، لأنّها توفَّرَتْ لها المزايا التالية:

١ ـ وقوعُها على الحدودِ بين الصحراءِ وأرضِ العراق، أو(على أدنى حَجَرٍ من أرضِ العرب، وأدنى مَدَرَةٍ من أرض العجم) على حسبِ وصيةِ المثنى لسعد.

٢ ـ بُعْدُها عن المسطَّحاتِ المائية والبركِ والسباخ والمستنقعات، ولو دخَلَها المسلمون لضَعُفوا، كما حصلَ في معركةِ الجسر، التي استُشهِدَ فيها آلافٌ من المسلمين.

٣ ـ إمكانيةُ حفظِ خطِّ الرجعةِ للمسلمين، فإذا انهزموا في المعركة فإنَّ الصحراءَ خلْفَهم، يمكنُهم أنْ يتفرّقوا فيها وينجوا من الفرس.

٤ ـ وجود العوائقِ المائيةِ والبركِ والسباخِ في جبهةِ الفرس أمامَ القادسية، وسيكون لها أثرٌ على الفرس عندما ينهزمون[1].

وعسكَرَ سعدٌ بقواتِه في القادسية بانتظارِ تطوُّرِ الأحداث!

(٣) مراسلات ومفاوضات قبيل معركة القادسية

نزلَ سعدٌ في القادسيةِ في السادسِ عشر من صفر من السنةِ الخامسة

(١) القادسية، ص٤٥.

عشرة، وبدأ بشنٍّ (حرب استنزاف) على الفرس، وأرسلَ سراياهُ لتُغيرَ على الفرس في المنطقة، وهي منطقةٌ زراعيةٌ خصبة، مما جعلَ أهلها يضجّون ويشتكون إلى كسرى (يزدجرد)، ويطلبونَ منه تخليصَهم من المسلمين.

وجعلَ سعدٌ مقرَّ قيادتِه (حصنَ قُدَيْس) وهو حصنُ القادسية، وفَرَّقَ قواتَه حولَ الحصن، وانتظرَ مجيءَ فارس إليه.

سعد يصف القادسية لعمر:

وكتبَ عمرُ إلى سعدٍ يوصيه، ويطلبُ منه أنْ يُخبرَه بتفاصيلِ كلِّ شيء. ومما جاءَ في الكتابِ قولُه: «. . واكتبْ إليّ، أينَ بلغَكَ جمعُهم، ومَنْ رأسُهم الذي يلي مصادمتكم. . وصِفْ لي منازل المسلمين، والبلدَ الذي بينكم وبين المدائن، صفة كأنّي أنظرُ إليها، واجعلْني من أمركم على الجلية. . . »[1].

كتبَ سعدٌ إلى عمر يصفُ له موقعَ القادسية وَصْفاً طبوغرافياً. ومما جاءَ في الكتابِ قولُه: «إنَّ القادسية بين الخندقِ والعتيق (نهر العتيق). . وإنَّ ما عن يسارِ القادسيةِ بحرٌ أخضر (مستنقَع)، في جوفٍ (منخفض) لاحٍ (متّجه) إلى الحيرة بين طريقيْن: فأمّا أحدهما فعلى الظهر، وأمّا الآخر فعلى شاطئ نهرٍ يدعى (الحَضوض) يطلعُ بمنْ سلكَه على ما بينَ الخورنق (قصر المناذرة)، والحيرة (عاصمة المناذرة)، وإنَّ ما عنْ يمينِ القادسية إلى الولْجَة فيضٌ من فيوضِ مياهِهم (وهي البطيحةُ العظمى).

وإنَّ جميعَ مَنْ صالحَ المسلمين من أهلِ السواد (المنطقة الزراعية) إلْبٌ

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٩٠.

لأهلِ فارس (عونٌ لهم على حربنا)، قد خَفّوا لهم، واستعدّوا لنا . .

وإنَّ الذي أعدّوا لمصادمتنا (رستم) في أمثـالٍ له منهم، فهم يُحاولون إنْفاضَنا وإقحامنا، ونحنُ نحاولُ إنفاضهم وإبرازهم، وأمْرُ اللهِ بعدُ ماضٍ، وقضاؤُه مُسَلَّمٌ إلى ما قدَّر لنا وعلينا . . فنسألُ اللهَ خيرَ القضاءِ وخيرَ القدر في عافية . . .»[1].

رستم قائد جيش الفرس:

ولى كسرى (يزدجرد) (رستمَ بنَ الفَرُّخْذاذ) الأرمنيَّ لحربِ المسلمين. وقَبِلَ رستم هذا على مضضٍ مُكْرَهاً! فكان قائداً بالإكراه، لجنودٍ مكْرَهين، غيرِ راغبين في قتالِ المسلمين، ولْنقارنْ بين معنوياتِ هذا الجيشِ المنهارةِ قيادةً وجنوداً، وبينَ المعنوياتِ الإيمانية العالية في الجانب الإسلامي، قيادةً وجنوداً[2]!

كـان عددُ جيشِ الفرس ومَنْ معهم من العرب مئتين وأربعيـن ألفـاً، المقاتِلون منهم مئةٌ وعشرون ألفاً، والأتباعُ والخدَمُ مئةٌ وعشرون ألفاً! ولا ننسى أنَّ عددَ جيش المسلمين ثلاثةٌ وثلاثون ألفاً.

زحف رستم البطيء وسعد بانتظاره:

تحرّك رستم بجيشِه من (المدائن) إلى (ساباط)، فعسكَرَ فيها، ونظَّم

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٩١؛ والقادسية، ص٥٦.

(٢) انظر بعض ما جرى بين رستم ويزدجرد وباقي القادة في (القادسية)، ص٦٠ ـ ٦٤ و٨١ ـ ١٠١.

جيشَه وجعلَ على المقدمة (جالينوس)، وعلى الميمنةِ (هرمزان)، وعلى الميسرةِ (مهران)، وعلى المؤخِّرَة (بيرزان)[١].

وسارَ رستم مُكرَهاً بتباطؤ وتثاقُلٍ نحو الجنوب، ووراءَه (يزدجرد) يوجِّهُ له الأوامرَ المتتابعةَ بالإسراعِ في السيرِ لقتالِ المسلمين، وهو يتباطأُ ويتثاقل!!

«إنَّ المسافةَ بين (المدائن) و(القادسية) لا تزيدُ على مئةٍ وخمسةٍ وثمانين كيلومتراً، قَطَعَهَا رستم في أربعةِ أشهر، بمعدلِ كيلومترٍ ونصف في اليوم، لا يُقْدِمُ ولا يقاتل، على أملِ أنْ يضجرَ المسلمون بمكانِهم، وأنْ يفقدوا حماستهم، ويجْهَدوا فينصرفوا، وهو يتلافى قتالَهم، مخافةَ أنْ يتحققَ تنجيمُه، فيلقى ما لقيَ مَنْ قبلَه، لولا أنَّ الملك كان من ورائه دائماً يستعجلُه، ويُنهضُه من كلِّ منزلٍ يَنزلُه فيقدِّمُه، حتى أقحمه القادسية..»[٢].

وكان سعدٌ ثابتاً على خطتِه التي رسَمَها، مستفيداً من وصيةِ المثنى وتوجيهاتِ عمر، فأقامَ في القادسية طيلةَ مدةِ زحفِ رستم البطيء، الذي زادَ على أربعةِ أشهر، وكان جنودُه يقومون بغاراتٍ على أرض السواد، يأخذون من حاجاتهم الغذائية والتموينية من مزروعات وثمارِ الفرس، وكان الموسمُ صيفاً نضجَتْ فيه الزروعُ والثمارُ.

ولما طالَ المقامُ بالمسلمينَ في القادسية ضجرَ بعضُهم، وطلبوا من سعدِ الإقدامَ ومهاجمةَ الفرس، وقالوا له: «لقد ضاقَ بنا المكانُ فأقْدِم..».

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٠٤.
(٢) القادسية، ص٨٧.

ردَّ سعدٌ على مَنْ طلبَ ذلك منه، وزجرهم لكلامِهم: «إذا كُفيتم الرأيَ فلا تكلَّفوا، فإنَّا لن نُقْدِمَ إلا على رأيِ ذوي الرأي، فاسكُتوا ما سكَتْنا عنكم!!»[1].

الوفد الإسلامي أمام يزدجرد:

وأرادَ سعدٌ أنْ يقيمَ على (يزدجرد) الحجة، ويُقدمَ له الدعوة، عملاً بالتوجيهاتِ الإسلامية، التي توجِبُ على المجاهدين دعوةَ الكفار إلى الدخولِ في الإسلام، فإنْ رفَضوا الدعوة قاتلوهم.

أرسلَ سعدٌ وفداً من قادةِ المسلمين، مكوَّناً من أربعةَ عشر رجلاً، بإمرةِ النعمان بن مقرن المزني، وكانَ ضمنَ الوفد: المغيرة بن شعبة، وعاصم بن عمرو التميمي، وعمرو بن معدي كرب، وحنظلة بن الربيع الكاتب، والمعنَّى ابن حارثة الشيباني ـ شقيق المثنى ـ[2].

دخلَ الوفدُ الدعاةُ على كسرى (يزدجرد)، وجرى كلامٌ بينَ النعمانِ أميرِ الوفدِ وبين يزدجرد.

وكان مما قالَه النعمان: نحنُ ندعوكم إلى ديننا، وهو دينٌ حَسَّنَ الحَسَنَ وقبَّحَ القبيح!

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥١٠.

(٢) انظر تعريفاً بأعضاء الوفد في (القادسية)، ص٦٥ ـ ٧٠.

فإنْ أبيتُمْ فأَمْرٌ من الشَّرِّ هو أهونُ من آخرَ شرٍّ منه، هو الجزية، فإنْ أبيتُم فالمناجزة..

فردَّ عليهم يزدجرد بسوءِ أدبٍ ووقاحةٍ وصبيانية، وانبرى له أحدُ أعضاءِ الوفدِ (المغيرة بن زرارة) وردَّ عليه رداً يناسبُ كلامَه! فغضبَ يزدجرد، وهمَّ بقتلِهم، وأخبرَهم أنه لا شيءَ لهم عنده!

ثم أَمَرَ حاشيتَه أنْ يأتوا بحملِ تراب، ويُحَمِّلوه لأشرفِ رجلٍ في الوفد، إهانةً واحتقاراً له!

وتقدَّمَ عاصمُ بن عمرو التميمي، وقال: أنا أشرفُهم وسيدُهم، فحَمِّلْني التراب! فحمَّلوه إياه، وخرجَ به من إيوانِ كسرى، ثم وضَعَه على راحلتِه، وعادَ الوفدُ إلى سعدٍ في القادسية، ودخلَ عاصمُ بن عمرو على سعدٍ متفائلاً بالتراب الذي يحملُه، فتفاءَلَ سعدٌ بذلك، وخاطبَ المسلمين قائلاً: «أَبشِروا فقد أعطانا اللهُ أقاليدَ مُلكهم!».

بينما تشاءَم الفرسُ من فعلِ يزدجرد، واعتبروهُ تسليماً منه بلادَ العراق وفارس للمسلمين، حتى قال رستم: «ذهبَ القومُ بمفاتيحِ أرضِنا!»[1].

رستم يقتل الداعية المسلم:

وأثناءَ سيرِ رستمَ البطيء إلى القادسية، وبينما كان مُقيماً في (كوش) أَمَرَ رجالَه أنْ يُغيروا على المسلمين في القادسية، وأنْ يُحضروا له رجلاً منهم

---

(١) انظر قصة الوفد وما جرى بينهم وبين يزدجرد في تاريخ الطبري: ٣/ ٤٩٧ ـ ٥٠٢.

ليحدِّثَه ويتعرَّفَ على الإسلامِ والمسلمين، لأنّه لم يسبقْ له أنْ تعرَّفَ على الإسلام، ولم يُحَدِّثْ مسلماً!

وتمكَّنَ جنودُه من خطفِ أحدِ المسلمين، وإحضارِه إليه:

قالَ له رستم: ما جاءَ بكم؟ وماذا تطلبون؟

قال: جئْنا نطلبُ موعودَ الله!

قال رستم: وما هو موعودُ الله؟

قال: أرضُكم ودماؤُكم وأبناؤُكم، إنْ أبيتُمْ أنْ تسلموا!!

قال رستم: فإن قُتِلْتُم قبلَ ذلك؟

قال: في موعودِ الله أنَّ مَنْ قُتِلَ منَّا قبلَ ذلك أدخلَه الله الجنة، وأنجزَ لمن بقيَ منا ما قلتُ لك! فنحنُ على يقين!

قال رستم: قد وُضِعْنا في أيديكم إذاً!

قال: ويحكَ يا رستم! إنَّ أعمالكم وضعَتْكُم، فأسلمَكُم اللهُ بها، ولا يغرَّنَّكَ ما حولَك، فإنّكَ لستَ تُجاولُ الإنس، إنما تجاولُ القضاءَ والقَدَر!!

فغضب رستم وأمَرَ بالمسلم فضُربَتْ عنقُه[1]!!

مهمة عمر بن معدي كرب:

وأراد سعد أن يعرفَ ما عند رستم، فأَمَرَ قائدَيْن بطلَيْن عنده بالقيامِ بغارةِ

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٠٨.

استكشـافيةٍ على جيشِ رستم، وإحضارِ بعضِ الفرسِ ليسألَهم! والبطلان هما: عمرو بن معدي كرب الزبيديُّ وطليحةُ بن خويلـد الأسـديُّ. وجَّهَ طليحةَ وحْدَه إلى معسكرِ رسـتم، ووجَّهَ عمرَو بن معدي كرب ضمنَ خمسةِ رجالٍ إلى معسكرِ (جالينوس) قائدِ مقدمةِ رستم.

ولما سـارَ عمرٌو قليلاً وتجاوزَ قنطرةَ القادسـية شاهدَ جيشَ جالينوس متوجِّهاً نحو القادسية، وأرادَ أنْ يشتبِكَ معهم، لكنَّ قيسَ بن هبيرة منعَه، وكان سعدٌ قد بعثَه ضمنَ مئة فارس للاستشكاف، وعادَ عمرٌو وقيسٌ إلى سعد!

مهمة طليحة بن خويلد العظيمة:

أما طليحة بن خويلد فقد تابع سيرَه نحو جيشِ رستم، الذي كان قريباً من (النَّجَف) ينوي التحركَ نحو الجنوب، وانتظرَ حُلولَ الليل، ودخلَ بفرسِه بين خيامِ المعسـكر، واختارَ فرساً هي أجملُ الخيول، مربوطةً أمامَ خيمـةٍ هي أجملُ الخيـام، وهي خيمةُ قائـدٍ من كبارِ قادةِ رسـتم! وقطعَ طليحةُ مقْوَدَ الفرس، وربطَه بمقْوَدِ فرسِه، وخرجَ به يعدو، ولحقَ به الفرسُ على خيولهم، وكانَ أسرعُهم إليه ثلاثة، فقَتَلَ الأول، وقتلَ الثاني، وأسَرَ الثالث بشجاعة، وإذا به الأميرُ القائدُ صاحبُ الفرس!

ودخلَ طليحـة بن خويلد بالأسـيرِ الفارسيِّ على سـعد، فقالَ له سعد: ما وراءَكَ؟

قال طليحة: دخلتُ عساكرهم وجُسْتُها منذُ الليلة، وقد أخذْتُ أفضَلَهم توسُّماً، وما أدري أصبتُ أمْ أخطأْتُ، وها هو ذا فاستخْبِرْه!

توجَّه سعدٌ إلى الأمير الفارسيِّ الأسيرِ ليسألَه، فقال له: أَتُؤَمِّنُني على دمي إنْ صَدَقْتُك؟

قال سعد: نعم. الصدقُ في الحربِ أَحَبُّ إلينا من الكذب!

قال الفارسي: أُخبرُكم عن صاحبِكم هذا، قبلَ أنْ أُخبركم عمَّنْ قِبَلي: باشَرْتُ الحروبَ وغشيتُها، وسمعتُ بالأبطال ولقيتُها، منذُ أنا غلامٌ إلى أنْ بَلَغْتُ ما ترى، ولم أرَ ولم أسمعْ بمثلِ هذا: أنَّ رجلاً قطعَ عسكريْن، لا يجترىءُ عليهما الأبطال، إلى عسكرٍ فيه سبعون ألفاً، يخدمُ الرجلَ منهم للخمسة والعشرة إلى ما هو دون ذلك، فلم يرضَ أن يخرجَ كما دخلَ حتى سلب فارسَ الجند، وهتكَ أطنابَ بيتِه، فأنذرَه، فأُنذرْنا به فطلَبْناه، فأدركَهُ الأول وهو فارسُ الناس، يَعدلُ ألف فارس، فقَتَلَه، فأدركَه الثاني وهو نظيرُه، فقتَلَه، ثم أدركْتُه، ولا أظنُّ إلاَّ أنني خلفتُ بعدي مَنْ يَعدلُني، وأنا الثائرُ بالقتيليْن، وهما ابنا عمي، فرأيتُ الموتَ، فاستأسرت!

ثم أخبرَ الفارسيُّ سعداً بأنَّ جندَ جيشِ الفرس مئةٌ وعشرون ألفاً، وأنَّ معهم من الأتباعِ مثْلَهم يخدمونَهم، فمجموعُهم مئتان وأربعون ألفاً!

وأسلَمَ القائدُ الفارسي، فسمّاه سعدٌ (مسلماً)، وحَسُنَ إسلامُه، وحاربَ مع المسلمين في القادسية، وكان من أصحابِ البلاءِ فيها[1].

---

(١) انظر قصة بطولة طليحة وإسلام القائد الفارسي في تاريخ الطبري: ٣/ ٥١٢ - ٥١٤.

لقاء رستم وزهرة بن الحوية:

ولما وصلَ رستم بجيشِه القادسية نَشَرَ قواته فيها، وكانَ بينَه وبين المسلمين نهرُ العتيق، وكان قائدُ مقدمةِ المسلمين زُهرة بن الحَوَيّة مرابطاً على القنطرة، أمامَ نهرِ العتيق.

وقامَ رستم بجولةٍ تفقديةٍ استكشافية، رأى فيها معسكرَ المسلمين، ورأى حصنَ (قُدَيْس) الذي على خندق القادسية، مقرّ قيادةِ سعد.

والتقى رستمُ بزُهرة بن الحَوَيّة، ولمَّحَ رغبتَه في الصلح، وكلَّمَهُ زُهرةُ كلاماً واضحاً صريحاً، ودعاهُ إلى الإسلام، ورغَّبه فيه.. حتى إنَّ رستم مالَ إلى الإسلام، ورَغبَ فيه، ولما عاد إلى أركانِ حربِه، وعرضَ عليهم ما جرى، ولمّحَ لهم رغبتَه في عدمِ القتال، والدخول في الإسلام، لاموه وجَبَّنوه، ورفضوا تلميحه[1].

ربعي بن عامر أمام رستم:

طلب رستم من المسلمين رجلاً يحادثُه ويفاوضُه. واستدعى سعدٌ مجموعةً من قادةِ جيشِه وعرضَ عليهم الأمر، واتَّفقوا على أنْ يُرسلوا له رجلاً واحداً، وليسَ وفداً كما فعلوا مع يزدجرد!

أرسلَ سعدٌ ربعيَّ بنَ عامر التميمي، واستعدَّ الفرسُ لاستقبالِه، وتَباهوا

(١) انظر تفاصيل الحوار بين رستم وزهرة بن الحوية في تاريخ الطبري: ٣/ ٥١٧ـ ٥١٨.

بذلك، وأظهروا الزينة على النمارق والبُسُط، وتزيَّنوا بالحريرِ والذهب . .

وأقبلَ ربعيّ بملابسَ رثَّة، وغَمْدُ سيفِه لفافةٌ من ثوبٍ بالٍ، وكذلك قوسُه ونبلُه وترسُه، وفرسُه قصيرةٌ طويلةُ الشعر، ورداؤُه عباءَةُ بعيره، شقَّها وتدرَّعَ بها، وشدَّ رأسَه بعمامة، ولرأسِه أربعُ ضفائر، قمنَ قياماً كأنَّهنَّ قرونُ الوعول!

بقيَ ربعيٌّ راكباً فرسَه حتى وصلَ أول البُسُط، فطلبوا منه النزولَ فأبى، وداسَتْ فرسُه على البُسُط، ونزلَ عنها، وربطها بوسادتيْن، وسطَ استغرابِ واستهجانِ الفرس!

نزلَ عن الفرس وتابعَ سيرَه نحو رستم، فطلبوا منه وضعَ سلاحِه!

قالَ لهم: إني لم آتِكم، فأضع سلاحي بأمْرِكم، أنتم دعوتُموني، فإنْ أبيتُم أنْ آتيكم إلا كما أُريد، رجَعْت!

قالَ لهم رستم: ائْذنوا له، ودَعوه، فما هو إلا رجلٌ واحد!

أقبلَ ربعيّ يتوكَّأُ برمحِه على البُسُط والنمارق، ويُدخِلُ نصْلَ رمْحِه في كلِّ واحدةٍ منها، حتى انتهكَها وأفسَدها كلَّها، وتعمَّد بذلك أنْ يُغيظَ الفرس!

ولما وصلَ رستم لم يجلسْ على فراشِه، وإنما جلسَ على الأرض، ولما سُئِلَ عن ذلك قال: لا نُحبُّ أنْ نجلسَ على زينتِكم!

الحوار بين ابن عامر ورستم:

قال له رستم: ما جاءَ بكم؟

أجابه ربعيّ: اللهُ ابتَعَثَنا وجاءَ بنا، لنُخرجَ مَنْ شاءَ من عبادةِ العباد إلى

عبادةِ الله، ومن ضيق الدُّنيا إلى سعتِها، ومن جَوْرِ الأديانِ إلى عدْلِ الإسلام. أرسَلَنا اللهُ بدينه إلى خلْقِه، لندعوهم إليه، فمَنْ قبِلَ منَّا ذلك، قَبِلْنا ذلك منه، ورَجَعْنا عنه، وتركْنا له أرضَه يليها دونَنا، ومَنْ أبى قاتلْناه أبداً حتى نُفضيَ إلى موعودِ الله..

قال رستم: وما موعودُ الله؟

قال ربعي: الجنةُ لمنْ ماتَ في قتالِ مَنْ أبى، والظفرُ لمن بقي!

قال رستم: قد سمعْتُ مقالتَكم، فهلْ لكم أنْ تؤخِّروا هذا الأمرَ، حتى ننظرَ فيه؟

قالَ ربعي: نعم. كم تُحبون؟ يوماً أم يومَيْن؟

قال رستم: نريدُ مدةً طويلة، حتى نكاتبَ رؤساء قومِنا؟

قال ربعي: إنَّ مما سَنَّ لنا رسولُ الله ﷺ، وعملَ به أئمتُنا، أنْ لا نمكِّنَ الأعداء من آذانِنا، فلا نؤجِّلَهم عندَ اللقاء أكثر من ثلاثةِ أيام!

سنُمهلك ثلاثةَ أيام، فانظُرْ في أمْرِك، وبعدَ الأيام الثلاثة اخْتَرْ إحدى ثلاث: اختر الإسلام، فندَعَكَ وأرضَك، أو الجزية، فنأْخُذَها منك ونكفَّ عنك، وإنْ كنتَ عن نصْرِنا غنياً تركْناك، وإنْ كنتَ محتاجاً إليه منَعْناك! أو المنابذةَ والقتالَ في اليوم الرابع!

ولا نبدؤُكَ بالقتالِ قبلَ اليوم الرابع! وأنا كفيلٌ لكَ بذلك على أصحابي، وعلى جميعِ مَنْ ترى!

فقال له رستم: أسيدُهم أنت؟

قال ربعي: لا. أنا واحدٌ منهم، ولكنَّ المسلمين كالجسد، بعضُهم من بعض، يُجيرُ أدناهم أعلاهم!!

ولما خرجَ ربعي قال رستم لرؤساءِ جيشِ فارس: ما ترون؟ هل رأيتُم كلاماً قطّ أوضحَ أو أعزَّ من كلامِ هذا الرجل؟

قالوا: معاذَ الله أنْ تميلَ إلى شيءٍ من هذا، وتدعَ دينَك لهذا الكلب! أما ترى إلى ثيابِه؟

قال رستم: ويحكم، لا تنظروا إلى الثياب، ولكن انظروا إلى الرأيِ والكلامِ والسيرة، إنَّ العربَ تستخفُّ باللباسِ والمأكل، ويَصونون الأحساب! وليسوا مثلكم في اللباس!

وفي اليومِ التالي طلبَ الفرسُ من سعدٍ أنْ يُرسلَ لهم ربعيَّ بنَ عامر نفسَه، فأبى، وبعثَ لهم حذيفةَ بنَ محصن الأزديَّ. وفعلَ حذيفةُ ما فعلَه ربعيّ بالأمس، وعاملَهم بعزّة وشجاعة، وكلَّمَ رستمَ بمثْلِ ما كلَّمَه ربعي بالأمس!

المغيرة بن شعبة أمام رستم:

وفي اليومِ الثالث طلب رستم رجلاً، فبعثَ سعدٌ رجلاً آخر، هو (المغيرة بن شعبة).

دخلَ المغيرةُ بملابسِه المتواضعة على مجلسِ رستم، وأقبلَ يمشي حتى

وصلَ إلى رستم، فجلسَ معه على سريره ووسادته!!

فوجىءَ الفرسُ بحركةِ المغيرة، ونَخَرَ أخو رستم نخرةً مستنكراً، ووثبَ الآخرون على المغيرة، فَتَرْتَروه ومَغَّثوهُ وأنزلوه!

استغربَ المغيرةُ من فعلِهم به، إنه رسولٌ موفَدٌ من سعد، وهم الذين طَلبوه، فلماذا يفعلونَ به هذا؟

نظرَ المغيرةُ لهم نظرةَ ازدراء، ووجَّه كلامَه لأخي رستم قائلاً: لا تَنْخَر، فما زادَني هذا شرفاً، ولا نَقَصَ أخاك!

ثم قال لهم ساخراً متهكّماً: كانتْ تبلُغُنا عنكم الأحلام، ولا أرى قوماً أسفَهَ منكم!! إنّا معشرَ العرب سواء، لا يَستعبدُ بعضُنا بعضاً.. فظننتُ أنكم تواسون قومكم كما نتواسى.. وكانَ أحسنَ من الذي صنعتُم أن تُخبروني أنَّ بعضَكم أربابُ بعض.. وإنَّ هذا الأمْرَ لا يستقيمُ فيكم، فلم نصنَعْه، وأنا لم آتِكم، وأنتم دعوتُموني.. اليومَ علمتُ أنَّ أمركم مضمحِلّ، وأنّكم مغلوبون، وأنَّ مُلْكاً لا يقومُ على هذه السيرة، ولا على هذه العقول!!».

ولما سمعَ رجالُ رستم كلامَ المغيرة، قالوا: واللهِ لقد رمى بكلام لايَزالُ عبيدُنا يتطلَّعون وينزعونَ إليه، قاتلَ اللهُ سابِقينا، ما كان أحمقَهم عندما كانوا يُصَغِّرون أمرَ هذه الأُمة!

الحوار بين المغيرة ورستم:

وعرضَ المغيرة على رستم ما عرَضَه عليه أخواهُ ربعيّ وحذيفةُ من قبل. وردَّ عليه رستم بكلامٍ طويل، وعَرَضَ عليه عرضاً مادياً، مقابلَ

انسحابِ المسلمين، وكان مما قالَه له: قد علمتُ أنّه لم يخرجْكُم من بلادِكم إلاّ الجوعُ والعريُ، فارجعوا عنَّا، وقد شغلْتُمونا عن عمارة بلادِنا، ونحنُ نُحَمِّلُ لكم ركائبكم قمحاً وتمراً، ونأْمُرُ لأميركم بكسوةٍ وبغلٍ وألْفِ درهم، ولكلِّ جنديٍّ بحمْلِ تمرٍ وثوبين، وانصَرِفوا عنّا، فإنّي لا أشتهي أنْ أقتلكم أو آسِرَكم، فارجعوا عنّا عافاكم الله!!

رفَضَ المغيرةُ عرضَ رستم.

فقالَ له رستم: إذنْ نقتُلكم!

أجابه المغيرةُ: مَنْ قُتِلَ منّا دخلَ الجنة، ومَنْ قتَلْنا منكم دخلَ النار، ومَنْ بقيَ منا ينتصرُ على مَنْ بقيَ منكم!!

ثم قالَ المغيرةُ لرستم: ونحنُ نخيِّرُك بينَ إحدى ثلاث: الإسلام، لكم فيه ما لَنا، وعليكم ما فيه علينا، وليس فيه تفاضلٌ بيننا!.. أو الجزية، وتدفعونَها عن يدٍ وأنتم صاغرون!

لم يفهم رستم الكلمةَ الأخيرة، فقال: «ما صاغرون؟»

قال المغيرة: أنْ يقفَ الرجلُ منكم على رأسِ الرجلِ منا ذليلاً، حاملاً الجزية، يَرجوه أنْ يأخذَها منه.

وقالَ المغيرةُ لرستم: إن احتجتَ إلينا نمنَعْك، فكنْ لنا عبداً، تؤدي الجزيةَ وأنتَ صاغر! فإنْ أبيتَ فالسيف!! وإسلامُكَ أحبُّ إلينا منهما!!

ولما سمعَ رستم كلامَ المغيرة، استشاط غضباً، وقال: ما كنتُ أظنُّ أنني سأعيشُ حتى أسمعَ هذا منكم يا معشرَ العرب.. واللهِ لا يرتفعُ الصبحُ غداً

حتى أفرغَ منكم، وأقتلكم جميعاً، لا صلحَ بيننا وبينكم!!

رستم يعلق على كلام المغيرة:

ولما خرج المغيرة من مجلسِ رستم، التفتَ رستم إلى رجالِه وقادةِ جيشـه، فقال: «أينَ هؤلاء منكم؟ وماذا بعدَ هذا؟ ألم يأْتكم الأَوّلان فحَسَراكم واستحرجاكم، ثم جاءكم هذا، فلم يختلفوا، وسَلَكوا طريقاً واحداً، ولزِموا أمراً واحداً!! هؤلاءِ واللهِ هم الرجال.. ولئن كانوا صادقين ما قامَ لهم شيء.

وبعدَ ذلك بعثَ سعدٌ إلى رستم ستةً آخرين مجتمعين، فدَعَوهُ إلى الإسلام أو الجزيةِ أو القتال. وكانَ مما قالوه له: اتّقِ اللهَ يا رستم، ولا يكونَنَّ هلاكُ قومِك على يديك، فإنّه ليسَ بينك وبين النجاة إلا أنْ تدخلَ في الإسلام، وتطردَ عنكَ الشيطان[1]!

وبزيارةِ هذا الوفدِ الداعيةِ لرستم انتهت المفاوضاتُ بين المسلمين والفرس، وقام الدعاةُ المسلمون بتقديمِ الدعوةِ إليهم، وإقامةِ الحجةِ عليهم، ولكنّهم أصرُّوا على كفرِهم وعنادهم.

بعد ذلك لم يبقَ إلاّ الحربُ الفاصلةُ بين الجيشين.

(٤) مقدمات معركة القادسية

التقى الجيشانِ على أرضِ القادسية، الفرسُ مئتان وأربعون ألفاً،

---

(١) انظر تفاصيل ما جرى بين رستم وبين الدعاة الموفدين إليه في تاريخ الطبري: ٣/ ٥١٨ ـ ٥٢٩؛ والقادسية لكمال، ص١٠٣ ـ ١١٧.

والمسلمون ثلاثةٌ وثلاثون ألفاً.

كانَ نهـرُ العتيقِ يفصلُ بين الجيشين. المسـلمونَ جنوبَه، وخلْفَهم الخندق، والفرسُ شمالَه، وخلْفَهم نهرُ الحَضُوض. وعلى نهرِ العقيق قنطرةٌ صالحةٌ للعبور، وهي تحت سيطرة المسلمين.

الفرس يعبرون للمسلمين:

ولما انتهت المفاوضـات بين المسـلمين والفرسِ إلى طريـق مسدود، قال رستم: أتعبرونَ إلينا، أمْ نعبرُ إليكم؟

قالَ سعدٌ له: بل اعبروا أنتم!

أيْ أنْ يَعْبُروا نهرَ العتيق.

وأرادَ الفرسُ العبورَ من القنطرةِ المقامةِ على نهرِ العقيق، ولكنَّ سعداً منعهم، وقالَ لهم: «لا، ولا كرامة، شـيءٌ غلَبْناكم عليه لن نـردَّه إليكم، فابحثوا لكم عن معبرٍ آخر غيرِ القنطرة!

وهدفُ سـعدٍ من منعِ عبورِهم من القنطرة، أنْ لا يتملكوهـا ويتمكَّنوا منها، وبذلك يسهلُ عليهم الفرارُ منها عند هزيمتِهم، وسعدٌ ببُعْدِ نظرِه يريدُ أنْ يقضيَ على أكبرِ عددٍ منهم، لتحطيمِ قوتِهم.

قامَ الفرسُ بردْمِ جزءٍ من نهر العتيق، مقابلَ حصْن قُدَيْس، الذي جعَلَه سعدٌ مقراً لقيادتِه، وعَبَروا من ذلك الردمِ في الليل، ولما ارتفعَ نهارُ اليومِ التالي كان الفرسُ قد عبروا نهرَ العتيق، وصاروا أمامَ المسلمين وجْهاً لوجه، وصارَ نهر

العتيق وراءَهم، ومن خلْفِه نهر الحَضُوض! أما المسلمون فكانَ وراءَهم خندقُ القادسية[1].

واستعرضَ رستم جيشَه، وشجَّعهم على القتال، وقالَ لهم: غداً ندقُّ المسلمين!

فقالَ له رجلٌ منهم: إنْ شاءَ الله!

فقال رستم: ندقّهم، وإنْ لم يشأ الله!

قالَ ذلك بكفرٍ مجوسيٍّ وقح، واستقدم بذلك لعنةَ اللهِ وغضبه!

ونصب الفرس لرستم سرير القيادة أمام نهر العتيق بجانب الردْم الذي عبروا منه، ونصبوا بجانب السرير راية فارس الكبرى (درفش كابيان) نصبوها على خشب طوال.

وكان في جيشِ رستم ثلاثةٌ وثلاثون فيلاً موزعةً على الميمنة والميسرة، وجعلَ رستم على المقدمةِ جالينوس، وعلى الميمنةِ الهرمزان، وعلى الميسرةِ مهران، وعلى الطلائع بيرزان.

ووضعَ سعدٌ قواته في مواقعِها، وكان على المقدّمة زُهرة بن الحَوَيَّة، وعلى الميمنةِ عبدُ الله بن المُعتَمّ، وعلى الميسرةِ شُرحبيل بن السِّمْط، وعلى المؤخّرة عاصمُ بن عمرو، وعلى الطلائع سَوادُ بن مالك.

---

(١) انظر الخارطة الدقيقة التي رسمها أحمد عادل كمال لمواقع الجيشين في القادسية، ص١٢٠ ـ ١٢١.

ووضعَ النســاءَ والعبيدَ في منطقة (العُذَيب) خلفَ القادسـية، وحولَهم مجموعةٌ من الرجال لحراستهم، بإمرةِ غالبِ بن عبد الله الليثي[1]!

مرض سعد الشديد أثناء المعركة:

وابتلى الله سعداً بالمرضِ قبيلَ المعركة وأثناءَها، فأقعدَه ومنَعَه عن الحركة، ولكنّه قادَ المعركةَ رغمَ مرضه.

أصيبَ بعرْقِ النسا، وبحبوبٍ ودماملَ ملأتْ جسْمَه.

و(عرقُ النساء) مرضٌ يُطلَقُ على إصابةِ عَصَبِ الطَّرَفِ السُّفْلِيّ الأسْفَل، وهـو يتكوَّنُ من الأعصابِ القَطنيـة والعَجُزية، التي تبدأ في أسـفلِ العمودِ الفقري، وتتجمعُ وتكوِّنُ العصبَ الذي يمتدُّ لبعضِ الوقت على جانبِ العمودِ الفقري في أعلى الحوض، ثم يتجهُ خلْفَ عظمةِ الحوض، ويأخـذُ مجراهُ خلْفَ الفخذ، وخلْفَ بطنِ الرِّجْلِ، ثم إلى أصابعِ القدم.

فإذا الْتَهبَ هذا العصبُ فإنَّ المريضَ به يحسُّ بألمٍ شديد، يبدأُ من أسفلِ العمودِ الفقريِّ في الظهر، إلى خلْفِ الفخذِ والساق، إلى أصابعِ القدم، ويزدادُ هذا الألَمُ بالحركةِ والمشي، ويَقِلُّ عند النومِ على الظهرِ دون حركة...»[2].

---

(١) انظر وضع الجيشين في تاريخ الطبري: ٣/ ٥٣٠ ـ ٣٥١؛ والقادسية، ص١٢٣ ـ ١٢٥.

(٢) القادسية، ص١٢٦، حاشية ١، نقلاً عن مجلة العربي: شباط ١٩٧٠م.

سعد يقود المعركة وهو عاجز عن الحركة:

مرضُ عِزقِ النسا منعَ سعداً من ركوبِ الخيل والمشي والحركة والقعود، وألزمَهُ النومَ على بطنِه، وظهورُ الحبوبِ والدمامل في جسمِه ضاعفَ مرضَه، وكان هذا كلُّه يسببُ لسعدٍ آلاماً شديدة، فكيفما كان وضْعُه تألّم، سواءٌ قعدَ أو استلقى أو اضطجع . .

إنَّها المرّة الأولى التي يشتركُ فيها سعدٌ في معركةٍ وهو مريضٌ عاجزٌ عن الحركة، والمرةُ الأولى التي يقودُ فيها قائدٌ المعركة وهو مستلقٍ على بطنِه من شدّة المرض، ولم يَعهد المجاهدون على جبهةِ العراق قائدَهم يقودُهم وهو على هذه الصورة، إنما عهدوا قائدهم وسْطَهم في الميدان، راكباً فرسَه يقاتلُ الكفار، فعَلَ هذا المثنّى وخالدٌ والقعقاعُ وعاصمٌ وغيرُهم من القادة!

وهذه مزيةٌ رائعةٌ تُسَجَّلُ لسعد، كما أنها تدلُّ على شجاعتِه العالية، فقد كان بإمكانِه أنْ يعهدَ لنائبه (خالد بن عُرْفُطة) بقيادة المعركة، والذهابَ إلى (العُذَيْب) خلفَ القادسية، حيثُ النساءُ والمرضى والجرحى، ليعالَجَ هناك من مرضه، ولو فعلَ ذلك لما كانَ مُلاماً، لأنَّه مريضٌ عاجزٌ عن الحركة، ورفعَ اللهُ الحرجَ عن المريض.

لكنَّ سعداً المجاهدَ لم يكن ليعملَ ذلك، فبإمكانه أن يصبرَ على مرضِه، وأنْ يستعليَ على آلامِه المبرِّحة، وأنْ يتحمَّلَ معاناتِه الشديدة! إنَّه قائدٌ لمعركةٍ حاسمة فاصلة، لها ما بعدَها، فليصبرْ على آلامِ المرض، ولْيبتَغِ الأجْرَ من الله.

ثم إنَّ قيادةَ سعدٍ للمعركة من على ظهرِ حصنِ قُدَيْس تدلُّ على شجاعتِه

الفائقة، لأنه عرَّضَ نفسَه للخطرِ المباشر، فلو دارت الدائرةُ على المسلمين، وانْهزموا في الميدان، فسوفَ يقضي عليه الفُرسُ وهو على ظهرِ الحصن، لأنه عاجزٌ عن الحركة.

قال عثمانُ بن رجاء السعدي عن شجاعةِ سعد وهدوءِ أعصابه: «. . ولو عَراهُ الصَّفُّ فُواقَ ناقة لأخذَ برمَّته، فوالله ما أكْرَثَه هولُ تلك الأيام ولا أقلقه»[1].

خطبة سعد في المجاهدين:

كتب سعد إلى قادةِ جيشه باستخلافِ خالد بن عُرْفُطة، وبيَّنَ عذْرَه في ذلك: «إني قد استخلَفْتُ عليكم خالد بن عُرْفُطة، وليسَ يمنعُني أن أكونَ مكانَـه إلا مرضي الذي يعودُني، وما بي من الحُبون [الحبـوب والدمامل]، فإني مُكِبٌّ على وجهي، وشخصي لكم بادٍ، فاسْمَعوا له وأطيعوا، فإنَّه إنما يأمُرُكم بأمري، ويعملُ برأيي»[2].

وخطبَ سعدٌ من على ظهرِ الحصن المجاهدين، وحثَّهم على الصبرِ والثبات، والإخلاصِ لله، والرغبةِ في الآخرة.

وكـان مما قالَه لهم: «. . . إنَّ اللهَ هـو الحقُّ، لا شريكَ له في الملك، وليسَ لقوله خُلْف، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

---

(١) القادسية، ص٢٣٩.
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٣٢.

إنَّ هذا ميراثكم، وموعودُ ربّكم، وقد أباحَها لكم منذُ ثلاثِ حجج [سنوات]، فأنتم تأكلونَ منها، وتقتلونَ أهلها وتَجْبونَهم وتسْبونَهم إلى هذا اليوم!

وقد جاءكُم منهم هذا الجمع، وأنتم وجوهُ العربِ وأعيانُهم، وخيارُ كلِّ قبيلة، وعِزُّ مَنْ وراءَكم. . . فإنْ تزهَدوا في الدنيا، وتَرْغَبوا في الآخرة، جمعَ اللهُ لكم الدنيا والآخرة، ولا يُقَرِّبُ ذلك أحداً إلى أجله، وإنْ تَفْشلوا وتَهِنوا وتَضْعُفوا تذهبْ ريحُكم، وتوبقوا آخرتكم. .»[١].

وطلبَ سعدٌ من قادةِ الجيش ووجوهِ المسلمين التحركَ بين الجنودِ، وترغيبَهم في الجهاد، وحثَّهم على الثباتِ والصبر، ففعلوا ذلك[٢].

أيام القادسية ولياليها:

استمرَّت معركة القادسية ثلاثَ ليال وأربعةَ أيامٍ متوالية متواصلة: بدأتْ يومَ الخميس الثالثَ عشر من شعبان، من السنةِ الخامسة عشرة، وانتهتْ مساءَ يومِ الأحد السادس عشر من الشهر.

سُميَ يومُ الخميس: يومَ أرْماث.

وسُمّيتْ ليلة الجمعة: ليلةَ الهَدْأَة.

وسُميَ يوم الجمعة: يومَ أغواث.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٣١ ـ ٥٣٢.

(٢) انظر بعض ما قالوه في تاريخ الطبري: ٣/ ٥٣٢ ـ ٥٣٥.

وسميت ليلة السبت: ليلةَ السواد.

وسميَ يومُ السبت: يومَ عُماس.

وسميت ليلةُ الأحد: ليلةَ الهرير.

وسميَ يومَ الأحد: يومَ القادسية.

وقبلَ القادسيةِ بشهر، وقعَتْ معركةُ اليرموك في الشام، وكتبَ اللهُ النصرَ للمسلمين، وكانتْ في الخامسِ من شهر رجب، من السنة الخامسة عشرة.. وكتبَ عمرُ إلى أبي عبيدة يأمُرُه بإعادةِ أهل العراق بقيادةِ القعقاعِ بن عمرو التميمي.

(٥) يوم أرماث وليلة الهدأة

يومُ أرماث هو اليومُ الأولُ من أيامِ معركةِ القادسية، وكان يومَ الخميس الثالث عشر من شعبان، من السنةِ الخامسة عشرة.

وقد نظَّمَ سعدٌ الجيشَ، استعداداً للهجوم، وقالَ لهم: «الْزَموا مواقِفَكم، ولا تحرِّكوا شيئاً حتى تُصلُّوا الظهر، فإذا صلَّيتم الظهرَ فإنّي مكَبِّرٌ تكبيرة، فكَبِّروا وشُدُّوا شُسوعَ نعالِكم، واستعدُّوا، واعلمُوا أنَّ التكبيرَ لم يُعْطَهُ أحدٌ قبلكم، واعلموا أنما أُعطيتُموه تأييداً لكم.

فإذا كبَّرتُ الثانية، فكبِّروا وتَهيّؤوا، ولْتستتمَّ عُدَّتكم.

فإذا كبَّرْتُ الثالثة، فكبّروا، ولْيُنَشِّطْ فرسانُكم الناسَ، ليبرُزوا ويطاردوا.

فإذا كبَّرتُ الرابعة، فَشُدُّوا النواجذَ على الأضراس، واحْمِلوا، وازْحَفوا جميعاً حتى تُخالِطوا عدوّكم، وقولوا: لا حولَ ولا قوّة إلا بالله..»[1].

أمرَهم سعدٌ أنْ لا يتحرّكوا حتى يُكبِّرَ أربعَ تكبيرات، بيْنَ كُلِّ تكبيرةٍ وتكبيرةٍ فترةٌ من الزمن. وتبدأُ تكبيراتُه بعد صلاةِ الظهرِ من يوم الخميس.

كانت المعركةُ في الصيفِ الحارِّ شديدِ الحرارة، وفي جنوبِ العراقِ تكونُ الحرارةُ شديدةً لا تُطاق، حرارةُ شهرِ أيلول ـ سبتمبر ـ لأنها وقعت في ١٩ أيلول سنة ٦٣٦م[2].

سعد يختار بدء المعركة:

لماذا اختار سعدٌ بدءَ المعركةِ بعدَ صلاةِ الظهرِ؟ ولماذا بدأَ المعركةَ بالتكبير؟

تكونُ صلاةُ الظهرِ بعدَ الزوال، حيثُ تتجهُ الشمسُ إلى النصفِ الثاني من السماء، وهذا فيه فضيلةٌ عند الله، وكان كثيرٌ من القادةِ المسلمين يبدؤون القتالَ بعد الزوال.

ومن حكمةِ سعدٍ الرائعة أنّه بدأَ المعركةَ بأربعِ تكبيراتٍ، وهذا التكبيرُ لرفعِ معنوياتِ المجاهدين، وتثبيتِ قلوبهم وأقدامِهم، وتذكيرِهم بالحقيقة الإيمانية القاطعة «الله أكبر»، وذلك ليستهينوا بالأعداءِ وقوتِهم، فماذا

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٥٣.
(٢) القادسية، ص١٢٣.

تُساوي قوةُ الفرسِ أمامَ قوةِ الله؟ فعليهم الاستعانةُ بالله المتعال ليكتبَ لهم النصر!

وذكَّرَهم سعدٌ بأنَّ اللهَ خصَّ المسلمين بالتكبير، لما فيه من أَثَـرٍ إيجابيّ عظيم على المسـلمين، ولما لَـه من أثرٍ آخرَ في إضعافِ الكفـارِ وتحطيمِ معنوياتهم.

وعندما يكبِّرُ القائدُ سعد، ويكبّرُ بعدَه ثلاثةٌ وثلاثون ألفاً من المجاهدين، تـرتجُّ الأرضُ بتكبيرِهم، ويرتفعُ صوتُ التكبيـرِ في الفضاء، وهذا فيه مـا فيه... ولذلك كان سعدٌ حكيماً في بدءِ المعركةِ بـأربعِ تكبيرات.

وقبلَ التكبيرةِ الأُولى أَمَرَ سعدٌ قارئاً جهوريَّ الصوتِ أنْ يقرأَ على الجيشِ سورةَ الجهاد ـ سورة الأنفال ـ فقُرئت السورةُ على كلِّ كتيبةٍ للمجاهدين، فاستبشروا بها، وغشيتْهُم السكينة[1].

سـورةُ الأنفالِ لها أثـرٌ قـويٌّ في زيـادةِ حماسِ المجاهديـن، وتوجُّهِهم إلى الله، ولذلك كان القادةُ يقرؤونَ السورةَ على الجنودِ قُبيْلَ نشـوبِ القتال، فيتذكَّرُ الجنودُ حقائقَ السورة ومعانيها، ويلتزمـوا بتوجيهاتها.

بعدَ ذلك كبَّرَ سعدٌ التكبيرةَ الأُولى، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة.

بدء المعركة بمبارزة الفرسان:

وبدأ القتالُ ببروزِ الفرسانِ من الجيشيْن، حيثُ بارزَ غالبُ بنُ عبد الله الأسديُّ هرمزَ أحدَ قادةِ الفرس، فأسرهُ وأتى به إلى سعد.. ثم بارز عاصمُ بنُ

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٣٦.

عمرو التميمي أحدَ قادة الفرس، فهربَ الفارسي، ولحقَ به عاصم، فوجدَ فارساً يسوقُ بغلاً محمَّلاً بالطعام، فهربَ الرجل، وساقَ عاصمٌ البغلَ إلى المسلمين، وفتحوا حِمْلَ البغلِ فإذا هو طعامُ الغداءِ لرستم قائدِ جيش الفرس، فأعطاهُ سعدٌ لعاصم وجماعتِه، فتغدَّوا غداء رستم[1].

وسارَ عمرُو بنُ معدي كرب الزبيدي أمامَ المسلمين يشجعُهم ويحمّسُهم، وخرجَ إليه قائدٌ فارسيٌّ يطلبُ المبارزة، فبارزه عمرو، وقبضَ عليه، وحمله على فرسه، وأتى به أمامَ المسلمين، فذبحه! وقال للمسلمين: هكذا افعلوا بالفرس[2].

هجوم الفرس على بجيلة وأسد:

وعلمَ الفرسُ أنَّ قوةَ المسلمين في الميسرة، التي يقودُها شُرحبيل بن السَّمْط، وأقوى ما في الميسرة جنود قبيلة (بجيلة) وكان عددُهم ألْفَيْ مجاهد، ثم جنودُ قبيلةِ (أسد) وكان عددُهم ثلاثةَ آلاف مجاهد.

ركَّزَ الفرسُ هجومَهم على (بجيلة) في الميسرة، ووجَّهوا لهم أكثرَ من خمسين ألف فارس، ومعهم ثلاثةَ عشرَ فيلاً، فكانت النسبة (٢ : ٥) وهي نسبةٌ عاليةٌ جداً، إضافةً إلى خطرِ الفِيَلةِ المباشر على خيل المسلمين.

كان سعدٌ يراقبُ المعركةَ من على ظهرِ الحصن، فطلبَ من قبيلةِ أسدٍ أنْ تُنجدَ بجيلةَ بجانبها، فلَبَّتْ قبليةُ أسد النداء.. وهجمَ الفرسُ على الميسرة ثم

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٣٧.
(٢) المرجع السابق: ٣/ ٥٣٨.

الميمنة. . وهجم المسلمون على الفرس، والتحم الجيشان، وحميَ الوطيس.

آذت الفيلةُ خيلَ المسلمين، وكانت الخيلُ تهربُ من أمام الفيلة، واشتدَّ القتلُ في المسلمين.

تألَّمَ سعدٌ مما يصيبُ بني أسَد، ومن خطرِ الفيلة، فقالَ لعاصم بن عمرو التميمي: «يا معشرَ بني تميم: ألستُمْ أصحابَ الإبلِ والخيل؟ أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة؟

قال عاصم: بلى، والله!

نادى عاصمُ بن عمرو أفضلَ وأمهرَ الرماةِ من بني تميم، ووضعوا خطةً لمشاغلةِ ركبان الفيلة، ثم مهاجمتها من الخلف، وقطْعِ توابيتها وإسقاطِ ركابها من الجنود، ونجحوا في ذلك، وبذلك أراحوا المسلمين من خطرِ الفيلة في اليوم الأول[١].

كانت المعركةُ عنيفةً شديدةً في يومِ (أرماث) وكان هجومُ الفرسِ مركَّزاً على بجيلةَ وأسد وتميم، حتى إنَّ بني أسد قدَّموا في ذلك اليوم خمسمئةِ شهيد!

مشكلة بين سعد وامرأته وضربها:

وبينما كان سعدٌ يراقبُ سيرَ المعركةِ العنيفة من على ظهرِ الحصن، وهو

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٣٩ ـ ٥٤٠.

منبطحٌ على بطنه من شدّةِ آلامه وأوجاعِه، ويُصدرُ أوامرَه لكبارِ القادة، حدَثَ حادثٌ من زوجتِهِ أزعجَه!

كانتْ زوجتُه (سلمى بنت خصفة التميمية) زوجةً للمثنى بن حارثة الشيباني من قبل، وعاشَتْ مع المثنى معاركَه وحروبَه ضدَّ الفرس، وهي الآن مع سعدٍ تراقبُ الأحْداثَ العنيفة. . ولما رأتْ هجومَ الفرسِ الشديدَ على بني أسد، وسقوط الشهداءِ من أَسَد وغيرهم تذكَّرت المثنَّى، وقارنَتْ بينه وهو يجاهدُ على فرسه، وبين زوجها سعدٍ الذي يقودُ المعركةَ من على ظهر الحصن، وكأنّها تلومُ سعداً لأنه لم يركَبْ فرسَه وسْطَ الجنود، ولعلَّها نسيت الآلام الشديدة التي يُعانيها سعدٌ من عِرْقِ النِّسا والدماملِ والحُبوب التي منعَتْهُ عن القعود، فضلاً عن ركوبِ الخيل!

فقالتْ عبارةً أزعجتْ سعداً: «وامُثنَّياه! ولا مُثَنّى للخيلِ بعد اليوم!»!

وفهمَ سعدٌ ما تقصدُه زوجتُه من لومِه وتعييره، فغضبَ منها، ولَطَمَ وجْهَها من الغيظ! وقالَ لها: أين المثنى من هذه الكتيبة التي تدورُ عليها الرحى؟ يعني بني أسد وخيلِ بني تميم بقيادةِ عاصم بن عمرو ـ.

فوجئت الزوجةُ سلمى بلطمةِ سعدٍ على وجهها فعيَّرَتْهُ بصراحة، وقالتْ له: أغيرةً وجُبناً؟

أي: أنتَ جمعتَ بين الغيرةِ والجبن! فقد جبنتَ عن ركوبِ الفَرَس والدخولِ إلى ميدانِ المعركة، وعندما سمعتَ اسمَ زوجي السابق (المثنى) غِرْتَ منه، وغيرتُك دفَعَتْكَ إلى لطم وجهي!

فقال لها سعد: واللهِ لا يُعذرني أحد إذا أنتِ لم تُعذريني، وأنتِ ترينَ ما بي، والناسُ أحقُّ أن لا يَعذِروني[1]!!

ولم تكنْ سلمى بنتُ خصفة على صوابٍ في لومِها لسعد! ولا في اتّهامه بالغيرة والجبن! وما كان سعدٌ (يُجَبَّنُ) وهو المجاهدُ الشجاعُ المعروف، ونسيَتْ زوجتُه أنَّ الذي منعَه من ركوبِ الفرسِ وخوضِ المعركةِ ليس هو الجبن، وإنما هو المرضُ الشديدُ الذي ابتلاهُ اللهُ به عند حدوث المعركة، وهو لم يبتعدْ عن الميدان بحجةِ المرض، وإنما قادَها رغمَ عجزِه عن الحركة، ولئن حالَ المرضُ الشديدُ بينه وبين خوضِ المعركة، فلْيقمْ بتوجيهها من نقطةِ مراقبةٍ متقدّمة!! وهذا الموقفُ منه بالغُ الدلالة على شجاعتِه الفائقة رضي الله عنه، ورحمَ الله زوجتَه سلمى التي لم تلتفتْ إلى هذا البُعْد، والتي اضطرتْه إلى لطمِها على وجهِها!

انتهى ذلك الحدَثُ العرضيُّ السريع، الذي لم يكنْ إلاّ نزغةً من نزغاتِ الشيطان، سرعان ما سيطرَ سعدٌ عليه، وعاد الوئامُ بينه وبين زوجته!

معنى يوم أرماث وليلة الهدأة:

بقي القتالُ مستمرّاً شديداً من الظهرِ إلى ما بعد المغرب، ولما دخلَ الليلُ وعَمَّ الظلامُ رجعَ كلٌّ من الجيشيْنِ إلى موقعه، وخلا الميدانُ بين الجيشين، بعدما أُجْهِدَ وتعبَ كلٌّ منهما!

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٤٢.

وسُمِّيَ اليومُ الأولُ من أيامِ القادسية (يومَ أرماث) والكلمةُ مشتقةٌ من الرَّمْث، وهو الخلط. يُقالُ: رَمَثَ الشيء بالشيء، أي: خَلَطَه به.

وسببُ تسميتِه بأرماث، أنه لوحظَ معنى الخلطِ والاختلاط، فقد اشتبكَ الجيشان، واختلطا في القتال، واختلطَتْ شدةُ القتالِ على كلٍّ منهما، واختلطتِ المعركةُ ولم تنتهِ إلى نتيجةٍ محسومة، لا لصالح المسلمين، ولا لصالحِ الفرس، فلم يكنْ في هذا اليوم غالبٌ ولا مغلوب[1]!!

وسُمِّيَت الليلةُ الأولى من ليالي القادسية (ليلةَ الهَدْأَة) وذلك لأنَّ الهدوءَ سادَ على الجبهةِ طولَ الليل، بسبب توقّفِ القتال.. وأقبلَ كلٌّ من الجيشين يُعالجُ جَرحاه، ويُصلحُ أوضاعَه.

ونقلَ المسلمون جرحاهم إلى (العَذيب) حيثُ النساءُ والصغار، وقامت النساء بعلاجِ الجرحى، وتجهيزِ الحاجاتِ، استعداداً لليومِ التالي.

وقامت النساءُ بحثِّ رجالهنَّ على القتال، والاستبسالِ فيه.

تحريض الخنساء والمرأة الخثعمية:

جلست الشاعرةُ المعروفة (الخنساء) ـ تماضر بنتُ عمرو، شاعرةُ بني سُليم ـ وسْطَ أبنائِها الأربعة، تَعظُهم وتُحرّضُهم على القتال.

وكان مما قالتْهُ لهم: «إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم [جاهدتم]

---

(١) القادسية، ص١٤٤ ـ ١٤٥.

مختارين، وقد تعلمون ما أعدَّ اللهُ للمسلمينَ من الثوابِ الجزيلِ في حربِ الكافرين، واعلموا أنَّ الدارَ الباقيةَ خيرٌ من الدار الفانية.. يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فإن أصبحتُم غداً إن شاءَ اللهُ سالمين، فاغدُوا إلى قتالِ عدوِّكم مستبصرين، وباللهِ على أعدائِه مستنصرين.. فإذا رأيتم الحربَ قد شمرتْ عن ساقها، واضطرمت لَظى على سياقِها، وجلَّلَتْ [تفجّرت] ناراً على أرواقِها [جوانبها]، فتيَمَّموا وَطيسَها [وسطها]، وجالدوا رئيسَها عند احتدامِ خميسِها [جيشها]، تظفروا بالغنمِ والكرامةِ في دارِ الخلدِ والمقامة...».

وفي الصباحِ لبّى الرجالُ الأربعةُ نداءَ أُمِّهم الشاعرةِ المجاهدة، وأخذوا مواقعهم في الجهاد[1].

وجلست امرأةٌ من النخع وسطَ أبناء أربعةٍ لها، فوعظتْهُم، وحرَّضتْهم على الجهاد. وكان مما قالَتْ لهم: «إنّكم أسلمتُم فلم تُبَدِّلوا، وهاجرتم فلم تثربوا.. وجئتم بأُمكم عجوزٍ كبيرة، فوضعْتُموها بين أيدي أهل فارس، واللهِ إنكم لبنو رجلٍ واحد، كما أنّكم بنو امرأةٍ واحدة، ما خُنْتُ أباكم، ولا فَضَحْتُ خالكم.. انطلقوا فاشهدوا أول القتالِ وآخره...».

ولما غادروها في الصباحِ مسرعين إلى الميدان، رفعَتْ يَديها إلى السماءِ وقالت: اللهمَّ ادفعْ عن أبنائي!

---

(١) القادسية، ص١٤٦ ـ ١٤٧.

فجاهَدوا برجولةٍ وشجاعة، وعادوا سالمين، لم يُجرحْ منهم واحد[1].

(٦) يوم أغواث وليلة السواد

اليومُ التالي من أيامِ معركةِ القادسية هو يومُ الجمعةِ الرابعُ عشر من شهر شعبان، من السنةِ الخامسة عشرة.

التحقَ الرجالُ بأماكنهم ومواقعهم على جبهةِ القتال، بينما قامت النساءُ بعلاجِ الجرحى، كما قامت النساءُ بحفرِ القبورِ للشهداءِ في وادي (مُشَرِّق) الواقعِ بين العَذيب وعين الشمس، والذي دُفِنَ فيه الآلافُ من الشهداء!

كانت المرأةُ المؤمنةُ تحفرُ القبرَ في وادي مُشَرِّق، ولا تدري مَنْ سَيُدْفَنُ فيه بعد قليل، هل هو زوجُها أو أخوها أو ابنها أو أبوها[2]!!

كانت معنوياتُ المسلمين والمسلمات عالية، وروحُهم الجهاديةُ مشرقة، الرجالُ يحرصونَ على الجهادِ، ويستبسلون فيه، ويتواصَون ويتعاهدون عليه، والنساءُ يعظنَهم ويُحمّسنهم ويُشجّعنهم، ويداوينَ جرحاهم، ويحفرْنَ القبورَ لشهدائِهم، ويدفنَّ هؤلاء الشهداء! تحفرُ المرأةُ القبرَ، وتدفنُ فيه أخاها أو أباها أو ابنها أو زوجها! بهذه القلوب والشخصيات جاهدَ السابقون، وبها نالوا النصرَ من عندِ الله بفضلِ الله!

---

(١) القادسية، ص١٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٩.

وتأخَّرَ القتالُ في يوم (أغواث) إلى الظهر، مع أنَّ الجيشين متقابلان من الصباح، واقتصرت العملياتُ الجهاديةُ على المبارزاتِ المختلفةِ بين الفرس والمسلمين في ساحة المعركة بين الجيشين.

وصول المدد من الشام:

وفي صباحِ هذا اليوم وصل الغوثُ والمددُ للمسلمين من الشام..

قبلَ حوالي سنتين ونصف، وفي خلافةِ أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أمرَ الصدّيقُ قائدَ جيشِ المسلمين على أرضِ العراق - خالد بن الوليد رضي الله عنه - بأنْ يأخذَ معه نصفَ الجيشِ، وأنْ يتوجَّه إلى الشام مدداً للمسلمين هناك.

وفي صفرَ من السنةِ الثالثة عشرة للهجرة أخذَ خالدٌ معه تسعةَ آلافِ مجاهدٍ، وتوجَّه إلى الشام، وأبقى تسعة آلافٍ في العراق بقيادة المثنّى بن حارثة رضي الله عنه.

ولما جاءَ المثنّى إلى أبي بكر يطلبُ منه المدد، ووجدَه على فراش الموت، أمرَ أبو بكر خليفتَه عمر أنْ يعيدَ جيشَ العراق من الشام، ليشاركَ في المعركةِ ضدَّ الفرسِ، وتأخّرت عودةُ الجيش من الشام بسببِ الاستعداد لمعركةِ اليرموك.

ونصرَ اللهُ المسلمينَ في معركة اليرموك، وكانتْ قبلَ القادسية بأربعين يوماً فقط! فأمرَ عمرُ أبا عبيدة رضي الله عنهما بإعادة جيشِ العراق، باستثناءِ قائده خالد بن الوليد رضي الله عنه، لحاجته له في فتوح بلاد الشام!

أعادَ أبو عبيدة ستةَ آلافٍ من جيشِ العراق، وكانوا بقيادةِ (هاشم بن عتبة بن أبي وقاص) ـ ابنُ أخي سعدٍ قائد القادسية ـ وكان من كبارِ قادةِ هذا الجيش القعقاع بن عمرو التميمي.

(عشرات) القعقاع ترفع المعنويات:

بعدما سار هاشم بن عتبة قليلاً، أمرَ القعقاعَ بنَ عمرو أنْ يأخذَ معه ألفَ فارس، وأنْ يسبقَ الجيشَ مدداً للمسلمين في القادسية، لأنهم قد يكونون في حاجةٍ إليه، إلى أن يصلَ باقي الجيش!

ومن المعلومِ أنَّ القعقاعَ بنَ عمرو كان من كبارِ الأبطالِ الشجعان في الجهاد، وقد أثنى عليه أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، حيث قال: «لا يُهْزَمُ جيشٌ فيهم مثلُ هذا...». وقال أيضاً: «لصوتُ القعقاع في الجيش خيرٌ من ألفِ رجل!».

ولما كان القعقاعُ قريباً من القادسية، علمَ أنَّ المعركةَ ناشبةٌ بين الفرس والمسلمين، فأراد أن يكون وصولُه مع جنودِه إلى المعركةِ خاصاً مفيداً مفاجئاً، وليس وصولاً عادياً! أرادَ أنْ يجعلَ من وصولِه بشرى وأملاً وتثبيتاً للمسلمين، وإضعافاً لمعنويات الفرس!

قسَّمَ جيشَه الألْفَ إلى عَشَرات، وجعلَهم (مئة عَشَرة)، وعيَّنَ على كلِّ عَشَـرة أميراً، وأمرهم أنْ تكونَ بينهم مسـافةٌ في السـير، تبلغُ مدَّ البصر، ومن ثم تكون بينهم فترةٌ زمنيةٌ.. وطلبَ منهم أنْ يكون وصولُهم إلى ميدانِ المعركةِ على هذا التفاوتِ والتعاقب!!

كان القعقاعُ على رأسِ العَشَرة الأُولى. . ووصلَ الميدانَ قبلَ ظهرِ يوم الجمعة ـ يوم أغواث ـ ولما صارَ مع إخوانه التسعة بين الجيشيْن كبَّرَ اللهَ بصوتِه الجهوري، ودوّت تكبيرته القعقاعية في الميدان، وكبّر آلاف المجاهدين في الميدان، وارتفعتْ معنوياتُهم عالية، وزادتْ حماستُهم للجهاد! ولما سمعَ الفرسُ التكبيرَ ضعفتْ معنوياتهم.

سمعَ المجاهدون صوتَ القعقاع، وشاهدوه يصولُ ويجولُ في الميدان، فحمدوا الله على هذا المدد! وأخبرهم بأنَّ المددَ والغوثَ وراءَه، وآلافُ المجاهدين سيصلون تباعاً!

لذلك سمّى المسلمون هذا اليومَ (يومَ أغواث) بسببِ الغوثِ والمددِ الذي جاءهم من الشام. . حيثُ وصلَتْ (عشراتُ) القعقاعِ تباعاً! مئةُ عَشَرَةٍ متتابعات، بين كلِّ عشرة وعشرة فترةٌ زمنية! وكلما وصلت عشرةٌ صالت على خيولها بين الجيشين، وسطَ تكبيراتِ المجاهدين التي وصلتْ عنان السماء! وبذلك ازدادَ حماسُ المجاهدين، وحمدَ القائدُ العامُّ سعدٌ رضي الله عنه ربَّه على هذا الغوث المبارك الذي وصلَ المجاهدين في يوم (أغواث)[1].

الجاهزية الدفاعية للقعقاع:

وبمجردِ أنْ وصلَ القعقاع وقفَ في الميدانِ بين الجيشين، ووجَّه وجْهَهُ نحو الفُرس، ونادى: «مَنْ يُبارز؟»!

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٤٣.

لقد كان القعقاعُ يتمتعُ بلياقةٍ بدنيةٍ عالية، وهمةٍ جهاديةٍ سامية، وروحٍ عمليةٍ وثّابة، فهو قد قدِمَ من سفرٍ بعيدٍ، من الشام، وقطعَ صحراءَ السماوة، والسفرُ متعبٌ شاقّ، يُرهقُ صاحبَه، وما أنْ يصلَ المسافرُ حتى يحرصَ على أخذِ قسطٍ من الراحة، قد يذهبُ لينام، وقد يذهبُ ليغتسلَ من وعثاءِ السفر، وعلى الأقل سيخلدُ إلى الأرضِ ليستريح! ولو فعلَ القعقاعُ ذلك، وأخّرَ اشتراكه في القتالِ إلى اليومِ التالي، أو إلى ساعاتٍ على الأقل، لما لامه أحد، لأنَّ هذا هو شأنُ المسافرِ عندما يعودُ من سفره!

لم يفعل القعقاعُ ذلك، ولم يطلب الراحة، وإنما اشتركَ في القتالِ منذُ لحظةِ وصوله! ولا يقدرُ على ذلك إلاَّ مَنْ كان مثل القعقاع في همّته ولياقتِه ونشاطِه!

القعقاعُ يقتل جاذويه وبيرزان:

لما طالب القعقاع المبارزة خرجَ إليه قائدٌ فارسيٌّ كبير، هو (بهمن جاذويه) قائد (قلْب) الفرس! والقلبُ من أهمِّ فرقِ الجيش، ومعه في القلبِ أكثرُ من عشرين ألف فارسي، وهم الذين هاجَموا أسداً وبجيلة وتميماً بالأمس!

صارَ القائدُ الفارسيُّ أمامَ القعقاع، فقال له: مَنْ أنت؟

قال: «أنا بهمن جاذويه»!

فصاح القعقاع: «يا لثارات أبي عبيد وأصحابِ الجسر»!

لقد كان بهمن جاذويه قائدَ الفرسِ في معركة الجسر، التي انهزمَ فيها المسلمون، واستُشهِدَ فيها آلافٌ منهم، في مقدّمتهم القائدُ أبو عبيد بن مسعود الثقفي.

وكان المسلمونَ حريصين على الثأرِ من الفرس، ومن قائدهم في تلك المعركة على وجهِ الخصوص.

وساقَ اللهُ بهمن جاذويه، ووضعه أمامَ القعقاعِ الذي كان يبحثُ عنه، وحان موعدُ الأخذِ بالثأر.

تبارزَ الرجلان بالسيوف، وما هي إلا فترةٌ يسيرةٌ حتى قتلَ القعقاعُ خصْمَه، فكبَّرَ وكبَّرَ معه المسلمون، ورأى الفرسُ قائدَ قلبِ جيشِهم صريعاً فضعفَتْ معنوياتُهم!

ثم صاحَ القعقاعُ في الفرس طالباً المبارزة، وأرادَ قادةُ الفرسِ رفْعَ معنوياتِ الجيش، فأخرجوا له قائداً كبيراً، هو (بيرزان) قائدُ المؤخرة.. وما هي إلا لحظاتٌ حتى أطارَ القعقاعُ رأسَ خصْمِه عن جثتِه بالسيف، فكبَّرَ وكبَّرَ معه المسلمون شاكرين لله، وزادتْ معنوياتُ الفرس هبوطاً وضعفاً، وهم يشاهدون قائديْن كبيريْن صريعيْن على أرضِ المعركة!

ونشبَ القتالُ شديداً بعدَ ذلك، وصاحَ القعقاعُ في المسلمين قائلاً: «يا معشرَ المسلمين: باشِروهم بالسيوف، فإنما يُحْصَدُ الناسُ بها»[1].

يوم أغواث لصالح المسلمين:

استمرّ القتالُ من الظهرِ إلى غروب الشمس، ثم امتدَّ إلى ما بعدَ الغروب.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٤٣.

ولئن كان يومُ الأمس (أرماث) ليس للمسلمين ولا للفرس، لأنه كان شديداً على الجيشيْن، بحيثُ لم يتقدَّمْ أحدُ الجيشين على الآخر، فلا غالبَ فيه ولا مغلوب، فإنَّ اليومَ الثاني (أغواث) كان لصالح المسلمين: لقد جاءَهم المددُ غوثاً، واشتركت (عشراتُ) القعقاعِ في المعركةِ، وكانَ لوجودِ القعقاعِ وجهادِه أثرٌ مباشرٌ لصالحِ المسلمين.

أما الفرسُ فقد خسروا قائديْن كبيريْن من كبار قادتهم: جاذويه وبيرزان، ولم تشتركْ فيلةُ الفرس في القتال في هذا اليوم، لأنَّ عاصمَ بن عمرو ـ شقيق القعقاع ـ تمكَّن مع إخوانِه من قطعِ صناديقِها وتوابيتها بالأمس، فقام الفرسُ بإصلاحِها في هذا اليوم، استعداداً لمعركة الغد!

وأبدى القعقاعُ يومَ (أغواث) بطولةً نادرة، وشجاعةً فائقة، فبعدَ ما قتلَ القائديْن الكبيريْن بالمبارزة حملَ على الفرسِ ثلاثين حملة، على طريقةِ الكرِّ والفرِّ، وفي كلِّ حملةٍ كان يقتُلُ فارسياً على الأقل، فقتلَ في حملاتِه ثلاثين فارسياً قبلَ أنْ تغيبَ الشمس، وكان آخرَ مَنْ قتلهم القعقاع (بزرجمهر) الهمذاني، صاحب همذان.

الخنساء واستشهاد أبنائها الأربعة:

واشتركَ في القتالِ في يومِ أغواث أبناءُ الخنساءِ الأربعة، الذين أوصتْهم أمُّهم بالجهاد قبلَ الفجر: تقدَّمَ أوّلهم، وقاتلَ وهو يرتجزُ الشعرَ حتى استُشهِد، ثم تقدَّم الثاني وقاتلَ وهو يرتجزُ حتى استُشهد، ثم تقدّم الثالثُ للجهاد وهو يرتجز، حتى استُشهد، ثم تقدّم الرابعُ وجاهدَ مرتجزاً حتى استُشهد!

ولما بلغَ الخنساءَ استشهادُ أبنائِها الأربعة قالت: «الحمدُ لله الذي شرَّفني

بقتلِهم، وأرجو من ربّي أنْ يجمعني بهم في مستقرّ رحمته!»[1].

الخنسـاءُ الشـاعرةُ علّقتْ على استشـهادِ أبنائها بهذا الكلام الإيماني الرائع، الدالِّ على قوةِ إيمانها، وعظيم صبرها واحتسابها.. هي نفسُها التي رَثَتْ أخاها (صخراً) الذي قُتِلَ في الجاهلية، وذلك قبل إسلامها، وأمضَتْ حياتَها السابقةَ في رثائه وبكائه، بحزنٍ وألمٍ وتفجّع، وقالتْ شعراً عالياً، من روائعِ الشعرِ الإنسانيِّ في المشاعرِ والعواطف والرثاء، حتى رحمَها الناسُ وأشفقوا عليها.

هي نفسُها التي ربّاها الإسـلام، فعلّقَتْ على استشـهادِ أبنائها الأربعة بتلك الجملةِ الإيمانية العالية! حقاً إنَّ الإسلامَ نقلةٌ بعيدة!! تنقلُ إليها كلَّ مَنْ صدقَ في التعامل والتفاعلِ معه مثل الخنساء!

سعد يوزع جوائز عمر:

وفي يومِ أغواث وصل القادسيةَ رسولٌ من عمر بنِ الخطاب رضي الله عنه في المدينة، ومعه أربعةُ أسيافٍ ثمينةٍ وأربعةُ أفراسٍ جيدة، وطلبَ عمرُ من سعدٍ أنْ يُعطيَ الأسيافَ والأفراسَ مكافأةً لأصحابِ البلاء، الذين بذلوا جهداً خاصاً في الجهاد.

أعطى سعدٌ الأسيافَ لأربعة من كبار الأبطال، وهم: عاصم بن عمرو التميمي، وطليحةُ بن خويلد الأسدي، وحمالُ بن مالك الوالبي، والربيلُ بن عمرو بن ربيعة.

---

(١) القادسية، ص١٥٤ ـ ١٥٥.

وأعطى الأفراسَ الأربعةَ لأربعةٍ من كبار الأبطال، وهم: القعقاعُ بن عمرو التميمي، وعمرُو بن شبيب بن زنباع، ونعيمُ بن عمرو بن عتاب، وعتابُ بن نعيم.

أخذَ بنو أسد ثلاثَةَ أرباع الأسياف، وأخذ بنو تميم ثلاثةَ أرباع الأفراس. ويدلُّ هذا على ما بذله رجالُ القَبيلتين من جهودٍ كبيرةٍ في المعركة[1].

ودخلت الليلةُ الثانيةُ من ليالي معركة القادسية، والقتالُ شديدٌ عنيفٌ بين الجيشيْن، واستمرَّ القتالُ إلى منتصف تلك الليلة.

وسُمّيت تلك الليلة (ليلة السواد) لأنَّ القتالَ استمرَّ سواد الليلة إلى منتصفها، وسوادُ الشيء معظمُه.

أبو محجن الثقفي يستعطف ليحارب:

وكان من أبطالِ المسلمين (أبو محجن بن حبيب الثقفي) وكان ممنْ أثارَ شَغَباً على سعدٍ لما عيَّنَ خالدَ بن عُرْفُطة نائباً له في معركة القادسية، وقد حبسَ سعدٌ أولئك المشاغبين في حصْنِ (قُدَيْس) منعاً للفتنة وتوحيداً للكلمة، وكان أبو محجن من المحبوسين.

شاهدَ أبو محجن المعركةَ من السجن، في يومِها الأول وفي يومها الثاني، وفي ليلة السواد ازدادت المعركةُ عنفاً وشدّة، وأبو محجن فارسٌ بطل، ومجاهدٌ شجاع، وقد آلمه عجْزُه عن الاشتراك في القتالِ لأنّه يرسفُ في قيوده.

---

(١) القادسية، ص١٥٨.

توجَّه نحو (سلمى بنت خصفة) امرأةِ سعد فقالَ لها: هل لكِ إلى خير؟

قالت: وما ذاك؟

قال: تُخَلّينَ عنّي، وتُعيرينني (البَلْقاءَ) ـ فرس سعد المشهورة ـ لأُقاتلَ الفرس، وللهِ علَيَّ إنْ سلَّمني اللهُ أنْ أرجعَ إليكِ، حتى أضعَ القيدَ في رجلي!!

خافت سلمى من سعدٍ وغضبه، فقالَتْ له: وما أنا وذاك؟ أي أنها لا تستطيع أنْ تفعلَ ذلك، لأنَّ سعداً سجنَ أبا محجن لمشاغبتِه، وتخشى أنْ يُعاقبها سعدٌ إنْ فعلت ذلك!

فرجعَ أبو محجن حزيناً إلى مكانه يرسفُ في قيوده، وأنشدَ متألّماً:

كفى حَزَناً أنْ ترتدي الخيلُ بالقنا
وأُترَكَ مشدوداً عَلَيَّ وثاقيا
إذا قمْتُ عَنَّاني الحديدُ وغُلِّقَتْ
مصارعُ دوني قدْ تَصُمُّ المُنَاديا
وقَدْ كُنْتُ ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ
فَقَدْ تَركوني واحِداً لا أخا لِيَا
وقد شفَّ جسمي أنَّني كُلَّ شارقٍ
أُعالِجُ كَبْلاً مُصْمِتاً قد برانيا
فللهِ دَرّي يومَ أُتْرَكُ مُوثَقاً
وَيَذْهَلُ عَنّي أَثْرَتيَ ورِجاليا
حُبِسْنا عن الحربِ العَوانِ وقَد بَدَتْ
وأعمال غيري يوم ذاك العواليا

فللـــــهِ عهـــــدٌ لا أَخِيْــــسُ بعَهْـــــدِهِ
لئـــنْ خـــرجـــتُ أنْ لا أزورَ الحـــوانيـــا

ولما سمعت امرأةُ سعدٍ كلامَ أبي محجن رقّتْ له، ووافقتْ على عرْضِه: أنْ تفكَّ قيـودَه، ويخرجَ للجهاد، فإنْ سلَّمَهُ اللهُ عادَ إليها، وأعادَ القُيودَ إلى رجليه!

أبو محجن يقاتل ثم يعود للقيود:

لما فكّت قيوده، ركب فرس سعدٍ (البلقاء) وانطلقَ إلى الميدان! وصالَ وجال، وهو الفارسُ المغوار، وكبرَ وحملَ على ميسرةِ الفرس، ثم رجعَ من خلف المسلمين، وحملَ على ميمنة الفرس، ثم رجعَ من خلفِ المسلمين، وحمل على قلبِ الفرس، وهو يقتلُ كلَّ مَنْ لقيه من الفرس، حتى قَتَلَ منهم أُناساً.

نظرَ المسـلمون إلى هذا الفارسِ الشـجاع المقاتلِ في الليل، وهم لا يعرفونه، وأُعجبوا به لجهادِه ومهارتِه، لكنّهم لاَ يعرفونَ مَنْ هو؟ فقد يكونُ ملكاً من الملائكـة! وقد يكونُ هاشـمَ بنَ عتبة قائدَ جيشِ النجدةِ القادم من الشـام! ولم يخطر في بالِ أحدِهم أن يكـونَ هذا الفارس أبا محجن، لأنهم يعلمون أنّه مسجون!

ونظرَ سعدٌ إلى هذا الفارسِ الغريب، وهو على ظهر الحصن، وكان سعدٌ من أحدِّ الناسِ بصراً، فلم يعرفه! الفَرَسُ تشبِهُ فرسَه البلقاء، وضَبْرُها ووثْبُها يُشبِهُ ضَبْرَ وعَدْوَ فرسِه البلقاء، والفارسُ في ضربِه يشبه أبا محجن في ضربه!

قال سعدٌ متحيّراً متعجّباً: مَنْ ذلك الفارس؟ الضَّبْرُ ضَبْرُ البلقاء، والطعنُ طعنُ أبي محجن! وأبو محجن في القيد.. واللهِ لولا محبسُ أبي محجن لقلتُ: هذا أبو محجن وهذه البلقاء!!».

ولما توقفَ القتالُ في منتصفِ ليلةِ السواد، عادَ أبو محجن الثقفي إلى الحصن، وأعاد فرسَ سعدِ البلقاءَ إلى مكانِها، ووفّى بعهده مع سلمى زوجةِ سعد، ووضعَ بنفسه القيودَ في رجلَيْه!

أُعجِبَتْ زوجةُ سعدٍ ببطولةِ أبي محجن وقتاله في الليل، كما أُعجِبَتْ بوفائِه بوعدِه، حيثُ عادَ إلى السجنِ مختاراً، وفي الصباحِ أخبرَتْ سعداً بالأمر، وعرفَ سعدٌ أنَّ الفارسَ في الليل هو أبو محجن، وأنَّ الفرسَ هي البلقاء! فاستدعى أبا محجن وفكَّ قيودَه، وأعادَه إلى الميدان، فجاهدَ في اليوم التالي جهادَ الأبطال[1]!

ولما اطمأنَّ سعدٌ على سيرِ المعركة ليلةَ السواد، ورأى أنَّ الغلبةَ للمسلمين أخلدَ إلى النوم! وكان نومُه شهادةً على هدوءِ أعصابِه وشجاعتِه واطمئنانه، وهو نقطةٌ لصالحه، ولا يمكنُ لقلِقٍ مضطربٍ خائفٍ أنْ ينام[2]!

---

(١) انظر قصة أبي محجن الثقفي في: القادسية، ص١٥٩ ـ ١٦١، وص٢٤٥ ـ ٢٤٨.

(٢) القادسية، ص١٦١ ـ ١٦٢.

(٧) يوم عَماس وليلة الهرير

اليومُ الثالثُ من أيامِ معركةِ القادسية، هو يومُ السبت الخامس عشر من شهرِ شعبان، من السَّنةِ الخامسة عشرة.

أصبحَ ذلك اليوم وكلٌّ من الجيشيْن على مواقفه، لا غالبَ ولا مغلوب، فلم تُحسَم المعركةُ للمسلمين ولا للفرس، رغمَ عُنفِ وشدّةِ القتالِ في اليوميْن السابقيْن، ورغمَ كثرةِ القتلى والجرحى من الطرفين.

وكانت ساحةُ المعركةِ بينهما حمراء، من كثرةِ ما خالطَها من الدماء.

قتلى الفرس وشهداء المسلمين:

سقط للفرس حتى صباحِ اليوم الثالث عشرةُ آلاف قتيل، بينما قدَّم المسلمون ألفين وخمسمئة شهيد!

قالَ سعدٌ عن الشهداء: «مَنْ شاءَ غسَّلَ الشهداء، ومَنْ شاءَ فلْيدفنْهم بدمائهم»[1].

ومعلومٌ أنَّ المسلمين مخيَّرون في الشهيد، فإنْ شاؤوا غسَّلوا الشهيدَ وكفَّنوه، وإن شاؤوا أبقوه في دمائه، ثم يصلّون عليه ويدفنونه. ولقد صلّى رسولُ الله ﷺ على شهداءِ أُحُد، ودفَنَهم في دمائهم، وهذا تكريمٌ لهم، لأنَّ الشهيدَ الذي جُرِحَ وسالَ دمُه في سبيلِ الله، يأتي يومَ القيامةِ وجرحُه ينزفُ

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٥٠.

دماً، اللونُ لونُ الدم، والريحُ ريحُ المِسْك!

حملَ المسلمونَ شهداءَهم وجرحاهم، ونَقَلوهم من ميدانِ المعركة إلى منطقةِ (العُذَيب) حيثُ النساءُ والأطفالُ، وكانت النساءُ تحفرُ القبورَ للشهداء، بهمةٍ وصبرٍ واحتساب، وكانت الواحدةُ تحفرُ القبرَ لأبيها أو أخيها أو ابنها!!

أما الفرسُ فقد تركوا قَتْلاهم عشرة الآلاف في ميدان المعركة، لأنَّ الديانة المجوسية تنهى عن دفن القتلى، وتأمرُهم بتركهم طعاماً للجوارح والحيوانات[1].

وكلّما رأى المسلمون جثثَ الفرس متناثرةً على أرض المعركة يزدادون حماساً واندفاعاً وشجاعة، بينما كانت تضعفُ هممُ ومعنوياتُ الفرسِ عندما يشاهدون تلك الجثث!!

عبقرية القعقاع وعاصم ابني عمرو:

وفي الليلةِ السابقةِ ـ ليلة السواد ـ لاحظَ الأخوان القائدان: القعقاعُ وعاصم ابنا عمرو التميمي، ما يعانيه المسلمون من شدّةٍ وتعبٍ وإعياءٍ وإرهاق، حيثُ مضى عليهم يومان وليلتان وهم يحاربون الفرس، ولم تُحسم المعركة، وخشي القعقاعُ وعاصمٌ أنْ تضعفَ هممُ المسلمين، وأنْ يؤثِّرَ هذا على القتال، وأرادا أنْ يرفعا معنوياتِ المجاهدين، واتفقا على القيامِ بحركةٍ تكتيكيةٍ لتحقيق ذلك.

---

(١) القادسية، ص١٦٥ـ١٦٦.

اتصلَ القعقاعُ بالألفِ مجاهد الذين جاؤوا معه من الشام، واتفق معهم على أن يغادروا الجيشَ الإسلاميَّ في الليل تحت جنح الظلام، وعند شروقِ شمسِ الصباح يأتونَ على دفعات، على صورةِ المدد، كلٌّ مئة يأتون معاً، وبين كلِّ دفعةٍ ودفعةٍ فترةٌ من الزمان.

واتفق عاصمُ بن عمرو مع مجموعةٍ من رجالِه على أنْ يفعلوا نفسَ الفعل، وأن يأتوا من الجهة الثانية على دفعات، على صورةِ المدد.

وعندما طلع الصبح، وقبلَ أنْ تُشرقَ الشمسُ، أخذَ كُلٌّ من الجيشين موقعه، في مواجهةِ الجيش الآخر، استعداداً للقتال!

وقف القعقاعُ أمامَ المسلمين، وصارَ ينظرُ إلى طريقِ الشام، ويُلقي في روع المسلمين أنّه يتوقعُ وصولَ هاشم بن عتبة والمجاهدين معه.. وما هي إلا لحظاتٌ حتى طلعتْ مئةُ فرسٍ عليها فرسانُها، فكبَّرَ القعقاعُ وكبَّرَ المسلمون معه! وبعدَ فترةٍ قصيرةٍ طلعت الدفعةُ الأولى من خيلِ عاصمٍ عليها فرسانُها، فكبّر عاصمٌ وكبَّرَ معه المسلمون!

وتوالى وصولُ دفعاتِ مَددِ القعقاع وعاصم، وسطَ تكبيرات المسلمين، ونجحت خطةُ الأَخَوَيْن الحكيميْن في رفعِ معنويات المسلمين، وإضعافِ معنويات الفرس.

وصول مدد هاشم بن عتبة:

وبعدما وصلتْ آخرُ دفعةٍ من مددِ القعقاع وصلَ هاشمُ بنُ عتبة بن أبي وقاص رضي الله عنه، ومعه أربعةُ آلاف مجاهد.. وكان قد علمَ بما فعلَه

القعقاعُ عندما وصلَ بالأمس ـ يوم أغواث ـ حيثُ قسَّمَ الجيشَ إلى (عشرات)، وأُعجبَ هاشم بفعلِ القعقاع واقتدى به، فقسَّمَ الأربعة آلاف إلى دفعات، كلُّ (سبعين) دفعة، وبين الدفعة والدفعةِ فترةٌ من الزمن..

قادَ هاشمُ بن عتبةَ السبعين الأولى، ووصلَ ميدانَ القادسية بعدَ وصولِ آخرِ دفعةٍ من مدد القعقاع، ولما رأى المسلمون هذا المددَ كبَّروا.. وتتابعَ تكبيرُهم عند وصولِ كلِّ دفعةٍ من مددِ هاشم بن عتبة، وكان لهذا التصرّف الحكيم من هاشم أثره الكبيرُ في رفع معنويات المجاهدين، وإضعاف همم الفرس!

خطر الفيلة على المسلمين:

بدأ القتالُ صباحَ اليوم الثالث، وكان القتالُ شـديداً طيلـةَ ذلك اليوم.

وأعـادَ الفرسُ الفيلةَ إلى الميدان، بعدمـا أصلحوا صناديقَهـا وتوابيتها، التي قطعها عاصمُ بن عمرو ورجالُه في اليوم الأول، وكان عددُ الفيلةِ ثلاثين فيلاً، كلُّ فيلٍ يحملُ على ظهرِه صندوقاً فيه مجموعةٌ من المقاتلين، وحولَه مجموعةٌ من المشاةِ يحرسونَه، وبجانبِهم مجموعةٌ من الفرسان يحرسونَهم أيضاً[1]!

وكان أشـدُّ الأفيال الثلاثين على خيلِ المسـلمين فيلَيْن: الفيلَ الأبيض والفيلَ الأجربَ! يُهاجمان خيلَ المسلمين، ويرمي جنودُهما المجاهدين المسلمين، ويوقعون فيهم كثيراً من الإصابات.

---

(١) القادسية، ص١٦٧ ـ ١٦٨.

وكان سعدٌ يراقبُ سيرَ المعركةِ من على الحصن، ورأى أثرَ الفيلة على المسلمين، وفكَّر في وسيلةٍ للتخلُّص من خطر الفِيَلَة!

أرسلَ إلى الفرس الذين أسلموا وصاروا جنوداً مجاهدين مع المسلمين، وسألهم: هل لهذه الفيلة مقاتل؟

قالوا له: نعم. قطعُ مشافرها وقلْعُ عيونها، فإنه لا يُنتفعُ بها بعدَ ذلك!

قلع عيون الفيلة:

كان الفيل الأبيض الخطير أمام بني تميم، والفيل الأجربُ أمام بني أسد.

قالَ سعدٌ للقعقاع وعاصم: اكفياني الفيلَ الأبيض! وقال لحمَّال بن مالك والرِّبّيل بن عمرو: اكفياني الفيلَ الأجرب!

وتركَ سعدٌ للقائديْن التميميّيْن والقائديْن الأسديّيْن كيفيةَ التخلّصِ من الفيلين.

اتفقَ الأخَوان القعقاعُ وعاصمٌ على أنْ يَقْلَعا عيني الفيل الأبيض ويَقْطَعا مشفره وحملَ كلٌّ منهما رمحاً، وطلبا من المسلمين الهجومَ على الفيلِ ليُشغِلوه ويُحيروه، وتوجَّها معاً نحوه، ووضَعا رمحَيْهما معاً في عينيه في وقتٍ واحد! فجلسَ على يديْهِ ورجليْه، ونفضَ رأسَه، فألقى سائِسَه، ودلّى خرطومَه، فقطعَ القعقاعُ خرطومه بسيفه، فسقط على جنبه، وسقطَ الجنودُ الذين في التابوتِ على ظهره، فقتلَهم المسلمون. وبقيَ الفيلُ الأبيضُ أعمى مقعداً، مطروحاً في أرضِ المعركة!

وتوجَّهَ الفارسانِ الأسديَّان حَمَّال والرِّبّيل نحو الفيلِ الأجربِ، ووجَّهَ حَمَّالٌ رمْحَه إلى عينيهِ فقلَعها، ووقعَ الفيلُ على الأرضِ ورفعَ خرطومَه، فقطعَ الرِّبّيلُ خرطومَه بالسيف، وولَّى الفيلُ هارباً.

صاحَ الفيلُ الأجربُ صيحةً عاليةً، واخترقَ صفوفَ الفرس، وداسَ الجنودِ الذينَ أمامه، وسمعت الأفيالُ الأخرى صياحه، فلحقَتْ به، وداست الجنودَ الذين أمامَها، وبقيت الأفيالُ التسعةُ والعشرين تجري من القادسيةِ إلى المدائنِ العاصمة، وقد أسقطت الجنودَ الذين عليها في الصناديق[1].

وبذلك أراحَ اللهُ المسلمين في معركةِ القادسية من خطرِ الفيلة، وألهمَ الفرسانَ الأربعةَ الطريقةَ الناجحةَ للقضاءِ على الفيلة، وكان الخلاصُ من الفيلةِ قبلَ ظهرِ اليوم الثالث.

شدة يوم (عماس) على الجيشين:

وقد بقي القتال مستمرّاً شديداً طيلةَ ذلك اليوم، من شروقِ الشمسِ حتى غروبها، لم يتوقَّفْ لحظة.

كان ذلك اليومُ شديداً على الفرسِ وعلى المسلمين، كلُّ فريقٍ بذلَ أقصى طاقته للقتال، ولم يُقصِّر في ذلك، وكلُّ فريقٍ صبرَ صبراً كبيراً لينالَ النصرَ على خصمه.

وسمَّاه المسلمون (يوم عَماس). الاسم مشتقٌّ من العَمْس، والعَمْس هو

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٥٥_٥٥٦.

الشدة، يقال: عَمَسَ اليوم: إذا اشتدَّ وأظلم.. ويـومٌ عَماسٌ: يومٌ شديدٌ.. وحربٌ عَماس: حربٌ شديدة.. وليلٌ عَماس: شديدُ الظلام.

سـميَ ذلك اليومُ يومَ عَماس للشـدّة الشديدة التي واجهت الفـرسَ والمسلمين معاً، حيث اقْتَتَلا طيلة اليوم، وبَذَلا كلَّ جهدِهما فيه، ولـم يتمكّن أَحَدٌ من الفريقيْن، حسم النتيجةِ لصالحه![1].

وعلمَ سعدٌ بوجودِ مخاضة [مَمَرٌ مائيٌّ ضحل] على نهرِ العتيق، يمكنُ أنْ يجتازَها الجنود، وخشيَ أنْ ينتبهَ لها الفرس، وأن يجتازوها ويلتفّوا حولَ المسـلمين، فأرسـلَ الفارسـيْن عمرَو بنَ معدي كرب وطليحـةَ بن خويلد ليحرسـاها، وحصلَ اشتباكٌ بين جنودِ المسـلمين وبين الفرس على تلـك المخاضـة، ولكنّها بقيتْ للمسـلمين، فلم يتمكَّن الفـرسُ من السيطرةِ أو اجتيازِها[2]!

ولما غابتْ شمسُ ذلك اليوم توقَّفَ القتالُ قليلاً، ليعيدَ كلُّ جيشٍ ترتيبَ وتنظيمَ قواته.. فأعادَ سعدٌ تنظيمَ جيشِ المسلمين، كما أعاد رستم تنظيمَ جيش الفرس.

زحف الفرس على المسلمين:

لقد كان القتالُ في الأيامِ الثلاثةِ الماضية يقومُ على المبارزةِ والكرِّ والفَرِّ والمطاردةِ والرماية، وتفوّقَ المسلمين في هذا الجانب، وعلمَ رستمُ أنَّ الفرسَ

---

(١) القادسية، ص١٧٦.
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٥٧ ـ ٥٥٨.

في هذا دون مستوى المسلمين، فاعتمدَ وسيلةَ الزحف، لأنَّ عددَ الفرسِ أضعافُ عدد المسلمين، فظنَّ أنّه يمكنُ أنْ يغلبَهم بالزحفِ عليهم.

صفَّ رستم جيشَه في بدايةِ الليلِ تمهيداً للزحف، وعلمَ سعدٌ بخطتِه الجديدة، فطلبَ من المسلمين أنْ يستعدّوا، فهذه الليلةُ لها ما بعدَها، وأخبرَهم أنّه سيكبِّرُ ثلاثَ تكبيرات، وسيكونُ هجومُهم على الفرسِ بعدَ التكبيرةِ الثالثة.

وقفَ أبطالُ المسلمين كالقعقاعِ وعاصمٍ وطليحةَ وعمرِو بنِ معدي كرب في الميدان، وخاطبوا الفرسَ وطلبوا منهم المبارزة، لكن لم يخرجْ منهم أحد، لأنهم كانوا يتجهَّزون للهجوم الزاحف!

سعد يعذر القعقاع ويدعو له:

وجَّه الفرسُ سهامهم نحو بني تميم بقيادةِ القعقاع، وأصابوا أحَدَ جنودِ القعقاع فلقيَ اللهَ شهيداً.. ولم يتحمّل القعقاعُ ذلك ورأى أنَّ تكبيراتِ سعدٍ تأخّرت، فحملَ على الفرسِ وهاجَمهم برجالِه، قبلَ أنْ يكبِّرَ سعد!!

رأى سعدٌ القعقاعَ يهجمُ على الفرس برجاله! لكنه فعلَ ذلك من دونِ إذنٍ منه! ونظرَ سعدٌ للأمرِ من منظارِ رحمتِه بجنودِه وحرصه عليهم، فلم يعتبر الأمْرَ مخالفةً أو عصياناً من القعقاع، وإنما اعتبره اندفاعاً من القعقاعِ له ما يبرّره.

قال سعد: «اللهمَّ اغفرها للقعقاعِ وانصُرْه، قد أذنتُ له إذ لم يستأذنّي!» وأقرَّ القعقاعَ على ما فعل[1]!

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٥٩.

لماذا أقرّه سعدٌ ودعا له بالمغفرةِ والنصر؟ ولماذا أعطاهُ الإذنَ متأخراً بعد هجومِه؟

خشيَ سعدٌ أنْ يموتَ القعقاعُ في الميدان، وقد هجمَ من دونِ إذنِ الأمير، وهذه في ظاهرها مخالفةٌ، ويمكنُ أنْ يُحاسبَ اللهُ القعقاعَ ويؤاخذَه بها، وسعدٌ حليمٌ رحيمٌ واسعُ الصدر، حريصٌ على رجاله، ولذلك أَذِنَ للقعقاعِ لئلا يحاسبَه اللهُ على ذلك إن استُشهِد!

ثم إنّ سعداً حريصٌ على المسلمين، وخشيَ أنْ يُعتبرَ هجومُ القعقاعِ من دون إذن مخالفةً للأمير، ومعصيةً له، وهذه تكونُ ذنْباً، له أثر سلبيٌّ على المجاهدين، قد يكونُ سبباً في هزيمتهم، ولذلك لم ينتصرْ لنفسه، ولم يعتبر القعقاعَ خارجاً عليه، ومنحَهُ الإذنَ وإن لم يستأذنه، لئلا يتأثّر المجاهدون وينهزموا.

سعد يعذر القادة ويدعو لهم:

ورأى بعض قادةِ المسلمين القعقاعَ ورجالَه وسْطَ جنودِ الفرسِ، واعتبروا تكبيراتِ سعدٍ متأخرة، فَحَملوا على الفرسِ قبلَ إتمامِ التكبيراتِ الثلاثة! . .

حملَ عاصمُ بن عمرو على الفرسِ لنصرةِ أخيه، فقال سعد: «اللهمَّ اغفر له وانصره».

وحملَ بنو أسدٍ على الفرسِ لنجدةِ القعقاع وعاصم، فإذن لهم سعد وقالَ: «اللهمَّ اغفر لأسد وانصرهم فقد أذنتُ لهم!».

وحملت النَّخْعُ على الفرسِ لنجدةِ إخوانهم، فقالَ سعد: «اللهمَّ اغفرْ لهم وانصرهم!».

وحملتْ بَجيلةُ على الفرسِ، فقال سعد: «اللهمَّ اغفر لهم وانصرهم!».

وحملت كِندةُ على الفرس، فقال سعد: «اللهمَّ اغفرْ لهم وانصرهم!».

وما قلناه في توجيهِ دعائِه للقعقاع واستغفارِه له وإذنِه له، نقولُه في إذنِه لبني أسد وللنخعِ ولبجيلة ولكندة.. إنَّ هذا كلَّه واضحُ الدلالة على طبيعةِ سعد السمحة، ونفسِه الرضية، وحلمِه وسَعَةِ صدره، وعدمِ انتصارِه لنفسه وتقديمه مصلحةَ المسلمين على مصلحته!

ولما كبَّرَ سعدٌ التكبيرةَ الثالثة حملَتْ ألوفُ المجاهدين على جموعِ الفرس حملةً واحدةً شديدةً، تلقَّاها الفرسُ بهجومٍ كبيرٍ مضادّ![1].

القتالُ العنيف ليلة الهرير:

استمرَّ القتالُ عنيفاً شديداً طيلةَ الليل، لم يتوقَّفْ لحظةً واحدة، وكلُّ فريقٍ بذلَ أقصى طاقتِه لإنهاءِ المعركة لصالحه، فقد طالتْ وأتعبتْ كلَّ طرف.

كانوا لا يتكلَّمون طيلةَ اللَّيلِ بسببِ عنفِ القتال، ولا يصدرُ عنهم إلاّ (الهرير)! والهريرُ هو الصوتُ بدون كلامٍ واضح!

لذلك سُمّيتْ تلك الليلةُ (ليلة الهرير) لأنَّه كان يُسمعُ لهم أصواتٌ غيرُ

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٦٠ـ٥٦١.

مفهومة، لإعيائهم وتعبِهم وجهدهم.

يُقال: هَرَّ الكلبُ هريراً: إذا صوَّتَ من دون نباح، وهَرَّت القَوس: إذا صوَّتَتْ..

كانوا في تلك الليلةِ القاسيةِ لا يسمعُون إلاّ صوتَ السلاح، وصوتَ الرجالِ يَهِرّون هَرّاً، ويُخرجونَ أصواتاً غيرَ واضحةٍ، وهم يَهْوونَ بالسلاحِ على الفرس.. لذلك سُمّيتْ تلك الليلةُ ليلةَ الهرير.

دعاء سعد ونشيد القعقاع:

وبينما كان المسلمون مشتبكين في قتالٍ عنيفٍ مع الفرسِ طيلةَ ليلةِ الهرير أقبلَ سعدٌ على الدعاءِ والتضرّعِ إلى الله!

قال أنسُ بنُ الحليس: «شهدْتُ ليلةَ الهرير، فكان صليلُ الحديدِ فيها كصوتِ القُيون [الحدادين]، وكان طيلةَ ليلتِهم حتى الصباح، وقد أفرَغَ اللهُ عليهم الصبرَ إفراغاً.. وباتَ سعدٌ بليلةٍ لم يبُتْ بمثلِها.. ورأى العربُ والعجمُ أمراً لم يَرَوْا مثله قطّ.. وانقطعت الأصواتُ والأخبارُ عن رستم وعن سعد.. وأقبلَ سعدٌ على الدعاء.. حتى إذا كانَ وجْهُ الصبحِ انتحى الناسُ [المسلمون] فاستدلّ بذلك على أنهم الأعلون، وأنَّ الغَلَبَة لهم...»[1].

مضتْ ساعاتُ الليلِ طويلةً ثقيلة، والقتالُ مستمرّاً شديداً، وسعدٌ لا يسمعُ إلاّ هريرَ المجاهدين.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٦١ ـ ٥٦٢.

وبحثَ عن أحدِ الرجـالِ ليبعثَه إلى الميدان ليستطلعَ الأمرَ، ويأتيـه بالأخبار، فلم يجدْ إلاَّ غلاماً له يسمّى (بِجاد).

استدعاه، وقال له: اذهبْ إلى الميدان، وانظـرْ ما تـرى من حالهم..

ذهبَ بِجاد، ثم رجع، فقال له سعد: ماذا رأيتَ يا بُنَيّ؟

قال بِجاد: رأيتُهم يلعبون!

فقال له سعد مازحاً: أَوْ يَجِدُّون[1]!

وفي آخرِ تلك الليلة، وبعدَ ساعاتٍ من الصمتِ الثقيل، سـمعَ سعدٌ صوتَ القعقاعِ يُنشد:

ونحـــنُ قتلْنـــا مَعْشَـــراً وزائـــدا	أربعـــــةً وخَمســـــةً وواحـــــدا
نُحْسَـــبُ فـــوقَ اللِّبَــد الأســـاوِدا	حتَّــى إذا مــاتــوا دَعَــوْتُ جــاهِــدا

فاستبشرَ سعدٌ خيراً، وعلمَ أنَّ الغلبَةَ للمسلمين!

(٨) يوم القادسية والنصر الكبير

اليومُ الرابعُ من أيامِ معركةِ القادسية، هو يومُ الأحدِ السادسِ عشر من شهر شعبان.

وقد أشـرقتْ شـمسُ ذلك اليومِ والحربُ ما زالتْ شديدةً بين المسلمين

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٦٢.

والفرس، تلك الحربُ التي دخَلَتْ يومَها الرابع، وقد استمرَّ القتالُ طيلةَ اليومِ السابق بنهارِه وليله، لم يتوقَّفْ إلاَّ فترةً قصيرةً في بداية الليلة السابقة.

أصبحَ الفريقان متعبين، ولم يَنَمْ منهم أحدٌ طيلةَ الليلةِ السابقة.. ومع أنَّ كلَّ فريقٍ بذلَ أقصى طاقتِه إلاّ أنَّ المعركةَ لم تُحسَمْ لأيٍّ منهما.

وخشيَ قادةُ المسلمين عليهم أنْ يَمَلُّوا، وأن تضعفَ عزائمُهم، فيؤدّي هذا إلى هزيمتِهم، لذلك قاموا بتشجيعهم وتحميسهم.

تقدَّم القعقاعُ أمامَ المسلمين وحثَّهم وشجَّعهم، وكان مما قالَه لهم: إنَّ الهزيمةَ بعد ساعةٍ لمن بدأ بالتخاذل، فاصبروا ساعة، واحمِلوا، واعلموا أنَّ النصرَ مع الصبر، فآثروا الصبرَ على الجزع!

اختراقُ قلب جيش الفرس:

وفكّر القعقـاعُ في طريقةٍ لحسمِ المعركـةِ لصالح المسـلمين، وتشاوَرَ مع أخيه عاصم وباقي القادةِ من بني تميم، وكان بنو تميم في مواجهةِ قلْبِ الفرس، وكان مركزُ قيادتهم في القلب، وكان رستم على سريره بجانبِ نهرِ العتيق.

اتفق القعقاعُ وعاصمٌ والقادةُ الآخرون على اختراقِ قلبِ الفرس أمامَهم، وعلى إحداث (رأس حربة) ينطلقون فيها إلى رستم لقتلِه، وفي قتلِه تنتهي المعركة، وعلى المسلمين أنْ يوسِّعوا تلك الحربة، ويُزيحوا الفرسَ على جانبيها!

شنَّ القعقاعُ مع إخوانِه هجوماً صاعقاً، تمكّنوا فيه من إحداثِ (ثُغْرَةٍ)

في جيشِ الفرسِ، ووصلوا إلى حرّاس رستم في المؤخّرة! وبذلك نجحتْ خطةُ القعقاع الحكيمة! وصدقَ القعقاعُ عندما قال عن نفسِه:

يَدْعونَ قَعْقاعاً لكلِّ كريهَةٍ فَيُجيبُ قَعْقاعٌ دُعاءَ الهاتِفِ

ورأى المسلمون ثغرةَ القعقاع، فدخلوا فيها، واشتبكوا بالفرس على جانبيها، وزحزحوهم عن مواقعهم[1].

تراجع جيش الفرس:

استمرَّ القتالُ من الصباحِ إلى الظهر، والفرسُ يستميتون في صَدِّ هجومِ المسلمين عليهم، ولكنهم لا يستطيعون، بينما ينجحُ المسلمون في توسيعِ ثغرةِ القعقاع.

وضغطت القبائلُ اليمانية على جنودِ الفرس أمامهم بقيادةِ الهرمزان فزحزحوهم عن أماكنهم، واضطروهم إلى التراجع، وضغطتْ قبائلُ بكر بن وائل على جنودِ الفرس أمامهم بقيادة بيرزان ومهران، فزحزحوهم عن مواقعهم، واضطروهم إلى التراجع.

وعند الظهرِ تراجعَ قطاعُ الهرمزان وبيرزان أمامَ هجومِ المجاهدين، حتى وصلَ القطاعان إلى حافةِ نهرِ العتيق، ورجالُ القعقاعِ مستمرون في توسيع الثغرة.

ونصرَ اللهُ المسلمين بالريح، حيث أرسلَها على جيشِ الفرس، وكانتْ

(١) القادسية، ص١٨٥ ـ ١٨٧.

مع المسلمين، حيث كانت تهبُّ من غربِ المسلمين، وتتجهُ نحو الفرس، وكان المسلمون يولّونها ظهورَهم فلا تُؤذيهم، بينما الفرس يولّونها وُجوهَهم، لأنهم يُواجهون المسلمين، فتكون الريحُ في وجوههم! وتضربُ وجوهَهم بما تحملُه من غُبارٍ وأتربة!

تضعضعَ جيشُ الفرس، وحَشَرهم المسلمون إلى نهرِ العتيق، وبدَتْ هزيمتُهم تلوحُ في الأُفق.. ووصلَ القتالُ إلى مركزِ القيادة، واقتربَ من سريرِ رستم، الذي كان منصوباً على نهر العتيق.

تأذّى رستمُ من الشمس التي كانت عموديةً عليه، بعدما اقتلعتْ الريحُ الشديدةُ (الطيارة) ـ المظلّة ـ التي نصبَها الفرسُ له، كما تأذّى بالغبارِ والترابِ الذي كانت تضربُه الريحُ في وجهه.. وكانتْ قد وصلَتْه بغالٌ من المدائن، محمّلةٌ بالمؤن والغذاء، وكانت واقفةً بجانب سريره...

هلال بن عُلفة يقتل رستم:

قام رستم عن السرير، ووقف بجانبِ أحدِ البغال، واستظلَّ بظلٍّ حملِه.. وفي هذه اللحظةِ تمكَّن رجالُ القعقاعِ من الوصولِ إلى سريرِ رستم، وتحطيمِ مقرِّ قيادةِ الفرس، وفوجئوا بعدمِ وجود رستم على السرير! وصاروا يبحثون عنه..

نظرَ أحدُ رجالِ القعقاع إلى البغل الواقف، فارتاب فيه.. وتقدَّم (هلال بن عُلَفَة التميمي) نحو البغل، وهو لا يرى رستمَ مختبئاً بجانبِه، وضربَ حبالَ حملِ البغلِ، فسقطتْ على رستم، وأصابتْه في ظهرِه إصابةً شديدة.

هربَ رستمُ نحو نهرِ العتيق، ورآهُ هلالُ بن عُلَّفَة فعرفَه، ولحقَ به، وتخفَّفَ رستم مما عليه من سلاحٍ ودروعٍ وعتادٍ لينجوَ بنفسه، ودخلَ الماءَ ليعومَ فيه، وعامَ هلالٌ وراءَه، وأمسكَ به، وسحبَه إلى شاطىءِ النهر، وضربَه بالسيف، فقتله . . وألقى جثّته بين أرجل البغال . .

لم ينتبه المسلمونَ إلى مقتلِ رستم، لأنهم كانوا مشتبكين بضراوةٍ مع الفرس . . وصعدَ هلالُ بن علّفة على سرير رستم، ونادى بأعلى صوته: «قتلْتُ رستمَ، وربِّ الكعبة، إليَّ أيها المسلمون!».

كبَّرَ هلالُ، وكبَّرَ المسلمون بتكبيره، وتجمّعوا حولَه . . وشاهَدوا جثةَ رستم ملقاةً بين أرجلِ البغال . .

هزيمة جيش الفرس:

انهارَ الفرسُ بعد مقتل قائدهم، وتمكَّن القعقاعُ ورجالُه من فصْلِ ميمنة الفرس عن ميسرتِه! وبدأَ الفرسُ بالفرار!! وراحوا يخوضون نهرَ العتيقِ هاربين!

وأراد بعضُ قادةِ الفرس تأمينَ انسحابِ جنودهم، فوقفَ الهرمزان وجالينوس على الردمِ لحمايةِ الجنودِ الهاربين المنسحبين، ولحقَ بهم المسلمون يقتُلونهم ويجرحونهم.

وكان الفرسُ قد ربطوا كثيراً من جنودِهم بالسلاسِل، لئلا يفرّوا!! وهذه السلاسلُ أعاقَتْ هربَهم وانسحابَهم. . حيثُ تساقط الجنودُ المقرنون في النهر، ولحقَ بهم المسلمون يقتلونهم. . فقُتِلَ من الفرس المقرنين

بالسلاسل ثلاثون ألفاً!!

ووصلَ ضرارُ بن الخَطّاب الفهري إلى رايةِ الفرس المشهورة (درفش كابيان) التي كانتْ ترفرفُ على ميدانِ المعركةِ، فأنزلها، ولم ترتفعْ بعد ذلك أبداً![1].

وتحطَّمتْ معنويـات الفرس، ووهنَتْ عزائمُهم، ودبَّ الـرعبُ في نفوسِهم، فاستسلموا بذلٍّ كبير، وعَجَزوا عن الدفعِ عن أنفسهم.

قال شقيقُ بنُ سلمة الأسدي ـ وكان غلاماً شهدَ القادسيةَ بعدما احتلم ـ «. . . هزم اللهُ الفرسَ، ولقد أَشرْتُ إلى (إسوار) منهم ـ قائد ـ فجاءَ إليَّ، وعليه السلاحُ التامُّ، فضربْتُ عنقَه، وأخذتُ ما كان عليه».

وقال الأسودُ بن يزيد النخعي: «شهدْتُ القادسية، ولقد رأيتُ غلاماً منّا، من النخع، يسوقُ ستينَ أو ثمانينَ رجلاً من أبناءِ الأحرار! فقلت: أذلَّ اللهُ أبناءَ الأحرار!». .

وقالَ رجلٌ من بني عبس: «أصابَ أهلَ فارسٍ يومئذٍ بعدما انهزموا ما أصابَ النـاسَ قبلَهم، حتى إن كانَ الرجلُ من المسلمين ليدعو الـرجلَ من الفرس، فيأتيه، حتى يقومَ بين يديْه، فيضربَ عنقَه، وحتى إنه ليأخذ سلاحَه فيقتُلَه به، وحتى إنه ليأمر الرجلين أحدهما بصاحبه، فيقتله، وحتى إنه ليأمر المجموعة منهم بقتل المجموعةِ الأُخرى[2]!

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٦٣ ـ ٥٦٤.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٥٦٨ ـ ٥٦٩.

وكانَ عددُ قتلى الفرس في اليومين الثالث والرابع ـ يوم عَماس ويوم القادسية ـ وحدهما يزيدُ على خمسين ألفاً.

أما عددُ شهداءِ المسلمين في أيامِ القادسيةِ الأربعة فقد كان ثمانية آلاف وخمسمئة شهيد! ودَفَنهم المسلمون بين خندقِ سابور ووادي مُشَرِّق.

ونزلتْ نساءُ المسلمين إلى ميدانِ المعركة يعالجْنَ الجرحى ويُجهزْن على الفرس.

قالتْ أم كثير ـ امرأةُ هَمّامِ بنِ الحارث النخعي ـ: «شهدْنا القادسيةَ مع سعدٍ مع أزواجنا، فلما أتانا أنْ قد فُرِغَ من الناس، شدَدْنا علينا ثيابنا، وأخَذْنا الهراوى، ثم أتينا القتلى، فما كان من المسلمين سقَيْناه ورفَعْناه، وما كان من المشركين أجهزْنا عليه، وتبعَنا الصبيانُ نُوَلِّيهم ذلك، ونُصَرِّفُهم به»[1].

سعد يتعرّف على قتلى قادة الفرس:

وأرادَ سعدٌ أن يتعرّف على قادةِ الفرسِ القتلى، فكلَّفَ (الرّفيل) ـ الذي كان قائداً فارسياً فأسلم ـ أنْ يُعرّفَه على قتلى الفرس.

قالَ الرفيل: «بعدَ انتهاءِ المعركة دعاني سعد، فأرسَلَني أنظر له في القتلى، وأسمّي له رؤوسَهم، فأتيتُه وأعلمتُه..».

حمدَ سعدٌ ربَّه على قتْلِ زعماءِ الفرس مثل بهمن جاذويه وبيرزان.. ولكنه بحثَ عن جثةِ رستم قائد المعركة فلم يجدْها.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٨١.

فاستدعى هلالَ بن عُلَّفَة التميمي، وقالَ له: ألم تبلغْني أنكَ قتلْتَ رستمَ؟

قال: بلى.

قال: فما صنعتَ به؟

قال هلال: ألقيتُه تحتَ قوائمِ البغال!

قال سعد: فكيف قتلْتَه؟

قال هلال: ضربتُ جبينَه وأنْفَه!

قال سعد: فجئْنا به.

فجاء هلال بالجثة، ورماها أمامَ سعد.

ولما رأى سعدٌ جثةَ رستمَ أمامَه حمدَ الله، وقالَ لهلال: لكَ سَلْبُه! فأخذَ ما على رستم من اللباس، وباعَه بسبعين ألفَ درهم[1]!

واستدعى سعدٌ القعقاعَ وشُرحبيل بن السمط، وكلَّفهم أنْ يطاردوا فلولَ الفرسِ المنهزمين في القرى والأرياف، فقاما بالمهمة خيرَ قيام!

وجمعَ سعدٌ المسلمين بعد انتهاءِ مطاردة الفرس، وهنَّأهم على النصر الكبير، وشكَرَهم على جهادِهم وجهودِهم وصبرِهم وثباتِهم، وحمدَ اللهَ على ما مَنَّ به عليهم.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٦٤.

بين سعد وزُهرة بن الحَويَّة:

وأمرَ القائدُ (زُهرةَ بن الحَويَّة) أنْ يلحقَ بالفرسِ المنهزمين في العمقِ ليقضيَ على مَنْ يدركُه منهم!

وكانَ (جالينوس) أحدُ كبارِ قادةِ الفرسِ في المعركةِ قد أُصيبَ بجراحٍ فيها، لكنه تمكَّن من الفرارِ ومعه مجموعةٌ من جنوده، ونزلَ معهم في (الخرارة) ليأكلوا ويشربوا الخمر، وأتاهم زهرةُ وقاتلَهم، وتمكَّن من قتلِ قائدِهم جالينوس وأخذِ سلَبه، من لباسٍ وسلاح، وكان نفيساً جداً، وتابعَ زهرةُ مطاردةَ الفرس الفارّين حتى وصل (النجف)، ولكنَّ الهرمزانَ تمكَّنَ من الفرارِ فلم يدركْه! وهو القائدُ الوحيدُ من قادةِ الفرس، الذي نجا من الموت!

وعادَ زهرةُ من المطاردةِ إلى القادسية وهو يلبسُ لباسَ وسلاحَ جالينوس، وقالَ الفرسُ الأسرى عند سعد: هذا سَلَبُ جالينوس.

فسألَ سعدٌ زهرةَ: هل أعانكَ أحدٌ على قتلِ جالينوس؟

قال: نعم.

قال سعد: مَنْ؟

قال: الله!!

وغضبَ سعدٌ على زهرةَ لأنه تسرَّع بتملُّكِ سَلَبِ جالينوس والتصرف فيه، وقال له: ألا انتظرتَ إذني؟ وأخَذَ السلبَ منه[1]!

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٦٧.

وسببُ غضبِ سعدٍ على القائد (زهرة بن الحَويّة) أنه تعجَّل وتَسَرَّع في التصرّف بالسلبِ قبل الرجوعِ إليه، وكان لا بدَّ أنْ ينتظرَ إذنَ الأمير!

(٩) ما بعد معركة القادسية

كان المسلمونَ مهتمّين بمعركةِ القادسية، لأنها معركةٌ فاصلة، لها ما بعدَها، ولذلك كانوا حريصين على معرفةِ نتائجها. .

وأكثرُ المسلمين اهتماماً بها ومتابعةً لها هو أميرُ المؤمنين عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة. ومن اهتمامِه بها أنّه كان يخرجُ كلَّ يومٍ في الصباح، ويسيرُ في طريق العراق، ينظرُ لعلَّه يرى أحدَ الركبان قادماً من العراق، ليسألَه عن أخبارِ القادسية، ويعودُ عند الظهرِ مفكّراً فيها، فقد استولت القادسيةُ على فكرِه ومشاعره، وطغَت على سائر اهتمامِه!

سعد يكتب إلى عمر بالنصر:

ولما انتهت معركة القادسية بانتصارِ المسلمين كان أولَ ما فعلَه سعدٌ هو الكتابةُ إلى عمر بذلك، وكان ذلك صباحَ يومِ الاثنين السابعِ عشر من شهر شعبان من السنة الخامسة عشر.

وجاءَ في رسالتِه:

«أما بعد:

فإنَّ اللهَ قد نصرَنا على أهلِ فارس، ومنحَهُم سُننَ مَن كانَ قبلهم، مِنْ أهلِ دينهم، بعدَ قتالٍ طويل، وزلزالٍ شديد. . ولقد لقُوا المسلمين بعدَّة، لم

يرَ الراؤون مثْلَ زُهائها، فلم ينفعْهم اللهُ بذلك، بل سَلَبَهُموه، ونَقَلَه عنهم إلى المسلمين، واتّبعهم المسلمونَ على الأنهار، وعلى طُفوفِ الآجام، وفي الفجاج!

وأُصيبَ من المسلمين سعدُ بنُ عُبَيد القارئ، وفلان، وفلان، ورجالٌ من المسلمين، لا نعلمُهم، اللهُ بهم عالم، كانوا يُدَوّون بالقرآن إذا جَنَّ عليهم الليلُ دَويَّ النحل. وهم آسادُ الناس، لا يُشبِهُهم الأسود.. ولم يَفْضُلْ مَنْ مضى منهم مَنْ بقي، إلاّ بفضلِ الشهادةِ، إذْ لم يكتُبْها اللهُ لهم..»[1].

سلَّمَ سعدٌ الرسالةَ إلى سعدِ بن عَميلَة الفزاري، وطلبَ منه أنْ يحملَها إلى عمر، وأنْ يسرعَ بالسير إليه لينقلَ له البشرى.

كيف تلقّى عمر البشرى:

ولما صار سعد بن عميلة على مشارفِ المدينة لقيَ عمرَ بن الخطاب يمشي وحْدَه، ينظرُ إلى الناسِ في الطريق، ولم يعرفْه!

أقبلَ عليه وسأله: من أينَ أنتَ قادم؟

قال: من القادسية!

قال عمر: يا عبدَ الله: حدِّثْني!

قال: هزمَ اللهُ العدوّ.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٨٣.

وتابعَ ابنُ عَميلَة سيْرَه إلى المدينة، وعمرُ ممسكٌ بزمام الفرس، وهو يَخُبُّ معه ويكلِّمه، ويسألُه عن أخبارِ القادسية، وابنُ عَميلة يكلِّمه وهو مسرع.. ودخلا المدينة على هذه الصورةِ العجيبة!!

ولما رأى الناسُ عمرَ متعلِّقاً بفرسِ القادم، سلَّموا عليه بالإمارة، وقالوا: السلامُ عليكم يا أميرَ المؤمنين!

فوجِئَ سعدُ بنُ عَميلَة بأنه كان يكلّم أميرَ المؤمنين عمر وهو لا يعرفه، وأنه أتعبَه وهو يخبُّ مع الفَرَس! فقال له: هلاّ أخبرتَني رحمَك اللهُ أنّك أميرُ المؤمنين!

قال له عمر: لا عليك يا أخي[1].

وقصَّ سعدٌ على عمرَ خبرَ معركةِ القادسية، فحمدَ عمرُ ربَّه على نعمةِ النصر.

ودعا عمرُ المسلمين، وبَشَّرَهم بالنصر، وقرأ عليهم كتابَ سعدٍ رضي الله عنه بالفتح، فحمدوا الله تعالى.

وحزنَ عمرُ كثيراً لاستشهادِ الصحابيِّ الجليلِ سعْدِ بنِ عُبيد القارئ رضي الله عنه، وقال: لقد كادَ قَتْلُه يُنَغِّصُ عليَّ الفتح.

ولما قرأ عمرُ قولَ سعدٍ في رسالتِه: «..وأُصيبَ من المسلمين.. ورجالٌ لا نعلَمُهم، اللهُ بهم عالم...» بكى، وعلَّقَ على ذلك بقوله: وماذا

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٨٣.

يُضيرُهم أنْ لا نعلمَهم، يَكْفيهم أنَّ اللهَ يعلَمُهم، وهو سيؤتيهم أجورَهم.

عتاب عمر لسعد:

وعاتب عمر سعداً على ما فعلَه بزُهرة بن الحويّة، عندما أخذَ منه سلَبَ جالينوس، وغضبَ عليه بسببِ تسرّعه بلبسه، قبلَ أن يستأذن منه، ودعا عمر سعداً إلى أنْ يُعيدَ السَّلَبَ إلى زُهرة، ويُكرِمَه، ويُحسن إليه، ويزيدَ في عطائه لشجاعته.

وكان مما قاله له: «.. أنا أعلمُ بزُهرةَ منك، وإنَّ زُهرةَ لم يكن ليُغَيِّبَ منْ سَلَبِ سَلَبَه شيئاً.. تَعْمَدُ إلى مثلِ زُهرة، وقد صلِيَ بمثْلِ ما صَلِي به، وقد بقيَ عليك من حربـك ما بقي، تكسـرُ قرنَه، وتُفسِـدُ قلْبَه؟!.. أَمْضِ له سلَبَه، وفَضِّلْه على أصحابِه عند العطاء بخمسمئة..»[1].

دعاء سعد على من جبَّنه:

وبينما كان المسلمون في ميدان القادسية يقاتلون الفرس، في أحدِ أيام المعركة، اتّهم رجلٌ سعداً بالجُبْن، لأنه لم يشتركْ في القتال، وكانَ على ظهرِ الحصنِ ـ القصر ـ وكان هذا الرجلُ ظالماً باغياً في التهمة، فاضطرَّ سعدٌ إلى أنْ يدعوَ عليه، فعجَّلَ اللهُ بعقوبتِه، وهذه آيةٌ وكرامةٌ من الله لسعدٍ رضي الله عنه.

قال قَبيصةُ بنُ جابر: قالَ رجلٌ منّا، ابنُ عمٍّ لنا يومَ القادسية:

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٦٨؛ والقادسية، ص٢٠٤.

أَلَـمْ تَـرَ أنَّ اللهَ أنْـزَلَ نَصْـرَهُ وَسَعْـدٌ ببـابِ القـادِسيَّـةِ مُعْصِـمُ
فَـأُبْنـا وَقَـدْ آمَـتْ نسـاءٌ كثيْـرَةٌ وَنِسْـوَةُ سَعْـدٍ لَيْـسَ فِيْهِـنَّ أَيِّـمُ

يريـدُ هذا المفتري الظالمُ أنْ يقول: نحنُ اشـتركنا في القتال، وسعدٌ كان خائفاً جباناً، معتصِماً ببابِ حصنِ القادسية، ولم يشترك في القتال، ونحنُ فقدْنا رجالاً كثيرين، تأيَّمَتْ وترمَّلتْ نساؤُهم، أما نساءُ سعد فلم يَتَرَمَّلْنَ، لأنَّ سعداً هربَ من القتال حفاظاً على حياته!

ولما سمعَ سعدٌ الاتهامَ الظالمَ دعا على قائله: اللهمَّ إن كان كاذباً، وكان قالَ ذلك رياءً وسمعةً وكذباً، فاقطعْ عنّي لسانه ويَدَه!

قال قَبِيْصة: واللهِ إنَّ ذلك الرجلَ واقفَ بين الصَّفَّيْن، فأقبلَتْ نِشّابة ـ هي كالسهم ـ من جهةِ الفُرس، فوقَعَتْ في لسانِه فأخْرَسَتْه، فما تكلَّمَ بكلمةٍ حتى ماتَ بعدَ ذلك مباشرة!

وبيّنَ سعدٌ رضي الله عنه عذرَه للناس، فكشَفَ عن ظهره، وأراهم ما فيه من القروح والدمامل، فعذروه.

كان سعد لا يُجَبَّن:

قال قيس بن أبي حازم البجلي ـ أحدُ المجاهدين يومَ القادسية ـ: «وكان سعدٌ لا يُجَبَّن...»[1].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٥٧٩ ـ ٥٨٠؛ والقادسية، ص٢١٠.

أي كان شـجاعاً مقداماً، ولـم يكنْ ممن يُتَّهمُ بـالجُبْن أو الخوف مِنَ القتال . .

وقال عثمانُ بنُ رجاء السعدي ـ وكانَ أحدَ المجاهدين في القادسية ـ: «كانَ سعدُ بنُ مالك أجرأ الناسِ وأَشْجَعَهم، إنه نزلَ قصراً غيرَ حصين، بينَ الصَّفَّين، فأشرفَ منه على الناس . . ولو عَراهُ الصّفُّ فُواقَ ناقةٍ أُخِذَ برمتِه، فوالله ما أكْرَثَهُ هولُ تلك الأيامِ ولا أَقْلَقَه!» .

وكتبَ سعدٌ إلى عمرَ يسألُه عن التصرّفِ المناسبِ مع أهلِ السواد من الفرس، وبعثَ الكتـابَ مع أنسِ بنِ الحُلَيْـس، وأتبعَـه بكتابٍ آخرَ بَعَثَـه مع أبي الهيَّاجِ بن مالك الأسدي .

وردَّ عمرُ على كتابَيْ سعد بأنَّ مَنْ بَقَوا على عهدِهم السابقِ مع المسلمين، ولـم يُعينوا الجيشَ الفارسيَّ عليهم، فلهم الذمةُ وعليهم الجزية، أمَّا مَنْ نقضوا العهدَ مع المسلمين فلا عهدَ لهم[1]!

سعد يقسم غنائم القادسية:

وقسَّمَ سعدٌ غنائمَ القادسية على المجاهدين، فكان نصيبُ الراجلِ ألفين ونَصيبُ الفارسِ ستَةَ آلاف!

وأمره عمـرُ أنْ يزيـدَ أهلَ البلاءِ ـ الذين بَذَلـوا جهداً أكبرَ في القتال ـ خمسمئة، زيادةً على عطائهم! فخصَّهم بتلك الزيادة، وفي مقدّمتهم القعقاعُ

---

(١) انظر كتابي سعد إلى عمر، ورد عمر عليهما في (القادسية)، ص٢١٢ ـ ٢١٥ .

وعاصمُ ابنا عمرو التميمي، وطليحةُ بن خويلد، وعمرُو بن معدي كرب، وزُهرةُ بنُ الحَوِيَّة، وحمَّالُ بن مالك، وغيرُهم من أبطال القادسية!

وأمره عمرُ أيضاً أنْ يخصَّ أهلَ القرآنِ وحُفّاظَه، وأن يزيدَهم بالعطاء، فزادَهم تكريماً لهم، وإكراماً للقرآن الذي يحفظونه!

وجاءَ عمرُو بنُ معدي كرب وبُسْرُ بنُ أبي رَهْم يطلبان تلك الزيادة من سعد، مع أنّهما ليسا من حَفَظَةِ القرآن!

سألَ سعدٌ عمرَو بن معدي كرب: ما معكَ من القرآن؟

قال عمرو: ما معي شيء، فقد شَغَلَني الجهادُ عن حفْظِ القرآن!

وسألَ بُسْراً: ما معكَ من القرآن؟

قال بُسْرٌ: ما معي إلا «بسم الله الرحمن الرحيم»! فقد شَغَلني الجهاد!

فلم يعطِهما شيئاً من جائزةِ حفظِ القرآن!

غضبا على سعد، وهجاهُ بُسْرٌ بأبياتٍ من الشعر. ومما قالَه في هجائه:

أَلَمَّ خَيالٌ مِنْ أُمَيْمَةَ مُوْهِناً ... وَقَدْ جَعَلَتْ أُولى النُّجومِ تَغُورُ
وَنَحْنُ بِصَحْراءِ العُذَيْبِ وَدارُها ... حِجازِيَّةٌ إنَّ المَحَلَّ شَطيرُ
وَلاغَزْوَ إلاَّ جَوْبُها البِيْدُ في الدُّجىٰ ... وَمِنْ دُونِنا رَعْنٌ أَشَمُّ وَقُورُ
تَحِنُّ بِبابِ القَادِسِيَّةِ ناقَتِي ... وَسَعْدُ بْنُ وَقَّاصٍ عَلَيَّ أَميرُ
وَسَعْدٌ أَميرٌ شَرُّهُ دُونَ خَيْرِهِ ... طَويلُ الشَّذىٰ كأبي الزِّنادِ قَصيرُ
تَذَكَّرْ هَداكَ اللهُ وَقْعَ سُيوفِنا ... بِبابِ قُدَيْسٍ والمَكَرُّ عَسيرُ

عَشِيَّةَ وَدَّ الْقَوْمُ لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ ... يُعَارُ جَنَاحَيْ طَائِرٍ فَيَطِيرُ
إذا ما فَرَغْنا مِنْ قِراعِ كَتِيبَةٍ ... دَلَفْنا لأُخْرَى كالجبالِ تَسِيرُ
وَعِنْدَ أميرِ المُؤْمِنِينَ نَوَافِلٌ ... وَعِنْدَ المُثَنَّى فِضَّةٌ وَحَرِيرُ

واشتكى عمرٌو وبُسْرٌ سَعْداً إلى عمر، فكتبَ عمرُ إليه أنْ يُعطيَهما على بلائِهما[1]!

سعد والقادسية متلازمان:

وأقامَ سعدٌ في القادسية مدةً تزيدُ على شهرين، وهو يرتِّبُ الأُمور، ويستعدُّ للمرحلةِ القادمة، ويُراسلُ عمرَ في المدينة، ويتلَقَّى منه الكتب، ويُنفِّذُ ما يأمُرُه به من أوامِرَ وتوجيهات.

وكان جهادُ سعدٍ في القادسية كبيراً، لأنّه كان قائدَها، وأدارَها على أرفعِ صورة، رغمَ ما كان يُعانيه من مرضٍ وشدّة.

وكانت القادسيةُ بدايةَ النهاية للدولة الفارسية، لأنَّ المعاركَ التاليةَ ما هي إلا قطْفُ ثمارِ تفوُّقِ المسلمين فيها واندحارِ الفرس!

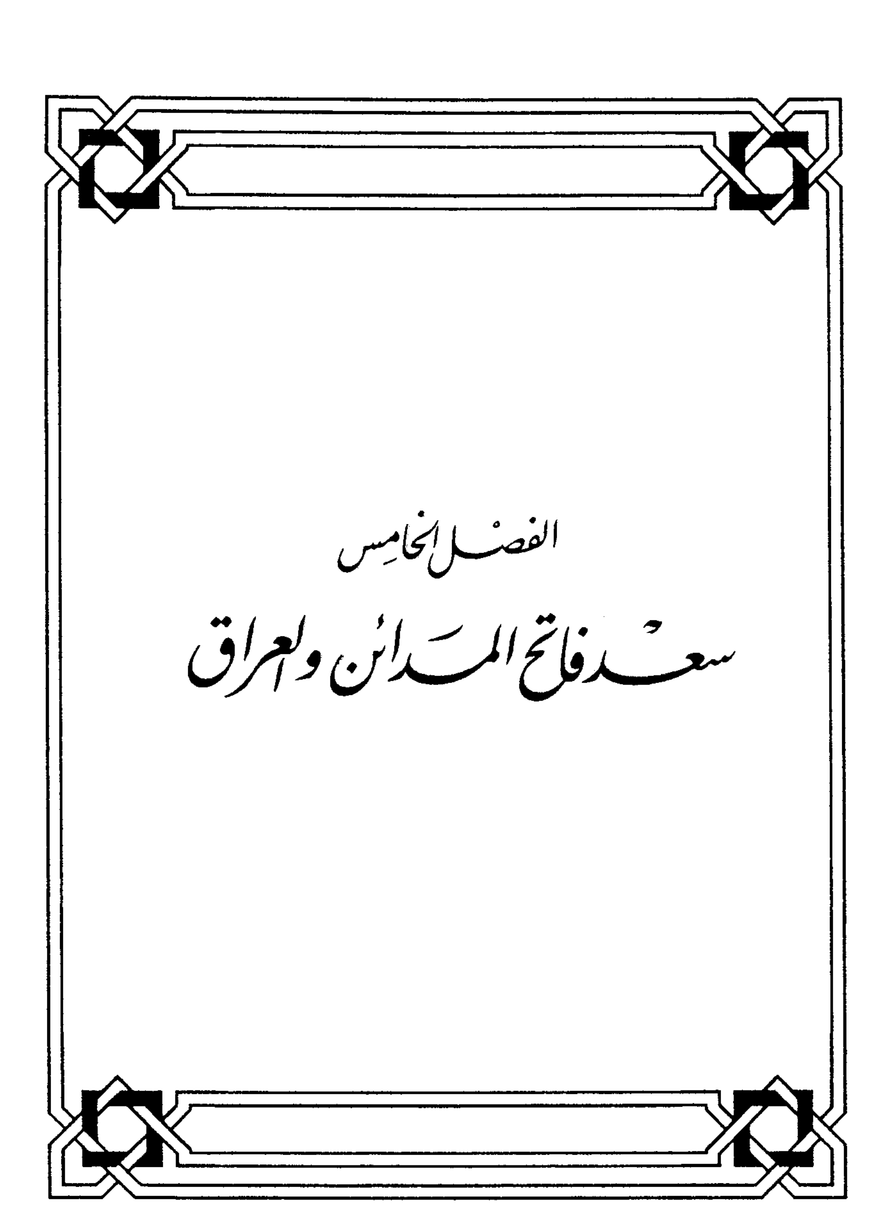
واقترنَ اسمُ القادسيةِ باسم قائدِها سعد، فما تُذْكَرُ إلاّ ويُذْكَرُ اسْمُه ودورُه فيها، كما أنّه اقترنَ اسمُ سعدٍ باسمِ القادسية، فلا يُذكَرُ اسْمُه إلاّ وتُذْكَرُ تلك المعركةُ الفاصلة.

---

(١) القادسية، ص٢١٥ـ٢١٧.

وبما أنَّ معركةَ القادسية كانت أهمَّ معركةٍ زمنَ الصحابة، لأنها قضتْ على الإمبراطورية الفارسية، فإنَّ قائدها العامَّ سعدَ بنَ أبي وقاص رضي الله عنه، هو من أعظمِ قادةِ المجاهدين الفاتحين!

* * *



الفصل الخامس

سعد فاتح المدائن والعراق



الفصل الخامس

سعد فاتح المدائن والعراق

(١) سعد في طريقه إلى المدائن

أقامَ سعدُ بن أبي وقاص رضي الله عنه في القادسية حوالي شهرين، ما بين منتصفِ شهرِ شعبان من السنة الخامسة عشرة إلى منتصف شهر شوال، وقضى هذه المدةَ في ترتيبِ أُمورِ المسلمين، وفي مكاتبته عمرَ رضي الله عنه، يستشيرُه في كلِّ أمورِه، وينتظرُ توجيهاتِه!

وأخيراً أصدرَ عمرُ أمرَه إلى سعدٍ أن يتوجَّهَ بجيشِه نحو المدائن، عاصمةِ الدولة الفارسية، وأمرَه أنْ يُبْقيَ نساءَ المسلمين وعيالَهم في منطقةِ (العتيق) بالقربِ من القادسية، وأنْ يبقيَ معهنَّ مجموعةً من المجاهدين لحراستهنّ وحمايتهنّ، على أنْ يُشركَ هؤلاء المجاهدين في الأنفالِ والغنائم، لأنّهم مكلّفون بمهمة جهادية في حراسة النساء!

توجُّه سعد بالجيش إلى المدائن:

جهَّزَ سعدٌ جيشَه، وعيَّنَ قادَتَه، فجعلَ على المقدِّمَةِ زُهرةَ بنَ الحَويّة، وجعلَ على الميمنة عبدَ اللهِ بن المعتمّ، وجعل على الميسرة شُرحبيل بن

السّمط، وجعلَ ابنَ أخيهِ هاشمَ بنَ عتبة خليفتَه ونائباً له[1].

وخرجَ الجيشُ في أواخرِ شهرِ شوال من السنةِ الخامسة عشرة، متوجّهاً نحو المدائنِ لفتحِها، وكان الجيشُ كلُّه من الفرسان، لكثرةِ الخيولِ التي غنموها من الفرسِ في القادسية، بحيثُ كان لكلِّ مجاهدٍ فرس، وهذا له دورٌ في المعاركِ التي ستنشبُ مع الفرس فيما بعد!

وتقدَّم زُهرةُ بن الحَويّة في مقدّمةِ الجيش إلى الكوفة، على مسافةٍ من القادسية، ثم لحق به القائدان ابنُ المعتَمَّ وابنُ السِّمط، فارتحلَ ابنُ الحويّة إلى الأمام، متوجّهاً إلى المدائن.

ووصلَ ابنُ الحويّة إلى (بُرْس)، وهناك التقى القائدَ الفارسي (بُصْبُهْرى) فاشتبكَ معه في معركةٍ خاطفةٍ، سرعانَ ما انتهَتْ بهزيمةِ الفرس، وهرب قائدُهم بُصْبُهْرى بعد أن طعنه ابنُ الحويّة، وماتَ بعد ذلك في بابل بسببِ تلك الطعنة! وتجمَّع قادةُ الفرسِ في بابل لقتالِ المسلمين، وجعلوا (فَيْرُزان) قائداً عليهم.

أقامَ زُهرةُ بن الحويّة في (بُرْس) وكتب إلى سعدٍ في (الكوفة) بجموعِ الفرسِ في (بابل)، فتحرَّكَ سعدٌ إلى بُرْس، وأمرَ زُهرةَ أنْ يتوجَّه إلى بابل.

تعاهدَ الفرسُ في بابل أن يُقاتلوا المسلمين يداً واحدة، وأنْ يهزموهم، ورتَّبَ سعدٌ جيشَه في بابل ونشبت المعركة، وما إنْ بدأ القتالُ حتى انهزمَ

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٣/٦١٩؛ وسقوط المدائن لأحمد عادل كمال، ص١٣ ـ ١٤.

الفرس، وكان ذلك في غاية السرعة.

قال الطبري في (تاريخه): «قال الفرس في بابل: نقاتِلُهم دَسْتاً قبلَ أنْ نفترق [أي نقاتلهم يداً واحدة] فاقْتتلوا ببابل، فهَزموهم في أسرع من (لفت الرِّداء)، فانطلقوا على وجوههم، ولم يكنْ لهم هَمٌّ إلاّ الافتراق..»[1].

أقامَ سعدٌ في بابل، ووجَّهَ زُهرةَ إلى (كوثى)، وكان فيها جيشٌ كبيرٌ من الفرس بقيادة (شهريار)، ويُقال: إنَّ كوثى هي البلدةُ التي كان يُقيمُ فيها إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام قبلَ توجُّهِه إلى فلسطين. وتقعُ بين نهريْ دجلةَ والفرات، وعلى بُعْدِ أربعين كيلومتراً من المدائن العاصمة.

مقتل شهريار في كوش:

التقى زهرة بن الحوية بقائدِ الفرس شهريار في (كوثى)، وكان شهريارُ متكبّراً مختالاً، وكان ضخمَ الجسمِ طويلاً عريضاً.

وقفَ شهريارُ بين الجيشين مختالاً، ونادى المسلمين قائلاً: هل فيكم فارسٌ عظيمٌ شديدٌ قوي؟ يَخرجُ إليّ يبارزُني، لأُنكِّلَ به!!

فردَّ عليه زُهرةُ قائلاً: كلُّنا فرسانٌ شجعانٌ أقوياء! وقد أردتُ أنْ أُبارزكَ أنا، لكنني بعدما سمعتُ كلامَكَ عدلْتُ عن ذلك! إنني لن أُخرجَ لك إلاّ عبداً! فإنْ صمدْتَ له وبارزْتَه قَتَلَكَ إنْ شاء الله، وهو خزيٌ لك، لأنّكَ تكونُ قتيلَ عبد، وإنْ فررْتَ منه فهو خزيٌ لك، لأنّك فررتَ من عبد!!

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٣/ ٦٢٠.

أغاظَ زُهرةُ شهريار، وحطَّم كبرياءَه، فلم يدرِ شهريارُ ما يقول له!

وأمرَ زهرةُ (أبا نباتة: نائلَ بنَ جُعْشُم الأعْرَجي) ـ وكان من شجعان بني تميم ـ أنْ يخرجَ إليه!

تبارزَ الرجلان على ملأ من الجيشين، وكانت مبارزةً قويةً شديدةً عنيفة، وكان شهريار أضخمَ من أبي نباتة، فصرعَه، وخرَّ عليه كأنه بيت، وضغطَه بفخذِه، وأخذَ الخنجرَ ليقتلَه، ولكنَّ أبا نباتة عضَّ إبهامَ شهريار، فحطَّمَ عظْمَها، فضعفَ عن المقاومة، وقامَ إليه فقعدَ على صدرِه، واستلَّ خنجره، وطعنَه في بطنِه فقتَلَه!.. ثم أخذَ سواريه وسلَبَه وسلاحَه وفرَسَه، وعاد إلى المسلمين ظافراً.

ولما رأى الفرسُ مصرعَ قائدِهم شهريار، ولَّوا مدبرين منهزمين.. وبذلك انتهت المعركةُ في كوثى بمقتلْ شهريار!!

وأتى سعدٌ كوثى، واستدعى نائلَ بنَ جُعْشُم، وأعطاهُ كلَّ ما غنمَه من القائدِ شهريار، وقال له: عزمْتُ عليك يا نائلَ بنَ جُعْشُم لما لبسْتَ سواريه وقباءَه ودرعَه، ولتركَبَنَّ دابّته. ففعل!

ورأى سعدٌ هزيمةَ الفرس، والتمكينَ للمسلمين في المنطقة، فحمدَ الله على ما أنعمَ به عليه، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠][1].

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٣/ ٦٢٠ ـ ٦٢٢؛ وسقوط المدائن، ص١٦ ـ ١٩.

وأمرَ سعدٌ قائدَ مقدِّمتِه زُهرةَ بن الحويّة بالتوجُّه نحو (بَهُرَسير) القريبة من المدائن، ولما سارَ زُهرةُ لحقَ به الجيش.

ولما وصلَ زُهرةُ (ساباط) التقى فيها (شيرزاد) حاكمَها، الذي استقبلَ زُهرةَ وصالحَه على دفعِ الجزية.

وساباط مدينةٌ في منتصفِ الطريقِ بين كوثى والعاصمة المدائن، تقعُ على بُعْدِ ثلاثين كيلومتراً إلى الجنوب من المدائن.

ولحق الجيشُ المجاهدُ بزُهرةَ المقيمِ في ساباط.

سعد يهزم الفرس في ساباط:

وفي ضاحيةٍ من ضواحي ساباط، اسْمُها (مظلم ساباط) ـ ولعلّها منطقةُ غاباتٍ كثيفةِ الأشجار ـ اشتبكَ زُهرةُ مع كتيبةِ الحرسِ الملكيّ الخاصِّ (كتيبة بوران). وبوران هي بنتُ كسرى أبرويز، عمةُ الملك يزدجرد.. وكانت الكتيبةُ مدرّبةً تدريباً عالياً، ويكفي أنْ تعرفَ أنها كتيبةُ الحرسِ الملكيّ الخاص. ويبدو أنَّ الفرسَ اضطروا إلى إدخالِها في المعركة ضدَّ المسلمين، بعد الهزائم المتتابعةِ التي حلَّتْ بكتائبهم وألويتهم، فكانت هذه الكتيبةُ آخرَ سهمٍ يوجِّهُه الفرسُ ضدَّ المسلمين!

وكانَ أفرادُ الكتيبةِ يتدرَّبون تدريباً خاصّاً كلَّ يوم، وكانوا يهتفون كلَّ يوم قائلين: «والله لا يزولُ مُلْكُ فارس ما عشنا»!!

ودارت معركةٌ عنيفةٌ بين مقدمةِ جيشِ المسلمين والكتيبةِ الملكيةِ الخاصة! ووصلَ سعدٌ ببقيةِ الجيش (مظلم ساباط) أثناءَ المعركة.

وكان لدى كتيبةِ بوران أسدٌ من كبارِ أُسودِ المنطقة، كان كسرى قد اصطفاهُ من بين باقي الأُسود، وكان يُسمَّى (المقرّط) لقوَّته.

وأثناء المعركةِ أطلقَ الفرسُ أسَدَهم (المقرّط) ضدَّ المسلمين، فتصدّى له هاشمُ بن عتبة بقلبٍ هو أثبتُ من الأسد، وضربَه بسيفِه فقتله! وسُمّيَ سيفُه (المَتْن).

وأُعجِبَ سعدٌ بفعلِ نائبِه وابنِ أخيه هاشم بنِ عتبة، وقدَّرَه له، حيثُ جاء وقبَّلَ رأسَه، فانحنى هاشمٌ على عمِّه وقائدِه، وقبَّلَ قدَمَه!

وانتهت المعركةُ بهزيمةِ كتيبةِ بوران الخاصة أمامَ المجاهدين، ونزلَ سعدٌ بالمسلمين في (مُظلم ساباط) شاكرينَ لله على ما أنعمَ به عليهم من نصر وتمكين.

وتذكَّرَ سعدٌ القَسَمَ الذي كان أفرادُ كتيبةِ الحرس الملكي الخاص يقسمون به يومياً: «واللهِ لا يزولُ ملكُ فارس ما عِشْنا»! وقارنَ بين ذلك القسم، وبين رؤيتِهم منهزمين، فاستحضرَ آيةً من كتاب الله، تنطبقُ على الحادث تماماً، حيثُ تلا قولَه تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤][1].

فها هم قد زالوا وانهزموا، بقوةِ الله الذي نصرَ عليهم المسلمين!!

وواصلَ الجيشُ الإسلاميُّ المجاهدُ زَحْفَهُ نحو المدائن، والمسافةُ بين ساباط والمدائن لا تزيدُ عن ثلاثين كيلومتراً، قطعَها المجاهدون في سرعة.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٦٢٢ ـ ٦٢٣؛ وسقوط المدائن، ص٢٠ ـ ٢٣.

سعد يحاصر (بَهُرَسير)[1]:

وصل سعد بالجيشِ إلى (بَهُرَسير)، وهي ضاحيةٌ من ضواحي المدائن، لا يفصلُها عنها إلاّ نهرُ دجلة، وتقعُ في انحناءةِ النهرِ إلى الجنوب من المدائن، وهي مدينةٌ منيعةٌ محصّنةٌ بالأسوار والحراسات، لأنها خطُّ الدفاع الأخير عن المدائن[2]!

ولما رأى الفرسُ في (بَهُرَسير) المجاهدين متوجِّهين إليهم أغلقوا أبواب المدينة، وشَدَّدوا الحراسات على أسوارِها.

وحاصرَ المسلمون (بَهُرَسير) حصاراً شديداً محكَماً، وقاموا خلالَ مدةِ الحصارِ بالإغارةِ على الفرسِ والفلاحين في المنطقةِ الواقعةِ غربيَّ نهر دجلة، الذين ليس بينهم وبين المسلمين عهدٌ ولا ذمّة، وأخضعوا هؤلاء لسلطانِ المسلمين. وبذلك تمّت السيطرةُ على تلك المنطقةِ الواسعة، وإزالةِ حكمِ الفرسِ عنها، وأصبحتْ منطقةَ أمان، يتحرّكُ المجاهدون أمامهم وهم مطمئنون، لتأمينِ المنطقةِ خلْفَهم[3]!

استمرَّ الحصارُ مدةَ شهرين تقريباً ـ شهري ذي الحجّة من السنة الخامسة عشرة ومحرم من السادسة عشرة ـ.

واستعملَ سعدٌ في حصارِ المدينة (الأسلحة الثقيلة)، وهي أولُ مرةٍ

---

(١) في البداية والنهاية (نهرشير).

(٢) سقوط المدائن، ص٢١.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٥؛ وسقوط المدائن، ص٢٣.

يستخدمُها في فتح العراق، فقد صُنِعَ له عشرون (منجنيقاً)، نَصَبَها حولَ المدينة، وصارَ يضربُ أهلَ المدينة بها بالحجارة، كما صُنِعَتْ له (العَرَّادات) و(الدَّبّابات) وغيرُها من الأسلحةِ الثقيلة.

وربما كانَ بعضُ الفرسِ يَخرجون من المدينة المحاصرَة (بَهُرَسير) يسيرون على شاطئ دجلة، فإذا رآهم المسلمون قاتلوهم وأعادوهم[1]!

وشددَ المسلمونَ الحصارَ على (بَهُرَسير) مدةَ شهرين، حتى تأذّى الفرسُ فيها، ومنعوا عنهم المؤنَ والزاد، حتى أكلوا الكلابَ والقطط!

كرامة للمجاهدين على أسوار بهرسير:

وأراد حاكم المدينةِ الفارسي أن يحاولَ آخرَ محالةٍ لمصالحةِ المسلمين، على أنْ يتوقَّفوا عن الزحف، ويعودوا إلى بلادهم.

أمرَ حاكمُ المدينة أحدَ رجاله أنْ يقف على سورِ المدينة، ويقولَ للمسلمين: إنَّ الملكَ يقولُ لكم: هل لكم إلى المصالحة، على أنَّ لنا ما يلينا من دجلةَ وجبلِنا، ولكم ما يليكم من دجلةَ إلى جبلِكم؟ أما شبعْتُم لا أشبعَ اللهُ بطونكم!

فتطوَّع (الأسودُ بنُ قطبة) ـ أبو مُفَزِّر ـ للردِّ عليه، وأنطقهُ اللهُ بكلام، لا يدري هو ماذا قال! كما أنَّ المسلمين الذين بجانبه لا يدرون ماذا قال!!

ولما سمع الرجلُ كلامَ أبي مُفَزِّر فوجئ به، وعادَ إلى قومِه، وما هي إلا

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٦؛ وسقوط المدائن، ص٢٤.

فترةٌ يسيرة حتى صارَ الفرسُ ينسحبون من المدينة، ويغادرونها عابرين نهرَ دجلة، متوجِّهين إلى المدائن!

استغربَ المسلمونَ من مغادرةِ الفرسِ للمدينة، وسألوا أبا مُفزِّر: ماذا قلْتَ للفارسي، مما جعلَهم ينسحبون من المدينة؟

فقال: والذي بعث محمداً ﷺ بالحق، ما أدري، ما أدري ما قلْتُ له، ولكنَّني عَلَيَّ السكينةُ مما قلتُ، وأرجو أنْ أكونَ أُنطقْتُ بالذي هو خير!

واستدعى سعدٌ أبا مُفزِّر وسألَه: ماذا قلتَ لهم يا أبا مُفزِّر، فواللهِ إنهم لهاربون!!

فقالَ لسعدٍ كما قال للمسلمين!

وفوجِئَ سعدٌ والمسلمون بأنَّ أبا مُفزِّر القائل لم يعرفْ ماذا قال، وتمنَّوا أنْ يعرفوا ذلك القولَ الذي أدّى إلى هربِ وانسحابِ الفرس.

وواصلَ المسلمون ضربَ المدينةِ بالمنجنيق، لكن لم يَرَوْا فيها أحداً.

وفي الليل رأوا رجلاً خارجاً من المدينة يطلبُ الأمان، فأمَّنوه، فقال لهم: لقد انسحبَ الفرسُ من المدينة، وذهبوا نحو المدائن، وليس فيها أحدٌ غيري!

وسألوا الفارسي: لماذا هرب الفرسُ منها؟

فقال: بعثَ الملكُ إليكم رجلاً يَعرضُ عليكم الصلح، فأجبتموه قائلين: إنّه لا يكونُ بيننا وبينكم صلحٌ أبداً، حتى نأكلَ عَسَلَ أفريذين بأُتْرج كوثى!!

فقال الملك: يا ويْلَنا! ألا إنَّ الملائكةَ تتكلمُ على ألسنتهم، تردُّ علينا وتجيبُنا عنهم، وواللهِ ما هذا إلا كلامٌ أُلقيَ على فمِ هذا الرجل، لنَسمَعه وننتهي، فانْسحِبوا إلى المدينة القصوى!!

هروب الفرس من بهرسير:

لقد كان انسحابُ الفرسِ من (بَهُرَسير) إلى المدائن، بعد شهرين من الحصار، بعد أنْ سمعوا ذلك الكلام، الذي اعتبروه من كلامِ الملائكة، ألقَتْهُ على لسانِ أبي مُفَزِّر فنطقَ به، دون أنْ يعرفَ هو ماذا قال!

وكان هذا تكريماً من الله للمسلمين لصدْقِهم وجهادِهم، حيثُ أجرى هذه الكرامةَ لهم، وأوقَعَ الخوفَ في قلوبِ الفرس، وقذفَ فيها الرعب، فانسحبوا هاربين!

وفي تلك الليلة دخلَ المجاهدون المدينة (بَهُرَسير) وحمدوا اللهَ على ما أنعمَ عليهم، وأمضوا ليلتَهم في التكبير شكراً لله، وكان الفرسُ في المدائن يسمعون تكبيرهم - لأنه لا يفصلُهم عنهم إلا نهرُ دجلة - فيزدادون خوفاً وهلعاً ورعباً[1]!

ونزلَ سعدٌ في بَهُرَسير، وجعلَ مركزَ قيادتِه فيها، كما نزلَها المجاهدون.. وصاروا يُعِدُّون العدَّة لعبور دجلة، ودخول المدائن!

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٧ - ٨؛ وسقوط المدائن، ص٢٦ - ٢٩.

(٢) سعد على مشارف المدائن

وصف المدائن عاصمة الفرس:

المدائنُ عاصمةُ الفرس مكوَّنةٌ من مجموعةٍ من المدن، بعضُها يقعُ على الشاطئ الغربيّ لنهر دجلة، وبعُضها الآخر يقعُ على الشاطئ الشرقيّ للنهر.

وتتكوَّن المدائنُ من سبعِ مدن، هي:

١ - بَهُرَسير: وتقعُ على الضفّة الغربية لنهر دجلة. وهي التي احتلَّها المسلمون.

٢ - أرْدَشير: وتسمّى (سلوقية) أيضاً، وتقعُ على الضفةِ الغربية للنهر.

٣ - ما خوزا: وتقعُ على ضفةِ النهر الغربية.

٤ - بلاش آباد: وتقعُ على ضفةِ النهر الغربية.

٥ - درزنبذان: وتقع على ضفة النهر الغربية.

٦ - طيسفون: وتقع على الضفة الشرقية للنهر، مواجهة لمدينة أردشير.

٧ - أسبانبر: وتقع على الضفة الشرقية للنهر، مواجهة لمدينة بَهُرَسير.

وتسمَّى مدينتا طيسفون وأسبانبر المدائن القصوى. وهما أهمُّ مدنِ (المدائن). ومقرُّ كسرى في مدينة (أسبانبر)، فيها إيوانُه وقصْرُه، وفيها الحدائقُ الملكية.

وكانت منطقةُ المدائنِ جميلةً جذابةً على ضفتي نهرِ دجلة، فيها الغاباتُ والحدائق، والحيوانات المختلفة، والمزارعُ الخصبة، كما أنها كانت منطقةً

حصينة، محاطةً بالأسوارِ والتحصينات، ويحرسُها مجموعةٌ من الجنود، وكانت في غايةِ الترفِ والرفاهية، كيف لا وهي عاصمةُ الدولةِ الفارسية، ثاني أقوى دولةٍ ـ بعد الرومان ـ في ذلك الزمان.

كان القصرُ الملكيُّ في (أسبانبر) وكان كبيراً ضخماً، يُسمَّى (القصرَ الأبيض) وفيه (إيوانُ كسرى)، بقبَّته البيضاءِ الشامخة، وجدرانه البيضاء، وكان مترفعاً يعلو على أشجارِ الحدائق المحيطة به، ويُرى من بعيد بارتفاعِه الشاهق، ويُعرَفُ باسم (أبيض كسرى)، أو (القصر الأبيض)، أو (البيت الأبيض)، أو (إيوان كسرى).

وكان معروفاً مشهوراً عند العرب قبل الإسلام، مضرب الأمثالِ في ضخامتِه وجماله وتناسقه، يتمنَّى الرجلُ أنْ يراهُ من بعيد، فإذا دخلَه وسار في ممراته اعتبرَ نفسه سعيداً محظوظاً[1]!!

تكبير المجاهدين في مواجهة القصر الأبيض:

دخلَ المسلمون مدينةَ (بَهُرَسير) في تلك الليلةِ المباركةِ من شهرِ صفر من السنة السادسة عشرة للهجرة، وهي أُولى مدنِ (المدائن) السبعة، وأمضوا تلك الليلة في التكبير.

ونظروا إلى الضفةِ الشرقية من نهر دجلة، حيثُ مدينة (أسبانبر) فرأَوا القصرَ الأبيضَ، شامخاً وسط أشجارِ الحدائق والغابات.

---

(١) انظر وصف مدن المدائن السبعة في (سقوط المدائن)، ص٣١ ـ ٣٤.

كان أولَ مَنْ رآه (ضرار بن الخطاب الفهري) رضي الله عنه، أحدُ قادةِ المجاهدين، فكبَّرَ تكبيراً عالياً، وصاحَ بأعلى صوته: «الله أكبر.. هذا أبيضُ كسرى.. هذا ما وعدَ اللهُ ورسولُه!»!

وكبَّرَ المسلمون بتكبير ضرارِ بن الخطاب، وصاروا ينظرون إلى (القصرِ الأبيض) معْجَبين مستبشرين، فها هم قريبون منه، لا يفصلُهم عنه إلا نهرُ داجلة وبعضُ المباني والقصور بينه وبين النهر[1]!!

تذكَّرَ ضرارُ بن الخطاب رضي الله عنه في قوله: «هذا ما وعد الله ورسوله» ما قالَه رسولُ الله ﷺ للمسلمين يومَ غزوةِ الأحزاب، قبلَ حوالي اثنتي عشرة سنة، حيثُ وعدهم بأَخْذِ قصرِ كسرى الأبيض، وها هو الوعدُ على وشك التحقيق!!

الرسول يبشّر بفتح القصر الأبيض:

روى النسائي وأحمدُ عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «لما أَمَرَنا رسولُ الله ﷺ بحفر الخندق، عَرَضَتْ لنا في بعضِ الخندقِ صخرة، لا تأخذُ فيها المعاول! فاشتكَيْنا إلى رسول الله ﷺ..

فجاءَنا، فأخذَ المعول، فقال: بسم الله، فضربَ ضربة، فكسرَ ثُلُثَها، وقال: الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح الشام، واللهِ إني لأُبصرُ قصورَها الحمرَ الساعة.. ثم ضربَ الثانية، فقطع الثلثَ الآخر، فقال: اللهُ أكبر، أُعطيتُ

---

(١) انظر: سقوط المدائن، ص٢٧-٢٨.

مفاتيح فارس، واللهِ إني لأُبصِرُ قصْرَ المدائنِ الأبيض.. ثم ضربَ الثالثة، فقطع بقية الحجر، فقال: اللهُ أكبر، أُعطيتُ مفاتيحَ اليمن، واللهِ إني لأُبصرُ أبوابَ صنعاء من مكاني هذا الساعة..»[1].

لقد كان الأمَلُ عند رسول الله ﷺ بانتصار الإسلام وانتشارِه في الأرض عظيماً كبيراً، وقدَّمَ للمسلمين هذا الأمَلَ في صورة بُشرى يقينيةٍ صادقة، في ظرفٍ عصيبٍ خطيرٍ كان يمرُّ به المسلمون في المدينة! فقد شهدَ يومُ الأحزاب مؤامرةً خطيرةً ضدّ المسلمين في المدينة، شاركَ فيها اليهودُ والمشركون والمنافقون، وحاصرَ المدينةَ عشرةُ آلافٍ من المشركين من قريش وغطفان، ونقضَ يهودُ بني قريظةَ عهدَهم مع رسولِ الله ﷺ، واستمرَّ الحصارُ شهراً، زُلزِلَ المسلمون زلزالاً شديداً.. وفرَّجَ اللهُ عن المسلمين الكرب، وأزالَ عنهم الخطر، وردَّ الذين كفروا بغيظِهم، لم ينالوا خيراً، وكفى المؤمنين القتال.

في ذلك الجوِّ الصعبِ، والظرفِ العصيب، والخطرِ الكبيرِ، ضربَ رسولُ الله ﷺ الحجرَ وسطَ الخندق ثلاث ضربات، وبشَّرَ المسلمين بفتحِ الشام والعراق واليمن.

والشاهدُ في الحديثِ قولُه ﷺ عند الضربة الثانية: «الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح فارس، واللهِ إني لأُبصرُ قصرَ المدائن الأبيض».

---

(١) رواه النسائي في الجهاد، باب غزوة الترك: ٦/ ٤٣ ـ ٤٤؛ وأحمد في المسند: ٤/ ٣٠٣، وغيرهما؛ انظر صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي، ص٣٥٤ ـ ٣٥٥.

ويقصدُ بذلك القصرَ الأبيض ـ أو البيت الأبيض ـ الذي يقيمُ فيه كسرى. في (أسبانبر) على الضفة الشرقية لنهر دجلة!

وبعد اثنتيْ عشرةَ سنةً من هذا الحديث وهذه الحادثة، يقفُ سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه بآلافِ المجاهدين في مدينة (بهرسير) على بُعدِ مئاتِ الأمتار من القصرِ البيض، وهم في طريقهم إليه!!

ولعلَّ ضرارَ بن الخطاب رضي الله عنه تذكَّرَ كلَّ هذه المعاني والأحداثِ وهو يهتف: «الله أكبر، هذا أبيضُ كسرى، هذا ما وعدَ اللهُ ورسولُه..».

سعد يقف بالمجاهدين أمام فيضان دجلة:

لكن كيف يصلون إلى القصرِ الأبيض على الضفة الشرقية؟ إنهم الآن في مدينة بَهُرَسير، ونهرُ دجلة يفصلُ بينهم وبين المدائنِ الشرقية، ولا يملكون سفناً يعبرون بها النهر، لأنَّ الفرسَ أخذوا السفن، وحجزوها في أماكنَ تحت سلطانهم، لئلا يستفيد منها المسلمون في العبور!

كان دخولُ سعدٍ بالمجاهدين مدينةَ بهرسير في النصفِ الثاني من شهرِ صفر في العام السادس عشر للهجرة، وهذا يوافقُ شهرَ آذار من سنة ستمئة وسبعة وثلاثين للميلاد!

ومن المعلوم أنَّ مياه النهريْن دجلة والفرات في ذلك الوقت كانت تَقِلُّ كثيراً في الصيف والخريف، ولكنها كانت تزيدُ في الشتاء، بسببِ تساقطِ الأمطارِ الغزيرة على منابعهما في جبالِ أرمينية وتركية وكردستان، أما في الربيع فإنَّ مياهَ النهرين تصلُ مرحلةَ الفيضان، بسبب ذوبانِ الثلوجِ على منابعهما.

ويبدأُ الفيضانُ في شهرِ آذار أو شهر نيسان من كل عام، وقد بدأ الفيضان في ذلك العام في شهر آذار[1].

وقفَ سعدٌ بالمسلمين على شاطئ دجلة في أيامِ شهر صفر من العام الهجري، وشهرِ آذار من العام الميلادي، ورأى فيضانَ نهرِ دجلةَ أمامه! فماذا يفعل؟ وكيف يعبرُ بالمجاهدين هذا الفيضان؟

أمضى سعدٌ أياماً وهو يفكّر، وبينما كان يُديرُ فكْرَه في وسيلةٍ للعبور فوجىءَ بخبرٍ لم يحسب له حساباً!

أتاه أحدُ الفرس الناصحين، وقال له: ما يُقيمك هنا يا سعد؟ ولماذا لم تعبر النهر؟ إنَّ كسرى (يزدجرد) أخذَ ينقلُ كنوزَه وأموالَه من قصره الأبيض إلى عمق فارس، وسوف ينتهي من ذلك بعدَ ثلاثةِ أيام! فإنْ لم تُسارِع بالعبورِ إليه نجا بكلٍّ ما معه!

إذنْ لا بدَّ أنْ يسارعَ بعبورِ دجلةَ، والتأخُّرُ ليس في صالحِ المسلمين، ولا يليقُ أنْ ينتظرَ أسابيع أو شهوراً لحين انتهاءِ الفيضان!

سعد يقرر عبور دجلة:

نام سعد وفكره مشغولٌ بموضوع العبور، فرأى في منامه رؤيا سارَّة استبشرَ بها خيراً: رأى خيولَ المسلمين تقتحمُ اللُّجَّة، وتعبرُ نهرَ دجلة وهو في فيضان عظيم، تقومُ وتسبحُ فيه وهو لا يضرها!!

---

(١) انظر: سقوط المدائن، ص٣٥ ـ ٣٦.

هكذا إذن! الوسيلةُ أنْ تقتحمَ الخيولُ طوفانَ الماء، وأنْ تعومَ في النهر!

جمعَ سعدٌ المجاهدين ثم خطبَ فيهم قائلاً: «إنَّ عدوَّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تَخْلُصونَ إليه معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاؤوا، فيناوشونكم في سفنهم، وليس وراءكم شيءٌ تخافونَ أنْ تُؤْتَوْا منه، فقد كفاكم أهلُ الأيام، وعَطَّلوا ثغورهم. .

وقد رأيتُ من الرأي أنْ تبادروا جهادَ العدوِّ بنياتكم، قبل أنْ تحصركم الدنيا. . ألا إني قد عزمْتُ على قطعِ هذا البحرِ إليهم!!»[1].

وافقَ المجاهدون سعداً على رأيه، وقالوا له: «عزم الله لنا ولك على الرشد، فافعل. .»!

وافقوه لأنهم يثقون بحكمته وبُعد نظره، ويعلمون حرصه وحذره، وإيثاره التؤدة والتأنّي، وأنه غير مندفع ولا متسرع ولا متعجل!

ولذلك لم يرَ عبور النهر وهو في حالة الفيضان إلا بعد تفكير وتدبّر، فاطمأنّوا إلى صواب قراره، ووافقوه عليه!

(٣) سعد يعبر دجلة إلى المدائن

القرارُ الآن عبورُ نهرِ دجلة، وهو في حالةِ فيضانٍ عارم. . ولا بدَّ من التوكّل على الله، ليكونَ العبورُ آمناً بفضْل الله!

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٩؛ وسقوط المدائن، ص٣٦ ـ ٣٧.

كان عددُ المجاهدين على الضفةِ الغربية لنهر دجلة ستين ألفاً، كلُّهم فارسٌ راكبٌ فرسَه، أي: معهم ستون ألفَ فرَس! ومعلومٌ أنَّ الخيلَ تُحسنُ عبورَ الماء، وتُجيدُ العومَ فيه!

عبقرية سعد في عبور الطوفان:

وقرارُ العبورِ العظيمِ اتّخذه سعدٌ بعدَ تفكيرٍ وتمحيص، لأنه ليس له بديل! إن الفُرسَ في الضفةِ الشرقية، وكسرى يزدجرد على وشكِ ترحيلِ أموالِه إلى مكانٍ آمن، ليستعينَ بها في حربِ المسلمين، ولا يملكُ المسلمون سُفناً لعبورِ الماء، وسيستمرُّ الفيضانُ عدةَ أشهر، ولن يخفَّ منسوبُ مياهِ النهر قبل ثلاثةِ أشهر! فهل سيبقى سعدٌ ثلاثةَ أشهر على الضفةِ الغربية للنهر حتى يجمعَ الفرسُ قواتِهم من جديد؟ وهل سيعجزُ سعدٌ والمجاهدون معه عن الانتقال إلى الضفة الثانية؟

عقليةُ سعدِ الحية، وطبيعتُه الحكيمة، تأبى أنْ توقفَه عاجزاً عن التصرّفِ والحركة! وقد أوحى اللهُ له بالتصرفِ المناسبِ عن طريقِ الرؤيا التي أراهُ إياها: خيولُ المسلمين تعبرُ النهر.. فالتقط سعدٌ تلك الإشارة بحكمة، وعملَ على تعبيرِها وتأويلها في عالم الواقع.

عبورُ الماء خطر، والفيضانُ جارف، لكن هؤلاء العابرين مجاهدون، هدفُهم الجهادُ في سبيلِ الله، ونصرةُ دينِ الله، ومحاربةُ أعداءِ الله! وإن اللهَ سيتولّى حفظَهم ورعايتَهم، وسيسخّرُ لهم الماءَ العظيم الذي يحملُه النهر.. وما عليهم إلاّ عبورُه واقتحامُه على خيولهم السابحة، متوكّلين على الله!

ولا يتخذُ القرارَ بالعبـورِ في ذلك الجوّ إلا قائـدٌ حكيمٌ جريء، مثلُ سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، لما فيه من خطورةٍ بالغة، ولن يتخذ ذلك القرار إلا إذا كان إيمانُه بالله عظيماً، وتوكُّله على الله كبيراً، وثقتُه به عالية!

معنويات المجاهدين العالية:

وكان المجاهدون متفاعلين مع قرارِ سعد بالعبور، حيث قالوا له: عَزَمَ اللهُ لنا ولك على الرُّشد، فافعل!

وقد وقفَ أحدُ المجاهدين أمامَ النهر، وماؤُه يقذفُ بالزبد، وأرادَ تشجيعَ إخوانِه المجاهدين، فقال لهم: أتخافون هذه النطفة؟ ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [آل عمران: ١٤٥][(١)].

والنطفةُ هي قطرةُ الماء!

هكذا كانت معنوياتُ المجاهدين عالية، فمياهُ الفيضان التي تتلاطمُ في نهر دجلة، وتتدافعُ أمواجاً عاتية، وتقذفُ بالزبد، هذه كلُّها لا تزيدُ في نظرِ هذا المجاهد عن (نطفة)، والإنسانُ لا يخافُ من قطرةِ الماء!!

بهؤلاء المجاهدين عبرَ سعدٌ دجلةَ وفتح (المدائن).

كتيبة الأهوال والكتيبة الخرساء:

شكّلَ سعدٌ كتيبتين لتبدأا العبور، ثم يتبعهُما باقي أفرادُ الجيش.

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ١٣.

الأُولى: اسمها (كتيبةُ الأهوال)، وأمَّرَ عليها البطلَ المجاهد (عاصم بن عمرو التميمي) وكلَّفَها أنْ تبدأ بالعبور، لاحتلالِ موقعٍ على الضفة الأخرى.

واسمُ الكتيبة دالٌّ على طبيعتها، فرجالُها المجاهدون سيقتحمونَ الأهوالَ والمخاطرَ، وأيُّ هولٍ أعظمُ من اقتحامِ نهرِ دجلة في فيضانِه العارم؟ وأيُّ خطرٍ أكبرُ من التوجُّه إلى عاصمةِ دولةٍ عظمى لاقتحامها، والرجالُ المجاهدون لا يعرفون ما أعدَّ لهم الفرسُ لمواجهتهم؟!

الثانية: اسمها (الكتيبةُ الخرساء) وأمَّرَ عليها البطلَ المجاهد (القعقاع ابن عمرو التميمي)، وكلَّفَها أنْ تساندَ كتيبةَ الأهوال، وتسيرَ خلْفَها!!

قادَ الأخَوانِ الشقيقانِ المجاهدان: عاصمُ والقعقاعُ الكتيبتين العظيمتين: الأهوال والخرساء، وأدَّيا المهمة الجهادية على أرفعِ مستوى!

لما عيَّنَ سعدٌ عاصمَ بن عمرو قائداً لكتيبةِ الأهوال فتحَ بابَ التطوّع للانضمامِ إليها. وقال: «مَنْ يبدأُ ويحمي لنا (الفِراضَ) ـ الشاطىءَ الشرقيَّ للنهر ـ حتى يتلاحقَ به الناس، لئلا يمنعَهم الفرسُ من الخروج من الماء؟»[1].

وهذا من حكمةِ سعدٍ وبُعدِ نظرِه، لأنَّ مهمَّةَ كتيبةِ الأهوال خطيرة، سواءٌ في البدءِ باقتحامِ فيضانِ النهر، أو في الاشتباكِ مع الفرسِ على الضفةِ الأخرى.. وهذه المهمةُ الخطيرةُ يناسبُها أنْ يتطوَّعَ المجاهدُ تطوُّعاً للقيام بها، ليكونَ اندفاعُه وحماسُه أكبر، وهذا أَوْلى من أن يكونَ قيامُه بها تكليفاً أو أمراً وتعييناً من القيادة!

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ٩؛ وسقوط المدائن، ص٣٨ ـ ٣٩.

وقد كان المجاهدون مندفعين متحمّسين للجهاد، فما أنْ سمعوا سَعْداً يفتحُ بابَ التطوّع حتى تسابقوا للانضمامِ لكتيبةِ الأهوال.

عاصم بن عمرو يعبر دجلة:

شكَّل سعدٌ كتيبة الأهوالِ من ستمئة مجاهد، وأمَرَ عاصمَ بنَ عمرو أنْ يعبرَ برجالِه النهر..

سار عاصمٌ برجالِه متوجِّهاً نحو النهر، ووقفَ بهم على الشاطئ، وطلبَ منهم متطوعين ليبدؤوا العبور، ويكونوا (رأس حربة) على الضفةِ الأُخرى.

وقالَ لهم: مَنْ ينتدبُ معي لنمنعَ الفِراض [الشاطئ الآخر] من عدوِّكم، ولنحميكم حتى تعبروا؟

فتطوَّعَ معه ستّون رجلاً من شجعان المجاهدين، منهم: شرحبيلُ بن السّمط، وأبو مفزِّر الأسود بن قطبة، والكَلَجِ الضبي..

جعلَ عاصمٌ الستين مجموعتين: ثلاثون يركبون خيلاً إناثاً، وثلاثون يركبون خيلاً ذكوراً، ليكون ذلك أسْلَسَ لعومِ الخيلِ في مياهِ الفيضان!

اقتحمَ المجاهدون الستونَ النهرَ بخيولهم، ذاكرين لله، متوكّلين على الله، قائلين: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٣ـ١٤].

ثم لحقَ بهم باقي المجاهدين الستمئة.. وراحتْ الخيلُ تعومُ في مياه الفيضان، وعلى ظهورِها فرسانُها، حاملين أسلحتهم، ذاكرينَ لله.. وكان إخوانُهم على الجانب الغربي ينظرونَ إليهم بإعجاب، يدعونَ اللهَ لهم أنْ

يُدخلَهم مدخلَ صدق، وأنْ يُخرجهم مخرجَ صدق.

وكان الفرسُ على الجانبِ الشرقي يراقبون الأحداث، وفوجئوا بالخيلِ تعومُ في الماء، وبالمجاهدين متوجِّهين إليهم، ولم يتوقَّعوا هذا التصرفَ من المسلمين!!

معركة العبور النهرية:

واقتحمَ الفرسُ الماء بخيولهم، ليلتقوا بالمجاهدين وسطَ مياهِ الفيضان، ولتنشبَ معركةٌ نهريةٌ وسط دجلة.

نادى عاصمٌ رجالَه قائلاً: «الرماحَ الرماحَ، اشرعوها، وتَوخَّوا بها عيونَهم!».

ونشبتْ معركةُ العبورِ النهرية، التي حدَّدَ عاصمُ بن عمرو سلاحَها، الرماحَ تُوَجَّه نحو عيون جنود الفرس. وطعنَ المجاهدون برماحهم عيونَ جنودِ الفرس وخيولِهم. وولَّى الفرسُ مدبرين، واندفعَتْ بهم خيولُهم نحو البرِّ الشرقي.. ولحق بهم عاصمٌ ورجالُه الستمئة، ونزلَ على الشاطئ الشرقي!

ونشبَ القتالُ عنيفاً على البرّ، وكان بعضُ جنودِ الفرس (عوراناً)، وقَتَلَ المجاهدون كثيراً من الفرس العوران!

وبينما كان جنودُ الفرسِ مشتبكين مع المجاهدين جاءَهم رجلٌ فارسيٌّ من الداخل، وقال لهم: علامَ تقتلون أنفسكم، فواللهِ ما في المدائن أحد![1].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٣؛ وسقوط المدائن، ص٤٠ ـ ٤١.

لقد هربَ الفرسُ من عاصمتِهم، ولم يبقَ فيها إلا القليل، وكانَ حرسُ الشاطئ المشتبكين مع كتيبةِ الأهوال بمثابةِ مؤخّرة، مهمتُها إشغالُ المجاهدين وتعطيلُ تقدُّمهم نحو المدائن، ليتسنَّى للفرس الهروبُ من المدينة.

ولما سمعَ جنودُ الفرسِ بذلك توقَّفوا عن القتال، واستسلموا للمجاهدين، بعدما تمَّ قتْلُ كثيرين منهم.

القعقاع بن عمرو يعبر بكتيبته:

وسيطرَ جنود كتيبةِ الأهوال على الشاطئ الشرقي، فأمرَ سعدٌ قائدَ الكتيبةِ الثانية (الخرساء) القعقاعَ بنَ عمرو بعبور النهر برجاله! فركبوا خيولَهم واقتحموا المياه متوكّلين على الله، ذاكرين له.

ولما عامت الخيول في الماء المتدفّق كانَ القائدُ القعقاعُ حريصاً على رجالِه، يراقبُهم ويعملُ على سلامتِهم، ولم يكن مشغولاً بنفسه فقط، ولا حريصاً على نجاتِه فقط.

كان أبو عثمان النَّهْديُّ أحدَ جنودِ كتيبةِ الخرساء، وأخبرَ عن موقفٍ رآه من القائد، قال: عبرَ الرجالُ الماء، وسَلِموا جميعاً، إلا رجلٌ من قبيلةِ (بارق) يُدعى (غَرْقَدَة) كان على ظهرِ فرسِه وسط الماء، فزالَ عن ظهرِ فرسِه، وطافَ على وجْهِ الماء.. فرآهُ القعقاعُ بنُ عمرو طافياً، فثنى عنانَ فرسِه إليه، وأخذَ بيدِه، فجرَّهُ حتى عبر النهر.

وكان غرقدةُ البارقيُّ من أشدِّ الناس، فخاطبَ القعقاعَ قائلاً: أَعْجَزْتَ

الأَخَواتِ أنْ يلدْنَ مثلك يا قعقاع![1]

والتحقتْ كتيبةُ الخرساءِ بكتيبةِ الأهوال، واستولى الأَخَوان القائدان عاصمٌ والقعقاعُ على الشاطئ الشرقي، وأقامَ جنودُ الكتيبتين هناك يحرسانِ المنطقة، بانتظارِ عبور عشراتِ الآلاف من المجاهدين!

سعدٌ يعبر بالمجاهدين:

ولما رأى سعدٌ نجاحَ الكتيبتين في مهمتِهما أذِنَ للمجاهدين بعبورِ النهرِ على خيولِهم.

أمرهم أنْ يَعبروا النهرَ مَثْنى مَثْنى، بأنْ يسيرَ كلُّ اثنين مقترنيْن معاً، كما أمرهم أن يكونوا ذاكرين لله أثناء العبور.

وقال لهم: قولوا: «بسم الله، نستعينُ بالله، ونتوكَّلُ عليه، حسبُنا اللهُ ونِعمَ الوكيل، لا حول ولا قوة إلا بالله».

إنهم يعبرونَ النهرَ باسم الله، وإن سعداً رضي اللهُ عنه يُريدُ أنْ يوجِّهَهم إلى الله، وأن يقوّيَ صلتَهم بالله، وأن يقوي في قلوبهم معاني الإيمانِ بالله، والتوكّل عليه، ويريدُ أن يركِّزَ على العقيدة الإسلامية الحية الفاعلة المؤثرة، ولذلك طلبَ منهم أنْ يبدؤوا عبورَهم بهذا الذكر المبارك لله!

وأقحمَ المجاهدون خيولَهم لُجَّةَ نهرِ دجلة، وقد علا فيضانُه، وتلاطمت أمواجُه، واسْودَّ ماؤُه مما يحملُ من الطمي، وهو يقذفُ بالزَّبَد، وكان العابرون

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٢؛ وسقوط المدائن، ص٤٥ ـ ٤٦.

حوالي ستين ألف مجاهد، يركبون ستين ألفاً من الخيل!

وكانوا يسيرونَ على وجْهِ الماءِ بأمْنٍ واطمئنان، وثقةٍ ويقين، وكأنهم يسيرون على وجهِ الأرضِ، يتحدّثون دون خوفٍ أو قلق!

وملأ المجاهدون العابرون بخيولهم النهر، وغطّوا ماءَه، فلا يُرى من كثرة مَنْ فيه من الخيول والفرسان.

يوم الجراثيم ديوانا ديوانا:

وسمي يومُ العبورِ يومَ (الجراثيم)، ولعلَّ سببَ تسميته بذلك هو أنَّ بعضَ المجاهدين كانوا يجدون تحت أقدامِ خيولِهم أرضاً تقف عليها إذا أُصيبَت بالتعب[1]!

وجرثومةُ الشيء: أصلُه، وتُطلقُ على القطعةِ من الترابِ تتجمعُ حولَ أصلِ الشجرة[2]!

وكان بقايا الفرس في بيوت المدائن يراقبون المنظرَ العجيب.. خيولٌ عليها فرسانُها تقتحمُ الفيضان، وتعومُ وسْطَ الماء، وتتوجَّهُ إليهم، فلم يصدِّقوا ذلك، وظنّوه حُلماً من الأحلام، أو وهماً من الأوهام.

وصاحوا قائلين: ديوانا، ديوانا!!

أي: هؤلاء مجانين، مجانين، أو: هم جنٌّ وشياطين.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٣.

(٢) المعجم الوسيط، ص١١٤.

وقـالَ بعضُهم لبعض: واللهِ ما تقاتلون الإنس، وإنما تقاتلـون الجن!!

حوار بين سعد وسلمان على وجه الماء:

وكان سعدٌ وسط جندِه على فرسِه، وبجانِبه سلمانُ الفارسيُّ على فرسِه، الفَرَسان تعومان في الماء، والصحابيّان المجاهدان رضي الله عنهما يتحادثان.

قال سعدٌ لسلمان: «ذلكَ تقديرُ العزيزِ العليم، حسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيل، واللهِ لينصُرَنَّ اللهُ وليّه، وليُظهِرَنَّ اللهُ دينَه، وليهزِمَنَّ اللهُ عدوَّه، إن لم يكنْ في الجيشِ بغي، أو ذنوبٌ تغلبُ الحسنات!

فردَّ عليه سلمان قائلاً: الإسلامُ جديد، ذُلِّلَتْ لهم واللهِ البُحور، كما ذُلِّلَ لهم البر، أما والذي نفسُ سلمانَ بيده، ليخرُجُنَّ منه أفواجاً، كما دخلـوه أفواجاً»[1]!

لقد كان الحوارُ بين القائدَيْن رضي الله عنهما حواراً إيمانياً، يذكرانِ اللهَ ويشـكرانِه على نعمـه، ويتذكّران وعـدَه بنصرِ المؤمنيـن وحمايتِهم، ويثقانِ بوعْدِه سبحانه وتعالى.

يُقسمُ سعدٌ باللهِ على إنجازِ وعده، وإظهارِ دينِه، ونصرِ أوليائِه، وهزيمةِ أعدائه، ويُبيّنُ أنَّ شرط النصر والنجاة عدمُ ارتكابِ البغي والظلم، وعدمُ فعلِ الذنـوبِ والسيئات، لِما يعلمُـه من الخطر الكبير للظلمِ والذنـوب على المجاهدين.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٢؛ وسقوط المدائن، ص٤٤ ـ ٤٥.

أما سلمانُ رضي الله عنه فإنه يرى أنَّ الإسلامَ مازال جديداً، وأنَّ انطلاقةَ الأُمةِ المسلمة مازالت قوية، وأنها قادرةٌ على مواجهةِ أعدائِها بفضل الله. ورأى سلمانُ في تسهيلِ العبورِ العظيم للمسلمين آيةً من آياته، أكرمهم بها سبحانه، وها هو سبحانه وتعالى ذلَّلَ لهم البحر، وأعانهم على اقتحامِ الماء، كما سبقَ أنْ ذلَّلَ لهم البرَّ والفيافي والقفار!

ومن ثقةِ سلمانَ بالله أنه أقسمَ على أنَّ اللهَ سيخرجُهم من هذا الفيضان المتلاطم سالمين، ولن يغرق منهم أحد، لأنَّ اللهَ معهم بحمايتِه وتوفيقه!

ولا يُقسِمُ سعدٌ وسلمانُ رضي الله عنهما إلا وهما واثقان مما يُقسمان عليه، وهذا من عظمةِ إيمانِهما بالله، وقوةِ ثقتِهما به!

وبَرَّ اللهُ قَسَمَ سلمانَ رضي الله عنه، وكتب لعشراتِ الآلافِ من المجاهدين النجاة، فخرجوا من مياه الفيضان أفواجاً سالمين، كما دخلوه أفواجاً مجاهدين!

حادث طريف أثناء العبور:

وقد وقعَ أثناء عبورِ المجاهدين حادثٌ طريف، سجَّله المؤرّخون لطرافته:

كان مالكُ بنُ عامر العنزي حليفُ قريش قريناً لعامر بن مالك، يعبران الفيضان معاً، وكان لمالكٍ قَدَحٌ يشرب به، وربطَ مالكٌ قدحَه على متاعِه الذي وضعَه على فرسه، ولكنّ علاّقة القدحِ كانت رثَّةً بالية، فلما عامت الفرسُ في الماء يبدو أنَّ الماءَ أثَّرَ على العلاّقة، فانقطعت، وسقط القدحُ في الماء!

وعَلَّقَ قرينُه عامرُ بن مالك على سقوط القدحِ بقوله له: لا تحزن يامالك على قدحك، لقد أصابَه القَدَرُ فسقطَ في الماء!

فقال له مالك: إنَّ اللهَ سيُعيدُ قدَحي إليّ، وما كانَ اللهُ ليُضَيِّعَه من بين متاع سائرِ العسكر!

ودعا مالكٌ اللهَ بحرارةٍ قائلاً: اللهمَّ ردَّ عليَّ قدحي، ولا تجعلْني أفقدُه من بينهم!!

واستجابَ اللهُ دعاءَ مالك، فلم يَضِعْ قدحُه، وذلك أنَّ مجاهداً من كتيبةِ الأهوال التي كانت تحمي الشاطئ الشرقي كان يسيرُ بمحاذاةِ الماء، فرأى القدحَ عالقاً على الشاطئ، فتناوله برمحه، وجاءَ به إلى الجيش، وعرفه مالكُ العنزي فأخذه.

وقالَ لصاحبه عامر بن مالك: ألم أقل لك! إنَّ الله لن يُضيِّعَ قدحي[1]!

وقال أبو عثمان النهدي معلِّقاً على خروجهم سالمين، ومفاجأةِ الفرس: «لقد طبَّقْنا دجلةَ خيلاً ورَجْلاً ودوابّ، حتى ما يرى الماءَ من الشاطئ أحد، فخرجَتْ بنا خيلُنا إليهم، تنفضُ أعرافَها، لها صهيل، فلما رأونا انطلقوا هاربين، لا يَلْوون على شيء!!».

وهكذا تمَّ أعجبُ عبورٍ في التاريخ، ولم يقعْ عبورٌ مثلُه من بعدِه بهذه الطريقة، بحيث كان هذا العبورُ آيةً من آياتِ الله، أكرمَ بها القائدَ سعداً رضي الله

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٢؛ وسقوط المدائن، ص٤٦.

عنه، وإخوانَه المجاهدين الصادقين، ذَلَّلَ لهم مياه الفيضان، كما ذلَّلَ لهم من قبل الجبال والوديان!

وبذلك صارَ الستون ألفَ مجاهد على ضفّة النهرِ الشرقية في مدينة كسرى (أسبانبر) على بُعْدِ أمتارٍ من القصرِ الأبيض!!

وفي ذلك قال أبو نُجَيْد نافعُ بنُ الأسود، أحدُ المجاهدين:

وَأَسَلْنا على المَدَائنِ خَيْلاً   بَحْرُها مِثْلُ بَرِّهِنَّ أريضا
فانْتَثَلْنا خَزائِنَ المَرْءِ كِسْرى   يَوْمَ وَلَّوا، وحاصَ مِنّا جريضا

ومعنى كلام أبي نُجَيْد: سالتْ خيولُنا على المدائن مع مسيلِ مياه نهر دجلة، وكان منظرُها وهي تعومُ في بحر دجلة أريضاً مُعجباً لكلِّ مَنْ رآه، وفتحْنا عاصمةَ كسرى، ودخلْنا قصره، وسيطرْنا على خزائنِه وأمواله، بينما حاصَ هو وانهزم وولّى، وخرجَ من عاصمتِه جريضاً مُشْرِفاً على الهلاك[1].

(٤) سعد في القصر الأبيض

هروب (يزدجرد) من المدائن:

فاجأ عبور المجاهدين دجلةَ في موسمِ فيضانِه الفرسَ، كما فاجأ ذلك ملكَهم (يزدجرد) نفسه.

وأعجلت المفاجأةُ كثيراً من الفرس، عن أنْ يحملوا معهم أكثر

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٠.

أموالهم، لذلك تركوا في خزائنِهم من الثيابِ والمتاعِ والآنية والأدهانِ ما يفوقُ الحصر، ولا يُدرى ما قيمتُه.. وتركوا وراءَهم كلَّ ما كانوا أعدّوه للحصار من البقرِ والغنم والأطعمة والأشربة.. وخرجوا من المدائن ناجينَ بأنفسهم!

وما هي إلا فترةٌ يسيرةٌ حتى رأى (يزدجرد) المجاهدين المسلمين في عاصمتِه، بل بالقربِ من قصرِه الأبيض.

وخافَ يزدجرد أنْ يخرجَ هارباً من بابِ قصرِه، خشيةَ أنْ يراهُ المسلمون فيقتلوه!.. لذلك دلاَّه رجالُه من الشرفاتِ الخلفيةِ لقصرِه الأبيض! حيثُ أنزلوه في زَنْبيل (قُفَّة)! وما أنْ وطِئَتْ قدماه الأرض حتى ركبَ فرسه هارباً، ومعه رجالُ دولته!!

وكانتْ وجهتُه مدينةَ (حُلْوان) العاصمةَ المؤقتةَ له، وتقعُ إلى الشمالِ الشرقيِّ من المدائن، على بُعدِ مئتين وعشرين كيلو متراً منها[1]!!

وسارتْ كتيبتا الأهوالِ والخرساءِ تُطهِّران شوارعَ (المدائن) من بقايا الفرسِ المنهزمين.

حوادث طريفة في المدائن:

ووقعت أثناء ذلك بعضُ الحوادثِ الطريفة، منها:

١ ـ أدركَ أحدُ المجاهدين رجلاً من الفرس، واقفاً في الطريق، يحمي أدبارَ أصحابِه، ليُؤمِّنَ هروبهم، ولما رأى الفارسيُّ المسلمَ خافَ منه، وأرادَ

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٣ ـ ١٤.

الهروب، فضربَ فرسَه ليهرب، ولكنَّ الفرسَ توقَّفَتْ ولم تتحرَّك خطوة، حتى جاءَ المجاهدُ فقتلَ الفارسيَّ وأخذ فرسَه[1]!

٢ ـ كان فارسٌ من كبارِ قادة الفرس في المدائن، وكان عنيداً واثقاً من نفسه، فقالَ له أهلُه: «لقد دخلَ العربُ المدائن، وهربَ الفرسُ منها، فانْجُ بنفسك»!

فلم يلتفت لذلك القول، ودخلَ أحدَ البيوت، فرآهم ينقلون الثياب منها!

فسألهم: ما لكم؟

قالوا له: أخْرَجَتْنا الزنابير، وغلَبَتْنا على بيوتنا!

فأُصيبَ بالهستيريا، وصارَ يرمي نشّابه بقوسِه على الحيطان، وفَقَدَ أعصابَه، وركبَ دابّته، وصارَ يسيرُ في شوارع المدائن.. ورأى المجاهدين يطهّرون شوارعَها، فرآه أحدهم فضربه قائلاً: خُذْها وأنا ابنُ المخارق! فقتَلَه[2]!

٣ ـ أدركَ أحدُ المجاهدين رجلاً من الفرسِ وحولَه مجموعةٌ من الفرس، وهم يتلاومون فيما بينهم، ويقولون: لماذا فَرَرْنا؟ ومن أيِّ شيءٍ فَرَرنا؟

واعتدّوا بمهارتِهم في الرماية، حيث رفعَ أحدُهم كُرَة، فرماها ذلك الرجلُ الفارسيُّ وفَلَقَها، دلالةً على مهارته.. ورأى المجاهدَ أمامه، وهو

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٥؛ وسقوط المدائن، ص٤٩.
(٢) المرجع السابق نفسه.

أقربُ إليه من الكرةِ التي رماها ففلَقَها، فرمى المسلمَ، لكنَّه لم يصبْهُ بسبب اضطرابِ أعصابه!

فهجمَ عليه المسلمُ وفلقَ هامته، وقال له: خُذْها، وأنا ابنُ مُشَـرِّطِ الحجارة!![1] وتفرقَ أصحابُ الفارسيِّ بعد مقتله!

وصارَ المجاهدون يتحركون في شوارع العاصمة، فيجدونها خاليـةً خاوية، ويجوسونَ خلالَ ديارها وبساتينها وأشجارِها! فلا يجدون فيها أحداً.

سعد يتلو القرآن في شوارع المدائن:

وقام سـعدٌ رضي الله عنه بالسير في شـوارع وطرقات العاصمة، وهو حامدٌ شاكرٌ لله، على ما أَنعمَ به عليهم.

وكان في سيرِه يتلو قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٩].

وسعدٌ رضي الله عنه حافظٌ لكتابِ الله، يُحسنُ استحضارَ آياتِه التي تنطبقُ على الأحداثِ أمامَـه، ويتلو هذه الآيـات، ويُسمعُها إخوانه المجاهدين، ليتذكَّروا القرآن، ويُلاحظوا أبعادَ آياته.. وهذا تفسـيرٌ عمليٌّ منه للقرآن رضي الله عنه!

---

(١) الصواب (مضرّط الحجارة) وهو كناية عن الشدة والصرامة، وهو لقبٌ لعمرو ابن هند ملك الحيرة. انظر اللسان: ١/ ٣٤١، ط. دار صادر. (الناشر)

فلما رأى شوارعَ العاصمةِ الفارسيةِ خاليةً من الفرس، الذين هَربوا منها ناجين بأنفسهم، تذكَّرَ آياتِ القرآن التي تحدَّثت عن إهلاكِ فرعونَ وجنـودِه. وكيفَ تركوا خَلْفَهم من الجنات والعيونِ والزروعِ والنعمـةِ والخير . . . وهو في هذا التذكُّرِ والاستحضار يَجمعُ بين جنودِ فرعونَ وبين الفرس، لاشتراكهما في الكفر والظلم ونفس المصير!!

استسلام حامية القصر الأبيض:

لم يبقَ في العاصمةِ إلا (القصرُ الأبيضُ)، مَقَرُّ كسرى.

وقفَ سعدٌ مع المجاهدين أمامه، وكان في داخله حاميةٌ مقاتلـةٌ من الفرس، أصرَّ رجالُها على القتال، ورفضوا الاستسلام!

حاصرَ المجاهدون القصرَ الأبيض، وطلبَ سعدٌ من سلمانَ الفارسيِّ مخاطبةَ رجالِ الحاميةِ الفارسية، لأنه فارسيُّ الأصلِ، ويُحسنُ مخاطبتهم.

ذهبَ إليهم سـلمانُ رضي الله عنـه، وقـال لهم: أنـا منكم فـي الأصل، وأنا أرقُّ لكم، وحريصٌ عليكم، ولكم عندي ثـلاثُ خصالٍ أدعوكم إليها:

أنْ تُسْلِموا، فتكونوا إخواننا، لكم ما لنا، وعليكم ما علينا. . فإنْ أبيتُم فالجزيةُ تدفعونها لنا. . فإن أبيتُم فالقتال، ننابذُكم على سواء، وإنَّ اللهَ لا يحبُّ الخائنين!

أمْهَلَهُم سلمانُ ثلاثةَ أيام، ليفكِّروا في الأنسبِ لهم! ولما كان اليومُ

الثالثُ اختاروا دفعَ الجزية، والدخول في ذمّة المسلمين!

فاستسلموا، وخرجوا من القصرِ الأبيض. . وكانت هذه آخرَ قوةٍ للفرسِ في العاصمة، وبذلك صارت المدائنُ مدينةً مفتوحة، وصارَ القصرُ الأبيضُ مفتوحاً، بانتظار المجاهدين(١)!

سعد يصلي صلاة الفتح في القصر الأبيض:

دخلَ سعدٌ رضي الله عنه القصرَ الأبيض، وتوجَّه نحو (إيوان كسرى) الكبير، والمجاهدون معه، والجميعُ ذاكرون شاكرون لله.

وصلّى سعدٌ في إيوانِ كسرى صلاةَ الفتح، ثماني ركعات بتسليمةٍ واحدة، وصلّى المجاهدون تلكَ الصلاة، كلٌّ بمفرده، لأنها لا تُصلّى جماعة.

وهذه أولُ مرةٍ يُذكَرُ فيها اسمُ الله في القصرِ والإيوان، وأولُ مرةٍ يُصلَّى فيه لله، وقد كانَ قبلَ ذلك قلعةً من قلاعِ الكفرِ، ومركزاً من مراكزِ الشرك، وها هو الآن يرتفعُ فيه ذكْرُ الله.

ومن السُّنَّةِ أنْ يصلّيَ المجاهدون صلاةَ الفتح، عندما ينصرُهم اللهُ على أعدائهم، شكراً منهم لله، وهي كما فعلَ سعدٌ رضي الله عنه، تُصلَّى فرادى وليس جماعة، ثماني ركعاتٍ بتسليمةٍ واحدة.

ولقد كانَ سعدٌ حريصاً على تطبيقِ سنةِ رسولِ الله ﷺ.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٤ و١٦؛ وسقوط المدائن، ص٥٦.

وجعلَ سعدٌ (القصرَ الأبيض) مقرّاً لقيادةِ المجاهدين، كما جعل (إيوان كسرى) مصلّى.

وكان في الإيوانِ التماثيلُ المجسَّمةُ للرجالِ والخيول، وفيه الصورُ واللوحات المرسومة، فلم يُزِلْها ولم يُغيّرها، وتركَها على حالِها، ولم يمنَعْ من الصلاةِ في الإيوان من أجلها.

القصر الأبيض مقر قيادة سعد:

ونوى سعدٌ الإقامةَ في المدائن، ولذلك أتمَّ الصلاةَ من أولِ يومٍ دخلَ فيه المدائن، وصلّى بالمسلمين الجمعة، حيثُ أدّى الصلاةَ في الإيوان، وخطبَ فيهم خطبةَ الجمعة، وكانت الجمعةَ الأخيرةَ من شهرِ صفر من السنة السادسة عشرة للهجرة[1].

وهي أولُ جمعةٍ تُقامُ في العراق، فقد مضى على سعدٍ في العراق أكثر من سنة، لم يُصَلِّ فيها الجمعةَ مع المجاهدين، لأنهم مسافرون، والجمعةُ غيرُ واجبةٍ على المسافرين، كما أنهم كانوا يَجمَعون ويَقْصرون الصلاة.

وها هي أولُ مرّةٍ يُتِمُّ فيها المجاهدون الصلاة.

وبذلك صارَ القصرُ الأبيض مقرَ قيادةِ سعد، وصارَ إيوانُ كسرى المسجدَ الذي يَؤُمُّ سعدٌ فيه المجاهدين. وسبحان اللهِ ربِّ العالمين!

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٦؛ وسقوط المدائن، ص٥٦ ـ ٥٨.

(٥) سعد يجمع غنائم المدائن ويقسمها

مطاردة فلول المنهزمين:

لما استقرَّ سعدٌ في مقرِّ قيادتِه (القصرِ الأبيض) رتَّبَ الأمورَ. فأمرَ قائدَ المقدمةِ زُهْرَةَ بنَ الحويَّة أنْ يَخرجَ برجالِه لمطاردةِ فُلولِ الفرسِ المنهزمين، ليقضي عليهم، ويأخذَ منهم الأموالَ التي فرُّوا بها، وأمره أنْ يطهِّرَ المنطقةَ منهم، حتى يصلَ إلى (النَّهروان).

وقامَ زُهرةُ بعملِه على أحسنِ صورة، ولحقَ بالفرسِ المنهزمين في كلِّ جهة، واستخلصَ ما معهم من الأموالِ التي نهبوها وفرّوا بها من المدائن، حتى وصلَ جسرَ النَّهروان.

ومن طريفِ ما وقعَ لزُهرةَ في مهمته، ما رواه (الرُّفَيْلُ بنُ ميسور) أحدُ جنودِه فقال: خرجَ زُهرةُ بنُ الحويَّـة يتبعُ الفرس، حتى انتهى إلى (جسـر النهروان) فوجدَ مجموعةً من الفرسِ مزدحمين عليه، فوقعَ (بَغْلٌ) في الماء، فتجمَّعوا على البغلِ مسرعين!

فقالَ زهرةُ: أُقسمُ بالله إنَّ لهذا البغلِ لشأناً! إنّهم لم يتجمَّعوا عليه هكذا ولم يحرصوا عليه إلا لشيء.

فهجمَ عليهم وقضى عليهم، وفتَّشَ المجاهدون حُمولةَ البغلِ، فإذا هي حليةُ كسرى: ثيابُه وخرزاتُه ووشاحُه ودرعُه، التي كان يجلسُ فيها للمباهاة، فلما هربَ كسرى إلى (حُلْوان) حرصَ رجالُه على تأمينِ حليتِه الثمينـة، وحَمَلوها على ذلك البغل، وجعلوا له مجموعة من الحرس، ولما قضى زُهرةُ

على حُرّاسِ البغل، أمرَ بوضْعِ حليةِ كسرى في الأقباض، لتُقْسَمَ مع باقي الغنائم[1]!

عمرو المزني يحصي الغنائم:

وكلَّف سعدٌ (عمرَو بنَ عمرِو بنِ مقرن المزني) بالإشرافِ على جمعِ الغنائم، وتسجيلها وحصرِها، تمهيداً لتقسيمها على المجاهدين.

وجمعَ المجاهدون الأموالَ والغنائمَ من قصورِ كسرى وبيوتِ رجالِه، ووجدوا فيها الكثيرَ من الذهبِ والفضة والزينةِ والحلي، والأثاثِ والمتاع، والبسطِ والفرش والسجاجيد!!

ولفتَ نظرَ سعد في القصر الأبيض مجموعةٌ من التماثيل، ونظرَ إلى أحدها، فإذا أُصبعه موجَّهةٌ بالإشارةِ إلى مكانٍ معيّن!

فقالَ سعد: لم يوضَعْ هذا التمثالُ هنا عبثاً، وإشارتُه ليستْ عبثاً!

وتبعوا إشارتَه، فأوصلَهم إلى كنزٍ عظيمٍ من كنوزِ الأكاسرة الأوائل، وأخرجوا منه الكثيرَ من الذهبِ والفضةِ والجواهر واللآلئ.

طرائف أثناء جمع الغنائم:

ومن طرائفِ ما جرى للمجاهدين وهم يَجمعون الغنائمَ والأقباضَ بأمانة:

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٧؛ وسقوط المدائن، ص٦٠ ـ ٦١.

١ ـ قـالَ حبيبُ بن صُهْبان: دخلْنـا المدائن، فأتَينا على قِبـاب تركيةٍ، مملوءةٍ سلالاً مختَّمةً بالرصاص، فما حسبْناها إلا طعاماً! فإذا هي آنيةُ الذهب والفضة!.. وأتينا على كافورٍ كثير، فما حسبْناه إلاّ ملحاً!! فجعلْنا نُمَلِّحُ به العجين، فصارَ الخبزُ مُرّاً![١].

٢ ـ قال الكَلَجُ الضّبيّ: كنتُ فيمنْ خرجَ في ملاحقةِ الفرس، فإذا أنا باثنين من الفرسِ يَسوقان بغليْن، وهما يذودان الناسَ عن البغليْن بالنّشّاب، فشددتُ عليهما، فرمياني بما معَهما من النّشّاب، فهجمتُ عليهما فقتلتُهما، وجئتُ بـالبغليْن إلى صاحـبِ الأقباض، وأنـا لا أدري ما عليهما.. فحطَّ صاحبُ الأقباضِ عنهما الحمل، فإذا على أحدِ البغليْن سَفَطانِ فيهما تاجُ كسـرى مفسّخاً، وإذا على البغلِ الثاني سَفَطان فيهما ثيابُ كسـرى التي كان يلبسُها، منسوجةً بالذهب، منظومـةً بالجوهر[٢].

٣ ـ خرجَ القعقاعُ بنُ عمرو التميمي في ملاحقةِ الفرس، فلحقَ بأحدِ الجنـودِ الفرسِ فقتَلَـهُ، ووجدَ معه دابّة، عليها عَيْبَتان (زنبيلان أو عِدْلان) وغِلافان. ولما فتحَ الغلافَيْن وجدَ في أحدِهما خمسةَ أسياف، وفي الثاني ستّة أسياف من الأسياف الأثريةِ الثمينة المشهورة، منها سيفُ كسرى أنوشروان وسيفُ هرقل، وغيرهما.. ولما فتحَ العيبَتَيْن وجدَ فيهما مجموعةً من الأدراعِ الثمينة الأثرية.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٧.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ١٧ ـ ١٨.

وكان ذلك الجنديُّ الفارسيُّ مكلّفاً بحمايةِ تلك الأسيافِ والدروع المهمة وتوصيلها إلى كسرى في عاصمتِه الجديدة (حُلْوان). . فوضعَها القعقاعُ في الأقباض، فأعطاهُ سعدٌ سيفَ هرقل ودرعَ بهرام مكافأةً له[1]!

أمانة وإخلاص وصدق المجاهدين:

٤ ـ قال أبو عبيدة العنبري: لما هبطَ المسلمون المدائن، وجمعوا الأقباض، أقبلَ رجلٌ بِحُقٍّ معه [جرَّةٌ كبيرةٌ مملوءةٌ ذهباً]، فدفعَه إلى صاحبِ الأقباض.

فقالَ الذين حولَ صاحبِ الأقباض: ما رأينا مثلَ هذا قط، ولا يعدلُه أو يقاربُه شيءٌ مما عندنا!

ثم داعبوا الرجلَ الذي جاءَ به، فقالوا له: هل أخذتَ منه شيئاً؟

فقال: أما واللهِ لولا اللهُ ما أتيتُكم به!!

فعرفوا أنَّ له شأناً، فقالوا له: مَنْ أنت؟

فقال لهم: لا واللهِ لا أُخبركم مَنْ أنا لتحمدوني، ولا أُخبرُ غيرَكم ليقرظوني، ولكني أحمدُ اللهَ وأرضى بثوابه!

وعادَ الرجلُ إلى قبيلتِه، وأتْبعوه رجلاً ليتعرَّف عليه فإذا هو الأشَجُّ، عامرُ بنُ عبدِ القيس رضي الله عنه، زعيمُ قومه، الذي قالَ له رسولُ الله ﷺ:

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٨.

«إنَّ فيك خصلتيْن يحبُّهما اللهُ ورسولُه: الحلمُ والأناة..»[1].

وكان جابرُ بن عبدِ الله رضي الله عنهما ممّن شهدوا فتحَ المدائن، وشهدَ للمجاهدين بالأمانة، فقال: «واللهِ الذي لا إلـه إلا هو، ما رأَيْنا أحداً من أهل القادسيةِ أنّه يُريدُ الدنيا مع الآخرة! ولقد اتهمْنا ثلاثةَ نفر، فرأَينـا منهم الأمانـةَ والـزهد، وهم: طليحـةُ بن خويلد، وعمـرُو بن معدي كرب، وقيـسُ بنُ المكشوح».

ويكفي هؤلاء المجاهدين الأُمناءَ الزاهدين شهادةُ قائدِهم سعدٍ رضي الله عنه، حيث كادَ يقتربُ بهم من أهلِ بدر، وذلك في قوله: «واللهِ إنَّ الجيـشَ لذو أمانة، ولولا ما سبقَ لأهلِ بدرٍ لقلتُ: وايمُ اللهِ على فضل أهل بـدر! لقد تتبعْتُ من أقوامٍ منهم هَناتٍ وَهناتٍ فيما أحـرزوا، ما أحسبها ولا أسمعُها من هؤلاءِ القوم»!

وجمعَ المجاهدون غنائم وأنفالاً كثيرة، من الذهبِ والفضةِ والحليِّ والجواهر والأثاث والثياب، وتُقَدَّرُ بالملايين.

سلمان بن ربيعة يقسم الغنائم:

وكلَّف سعد (سلمان بن ربيعة الباهلي) تقسيمَ الغنائم.

ومن المعلوم شرعاً أنَّ الغنائمَ (تُخَمَّسُ)، أي: تُقَسَّمُ إلى خمسةِ أخماس، يأخذُ المجاهدون أربعةَ أخماس، ويُرسلُ الخمسُ الخامسُ إلى الخليفة، ليوزَّع على الفقراء والمساكين والمحتاجين.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٩.

ونصَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤١].

قَسَّمَ سلمانُ بنُ ربيعة أربعةَ أخماسِ الغنائم على المجاهدين، الذين زادَ عددُهم عن ستين ألفاً، وكان نصيبُ كلِّ واحدٍ منهم عشراتِ الأُلوف من الدراهم والدنانير!

بساط كسرى عند عمر:

وأبقى سعدٌ خُمسَ الغنائم ليبعثَ به إلى عمرَ رضي الله عنه في المدينة.

وبقيَ (بساطُ كسرى) الذي يُسمَّى (القِطْف)، لم يتمكَّنْ (يزدجرد) من حمله عندما هرَبَ من المدائن، فتركَه. وكانَ البساطُ قطعةً واحدةً مربّعةً، طولُه ستون ذراعاً وعرضُه ستون ذراعاً، وفيه طرقٌ كالصور، وفصوصٌ كالأنهار، وفي حافاتِه وجوانبه كالأرضِ المزروعة.. وكانوا يعدّونه للشتاء إذا ذهبت الرياحين، وإذا أرادوا الشربَ شربوا عليه، فكأنّهم في رياض..[1].

ورأى سعدٌ أنَّ الأوْلى أنْ لا يُقطَعَ البساطُ ويُقسمَ على المجاهدين، فاستأذَنَهم في إرسالِه كلِّه إلى أميرِ المؤمنين رضي الله عنه في المدينة.

وكان مما قالَه لهم: «إنَّ اللهَ قد ملأَ أيديكم، وقد عَسُرَ تقسيمُ هذا البساط،

---

(١) انظر وصف بساط كسرى في تاريخ الطبري: ٤/ ٢١ـ ٢٢.

ولا يقوى على شرائه أَحَدٌ منكم . . وأرى أنْ تُطيبوا به نفساً لأميرِ المؤمنين ، يضعُه حيث يشاء ، وهو يقعُ من أهلِ المدينة موقعاً طيباً ! » .

فوافقوه على رأيه .

أمرَ سعدٌ (بشيرَ بنَ الخصاصية) أنْ يأخذَ خُمُسَ الغنائم وبساطَ كسرى كاملاً إلى عمر رضي الله عنه إلى المدينة !

ووَزَّعَ عمرُ رضي الله عنه من الخمسِ على أهلِ المدينة ، وكان ذلك الخمسُ كثيراً .

واستشارَ عمرُ الصحابةَ في التصرّفِ ببساط كسرى ، فجعلوا الأمْرَ إليه ، يرى فيه رأيه .

لكنَّ عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه أشارَ عليه بقسمتِه بين المسلمين ، وقال له : لِمَ تجعلُ علمَك جهلاً ، ويقينَكَ شكّاً يا أميرَ المؤمنين؟ الأمْرُ كما قالوا ، ولم يبقَ إلاّ التروية ، وإنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيتَ فأمضيت ، أو لبستَ فأبليت ، أو أكلتَ فأفنيت .

وبذلك أشارَ عليٌّ على عمرَ بقسمةِ البساط بين المسلمين . فقطعَه عمرُ وقَسَّمَهُ بينهم ، وباعَ عليٌّ رضي الله عنه قطعَتَه بعشرين ألفاً ، ولم تكنْ من أجودِ القِطَع !

ولما رأى عمرُ الأموالَ من الذهبِ والفضةِ والأثاثِ أمامَه شهدَ للمجاهدين بالأمانة ، وقال : إنَّ قوماً أدّوا هذا لأُمناء !

فقالَ له عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه: «عَفَفْتَ فَعفَّتْ رعيَّتُك، ولو رَتَعْتَ لَرَتَعوا...»[1].

سراقة بن مالك وسوار كسرى:

ولما رأى عمرُ أمامَه سوارَيْ كسرى وتاجَه نادى (سُراقةَ بنَ مالك) رضي الله عنه، ليُلبِسَه سوارَيْ كسرى.

وإنما دعا سراقة بن مالك بالذات لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ وَعَدَه أنْ يَلْبَسَ سوارَيْ كسرى، لمَّا لحقَ به في يوم الهجرة.

وها هو وعد رسولِ الله ﷺ له قد تحقَّقَ بعد سبعةَ عشرَ عاماً من الهجرة!

وبعدما لبسَ سراقةُ سوارَيْ كسرى، قالَ له عمر: أَدْبِرْ! فأَدْبَرَ. ثم قال له: أَقْبِلْ! فأَقْبَلَ. ثم قالَ له: قل: اللهُ أكبر. الحمدُ لله الذي سَلَبَهما كسرى بنَ هرمز، وألبَسَهما سراقةَ بنَ مالك، أعرابيٌّ من بني مُدْلج!!

ثم قال عمرُ لسراقةَ رضي الله عنهما: بَخٍ، بَخٍ. أُعَيْرابيٌّ من بني مدلج، عليه قباءُ كسرى وسراويلُه وسيفُه وتاجُه! رُبَّ يومٍ يا سراقةُ لو كان عليك فيه هذا من متاع كسرى وآل كسرى لكان شرفاً لك ولقومك!

ثم قالَ عمرُ وحولَه الصحابةُ رضي الله عنهم: اللهمَّ إنّكَ منعْتَ هذا نبيَّكَ ورسولَك، وكان أحبَّ إليك منّي، وأكرمَ عليكَ منّي! ومنعْتَه أبا بكر، وكان

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير: ٧/ ٦٧ ـ ٦٨.

أحبَّ إليك منّي، وأكرمَ عليكَ منّي!.. وأَعْطيتَنيه! فأعوذُ بك أنْ تكونَ أعطَيْتَنيه لتمكُرَ بي!!

ثم بكى عمر، واشتدَّ بكاؤه، حتى رحمه الصحابة الذين عنده.

ثم طلبَ من عبدِ الرحمنِ بن عوف أنْ يُسارعَ بتقسيمِ الغنائمِ على المسلمين!

وهكذا استقرَّ سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه في المدائن، وجعلَها مركزَ قيادتِه، ووجَّهَ منها كتائبَ المجاهدين لتُلاحِقَ فُلولَ الفرس، وتطهِّرَ البلادَ منهم.

(٦) سعد يكمل فتح بلاد العراق

كتائب المجاهدين تلاحق الفرس:

بعدما استقرَّ سعدُ بن أبي وقاص رضي الله عنه في المدائن أتاهُ الخبرُ بأنَّ الفرسَ يتجمَّعون لحرب المسلمين:

عسكرَ (مَهْرمان الرازي) في (جلولاء) على بُعدِ مئةٍ وخمسين كيلومتراً إلى الشمالِ الشرقيِّ من المدائن، وحفرَ الخنادقَ الحصينةَ فيها، وتعاهدَ مع جيشِه على أنْ لا يفرّوا أمام المسلمين.

وتقدَّمَ أهلُ الموصل بقيادة (الأنطاق)، وعسكروا في تكريت، على بُعدِ مئتين وعشرين كيلومتراً إلى الشمال من المدائن.

وكان كسرى (يزدجرد) في (حُلوان) عاصمتِه المؤقتة على بُعدِ مئتين وعشرين كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من المدائن.

وكتبَ سعدٌ إلى عمرَ في المدينةِ بأخبارِ هذه الجموع.

فكتبَ عمرُ إلى سعد رضي الله عنهما، وكان مما قاله له: «سَرِّحْ هاشمَ ابنَ عتبة إلى جلولاء في اثني عشر ألفاً، واجعلْ على مقدّمتِه القعقاعَ بن عمرو، وعلى ميمنته سِعْرَ بن مالك، وعلى ميسرتِه أخاه عمرَ بن مالك، واجعل على الساقة عمرَو بن مرة الجهني.

وإنْ هزمَ اللهُ الجندين: جندَ مهران وجندَ الأنطاق، فقدم القعقاعَ في آثارِ القومِ، حتى ينزلَ بحلوان، ويكونَ بين السوادِ وبين الجبل، فيكون ردءاً للمسلمين، ويُحرزَ اللهُ لكم سوادكم..»[1].

نفّذَ سعدٌ كتابَ عمرَ، وعقدَ اللواءَ لابنِ أخيه هاشم بن عتبة، وجعلَ معه اثني عشر ألفاً، والقادةَ الأربعةَ الذين ذكرهم عمر، ومعه من الأبطال: حجر ابن عدي، وعمرُو بن معدي كرب الزبيدي، وطليحةُ بن خويلد الأسدي.

انتصار هاشم بن عتبة في جلولاء:

ووصل هاشم بن عتبة جلولاء بعد أربعةِ أيام من خروجِه من المدائن، فوجدَ الفرسَ متحصِّنين داخلَ حصونِهم، وحولَها الخنادق، فحاصرَهم مدةً طويلةً، زادتْ على سبعةِ أشهر!

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ٢٤؛ وسقوط المدائن، ص٧٢، ٧٣.

وفي مطلعِ شهرٍ ذي القعدة من السنةِ السادسة عشرة وقعتْ معركـةُ جلولاء، وكانتْ معركةً عنيفةً شديدةً قاسية.

وخطبَ هاشمُ بنُ عتبة المجاهدين، ورغّبهم في الجهادِ وإخلاصِ النية، وكان مما قالَه لهم: «إنَّ هذا المنزلَ منزلٌ له ما بعدَه، أَبْلُوا اللهَ بـلاءً حسناً، يتمَّ اللهُ لكم عليه الأجرَ والمغنم، واعملوا لله..».

وبعدَ التحامٍ شديدٍ بين الجيشين انهزمَ الفرس، وتراجَعوا داخل خنادقهم، فلحقَهم المسلمون.. ودخلَ الليلُ والقتال شديد.. وكان القعقاعُ بن عمرو في مقدمةِ المجاهدين..

وتمكَّنَ القعقاعُ من الوصولِ إلى الخندق، وكان معه مجموعةٌ من القادة منهم الأميرُ هاشمٌ نفسُه.

فنادى القعقاع قائلاً: يا معشرَ المسلمين: هذا أميرُكم قد دخلَ خندقَ القوم، وأخذَ به، فأقبلوا إليه، ولا يمنعنكم مَنْ بينكم وبينه من دخوله!!».

وحملَ المجاهدون حملةً شديدةً قوية ووصلوا إلى قادتِهم عند الخندق، وانهزمَ الفرسُ أمامهم.

وكتبَ اللهُ النصرَ للمجاهدين، وهزمَ اللهُ الفرسَ، بعدما سقطَ منهم مئة ألفِ قتيل، جَلّلوا وغَطّوا أرضَ المعركة بجثثهم. ولهذا سُمِّيَتْ المعركةُ معركةَ جلولاء!!

وكانت معركةُ جلولاء في ذي القعدة من السنةِ السادسة عشرة، بعد فتحِ

المدائنِ بتسعةِ أشهر[1]!

أقامَ هاشمُ بنُ عتبةَ في جلولاء، وأرسلَ سعدٌ من المدائن مَدَداً للقعقاع، وأمره بالتوجُّهِ إلى (حُلوان) عاصمةِ يزدجرد المؤقتة، حسبَ كتابِ عمرَ السابق. وحُلوان على بُعدِ حوالي مئة كيلو متر من جلولاء.

انتصار القعقاع في حلوان:

اشتبكَ القعقاعُ مع الفرسِ في (خانَقْين) وهَزَمَهم، وقتلَ مهرانَ الرازي قائدَ معركة جلولاء المنهزم، وأخذَ سبياً كثيراً منهم، عُرِفَ باسم (سبي جلولاء) ووجَّهَه إلى سعدٍ في المدائن!

ولما علمَ يزدجرد بهزيمةِ قومه في جلولاء، أيقنَ أنَّ القعقاعَ بن عمرو في طريقه إليه، لذلك سارعَ بالهربِ من حُلوان متوجِّهاً إلى (الري).

وكانت معركةُ (حُلوان) خاطفة، انتهتْ بهزيمةِ الفرس، ودخلَ القعقاعُ المدينة[2].

بعدَ انتصارِ المجاهدين في جَلولاء وفي حُلوان، أمرَ سعدٌ قواتِه بتطهيرِ المنطقةِ الواسعةِ الواقعةِ بين حُلوان والمدائن من المقاومة الفارسية، فقاموا بعملهم على أحسنِ صورة، وأخضعوا المنطقةَ لسلطانِ المسلمين، ونشروا الإسلام، ودخل أهل المنطقة بالإسلام أفواجاً، عن اختيارٍ ورضى واقتناع!

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ٢٤ ـ ٣٢؛ وسقوط المدائن، ص٧٣ ـ ٧٩.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٣ ـ ٣٥؛ وسقوط المدائن، ص٨٢ ـ ٨٣.

وقال الأميرُ هاشم بن عتبة يفتخرُ بيومِ جلولاء:

يَــوْمُ جَلــولاءَ وَيَــوْمُ رُسْتُــمْ ... وَيَــوْمُ زَحْــفِ الكــوفَــةِ المُقَــدَّمْ
وَيَــوْمُ عَــرْضِ النَّهْــرِ المُحَــرَّمْ ... مِــنْ بَيْــنِ أيَّــامٍ خَلَــوْنَ صُــرَّمْ
شَيَّبْــنَ أصْــداغــي فَهُــنَّ هُــرَّمْ ... مِثْــلَ ثَغــامِ البَلَــدِ المُحَــرَّمْ

وكانت غنائمُ المسلمين في جلولاء كثيرة، قُوِّمَتْ بثلاثين مليون درهم[1]، وكان خُمُسُها ستةَ ملايين درهم، هي نصيبُ المسلمين في المدينة.

ولما عادَ هاشمُ بن عتبة بالأنفال إلى عَمِّهِ سعدٍ بالمدائن، أَمَرَ سعدٌ (سلمان بن ربيعة الباهلي) بقسمةِ الغنائم على المجاهدين.

سعد يبعث بالبشرى والغنائم إلى عمر:

وبعثَ سعدٌ بالخُمسِ إلى المدينة، وكتبَ إلى عمرَ يبشِّرُه بفتحِ جلولاء وحُلوان. وكلَّم زيادُ بنُ أبي سفيان عمرَ بأخبارِ المعارك والفتوح، فشكرَ عمرُ ربَّه على ذلك.

وأحبَّ عمرُ أنْ يبشرَ الصحابةَ بوصْفِ المعارك والعمليات، فقال لزياد: هل تستطيعُ أنْ تقومَ في الناسِ، وتكلِّمَهم بمثل الذي كلَّمَتني به؟

فقالَ له زياد: واللهِ ما على وجهِ اللهِ شخصٌ أهيبَ في صدري منك! فكيفَ لا أقوى على هذا مع غيرك!

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ٣٣ ـ ٣٤؛ وسقوط المدائن، ص٨٧ ـ ٨٨.

فجمعَ عمرُ الصحابةَ لزياد، وقامَ زيادٌ فيهم متكلّماً راوياً، وأخبرهم عن تفاصيلِ المعارك..

وأُعجِبَ عمرُ بروايتِه وأُسلوبِه وفصاحتِه، وقال مادحاً له: هذا الخطيبُ المِصْقَع!

فقالَ زياد: إنَّ جندَنا أطلقوا بأفعالهم لساننا[1]!!

ووجَّه سعدٌ (عبدَ الله بن المعْتَمّ) في خمسةِ آلافِ مجاهد لقتالِ أهلِ الموصل - حسبَ أمرِ عمرَ له بذلك -، فهزمَ ابنُ المعتَمّ الفرسَ في تكريت في جمادى الثانية في السنة السادسة عشرة.

وتتابعت الفتوحُ، حيث تمَّ فتحُ تكريت، والموصل، ونينوى، وهيت، وقرقيسياء، وماسبذان[2].

وتتابعت الفتوحاتُ على الجبهةِ الجنوبية، جبهةِ الأُبُلَّة والبصرة، التي كان يقودُ المجاهدين فيها عتبةُ بنُ غزوان رضي الله عنه، ففتحَ المجاهدون الأُبلّةَ، والبصرة، وميسان، وفتحوا الأهوازَ وما بعدَها[3].

وكانت السنةُ السادسة عشرة سنةَ فتْحِ بلاد العراق، وما أن انتهتْ تلك السنةُ حتى كان سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه قد أتمَّ بجيشِه المجاهدِ فتحَ العراق كلِّه من البصرة في الجنوبِ إلى الموصل في الشمال.

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ٢٩ - ٣٠؛ وسقوط المدائن، ص٨٩ - ٩١.
(٢) انظر أخبار هذه الفتوح بالتفصيل في: سقوط المدائن، ص١٠٣ - ١١٢.
(٣) انظر هذه الفتوح على الجبهة الجنوبية في: سقوط المدائن، ص١١٣ - ١٣٦.

خلاصة فتوح العراق:

ولنأخذ هذا التلخيصَ الموجزَ من الأُستاذ أحمد عادل كمال، عن حركةِ الفتوح في السنة السادسة عشرة: «لمَّا تمَّ فتحُ المدائن اتجهتْ قواتُ سعدٍ إلى عدّةِ اتّجاهات، تتعقَّبُ التجمّعات المجوسية وتسحقُها. وكان الاتجاهُ الأساسيُّ نحو (حُلوان)، حيثُ نزلَ يزدجرد. فكانت (جلولاء) على الطريقِ إلى حُلوان. هذا بينما راحتْ قواتٌ أُخرى تفتحُ (تكريت) و(الموصل)، وثالثةٌ تفتحُ (هيت) و(قرقيسياء)، ورابعةٌ تفتح (ماسبذان).. في حين ذهبتْ قواتُ (جلولاء) تسيطرُ على ما حولَها، وتُثَبِّتُ أقدامها، في دائرة يبلغُ نصفُ قطرها نحواً من مئتي كيلومتر.. وأمدَّ سعدٌ قواتِ البصرة، حتى بلغتْ خمسةَ آلاف، وشرعَتْ تفتحُ (الأهواز)!

هذه العملياتُ استغرقتْ العامَ السادسَ عشرَ الهجري، وانتهتْ جميعُها قبلَ نهايتِـه.. وهي تمثلُ انهياراً سريعاً مفاجئاً للنفوذِ الساسـانيِّ من تلك الدائرة.

ومع نهايةِ العامِ السادسِ عشر كانت القوةُ الأساسيةُ مع سعدٍ في المدائن، وكانت هناك ثغورٌ أمامية، بها حاميات، هي:

١ ـ حُلوان، عليها القعقاعُ بن عمر التميمي.

٢ ـ ماسبذان، عليها ضرارُ بن الخطاب الفهري.

٣ ـ الموصل، عليها عبدُ الله بن المعتم العبسي.

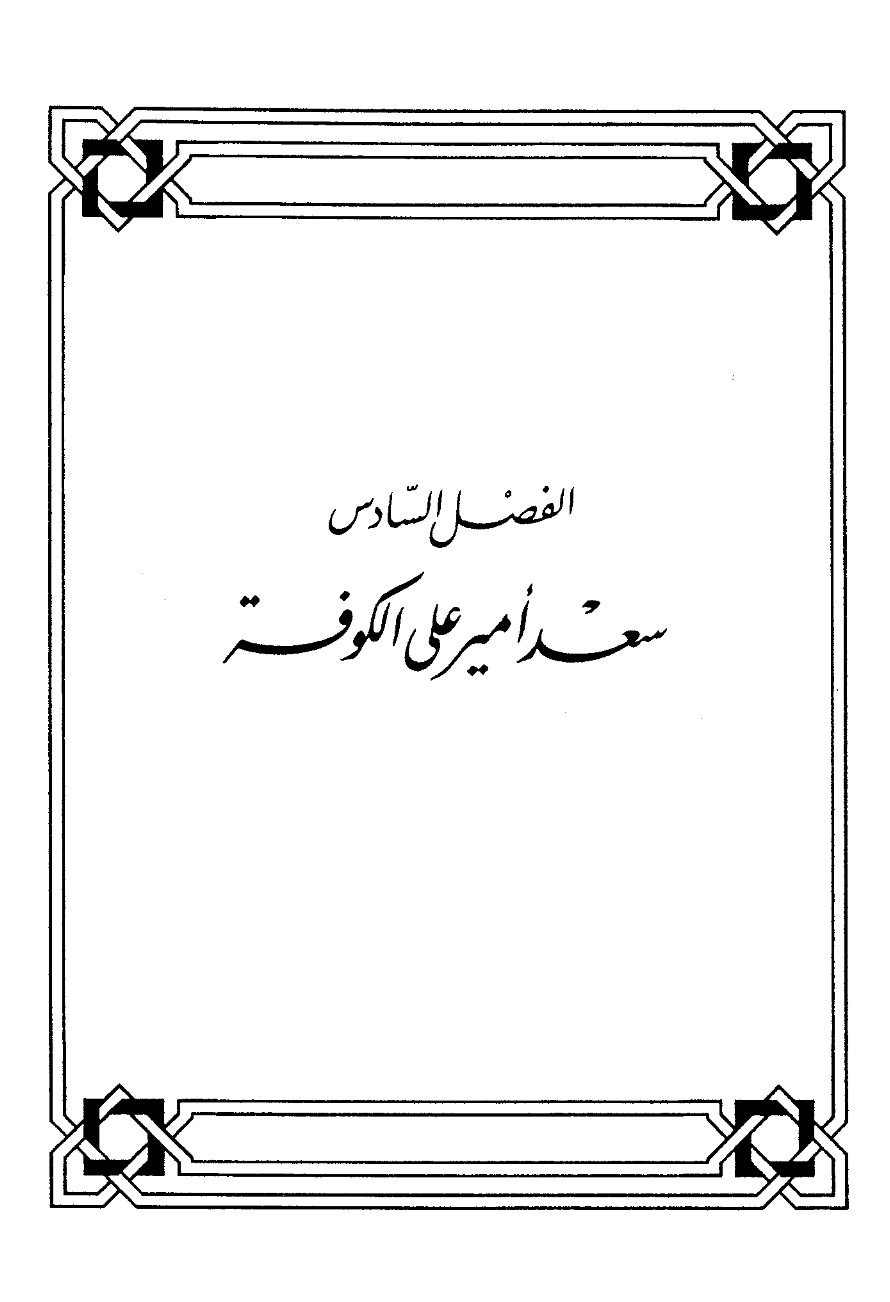
٤ ـ قرقيسياء، عليها عمرُ بن مالك بن عتبة.

٥ ـ البصرة، عليها عتبةُ بن غزوان»[١].

* * *

(١) سقوط المدائن، ص١٣٧ ـ ١٣٨.





الفصل السادس

سعد أمير على الكوفة



الفصل السادس

سعد أمير على الكوفة

(١) سعد ينشئ الكوفة

المدائن لا تناسب المجاهدين:

بعدما فتحَ سعدُ بن أبي وقاص المدائنَ في صفر من السنةِ السادسة عشرة، جعلَ مقرَّ قيادتِه فيها، وتقعُ المدائنُ على جانبيْ نهرِ دجلة، ومقرُّ قيادتِه كان على الجانبِ الشرقيِّ للنهر، حيثُ القصرُ الأبيض وإيوانُ كسرى.

وأثناءَ إقامةِ سعدٍ في المدائن، ولَّى عمرُ رضي الله عنه النعمانَ بنَ مُقَرِّن المزَني على خراجِ ما سقى نهرُ دجلة، وولَّى أخاه سُوَيْدَ بنَ مُقَرِّن على خراجِ ما سقى نهر الفرات، ولكن النعمانَ وسويداً استعفيا، فولَّى عمرُ مكانهما حذيفةَ ابن أُسيد وجابرَ بن عمرو المزني، ولما استعفيا ولَّى عمرُ مكانهما عثمانَ بنَ حنيف وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما[1]. وكانوا تابعين لسعدِ بن أبي وقاص، لأنه هو الأميرُ على العراق، ومقرُّ إمارتِه على المدائن.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٣.

ولكنَّ جَـوَّ المدائن لم يناسـب المجاهدين، لأنهم قَدِمـوا من الجزيرة العربية، من الحجاز واليمن وعُمان ونجد، وهي مناطقُ صحيَّة جافَّةُ الهواء، ليس بها رطوبةٌ ولا بعوض ولا ذباب!

أما المدائن فقد كانت أرضُها طينيةً رطبة، لأنها واقعةٌ على جانبي نهرِ دجلة، وهي كثيرةُ الأشجارِ والبساتين والزروع، وبيوتُها كثيرةٌ مبنيةٌ على الطراز الفارسي، وفيها ذُبابٌ وبعوضٌ كثير[1].

ولذلك لم يناسبْ جوُّ المدائنِ المجاهدين الذين سكنوا الصحراء، فأثَّرَ فيهم تأثيراً سلبياً، حيث ضعفَتْ أبدانُهم، وتغيَّرَتْ ألوانُهم!

ولاحظ القادةُ هذا التغيير السلبيَّ على أبدانِ المجاهدين، منهم سعدُ بن أبي وقاص وحذيفةُ بن اليمان.

عمر يرى التغيير السلبي على المجاهدين:

ولما تمَّ فتحُ جلولاء وحلوان وتكريت والموصل وغيرها، قَدِمَت الوفودُ على عمرَ رضي الله عنه في المدينة، مبشِّرين بالفتح.

ونظرَ عمرُ إلى الوفودِ، فلاحظَ التغييرَ على أبدانهم، إنهم ليسوا على الحالةِ التي ذَهبوا بها إلى العراق قبلَ حوالي سنتين، فأزعَجَه ذلك، وقال لهم: «واللهِ ما هيأتكم بالهيئةِ التي بدأتُم بها جهادَكم، ولقد قدمَتْ قبلكم وفودُ

---

(١) سقوط المدائن، ص١٤١.

القادسية والمدائن، فوجدتُهم كما بدؤوا لم يتغيّروا! أما أنتم فقد انتكبْتُم وتغيَّرتم! فما الذي غيَّرَكم؟!

قالوا: وخومةُ البلاد»!

ووخومةُ البلاد هي رداءةُ جوِّها، ورطوبةُ هوائها وتعفُّنُه، وسوءُ طبيعتها، مما جعلها غيرَ مناسبة لهم!

بعد ذلك كتب حذيفة بن اليمان ـ وكان مع سعدٍ يلي خراجَ السوادِ ما بين المدائن والبصرة ـ إلى عمر، وقال له: «إنَّ العربَ قد أُترِفَتْ بطونُها، وخفَّتْ أعضاءُها، وتغيَّرَتْ ألوانُها!»[1]!

عند ذلك كتبَ عمرُ إلى سعدٍ رضي الله عنهما يسأله عن سببِ تغيُّرِ حالةِ وصحةِ المجاهدين!

فردَّ عليه سعد مبيناً أنَّ السببَ هو «وخومةُ جَوِّ المدائن»!

قال له عمرُ في كتابه: «أنَبْئني ما الذي غيَّـرَ ألوان العربِ ولحومهم؟».
فقال له سعد: «إنَّ الذي خَدَّدَ العربَ وأهزَلهُم وغيَّرَ ألوانهم هو وخومةُ المدائن ودجلة»!

القرار بتغيير مقر القيادة:

عند ذلك رأى عمر رضي الله عنه أنَّ مصلحةَ المجاهدين تستدعي تغييرَ

---

(١) تاريخ الطبري، ص٤٠ ـ ٤١؛ وسقوط المدائن، ص١٣٩ ـ ١٤٠.

مقرِّ القيادة، وإذا كان جوُّ المدائن الموبوءُ لا يناسبُهم فلابدَّ أن ينتقلوا إلى مكانٍ آخر.

لذلك كتبَ عمرُ إلى سعدٍ رضي الله عنهما: إنَّ العربَ لا يوافقُها إلاّ ما وافقَ إبلَها من البلدان.. فابعَثْ سلمانَ رائداً وحذيفة، فلْيرتؤوا منزلاً برياً بحرياً، ليس بيني وبينكم فيه بحرٌ ولا جسر...».

لا بدَّ أنْ يكونَ المكانُ الذي يقيمُ فيه العرب مناسباً للمكان الذي خَرجوا منه، بأنْ يكونَ هواؤه جافّاً نقياً، لا رطوبةَ فيه، وأن يكون المكانُ مناسباً موافقاً للإبل، التي خَلَقها الله للعيش في الصحراء، لأنه لا يوافق العربَ إلاّ ما وافقَ إبلَها.

وهذا المكانُ المأمولُ ليس في شمالِ العراق، ولا في وسطِه حيثُ تقعُ المدائن، إنما هذا المكانُ في جنوبِ العراق.

حدَّد عمرُ طبيعةَ هذا المكانَ بأنْ يكونَ برياً بحرياً، ليكونَ هواؤُه نقياً، وجوُّه صافياً، أما طبيعةُ المدائن فإنها بحرية، ولهذا هواؤُها رطبٌ موبوء!

كما حدَّدَ عمرُ طبيعةَ المكان بأنْ يكونَ متصلاً بأرضِ العرب، لا يفصلُه عن المدينة بحرٌ ولا جسر، وهذا معناهُ أنْ يكونَ غربَ نهرِ الفرات.

لا بدَّ أن يكونَ المكانُ جنوبَ العراق، وأنْ يكونَ غربَ نهرِ الفراتِ، وهو يذكِّرنا بمعركةِ القادسية التي كانت في تلك المنطقة، كما يذكّرنا بمدينةِ (الحيرة) عاصمة المناذرة، التي كانت في تلك المنطقةِ أيضاً!

حذيفة وسلمان يختاران الكوفة:

كلَّفَ سعدٌ كلاً من حذيفة وسلمان ـ كما أمر عمر ـ بأنْ يُغادرا المدائن، وأنْ يسيرا جنوباً لارتياد المكانِ المناسب!

أخذ سلمانُ الشاطئ الغربيَّ لنهر الفرات، وسارَ بمحاذاة النهر، بينما أخذ حذيفةُ الشاطئ الشرقيَّ لنهر الفرات، وسار بمحاذاةِ النهر.. والْتقى الرائدان في منطقة (الكوفة)!

كانت منطقةُ (الكوفة) التي انتهيا إليها معروفةً بهذا الاسم، وتقعُ غربيَّ نهرِ الفرات، طيبة الهواء، ليس فيها رطوبةٌ ولا ذبابٌ ولا بعوض، بريةٌ بحرية، تنطبقُ عليها المواصفاتُ التي ذكرها عمرُ في كتابه.

أعجبَهما المكان، فنزلا فيه. وصلَّى كلُّ واحدٍ منهما لله، ثم دعا كلٌّ منهما بهذا الدعاء: «اللهمَّ ربَّ السماءِ وما أظَلَّتْ، وربَّ الأرض وما أقلَّتْ، وربَّ الريحِ وما ذَرَتْ، وربَّ النجومِ وما هَوَتْ، وربَّ البحارِ وما جرَتْ، وربَّ الشياطينِ وما أضلَّتْ، وربَّ الخِصاصِ وما أجنَّتْ.. بارِكْ لنا في هذه الكوفة، واجعلْها منزلَ ثبات!».

أعجبهما المكان، وانشرحَ صدرُ كلٍّ منهما له، وكَتَبا إلى سعدٍ يصفانِه له. ورأى سعدٌ أنَّ المكانَ مناسبٌ، فكتبَ بذلك إلى عمر، ووافقَ عمرُ على نقْلِ مَقَرِّ الولايةِ له، وانتقالِ المجاهدين إليه[1].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤١.

وباشرَ سعدٌ تجهيزَ المكان، تمهيداً للانتقال إليه.

تعريف بالكوفة وما حولها:

المكان اسمه (الكوفة) ومعروفٌ بهذا الاسمِ من قبل، ويقعُ إلى الشمالِ من (القادسية) وبالقربِ منه (الحيرةُ) عاصمةُ المناذرة، و(النَّجَف) و(صِنّين) وقصرُ (الخَوَرْنَق) وقصرُ (السَّدير).

وبين (المدائن) و(الكوفة) حوالي مئة وسبعين كيلومتراً.

قال ياقوتُ الحمويُّ في (معجم البلدان) عن (الحيرة): «الحيرة: مدينةٌ كانتْ على ثلاثةِ أميالٍ من الكوفة، على موضع يُقال له: (النجف) زَعموا أنَّ بحرَ فارس كان يتصل به.. وبالحيرة (الخَوَرْنَق) بقربٍ منها، مما يلي الشرق، على نحوِ ميلٍ و(السَّدَير): في وسط البرية التي بينَها وبينَ الشام.. كانت مسكنَ ملوكِ العربِ في الجاهلية...»[1].

وبينَ الكوفةِ والقادسية خمسةَ عشرَ فرسخاً، كما يقول ياقوت في (معجم البلدان)[2].

أما الكوفةُ فقد قال عنها ياقوت: «الكوفة: المصرُ المشهورُ بأرْضِ بابل من سوادِ العراق، ويُسميها قومٌ (خَدَّ العذراء).

قيل: سُميت (كوفة) لاستدارتِها. وقيل: سُميت بذلك: لاجتماعِ الناسِ

---

(١) معجم البلدان لياقوت: ٢/ ٣٢٨.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ٢٩١.

بها. وقيل: سُميت بذلك: لأنَّ الحصباءَ تُخالطُ رمْلها»[1].

وقال ابنُ منظور في (لسان العرب) عن معنى (الكوفة): «الكوفة: الرملةُ المجتمعة. وقيل: الرملةُ مهما كانت. وقيل: هي الرملةُ الحمراء»[2].

والراجحُ أنها سُميت (الكوفة) لأنَّ رملها الأحمرَ مختلطٌ بالحصباء. وأنها سُميت بذلك قبل اختيارِ حذيفة وسلمان لها، وقبل إنشاء سعدٍ لها.

فالكوفةُ اسمٌ لتلك البقعة الواسعة، وعليها أنشأ سعدٌ مدينةَ الكوفة المشهورة، التي كان لها دورٌ في التاريخ الإسلاميِّ بعد ذلك.

وبعدَما عادَ سلمانُ وحذيفةُ إلى سعدٍ في المدائن، أخبراه عن المكان الذي رأياه مناسباً. وهو يعرفُه من قبل، لأنه سبقَ أنْ كان في القادسية، ومرَّ به لما تحرّك من القادسية إلى المدائن!

وكتبَ سعدٌ لعمر رضي الله عنهما بالمكان (الكوفة) ووَصَفه له، فوافقَه عمرُ على الانتقالِ إليه، وأمره بإنشاءِ مدينة (الكوفة) فيه!

الانتقال الاختياري من المدائن إلى الكوفة:

وكتبَ سعدٌ إلى قادةِ الثغور ليأتوا إليه، ويُنيبوا مكانَهم قادةً من الفرسِ الذين أسلموا وحسُنَ إسلامهم.

١ ـ استخلفَ القعقاعُ بن عمرو التميمي، قُباذَ بنَ عبد الله الفارسي على

---

(١) معجم البلدان: ٤/ ٤٩٠.

(٢) لسان العرب لابن منظور: ٩/ ٣١١.

(حُلوان) وأتى سعداً في المدائن.

٢ ـ استخلفَ ضرارُ بن الخطّاب، رافعَ بنَ عبد الله الفارسي على (ماسبذان)، وأتى سعداً في المدائن.

٣ ـ استخلف عبدُ الله بن المعتَمّ، مسلمَ بن عبد الله الفارسي على (الموصل)، وأتى سعداً في المدائن.

٤ ـ استخلفَ عمرُبن مالك، عَشَنَّقَ بن عبد الله الفارسي على (قرقيسياء)، وأتى سعداً في المدائن[1].

وبذلك صارَ قادةُ الثغور من الفرسِ الذين أسلموا، وهم الذين حاربوا المسلمين في القادسية قبلَ حوالي سنةٍ ونصف، وها هم الآن صاروا جنوداً للإسلام، ينصرونَ إخوانهم المسلمين، ويحاربون الفرس.

ويلاحظُ أنَّ كلَّ واحدٍ من هؤلاءِ القادة يُسمي نفسَه (ابن عبد الله) لأنه يعتبرُ نفسَه قد وُلِدَ من جديد بالإسلام، وصارَ عبداً لله، ابنَ عبدِ لله. . وهذا من قوةِ الإسلام وحيويته، وتأثيره في مَنْ يُقبِلُ عليه بصدْق!

وبعدما اجتمعَ القادةُ عند سعد في المدائن أمرَ بالتحرّكِ نحو (الكوفة)، وكان ذلك في محرم من السنةِ السابعةِ عشرة، بعدما أقامَ في المدائن حوالي عشرةَ أشهر!

ولم يكن الانتقالُ من المدائن إلى الكوفة إجبارياً، وإنما كان اختيارياً،

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٩؛ وسقوط المدائن، ص١٤٢.

فمَنْ أحبَّ البقاءَ في المدائن أبقاه سعد فيها. . فانتقل معظمُ الجيشِ مع سعدٍ إلى الكوفة، وبقيَ في المدائن قلائل، معظمُهم من بني عبس.

وفي نفسِ الوقت الذي عسكرَ فيه سعدٌ بالكوفة تمهيداً لإنشائها، كانَ عمر قد أمرَ بإنشاءِ البصرة.

وكان المجاهدون مُعَسْكِرين في الكوفة في خيامِهم، فطلبوا من سعدٍ أَنْ يستأذنَ لهم من عمرَ أنْ يَبنوا فيها بيوتاً من (القَصَب)! فأذن لهم!

وفي شوال من السنة السابعة عشرة وقع حريقٌ كبيرٌ في الكوفة، حرَقَ معظمَ بيوتها المبنية من القصب، فأرسلَ سعدٌ وفداً منهم إلى عمرَ في المدينة، ليأذنَ لهم ببناء بيوت من (اللبن).

وأذِنَ لهم عمر ببنـاءِ بيوتٍ من اللَّبِن، على أنْ لا يتطاولـوا في البنيان، وأنْ لا يَبني أحدهم أكثر من ثلاث غُرَف، وأن لا تكون غرفةٌ فوق غرفة.

وكان مما قاله: «لا يزيدنَّ أحدُكم على ثلاثةِ أبيات، ولا تطاولوا في البنيان، والْزَموا السُّنَّة تلزمْكم الدولة!»[1].

وأمر عمر سعداً بتخطيط الكوفة وإنشائها وبنائها، وإسكان المجاهدين فيها، وتوزيعهم على أساس قبائلهم.

أبو الهيَّاج الأسدي يخطط الكوفة:

واستدعى سعدٌ (أبا الهيَّاج الأسَدي) وكلَّفه بتخطيطِ شوارعِ الكوفة

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٣ ـ ٤٤.

ومحلاّتِها وبيوتها، وكان أبو الهيّاج خبيراً في التخطيط والتنظيم.

وأولُ ما خطَّطه هو مكانُ المسجد، حيث اختاره في وسط المدينة، ليكون نقطة تجمُّع، كوسطِ الدائرة، يأتيه المصلّون من جميع الجهات.

والبدءُ بمكان المسجد لأنه أهمُّ شيء في المدينة، والأساسُ في أبنيتها.

وجعلَ أبو الهيّاج للمسجد ساحةً واسعةً من جميع الجهات، بأنْ أوقفَ رجلاً رامياً ماهراً مكان المسجد في الوسط، وطلبَ منه أن يرميَ سهمَهُ عن يمينه، وعن شمالِه، ومن خلْفِه، ومن بين يديه. وكانوا يضعون علامةً على النقطةِ التي يقعُ فيها السهم، فجعلَ أبو الهيّاج الأسَديُّ العلاماتِ في الجهات الأربعة حدوداً لساحةِ المسجد. يَبني الناسُ بيوتهم وراءَها! ولذلك كانت ساحةُ المسجدِ كبيرةً واسعة.

ثم اختطَّ أبو الهياج مكان (قَصرِ الأمير) بجانبِ المسجد، ينزلُ فيه أميرُ الكوفة سعد، واختطَّ بجانبه مكان (بيت المال) وتوضَعُ فيه الغنائم والأنفال، وبذلك رَتَّبَ أهمَّ ثلاثة مرافق عامة في المدينة: المسجدُ، وقصر الأمير، وبيتُ المال.

وبعد ذلك اختطَّ شوارعَ الكوفة، فجعلَها ثلاثة أنواع: شوارعُ أساسيةٌ بعرضِ أربعين ذراعاً.. وشوارعُ أدنى منها بعرضِ ثلاثين ذراعاً.. وشوارعُ دونَها بعرضِ عشرين ذراعاً!!

كما اختطَّ الأزقَّة ـ الشوارع الفرعية ـ بعرضِ سبعةِ أذرع!

وبعدما انتهى أبو الهيّاج الأسديُّ من تخطيط الكوفة، وتنظيم أحيائها

وشوارعها، أسكنَ سعدٌ المجاهدين فيها على أساس قبائلهم، حيثُ جعلَ لكلِّ قبيلةٍ حياً من أحياء المدينة.

وكانت قبائل المجاهدين عديدة، يمنية وحجازية ونجدية وعمانية: بنو تميم، وبنو أسد، وثقيف، وبجيلة، والنخع، والأزد، وكندة، ومزينة... وغيرهم.

ونزل المجاهدون في بيوتِهم في المدينة، في الشهور الأولى من السنة السابعة عشرة للهجرة[1].

(٢) ابن مسلمة يحرق قصر سعد في الكوفة

بنى سعدٌ (قصراً) له، وجعله مقرّاً للإمارة، وكان قريباً من المسجدِ ومن بيتِ المال.

وفي إحدى الليالي نُقِضَ بيتُ المال، وسَرَق اللصوصُ مالاً منه، وكتبَ سعدٌ إلى عمرَ بذلك، ووصفَ له مكان المسجدِ والقصرِ وبيت المال.

فكتبَ عمرُ إلى سعدٍ يأمُرُه أن يجعلَ بيت المال في قبلةِ المسجد، ليكون حمايةً له. وقال له: «انقل المسجد حتى تضعه إلى جنب الدار، واجعل الدارَ قبلتَه، فإنَّ للمسجدِ أهلاً بالنهارِ وأهلاً بالليل، وفيه حصنٌ لمالهم...»[2].

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ٤٣ـ٤٦.

(٢) انظر المرجع السابق: ٤/ ٤٦.

بناء قصر سعد في الكوفة:

ولما أرادَ سعدٌ البناءَ أتاهُ أحدُ رجالِ الفرس، اسمه (روزبَه بن بُزُرْ جُمْهر) وكان خبيراً في البناء، فقال لسعد: أنا أبني لك القصرَ وبيتَ المال، وأصلُ بينهما، وأجعلهما بنياناً واحداً. فبنى بُزُرْجمهر القصرَ من حجارةِ وأنقاضِ قصرٍ للأكاسرة كان في ضواحي الحيرة[1].

وكان قصرُ سعدٍ بجانبِ السوق، مواجهاً له، وكان الغوغاءُ من الناس يلتقون في السوق، فيتحدَّثون ويختلفون ويتناقشون، فترتفعُ أصواتُهم.. وكانوا بذلك يشوّشون على سعدٍ في قصره، ويُزعجونه، ويمنعونه من الحديث.

عند ذلك اضطرَّ سعدٌ إلى أن يجعلَ لقصره باباً، يغلقُه متى شاء، وهدفُه من ذلك أنْ يمنعَ وصولَ أصواتِ الغوغاء إليه، ليتمكَّن من تصريفِ أمور المنطقة.

وهي أول مرة يكونُ لأحدِ أمراءِ المسلمين قصرٌ له باب، يُغلَقُ في بعض الأوقات! ولم يعجبْ هذا بعضَ الذين في الكوفة، واعتبروا إغلاق سعدٍ لبابِ القصر تكبُّراً عليهم، وعدمَ حلٍّ لمشكلاتهم.

فشكوا سعداً إلى عمرَ رضي الله عنه، وقالوا له: «لقد بنى سعدٌ داراً، يقال لها: قصرُ سعد، واحتجبَ فيها، وجعلَ لها باباً، أغلقه دوننا، وقال: سَكِّنَ عنّي الصّوّيت!»!.

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ٤٦ ـ ٤٧.

اعتبرَ الشّاكون دارَ سعدٍ قصراً كبيراً، واعتبروا البابَ الخشبيَّ عليها تكبُّراً من سعدٍ عليهم، وكذبوا على سعد، ونسبوا له قولاً لم يقله! فلم يقل: سكن عني الصّوّيت!

ولكنَّ عمرَ رضي الله عنه اعتبر هذا التصرف من سعد غير مناسب، فكيف يكون له قصر؟ وكيف يجعل له باباً؟ وكيف يغلقه؟ لا بدَّ للأميرِ أن يكونَ مع الرعية دائماً، وأن لا يحتجبَ عنهم، وأن لا يُغلق بابَه دونهم!

إذن لا بدَّ أنْ يُزالَ هذا القصر!

تكليف ابن مسلمة بحرق باب القصر:

استدعى عمرُ محمدَ بن مسلمة الأنصاريَّ رضي الله عنه، وكلّفه بمهمةِ إزالةِ القصر وإحراقه! وكان عمرُ يرسلُ محمدَ بن مسلمة إلى الولاة والأمراء، الذين تَرِدُ عليهم شكاوى، ليحقق في الأمر، ويُقدِّمَ إلى عمر الحقيقة!

وكتبَ عمرُ إلى سعدٍ كتاباً، وسلّمه إلى ابن مسلمة، وقال له: اذهبْ إلى الكوفة، واعمدْ إلى القصر، واحرقْ بابَه، وسلّم الكتاب إلى سعدٍ، ثم ارجع!

وسارَ محمدُ بن مسلمة حتى وصل الكوفة، فاشترى حطباً، وتوجَّه إلى القصر، وسعدٌ فيه، فلم يسألْ عن سعد، ولم يدخل إليه ليسلّم عليه، رغم أنه لم يشاهدْه منذُ حوالي ثلاثِ سنوات، عندما توجَّه سعدٌ للجهادِ قبيلَ معركة القادسية، وهو أخوه ومشتاقٌ إليه! لكنه الآن مكلّف من عمر بمهمة، لا بدَّ أنْ ينفّذها قبلَ كلّ شيء، هي إحراقُ باب القصر!

وضعَ مسلمةُ الحطبَ على الباب الخشبي، وأشعلَ فيه النار!!

وفوجىءَ الناسُ بالأمر، وتعجَّبوا من المنظر، وأسرعوا إلى سعدٍ في داخل القصر يخبرونه!

فردَّ عليهم سعدٌ بهدوء: دَعُوه! هذا رسولٌ أرسله عمرُ لهذا الشأن، ولابدَّ أنْ ينفّذه! فلا تقفوا في وجهه!

وأحرق ابنُ مسلمةَ البابَ الخشبي، وأدّى مهمته. وأرسلَ إليه سعدٌ ليدخلَ عنده، لكنه أبى! فخرج سعدٌ إليه، وسلَّم عليه.

كتاب عمر إلى سعد:

ناول ابن مسلمة سعداً كتابَ عمرَ إليه، وكان نصُّ الكتاب: «بَلَغَني أنك بنيتَ قصراً، اتّخذْتَه حِصْناً، يسمّى قصرَ سعد، وجعلْتَ بينكَ وبين الناسِ باباً! إنه ليس بقصرك، ولكنه قصر الخبال!

أغْلِقْه! وانزِلْ منه منزلاً مما يلي بيوتَ الأموال، ولا تجعلْ على القصر باباً، تمنع الناسَ من دخولِه وتنفيهم به عن حقوقهم، دَعْهُم يوافقوا مجلسك، ومخرجَك من دارك إذا خرجت...».

أنكرَ عمرُ على سعدٍ رضي الله عنهما فعلَه، لأنه أميرٌ على الناس، فكيفَ يبني قصراً، ويجعلُه حصناً؟ ويجعلُ له باباً، يغلقُه أمام الناس؟ إنه قصر الخبال (وهو الفساد).

ثم أمرَ عمرُ سعداً رضي الله عنهما بإغلاق ذلك القصر، والخروج منه،

والنزولِ في بيتٍ عادي، قريبٍ من الناس، وعليه أن لا يحتجبَ من الناس، وأنْ لا يجعلَ لمنزلـه باباً، وأن لا يجعل عليه حراسـاً، يمنعون الناسَ من الدخول عليه متى شاؤوا، وحضورَ مجلسه متى أرادوا. . عليه أن يفتحَ منزلَه لهم، يأتونه في أيِّ وقت، ويلتقون به في أيّ وقت، سواءٌ داخل المنزل أم خارجه، لأنه الأمير المسؤول عنهم، ولا بدَّ أنْ يقدِّموا طلباتِهم وحاجاتِهم له، فينفِّذَ لهم طلباتِهم، ويحلَّ لهم مشكلاتهم!

إنَّ كتابَ عمرَ لسعدٍ رضي الله عنهما يقدّمُ النظرةَ الإسلاميةَ الصائبة لما يجب أنْ يكونَ عليه الوالي، الذي يسترعيه اللهُ رعية، فلابدَّ أنْ يكونَ قريبـاً منهم، يفتحُ بابَه لهم، ويحلُّ لهم مشكلاتهم، ولا يجوزُ أن يحتجبَ عنهم، ويضعَ الحراسَ على بابه، يمنعونهم من الوصول إليه!!

ولكنَّ الولاةَ والأمراءَ فيما بعد خالَفوا هذا التوجيهَ الإسلاميَّ الذي قدَّمَه عمرُ رضي الله عنه، فساءت الأمور، وضاعت الحقوق، وانتشر الظلم!

لما قرأ سعدٌ كتابَ عمر، وعرفَ المشكلة، وأنَّ الشاكين كَذَبوا عليه، حلفَ لابنِ مسلمة أنه لم يقلْ ما نُسِبَ إليه: «سكِّنَ عنّي الصّوّيت»!

وعرضَ سعدٌ على محمدِ بن مسلمة رضي الله عنهما أنْ يُضيفَه، ويدخُلَ منزلَه ليستريحَ من سفره، لكنَّ ابنَ مسلمة أبى، فعرَضَ عليه أنْ يعطيه زاداً ومالاً ونفقة، توصلُه إلى المدينة، ولكنَّه أبى ذلك أيضاً.

ابن مسلمة في طريق العودة:

ولم يقِمْ ابن مسلمة في الكوفة، وإنما عاد إلى المدينة فوراً.

ولما كان قريباً من المدينة فنيَ زادُه، ونَفَدَتْ نفقتُه، فلم يبقَ معه منها شيء، فاضطرَّ إلى أنْ يأكلَ من لحاءِ وورقِ الشجرِ الصحراوي!

وصلَ ابنُ مسلمة المدينـةَ وهو ضعيفٌ مريضٌ من أكله ورق الشجر . . وأخبرَ عمرَ بما فعله، وتنفيذه ما طلبه منه .

كما أخبرَ عمرَ أنَّ سعداً حلَفَ أنه لم يَقُلْ ما نُسِبَ إليه : سكَّنَ عني الصّوّيت! وسعدٌ لا يحلفُ إلاّ صادقاً .

فقال عمر : سعدٌ أصدقُ ممن روى عنه، ونسبَ إليه ذلك القول!

ولما علمَ عمرُ بما حصلَ لابن مسلمةَ أثناء العودة، من نفادِ زادِه وأكله ورقَ الشجر، قال له : لماذا لم تقبلْ من سعدٍ ما عرَضَ عليك من الزاد؟

قالَ له ابنُ مسلمة : لأنك لم تكتب لي فيه، ولم تأذنْ لي به! وأنا ملتزمٌ بكلامك، ولو أذنتَ لي لفعلت!

فأنكرَ عمرُ عليه ذلك، وقال : إنَّ أكملَ الرجالِ رأياً، مَنْ إذا لم يكنْ عندهُ عهدٌ من صاحبه عملَ بالحزم!![1]

وابنُ مسلمةَ رضي الله عنه ذكيٌّ فطن، وكان بإمكانه أنْ يأخذَ الزادَ من أخيه سعد، لكنه لم يفعلْ من بابِ دقةِ التزامِه الحرفيِّ بكلام عمر، وحرصِه على أداءِ المهمةِ المكلّفِ بها، دون زيادةٍ أو نقصان، أو اجتهادٍ وتأويل!

---

(١) انظر تاريخ الطبري : ٤/ ٤٦ ـ ٤٧ .

وتبقى قصة حرقِ محمدِ بن مسلمةَ لباب قصر سعد في الكوفة، بأمرٍ من عمر، رضي الله عنهم، عبرةً وعظةً، ودرساً للولاةِ والمسؤولين، ليُحسنوا أداء الأمانات، ويحلوا مشكلاتِ الرعية، مع أنَّ سعداً رضي الله عنه لم يخطئ في فعلِه، ولم يقصِّر في عملِه، ولكنَّ عمرَ أرادَ له الأفضل!

(٣) سعد يرسل الجيوش من الكوفة

الكوفة والبصرة قاعدتان جهاديتان:

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه حكيماً بعيدَ النظر، عندما أمر بإنشاء المدينتيْن الإسلاميّين في جنوبِ العراق، البصرة والكوفة، وقد كانَ إنشاؤُهما في وقتٍ واحدٍ، هو مطلعُ السنة السابعة عشرة للهجرة.

أرادَ عمرُ من المدينتيْن جعْلَهما قاعدتيْن جهاديتيْن، تنطلقُ منهما الجنودُ المجاهدة، لقتالِ الفرسِ على مختلف الجبهات، وتكونان مركزيْن لقواتِ الاحتياطِ المجاهدة.

كانت البصرةُ قاعدةً جهاديةً للجهاد على الجبهةِ الجنوبية والجنوبية الشرقية، انطلقتْ منها الجيوشُ المجاهدةُ لفتح الأهوازِ وفارس وخراسان وغيرها.

وكانت الكوفةُ قاعدةً جهاديةً للجهاد على الجبهة الشمالية والشمالية الغربية، انطلقت منها الجيوشُ المجاهدةُ لفتحِ بلاد الجزيرة وكردستان وطبرستان وأذربيجان.

وكان أميرُ القاعدةِ الجهادية (البصرة) الصحابيَّ المجاهدَ (عُتْبَةَ بنَ غَزْوان) رضي الله عنه، لأنه هو الذي أنشأ المدينة بأمرٍ من عمر.

وكان أميرُ القاعدة الجهادية (الكوفة) سعدَ بنَ أبي وقاص رضي الله عنه.. وبينَ الأميرَيْن أُخوَّةٌ وصِلةٌ وثيقة، فكلاهما من السابقين إلى الإسلام، وكلاهما أميرٌ مجاهد.

خطبة ابن غزوان في البصرة عن سعد:

ولقد تذكرَ عتبة بن غزوان رضي الله عنه ماضيهما، وما وجَدا من معاناةٍ ومشقّةٍ في الأيام الأولى من إسلامهما، وما هما فيه الآن من ولايةٍ وإمارةٍ..

روى مسلمٌ عن خالدِ بن عمير العدوي قال: خَطَبَنا عُتبةُ بنُ غزوان رضي الله عنه، فحمدَ اللهَ وأثنى عليه ثم قال: أما بعد: فإنَّ الدنيا قد آذَنَتْ بصُرْمٍ، وولَّتْ حَذَّاءَ، ولم يبقَ منها إلا صُبابةٌ كصُبابةِ الإناء، يتصابُّها صاحبُها، وإنكم منتقلون منها إلى دارٍ لا زوالَ لها، فانتقلوا بخيرِ ما بحضرتِكم.. فإنه قد ذُكِرَ لنا أنَّ الحجرَ يُلقى من شفةِ جهنم، فيهوي فيها سبعين عاماً لا يدرِكُ لها قعراً! واللهِ لَتُملأَنَّ، أفعجبتم! ولقد ذُكِرَ لنا أنَّ ما بين مصراعَيْن من مصاريعِ الجنة مسيرةُ أربعين سنة، وليأْتِيَنَّ عليها يومٌ وهو كظيظٌ من الزحام!

ولقد رأيتُني سابعَ سبعةٍ مع رسول الله ﷺ، ما لنا طعامٌ إلا ورقُ الشجر، حتى قَرِحَتْ أشداقُنا! فالتقطتُ بُردة، فشققتُها بيني وبين سعدِ بن مالك، فاتّزرتُ بنصفها، واتَّزرَ سعدٌ بنصفها! فما أصبح اليومَ منا أحدٌ إلا أصبحَ أميراً على مصرٍ من الأمصار! وإني أعوذُ بالله أن أكونَ في نفسي عظيماً وعند الله فقيراً!!

وإنها لن تكونَ نبوةٌ قطّ إلا تناسَخَت، حتى يكونُ آخرُ عاقبتِها ملكاً، وسَتَخْبَرون وتُجَرِّبون الأمراء بعدَنا!..»[1].

وليسَ كلامُنا هنا عن (البصرة) القاعدةِ الجهاديةِ للجبهة الجنوبية والجنوبية الشرقية، وإنما كلامُنا عن (الكوفة) القاعدةِ الجهادية للجبهة الشمالية والشمالية الغربية.

سعد حاكم العراق كله:

كان فاتح العراق سعدُ بن أبي وقاص رضي الله عنه هو أمير تلك القاعدةِ الجهادية، كما كان أميراً على معظمِ أراضي العراق، التي هي تابعةٌ للكوفة.

الكوفةُ بديلٌ عن المدائن، وهي (عاصمةُ) العراق في أيام سعد، وكان سعدٌ أميراً على العراق، وحدودُ ولايته من (قرقيسياء) على نهر الفرات غرباً، إلى (الرَّها) و(نُصيبين) شمال (الجزيرة)، إلى (حُلوان) و(ماسَبَذَان) شرقاً، وهي منطقةٌ واسعة.

واستمرَّ سعدٌ والياً على تلك المنطقةِ أكثر من ثلاثِ سنوات[2].

وقد أمرَ عمرُ سعداً أنْ يُبقي عندَه في الكوفة أربعة آلافِ مجاهد، قوةً احتياطيةً، يَمُدُّ بهم سعدٌ المجاهدين على أيةِ جبهة من الجبهات.

---

(١) صحيح مسلم (٥٣) كتاب الزهد، (١) باب الدنيا سجن المؤمن، حديث رقم: ٢٩٦٧.

(٢) انظر: تاريخ الطبري: ٤/ ٥٠.

وجعلَ سعدٌ الكوفةَ قاعدةَ جهادٍ ومركزَ إمداد، يرسلُ منها المجاهدين إلى المعارك والجبهات المختلفة.

ومن المعارك التي وجَّه لها سعدٌ جيوشَه المجاهدة من الكوفة:

توجيه القعقاع مدداً لأهل الشام:

١ ـ في السنةِ السابعةِ عشرة حشَدَ الرومُ قواتٍ كبيرةً لمحاربـةِ المسلمين في جبهة الشام، بهدفِ الثأرِ لهزيمتهم في معركة اليرموك. وأمدّهم سكانُ (الجزيرة) من العربِ وغيرِهم بقواتٍ كبيرة، وتعاهَدوا فيما بينهم على القضاء على المسلمين، وعدمِ الانهزامِ أمامَهم!

كان أميرُ المجاهدين على جبهة الشـام (أبا عبيدةَ بن الجرّاح) رضي الله عنه، وقد جعلَ مقرَّ قيادتِه مدينةَ (حمص).

ولما علمَ أبو عبيدة بتوجُّهِ الألوفِ من الرومِ وحلفائهم ضدَّه كتبَ إلى عمرَ رضي الله عنـه في المدينة يطلب منه المدد. فتوجَّه عمـرُ من المدينة إليه، وكتب إلى سعدٍ رضي الله عنه، يطلبُ منه أن يوجِّهَ الأربعة آلاف مجاهد ـ قواتِ الاحتياط في الكوفة ـ مَدَداً للمجاهدين في الشام، وأنْ يجعلَ عليهم البطلَ المجاهد (القعقاع بن عمرو التميمي).

وفي نفس اليوم الذي وصلَ فيه كتابُ عمرَ إلى سـعدٍ تحرَّكَ القعقـاعُ بالمجاهدين إلى الشام.

ولما علمَ سكان الجزيرة بخروج مجاهدي الكوفة لنجدةِ مجاهدي

الشام، خافوا من العاقبة، وفكّوا تحالفَهم مع الروم، وعادوا إلى أماكنهم في الجزيرة!

وخرجَ أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بمجاهدي الشام إلى جيشِ الروم، حِرْصاً منه على مفاجأتهم قبل تجمُّعِهم وتمكُّنهم، وكانت معركةٌ خاطفةٌ قصيرة، انتهت بهزيمة الروم.

وكانت هزيمةُ الروم قبلَ وصول مجاهدي الكوفة، وقبلَ وصولِ عمر من المدينة.

ووصل القعقاعُ بعدَ ثلاثةِ أيامٍ من هزيمةِ الروم، فأمرَ عمرُ أبا عبيدة أنْ يُشرِكَ مجاهدي الكوفة في الغنائم.

وشهدَ عمرُ لأهلِ الكوفةِ شهادةَ حقّ، حيث قال: «جزى اللهُ أهلَ الكوفةِ خيراً! إنهم يَكْفون ويحمون حوزَتَهم، ويُمِدُّون أهلَ الأمصار»[1].

وهذه الشهادةُ من عمرَ لأهلِ الكوفة شهادةٌ لأمير الجهاد فيها، سعدِ بنِ أبي وقاص رضي الله عنه.

توجيه عياض بن غنم لفتح الجزيرة:

٢ ـ في السنةِ السابعة عشرة، وبعدَ خروجِ القعقاع لنجدةِ أبي عبيدة في الشام، أمرَ عمرُ سعداً أنْ يوجِّهَ جيشاً من عنده لفَتحِ الجزيرة، ومعاقبةِ أهلِها، الذين تحالفوا مع الرومِ ضدَّ المسلمين.

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ٥٠ ـ ٥١.

وكانت قيادةُ الجيشِ العامةِ للصحابي (عياضِ بن غُنم) رضي الله عنه، فاتح الجزيرة، وكان معه قادةٌ مجاهدون تحتَ إمرته، لكلٍّ منهم وجهةٌ معينة، وكان معه (عمرُ بن سعد بن أبي وقاص)، وكان غلاماً حَدَثاً، لم يجاوز السنةَ العاشرة من عمره، لكنّه خرج للجهاد رغم صغر سنّه!».

٣ ـ وجَّهَ سعدٌ (سهيلَ بن عدي) رضي الله عنهما من الكوفة، لمحاربة أهل (الرقة) في الجزيرة. وهي مدينةٌ واقعةٌ على نهرِ الفراتِ. ولما حاصرَ سهيلٌ الرقة، تداولَ أهلُها الرأيَ فيما بينهم، فرأوا أنْ يُصالحوا المسلمين، لأنه لا طاقة لهم بقتالهم!

فصالحَ سهيلُ بنُ عديّ أهلَ الرقة، نيابةً عن القائد العامّ عياض بن غنم.

٤ ـ وجَّه سعدٌ (عبدَ الله بنَ عِتْبان) رضي الله عنهما إلى أهل (نصيبين)، وهي مدينةٌ كبيرةٌ مشهورةٌ في شمال الجزيرة، فسارَ ابنُ عِتْبان مع نهرِ دجلة، حتى انتهى إلى الموصل، ومنها توجَّه إلى نصيبين، فحاصرَها مدة، ثم صالحه أهلُها، كما صالحَ أهلُ الرقّة سهيلَ بن عدي!

٥ ـ توجَّه القائد العامُّ لفتحِ الجزيرة (عياضُ بنُ غُنْم) رضي الله عنه نحو شمالِ الجزيرة، وانضمَّ إليه سهيلُ بنُ عدي بعد استسلام الرَّقَّةَ على نهر الفرات، وعبد الله بن عِتْبان بعد استسلام نصيبين على نهرِ دجلة.

سارَ ابنُ غُنْم إلى (حَرّان) وحاصرها، وبعثَ سهيلَ بنَ عدي وعبدَ الله بنَ عِتْبان إلى (الرَّها) الواقعةِ شمالَ الجزيرة، واستسلمت الرها وحران، وكتبَ ابنُ غَنْم لأهلِ المدينتين كتابَ الصلح.

جعلَ (عياضُ بنُ غُنْم) مقرَّ قواتِه في مدينة (الرّها) يرسلُ منها المجاهدين لفتحِ المدنِ والقرى والتجمّعاتِ في الجزيرة، وأتمَّ فتحها كاملةً، وإخضاعَها لسلطانِ المسلمين! وكانتْ منطقةُ الجزيرةِ من أسهلِ البلدان فتحاً، وكانَ معظمُ المجاهدين الفاتحين من جيش الكوفة!

وبعدما تمَّ فتحُ الجزيرة ضمَّ عمرُ عياضَ بنَ غُنْم إلى أبي عبيدة بالشام، رضي الله عنهم، وأَمَرَ بإعادةِ جيشِ الكوفة بقيادةِ سهيلِ بنِ عدي وعبد الله بن عِتْبان، ليوجِّهَهما سعدٌ إلى جبهةِ المشرق![1]

انتكاسة في جيش ابن الحضرمي:

٦ ـ كان (العلاء بن الحضرمي) رضي الله عنه أميراً على البحرين، فعبَرَ الخليجَ إلى فارس، واشتبكَ مع الفرسِ في (طاوس) فقُتِلَتْ مجموعةٌ من المسلمين، وحاصرَ الفرسُ المجاهدين، ولما وصلت الأنباءُ إلى عمرَ غضبَ على العلاءِ غضباً شديداً، وعَزَلَه، ووجَّهه إلى سعد بن أبي وقاص، ليعمل تحت إمرته.

وكتبَ عمرُ إلى عتبةَ بن غَزْوان في البصرة أن يوجِّهَ جيشاً لإنقاذِ المحاصرين في طاوس. فخرجَ الجيشُ يقوده (أبو سَبْرَةَ بنُ أبي رُهْم) وأنقذوهم. وكان في الجيش عاصمُ بن عمرو التميمي.

---

(١) انظر حركة فتح الجزيرة في: تاريخ الطبري: ٤/ ٥١ ـ ٥٥؛ وسقوط المدائن، ص١٤٣ ـ ١٥٧.

وهكذا كان القعقاعُ يجاهدُ على الجبهتين الشماليةِ والغربية، وأخوه عاصمٌ يجاهدُ على الجبهة الشرقية![1]

فتح تستر وأسر الهرمزان:

٧ ـ جنَّدَ (يزدجرد) الفرسَ لمواجهةِ المسلمين، وكلَّف (الهرمزان) حاكم الأهواز في الجنوب بذلك.

وأرادَ عمرُ أنْ يواجهَ الفرسَ قبلَ أن يتجمَّعوا. فكتبَ إلى سعدٍ في الكوفة أنْ يوجِّهَ جيشاً لمواجهةِ الهرمزان، وأنْ يُؤَمِّرَ عليه (النعمان بن مُقرِّن المزني) رضي الله عنه.

وكان نصُّ كتاب عمر إلى سعد: «ابعثْ إلى الأهواز بَعْثاً كثيفاً مع النعمانِ ابن مُقرِّن، وعجِّل، وابعثْ سُوَيْدَ بن مقرّن، وعبد الله بنَ ذي السهمين، وجَريرَ ابن عبد الله الحميري، وجريرَ بن عبد الله البجليّ.. فلْينزلوا بإزاءِ الهرمزان حتى يتبيَّنوا أمره...».

وكتبَ عمرُ إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، الوالي الجديد على البصرة، بمثلِ ما كتبَ به إلى سعد، تسييرِ جيشٍ كثيفٍ من مجاهدي البصرة لمواجهةِ الهرمزان، بإمرةِ (سُهَيْل بن عدي).

وأمَّر عمرُ على الجيشين ـ البصريين والكوفيين ـ الصحابيَّ أبا سَبْرَةَ بنَ أبي رُهْم رضي الله عنه.

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ٧٩ ـ ٨٢؛ وسقوط المدائن، ص١٥٩ ـ ١٦٢.

وخرجَ النعمانُ بنُ مُقَرِّن من الكوفة، وعَبَرَ نهرَ دجلة عند مَيْسان، وطلعَ على الأهواز، واجتازَ نهر تيري، ومناذر، وسوق الأهواز.

واشتبكَ النعمانُ مع الهرمزان في (أَرْبُك) في معركةٍ خاطفةٍ، سرعان ما هُزِمَ الهرمزانُ، وانسحبَ إلى (تُسْتَر). واستولى النعمان على (رامَهُرْمُزْ) وما حولها.

أحرزَ جيشُ الكوفة هذه الانتصارات ضدَّ الهرمزان، قبلَ وصولِ جيشِ البصرة، ولما علمَ مجاهدو البصرة بذلك توجَّهوا إلى (تُسْتَر) لحصار الهرمزان، وجاء مددٌ آخر للمجاهدين من البصرة، بقيادةِ أميرِها أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه.

وهكذا التقى مجاهدو الكوفة بقيادة النعمانِ بنِ مُقَرِّن، ومجاهدو البصرة بقيادة أبي موسى الأشعري، وكانوا جميعاً تحت قيادة أبي سَبْرَة بنِ أبي رُهْم، وحاصرَ الجميع (تُستَر) حصاراً شديداً، دام أشهراً.

وتمكَّن المجاهدون من اقتحام المدينة عن طريق ممر سرّيّ مائي، ودخلوها ليلاً، ووقعتْ معركةٌ عنيفةٌ قُتِلَ فيها الآلاف من الفرس، واستُشهدَ فيها البراءُ بن مالك، ومجزأةُ بن ثور وآخرون من المسلمين.. وتمكَّن المسلمون من فتح (تُسْتَر) وأخذِ الهرمزان أسيراً إلى عمر في المدينة، حيثُ أسلم وأقام فيها، بعدَ قصةٍ طريفةٍ له مع عمر[1].

---

(١) انظر: تاريخ الطبري: ٤/ ٨٣ـ ٨٩؛ وسقوط المدائن، ص١٦٣ ـ ١٧٢.

توجَّه مجاهدو الكوفةِ والبصرةِ بقيادة أبي سَبْرَة بعد فتح (تُسْتَر) إلى (السوس) فحاصروها مدةً طويلةً، ثم افتتحوها.

بعد ذلك توجَّه مجاهدو الكوفة بقيادة النعمان بن مقرِّن إلى (جُنْدَيْ سابور) ثم لحق بهم مجاهدو البصرة، وحاصروا المدينة مدة، ثم نالت المدينة الأمان من المسلمين، بعد أنْ أعطاهم عبدٌ من عبيدِ المسلمين الأمان من دونِ علمِ قيادة الجيش، فوفت القيادةُ لهم العهدَ، بعد قصّة طريفة[1].

جموع الفرس للمعركة الفاصلة:

٨ ـ استاء الفرس من هزائمهم المتتالية أمامَ المسلمين، التي كان آخرها فتحُ تُستَرَ والسوس وجُنْدَيْ سابور، وأَسْرُ زعيمهم الهرمزان، وكتبوا إلى ملكهم يَزْدَجِرْد، الذي كان مقيماً في (مَرْو) وطالَبوه بتجنيدِ المزيدِ من الجنود لمواجهةِ المسلمين في معركةٍ فاصلةٍ في (نهاوند).

وعلمَ بتلك الجموعِ الفارسية في (نهاوند) الوالي من قِبَلِ سعد بن أبي وقاص على حُلوان، وهو الأميرُ الفارسيُّ المسلم (قُباذُ بن عبد الله الفارسي) الذي استخلفه القعقاع بن عمرو التميمي على حلوان قبلَ أنْ يغادرها إلى سعدٍ في الكوفة.

كتب قُباذٌ إلى سعدٍ في الكوفة بأخبارِ تلك الجموع، وكتبَ سعدٌ إلى عمرَ بأخبارِها، وكان هذا في السنةِ العشرين من الهجرة، واقترحَ سعدٌ على عمرَ أنْ

---

(١) انظر: تاريخ الطبري: ٤/ ٨٩ ـ ٩٤؛ وسقوط المدائن: ١٧٤ ـ ١٧٥.

يـأْذَنَ للمجاهدين بالانسياح في بلاد فارس، وملاحقةِ جموعِ الفرس فيها، وتطهير البلاد منهم، لأنَّ عمرَ كان قد أمرَ المسلمين بعدمِ الانسياحِ في بلاد الفرس، والتوقّفِ قليلاً لحين ترتيبِ الأُمور.

وكان سعدٌ قدْ أمرَ جيشَ الكوفةِ بقيادةِ النعمان بن مُقَرِّن بالتوقّف تنفيذاً لأمرِ عمر، وذلك بعد فتح تُستَر والسوس وجُنْدَيْ سابور.

النعمان بن مقرن قائد معركة نهاوند:

وعيّن سعدُ بن أبي وقاص (النعمانَ بنَ مُقَرِّن) والياً على (كَسْكَر) وهو إقليمٌ كبيرٌ بين دجلة والفرات في جنوبِ العراق، كما عَيَّنَ سعدٌ أخاهُ سُوَيْدَ بن مقرِّن على خراج الفرات في الإقليم.

والنعمانُ رجلُ جهاد، وليس راغباً في الإدارة، ولهذا تضايقَ من عملـهِ الإداري والياً على (كسكر). وكتب إلى عمر كتاباً، راجيـاً منه إعفاءه، وتوجيهَه للجهاد.

ومما قال له في الكتاب: «إنَّ مَثَلي ومَثَلَ كَسْكَر، كَمَثَـلِ رجلٍ شاب، إلى جانبه مومس، تتلوَّن له وتتعطَّر، فأنشدكَ الله لما عزلْتني عن كَسْـكَر، وبعثتني إلى جيشٍ من جيوش المسلمين».

ولما وصلَ الكتابُ إلى عمر، كان يبحثُ عن قائدٍ يقودُ المجاهدين في المعركة العنيفةِ الفاصلةِ القادمة.

عـرفَ عمرُ أنَّ الفرسَ جَمعوا أكثر من مئةٍ وخمسين ألـف جنديّ في نهاوند، بقيادةِ زعيمهم (الفَيْرُزان).

فكتبَ عمرُ إلى النعمانِ يخبره فيه أنه عَيَّنه قائداً للجيش المجاهد، وأَمَرَهُ بالتوجُّهِ إلى نهاوند.

وقال عمر: الأميرُ النعمانُ بن مُقَرِّن، فإنْ حدَثَ به حَدَثٌ فالأميرُ حذيفة بن اليمان، فإنْ حدَثَ به حَدَثٌ فالأميرُ نُعيم بن مقرِّن.

وبينما كانت الاستعدادات جارية، والحشود مستمرة، للمعركة العظيمة الفاصلة في (نهاوند) في السنةِ العشرين من الهجرة، وقعتْ مشكلةٌ في الكوفة، تمثَّلَتْ في شَغَبِ مُغْرِضين على سعدِ بنِ أبي وقاص، وأدَّتْ إلى عزلِ عمرَ له عن الكوفة.

فمقدّماتُ وبُعوثُ وترتيب معركةِ نهاوَنْد، تمّتْ في إمارة سعد للكوفة، ولكنَّ المعركةَ وقعتْ في إمارةِ عبد الله بن عِتْبان، خليفةِ سعدٍ على الكوفة[1]!

(٤) سعد يترك الكوفة

سعد في العراق منذ ست سنوات:

مضى على وجودِ سعدٍ في العراق حوالي ستِّ سنوات، حيث توجَّه إليه في شعبان من السنةِ الرابعة عشرة، قائداً لمعركة القادسية.

وفي هذه السنواتِ الستِّ فتح معظمَ العراق، في شمالِه وشرقه، حيثُ فتح المدائنَ وقرقيسياءَ والموصلَ والجزيرة وحُلوان والأهوازَ وغيرها.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري: ٤/ ١١٤ ـ ١٢٠؛ وسقوط المدائن، ص١٧٦ ـ ١٧٧ و١٨١ ـ ١٨٩.

وأنشأَ الكوفةَ في مطلعِ السنةِ السابعة عشرة، وجعلَها قاعدةً جهاديةً متقدّمةً، تنطلقُ منها كتائبُ المجاهدين إلى مختلف الجهات، وعددُ سكانِ الكوفةِ يزيدُ على مئة ألف!

ونحنُ الآن في منتصف السنةِ العشرين للهجرة، ومضى على ولايته الكوفةَ ثلاثُ سنوات ونصف، ولم يكنْ والياً على الكوفة وحدها، إنما كان حاكماً للعراق كلِّه تقريباً، والكوفةُ مقرُّ ولايتِه، وعاصمـة إقليمه.

وكان سعدٌ في السنواتِ التي أمضاها في الكوفةِ مشغولاً بأمورِ الجهادِ والقتالِ والحرب، يفكِّرُ في مواجهةِ الفرس، ويجنِّدُ لهم المجاهدين، ويكتبُ إلى عمر، ويتلقّى توجيهاتِ عمر، ويتابعُ أخبارَ المعارك على مختلفِ الجبهات، وينظّمُ ويوجِّهُ، ويناقشُ ويحاسبُ ويراقب. . وهذا يتطلّبُ منه أنْ يكونَ دائمَ الانتباهِ والاستعداد، ويملأُ عليه وقته! إنّه يديرُ الجبهةَ الشماليةَ والشرقية، ويواجِهُ أقوى دولةٍ في العالم في ذلك الزمان، ويعملُ على زوالِها واندحارِها.

وفي الوقت نفسهِ كان حريصاً على رعيته في الكوفة، يُصلّي بهم، ويُربّيهم ويُعلّمهم، ويُوجِّههم وينصحهم، ويتكفَّل بحاجاتِهم وأمورهم، ويحرصُ عليهم، ويهتمُّ بهم، وهم يجدون من أميرهم الخيرَ والنفعَ والفائدة. . وبذلك سَعِدَ أهلُ الكوفةِ بإمرته، ونالوا ما نالوا من عطفِه وبرِّه وموَدَّتِه ورحمته!

وكان عمرُ في المدينة يتابعُ أُمورَ سعد في ولايته، كعادتِه في متابعة ومراقبةِ وُلاته، ويُثني عليه لنجاحه في عمله، فها قد مضى على ولايتِه أكثرَ من ثلاثِ سنوات وهو في قمةِ نجاحه، ولذلك لم يفكِّرْ عمر بنقلِه أو عزله.

وإذا جاء رجالٌ من الكوفة إلى عمر، يسألُهم عن أميرِهم، فيثنون عليه خيراً.

شهادة جرير البجلي لسعد:

جاء جرير بن عبد الله رضي الله عنه من الكوفة إلى المدينة، فسألَه عمرُ عن سعد، وقال له: كيف تركْتَ سعداً في ولايته؟

أجابَ جريرٌ منصفاً سعداً، فقال: تركتُه أكرمَ الناسِ مقدرةً، وأقلَّهم فَتْرة.. وهو لهم كالأمِّ البَرَّة، يجمعُ لهم كما تجمعُ الذَّرَّةَ، مع أنّه ميمونُ الطائر، مرزوق الظَّفَر، أشدُّ الناسِ عند البأس، وأحبُّ قريشٍ عندَ الناس!

قال له عمر: فأخبرني عن الناس؟

قال جرير: هم كسهامِ الجُعْبَة: منها القائِمُ الرائش، ومنها العَصِل الطائش. وابنُ أبي وقاص ثِقافُها، يغمزُ عَصِلَها، ويُقيمُ ميلَها.. واللهُ أعلمُ بالسرائر يا عمر...»[1].

يَشهدُ جريرٌ لسعدٍ رضي الله عنهما بصدقٍ بأنه من أكرم الناس، وأكثرِهم قدرة، وأقلّهم فُتوراً وضعفاً وكسلاً! وكيف لا يكون كذلك وهو يُديرُ بلاداً واسعة، يخوض المسلمون فيها حرباً على جبهات عديدة، ويُحاربون في معاركَ مستمرةٍ متتابعة! ولا يمكنُ للأمير أن يكونَ ضعيفاً أو فاتراً!؟

(١) أعلام الحفاظ والمحدثين لعبد الستار الشيخ: ٢/ ١٣٨.

وهو مع رعيته، الذين ولاَّهُ اللهُ أمرَهم، كالأمِّ البارةِ مع أبنائها، يعاملُهم بالشفقةِ والرحمةِ والحرصِ والنصح، يريدُ تقديمَ الخير والنفع لهم، ويجمعُ لهم المتاعَ الذي يقدرُ عليه كما يجمعُ الذَّرُّ الصغيرُ الحبَّ. والذَّرُّ مضربُ المثلِ في الحرص على الجمع.

وكتبَ اللهُ لسعدٍ التوفيق، ينصرُهُ في حربه، ويكتبُ له الرزق والخير، ويُقدِّمُ سعدٌ هذا الرزقَ والنفع للناس، ولهذا هم يحبّونه حُباً كبيراً، لِما يجدونه عنده من اهتمامٍ وحرصٍ ورحمة.

أما عند البأسِ والحربِ والقتال، فإنَّ سعداً هو أشدُّهم وأقواهم، وأكثرُهم شجاعةً وإقداماً.

أما الرعيةُ فليسوا على درجةٍ واحدة، وإنما هم متفاوتون مثلُ سهام الجعبة، فيها سهامٌ مستقيمةٌ صالحةٌ جاهزةٌ للرمي، وفيها سهامٌ معوجَّةٌ تحتاجُ إلى إصلاحٍ وتقويم! والناسُ هكذا، فيهم المستقيم الصالح، وفيهم المعوجّ المُتْعِب.

ويقوم سعدٌ بمهمةٍ شاقةٍ كبيرةٍ في إصلاحِ الناسِ وتقويمِهم وتربيتِهم، وإزالةِ العوج والانحراف عند المعوجّين منهم.

وشهادةُ عمرو بن معدي كرب لسعد:

ونضيف إلى شهادةِ جريرِ بن عبد الله شهادةَ عمرو بن معدي كرب، فعندما سألَهُ عمرُ عن سعد، أجابَ قائلاً: «متواضعٌ في خبائهِ، عَربيٌّ في نمرته، أسدٌ في تاموره، يَعدلُ في القضية، ويقسمُ بالسوية، ويَبعدُ في السَّرِيَّة،

ويعطفُ علينا عطفَ الأمِّ البَرَّة، وينقلُ إلينا حقَّنا نقْلَ الذَّرَّة . . . »[1].

أشار عمرو في شهادتِه إلى تواضعِ سعدٍ لإخوانه، وشجاعتِه وشدّتِه على أعدائه، وعدلِه في حكمِه وقضائه، وتسويتِه في قسمتِه وعطائه، وعطفِه على الرعية عطفَ الأمِّ البارَّة بأبنائها، وحرصِه على توصيل حقّهم لهم كما تنقلُ الذرَّة الحَبَّ إلى بيتها!

ومعظمُ أهلِ الكوفةِ على هذه النظرةِ إلى أميرِهم سعد، يُحبّونه ويُقدِّرونه ويحترمونه، ويَسمعون له ويُطيعون.

مشاغبون يشكون سعداً لعمر:

ولم يشذّ عنهم إلاّ فئة قليلة من مثيري الفتن، أثاروا الفتنةَ على سعد، واتَّهموه بالباطل، وكَذَبوا عليه، وقدَّموا شكوى ضدَّه إلى عمر رضي الله عنه!

وكان يتزعَّمُ هؤلاء (الجرّاحُ بن سِنان الأسدي) من بني أسد، ومعه ثلاثةُ رجالٍ من بني عبس، هم: أسامةُ بنُ قتادة العبسي ـ أبو سعدة ـ وقُبَيْصَةُ بنُ ضُبَيْعَة العبسي، وأربدُ العبسي.

فبينما كان سعدٌ رضي الله عنه مهتمّاً بحشْدِ المجاهدين وتجنيدِهم لقتالِ الفرسِ في المعركةِ القادمةِ الفاصلةِ (نهاوند)، وكان المسلمون مهتمّين بتلك المعركة، كان هؤلاء المتآمرون الأربعةُ منشغلين بالمؤامرةِ على سعدٍ والكذبِ عليه، وتقديم شكوى ضدَّه إلى عمر.

---

(١) أعلام الحفاظ والمحدثين: ٢/ ١٣٨.

توجَّه المتآمرون إلى عمر، وشكَوْا سَعْداً إليه، واتّهموهُ قائلين: «إنَّه لا يقسمُ بالسويّة، ولا يعدلُ في القضية، ولا يغزو في السريّة، ولا يُحسنُ الصلاة...»[1].

قسمتُه جائرة، وحكمه ظالم، وهو جبانٌ لا يغزو ولا يجاهد، حتى الصلاة لا يحسنها!!

مَن المتَّهم بهذه التُّهم؟ إنّه المبشَّر بالجنّة، خالُ رسول الله ﷺ، الذي أسلم منذُ أيام الدعوةِ الأولى، وعاشَ مع الرسول ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة كاملة، يتعلّمُ منه ويجاهدُ معه، وهو بطل القادسية، وفاتحُ المدائن، ومحررُ العراق!!

ردُّ عمر على المشاغبين الشاكين:

ولما قابلَ عمرُ رضي الله عنه المشاغبين، وسمعَ كلامَهم ضدَّ سعد، عرفَهم على حقيقتهم، ونظرَ إليهم بفراستِه وبصيرتِه، وهو ذو فراسةٍ صادقةٍ وبصيرةٍ نافذة.

وقال لهم: «إنَّ الدليلَ على ما عندكم من الشّرِّ، نهوضُكم في هذا الأمر، وقد استعدَّ لكم مَن استعدُّوا.. وايمُ الله لا يمنعُني ذلك من النظرِ فيما لديكم، وإنْ نزَلوا بكم...».

وكأنَّ عمرَ رضي الله عنه يقولُ لأصحاب الفتنة: أنتم بماذا مشغولون؟ والمسلمون بماذا مشغولون؟.. الفرسُ يجمعونَ لكم الجموع للقضاءِ

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٢١.

عليكم، وها هم في (نهاوند) في طريقهم إليكم! والمسلمون مشغولون في الإعداد لمواجهتهم، وأميرُكم سعدٌ يخطط للمواجهةِ القادمة، يجمعُ الجنودَ وينظّمُ الأمور. .

وأنتم مشغولون في الشكوى ضدَّ سعد، وكأنّه لا يهمُّكم ما يهمُّ المسلمين، وإنما تهمُّكم أنفسكم. . إنَّ شكواكم ضدَّ سعدٍ في هذا الجوِّ الخطير والتحدّي الكبير يدلُّ على ما في نفوسكم من الشرّ، وإنكم لا تبتغونَ بذلك مصلحةَ الأمّة!!

ولقد التفتَ المؤرّخ الطبريُّ إلى هذا، وهو يؤرِّخُ لحركةِ المشاغبين على سعد، فقال: «وبلغَ سعدٌ الخبرَ عن قُبـاذِ صاحبِ حُلوان. . فكتبَ إلى عمرَ بذلك. . فنزا بسعدٍ أقوام، وألَّبوا عليه، فيما بينَ تراسُلِ القوم واجتماعِهم إلى نهاوند، ولم يُشغلهم ما دَهَمَ المسلمين من ذلك. . .»[1].

تكليف ابن مسلمة بالتحقيق في الشكوى:

ومع علم عمر رضي الله عنه بسوءِ قصْدِ المشاغبين، وتحامِلِهم على سعد، وكذبِهم عليه، إلا أنه لم يطردْهم، وإنما أخذ شكواهم ليحقّقَ فيها. وقال لهم: «وايمُ اللهِ لا يمنعني ذلك من النظرِ فيما لديكم، وإنْ نزلوا بكم. . .».

إنَّه بذلك يريدُ أنْ يضعَ منهجاً للولاةِ مِن بعدِه، في وجوب سماعِ الأميرِ شكاوى الرعيّة ضدَّ المسؤولين، والتحقيق فيها، وتمكينِ الرعيةِ من تقديم

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٢١.

الشكوى، حتى لو كان المشتكون متحاملين غيرَ صادقين!

أمـرَ عمرُ (محمدَ بنَ مسـلمةَ الأنصاريَّ) رضي الله عنـه بالتوجُّه إلى الكوفة، والتحقيق في الشكوى المقدّمة ضدَّ سعد!

وهذه هي المرةُ الثانيةُ التي يأتي فيها ابنُ مسلمةَ إلى الكوفةِ للتحقيق في شكوى ضدَّ سعد، فقدْ سبقَ أنْ جاءَ قبلَ حوالي ثلاث سنوات، للتحقيق في قصْرِ سعد، حيثُ أحرقَ بابَه وعادَ إلى المدينة، وقد تحدَّثنا عن ذلك فيما سبق!

وكان محمدُ بنُ مسلمة هو المكلَّف من قِبَلِ عمرَ في التحقيقِ مع الولاة، الذين تَرِدُ عليهم شكاوى، وذلك لما يتمتَّع به من فطنةٍ وحكمة، وبُعْدِ نَظَر، وحُسْنِ تحقيق!

توجَّه ابنُ مسلمة إلى الكوفة، والناسُ منهمكون في الاستعدادِ لمعركة نهاوند، مشغولون بذلك.

ابن مسلمة يسأل عن سعد في المساجد:

وصار يحقق في الشكوى ضدَّ سعد، وكان تحقيقُه علَنياً، حيثُ كان يمسكُ بيد سعد، ويذهبُ به إلى المساجد، ويوقفُه في المسجد أمام المصلّين، ويسألُهم عنه: ماذا تقولون في سعد؟ وما رأيكم فيه؟ وهل لكم من شكوى ضدَّه؟

فيجيبون مُثْنين عليه، مادحين له: لا نقولُ فيه إلاّ خيراً، ولا نعرفُ عنه إلا خيراً.

قال ابنُ جرير الطبري: «فَقَدِمَ محمدٌ على سعد، ليطوف به في أهل الكوفة، والبعوثُ تضربُ على أهلِ الأمصارِ إلى نهاوند.. فطوَّفَ به على مساجدِ أهل الكوفة، لا يتعرَّضُ للمسألةِ عنه في السّرّ، وليست المسألةُ في السرّ من شأنهم إذ ذاك...

وكان لا يقفُ على مسجدٍ فيسألهم عن سعدٍ إلا قالوا: لا نعلمُ إلا خيراً، ولا نشتهي به بَدَلاً، ولا نقولُ فيه، ولا نُعينُ عليه!»[1].

وهكذا كان أهلُ الكوفةِ مع سعد، لم ينسوا فضلَه عليهم، ولم يُنكروا عَدْلَه فيهم، ورحمته بهم، ولم يقولوا عنه إلاّ خيراً، ويرضون به أميراً، ولا يَرضونَ عنه بديلاً.

إلاّ المشاغبونَ المتآمرون، وهم المُغْرِضون الحاقدون الكاذبون.

فأصحابُ الجرَّاح بن سنان الأسدي عندما سألهم ابنُ مسلمة عنه سكتوا، لم يقولوا فيه سوءاً، لأنهم لا يجدونَ فيه ذلك، ولا يتجرّؤون على اتّهامه أمامَ قومِهم، لكنهم لم يُثْنوا عليه كما أثنى عليه سائر أهل الكوفة.

اتهامات ابن قتادة لسعد:

ووصل ابن مسلمة إلى محلةِ (بني عبس) حيثُ بدايةُ الفتنة والمشاغبة، ودخلَ محمدُ بنُ مسلمة مع سعدٍ مسجدَ بني عبس، وكان في المسجد ثلاثةٌ من المشتكين عند عمر: أسامةُ بنُ قتادة، وقُبَيْصَةُ بن ضُبَيْعَة، وأربَد.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٢١.

أوقف ابنُ مسلمة سعداً أمامَهم في المسجد، وأنشدهم بالله قائلاً: أنشدكم باللهِ رجلاً يعلمُ حقاً إلا قال!

فوقفَ أبو سعدة ـ أسامةُ بن قتادة ـ فقال: اللهمَّ إنْ نشدْتَنا، فإنَّ سعداً لا يَقسمُ بالسوية، ولا يعدلُ في القضية. ولا يغزو في السرية. !!

هذه التهمةُ إذنْ، وهذه هي الشكوى، ومِن هنا بدأت الفتنةُ والمشاغبة! وهذا هو الفتّانُ الكذّاب!

فوجئ سعدٌ بما يسمع، وتعجَّبَ من الاتّهامِ والكذب.. واستخدمَ سلاحَه ضدَّ المفتري، إنَّه سلاحُ الدعاء، الذي لم يستخدمه إلاّ في وقته ومناسبته، ومِن المعلوم أنَّ سعداً رضي الله عنه كان مُجاب الدعوة، فقد سبق أن دعا له رسولُ الله ﷺ بذلك، عندما قال: «اللهمَّ سَدِّد رميته، وأجبْ دعوته!».

سعد يدعو على الكاذب ابن قتادة:

استخدمَ سعدٌ سلاح الدعاء ضدَّ المتجنّي ابن قتادة بتحفُّظ، فدعا الله قائلاً: اللهمَّ إنْ كان قالَها كذباً ورياءً وسُمعة، فأعمِ بصرَه، وأكثِرْ عيالَه، وعَرِّضْه لمضلاّتِ الفتن!».

كان سعدٌ هادئاً موضوعياً، حتى عندما أُغضبَ واستُثير، فلما سمعَ اتّهام ابنِ قتادة، واضطرَّ إلى أنْ يدعوَ عليه، كان دعاؤُه متحفِّظاً مشروطاً، فسألَ اللهَ أنْ لا يستجيبَ دعاءَه، ويوقعَ في ابن قتادة ما طلبه، إلاّ إذا كان كاذباً، وقال ذلك رياءً وسُمعة! وهذا من الموضوعيـة والتحفظِ والاحتياط، رغبةً من سعدٍ في عدمِ إيذاءِ ابنِ قتادة، وعدم إيقاع العقاب به إلا إذا كانَ يستحقّه!

دعا سعدٌ على أُسامةَ بنِ قتادة أنْ يَعميَ اللهُ بصرَه، ويكثِّرَ عيالَه، وأَنْ يُعَرِّضَه لمضلاَّتِ الفتن! وهي الفتنُ التي تُضلُّه وتُهلكه!

وفي روايةٍ ثانية أنّه دعا عليه قائلاً: اللهمَّ أطِلْ عمرَه، وأطِلْ فقْرَه، وعَرِّضهُ بالفتن!

يريدُ له طولَ العمر، مع طولِ الفقر، مع الفتنة.

ومجموعُ الروايتين في الدعاءِ أنه سأل اللهَ خمسَ عقوبات ضدّه: طولُ العمر، وطولُ الفقر، والعمى، وكثرةُ البنات، والهلاكُ بالاستجابة للفتن والشهوات!

وطـولُ العمرِ مع العمى والفقـر والفتنـة والهوى عقوبـةٌ من الله سبحانه، أما طولُ العمر مع الصلاحِ والتقوى والاستقامة فهو نعمةٌ من الله ورحمة: «خَيْرُكم مَنْ طالَ عمرُه وحَسُنَ عَملُه..».

وما كانَ سعدٌ ظالماً ولا باغياً ولا عادياً في دعائه هذا، إنما هو منتصفٌ ممن اتّهمه وكذبَ عليه، وهو مظلومٌ دعا اللهَ على ظالمه! ولذلك كان على صوابٍ في ذلك الدعاء!

استجاب الله دعاء سعد:

وقد استجاب اللهُ دعاءَ سعد، لأنّه دعاءُ مظلومٍ أوّلاً، وصادرٌ من رجلٍ مُجابِ الدعوة ثانياً. فطالَ عُمُرُ ابنِ قتادة، وأصابَه بالعمى والفقر، وافْتُتِنَ بحبِّ النساء ومطاردتِهنّ، فكان عجوزاً متقدّماً في السّن، قد سقط حاجباه على

عينيه من الكِبَر، ومع ذلك يبحثُ عن النساء، ويحرصُ على اللقاء بهن! وعندما يُنْكَرُ عليه ذلك، يقول: أنا مفتون، أصابتني دعوةُ الرجلِ المبارك سعدٍ..[1].

وبعدما دعا سعدٌ على أسامةَ بن قتادة دعا على المغرضين الآخرين، فقال: اللهمَّ إنْ كانوا خرجُوا أشَراً وبَطَراً وكذباً فاجْهَدْ بلاءَهم!

دعا عليهم أنْ يضيّقَ اللهُ عليهم، وأنْ يجعلَ حياتهم شديدة، وعيشهم صعباً، ومصيرهم أسود، وقد جهدَ اللهُ بلاءهم، وضيّق عليهم عيشهم، وجعلَ مصيرهم أسود: قُتِلَ زعيمُهم الجرّاحُ بنُ سِنان الأسدي، بأنْ قُطِّعَ جِسْمُه بالسيوف! وقُتل قُبَيْصة بن ضُبَيْعَة العبسي بشدخ في رأسه بالحجارة!! وقُتِلَ أربدُ العبسيُّ بوطئهِ بالنِّعال!!

وبعدما أتمَّ محمدُ بن مسلمةَ التحقيقَ في الشكوى، علمَ براءةَ سعدٍ ونزاهته، وثناءَ أهل الكوفة عليه، إلاّ النفر المشاغبين، وبقيَ أنْ يرفعَ الأمرَ إلى عمر.

سعد والمشاغبون أمام عمر:

الخطوة التالية هي أن تتمَّ المواجهة بين سعدٍ والمشاغبين أمامَ عمر في المدينة، وهذا معناه أن يسيرَ سعدٌ إلى المدينة!

مضى على سعدٍ في العراق ستُّ سنوات، قضاها في الجهاد والإعداد، وها هو مدعوٌّ الآن للعودةِ إلى المدينة، مُشتكىً عليه! ولكنَّ الناسَ

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ١٢١.

مشغولون بالاستعدادِ لمواجهةِ الفرس في نهاوند! فماذا يفعل سعد؟

استخلفَ سعد على الكوفة الصحابيّ (عبدَ الله بن عبدِ الله بنِ عِتْبان الأنصاريّ) رضي الله عنه، وكان بَطَلاً من أبطال الجهاد، قاد بعضَ كتائبِ المجاهدين على الجبهةِ الشمالية والجبهة الشرقية!

وغادر سعدٌ الكوفةَ إلى المدينة، بصحبةِ محمد بن مسلمة، ومعهما الرجالُ المشاغبون عليه!

ودخلَ المدينةَ بعدَ غيبةِ ستٍّ سنوات عنها، كان مشغولاً عنها بالجهاد، لكنّه كلُّه شوقٌ إليها.

والْتقى سعدٌ مع الشاكين أمامَ عمر.

عمر يسأل وسعد يجيب:

قال له عمر: لقد شكوكَ في كلِّ شيء، حتى في الصلاة! وزعموا أنّك لا تُحسنُ تصلي! فكيف تصلّي؟

أجاب سعد: أمّا أنا، فواللهِ إني كنتُ أُصلّي بهم صلاةَ رسول الله ﷺ، ما أَخْـرِمُ عَنها، ولا أُنْقِصُ منها شيئاً. أرْكُدُ في الركعتيْن الأُوليين، وأُطوّلُ القراءةَ فيهما، وأحْذِفُ في الركعتين الأخيرتين، وأُخَفِّف القراءة فيهما!!

إنَّ عمرَ رضي الله عنه يعلمُ أن هذه هي سنّةُ رسول الله ﷺ في الصلاة، وهو يصلّي بهذه الطريقة: يُطيلُ قراءة القرآن في الركعتين الأُوليين، سواء كانت الصلاة سرّية أو جهرية، ويُقصرُ القراءة في الركعتين الأُخريين، لأنَّ

القراءةَ فيهما سريّة، ولا يُقرأ فيهما إلا بفاتحة الكتاب!

أمّا المشاغبون الشاكون فهم جُهلاء، يريدون تسويةَ الركعتيْن الأُوليين بالركعتين الأُخريين في القِصَر!!

عمر يثني على سعد ثم يعزله:

وأثنى عمر على سعد قائلاً: ذاكَ الظَّنُّ بك يا أبا إسحاق!

أي: نحنُ نظنُّ هذا فيك، ونتوقّع هذا منك، ونعلمُ أنّك تصلّي كما كان يُصلّي رسولُ الله ﷺ، وتحرصُ على أنْ تقتديَ به في ذلك!

وشهدَ عمرُ لسعدٍ بالخير، وذَمَّ الشاكين عليه، لأنهم كاذبون مغرضون!

ولكنَّ عمر رأى من الحكمةِ عزلَ سعدٍ عن الكوفة، لا عن تهمةٍ أو عجزٍ أو خيانة، أو ضعفٍ أو سوءِ إدارة، ولكنْ من باب التغيير، فقد عملَ عليها ثلاثَ سنوات ونصفاً، وهذا يكفي.

سألَ عمرُ سعداً: مَنْ استخلفْتَ على الكوفة؟

قال: عبدُ الله بنُ عبد الله بن عِتْبان.

فأثنى عليه عمرُ خيراً، وأَقَرَّه على ولاية الكوفة مكانَ سعد.

وخرجَ سعدٌ من عند عمر رضي الله عنهما، وهو يقول: إنّي لأَوَّلُ رجلٍ أراقَ دماً من المشركين، ولقد جمعَ لي رسول الله ﷺ أبوَيْه، ولم يجمعْهما لأحدٍ قبلي، ولقد رأيْتُني وأنا خُمُسُ الإسلام.. وبنو أسدٍ تزعمُ أني لا أُحسنُ

أصلّي!! لقد خِبْتُ إذاً وخَسِرْتُ، وضلَّ عملي[1]!!

الشكوى ضدّ سعد في البخاري:

وقد روى البخاري طرفاً من قصةِ الشكوى والمحاكمة. فأخرجَ عن عبد الملك بن عمير، عن جابر بنِ سَمُرة السَّوائيِّ ـ ابنِ أُختِ سعد ـ قال: شكا أهلُ الكوفةِ سَعداً إلى عمرَ رضي الله عنه، فعزلَه، واستعملَ عليهم عمّاراً، فشكَوْا حتى ذكروا أنه لا يُحسنُ يصلّي، فأرسل إليه، فقال: يا أبا إسحاق: إنَّ هؤلاء يزعمون أنك لا تُحسنُ تصلّي؟

قال أبو إسحاق: أمّا أنا، واللهِ فإنّي كنتُ أصلّي بهم صلاةَ رسولِ الله ﷺ، ما أَخْرِمُ عنها.. أُصلّي صلاة العشاء، فأركُدُ في الأُولَيَيْن، وأُخِفُّ في الأُخرَيَيْن.

قال: ذاك الظنُّ بك يا أبا إسحاق.

فأرسلَ معه رجلاً ـ أو رجالاً ـ إلى الكوفة، فسأل عنه أهلَ الكوفة، ولم يَدَعْ مسجداً إلا سأله عنه، ويُثنون معروفاً.. حتى دخل مسجداً لبني عبس، فقامَ رجلٌ منهم يُقال له: أُسامةُ بنُ قتادة، يُكنّى: أبا سعدة، قال: أمّا إذْ نشدْتَنا، فإنَّ سَعداً كان لا يسيرُ بالسَّريّة، ولا يَقسِمُ بالسَّويّة، ولا يَعدِلُ في القضيّة!

قال سعد: أما والله لأدعونَّ بثلاث: اللهمَّ إنْ كان عبدُكَ هذا كاذباً قام

---

(١) انظر قصة الشكوى والمحاكمة والعزل في تاريخ الطبري: ٤/ ١٢٠ ـ ١٢٢.

رياءً وسمعة، فأطِلْ عمرَه، وأطلْ فقرَه، وعرِّضْه بالفتن!

وكان بعدُ إذا سُئِلَ يقول: شيخٌ كبيرٌ مفتون، أصابتني دعوةُ سعد.

قال عبد الملك ـ الراوي عن جابر بن سمرة ـ: فأنا رأيتُه بعد، قد سقط حاجباهُ على عينيه من الكِبَر، وإنه ليتعرّض للجواري في الطُرُق، يغمزهُنّ... !»(١).

دلالات من الحادثة:

قال الأستاذ حسين سليم أسد في تعليقه على الحديث الذي أورده أبو يعلى الموصلي في (مسنده): «لا أَخْرِم: لا أُنْقِص. و: أركُدُ في الأُولَيَيْن: أُطوِّلُ القراءة فيهما. و: أحذفُ في الأُخرَيين: يحذفُ في القراءة، لا القراءةِ نفسها..

وفي الحديث دلالةٌ على أنَّ الذين شكوه لم يكونوا من أهلِ العلم، وكأنَّهم ظنّوا مشروعيةَ التسويةِ بين الركعات، فأنكروا على سعدٍ التفرقة، ويُستفادُ منه ذَمُّ القولِ بالرأي، الذي لا يستندُ إلى أصل.. وفيه أن القياسَ في مقابلةِ النصّ فاسدُ الاعتبار.. وفيه عدالةُ سعدٍ وإنصافُه، لأنّه ـ وهو في حالةِ الغضب ـ يدعو على أبي سعدة، معلّقاً دعاءَه بشرطِ أنْ يكونَ كاذباً، وأنْ يكونَ الحاملُ له على ذلك الغرض الدنيوي.. وفيه أنَّ السؤال عن عدالةِ الرجلِ يكونُ

---

(١) البخاري: (١٠) كتاب الأذان، (٩٥) باب القراءة للإمام والمأموم، حديث رقم: ٧٥٥.

ممنْ يُجاورُه . . وفيه جوازُ الدعاءِ على الظالم المعيَّن، بما يستلزمُ النقصَ في الدين . . وفيه سلوكُ الورعِ في الدعاء . . . »[1].

وروى مسلمٌ عن جابر بن سمرة، قال: «قال عمرُ لسعد: قد شَكَوْكَ في كلِّ شيء، حتى في الصلاة؟

قال: أمَّا أنا، فأمُدُّ في الأُوليَيْن، وأحذِفُ في الأُخرَيَيْن! وما آلو، ما اقتديتُ به من صلاةِ رسولِ الله ﷺ!

قالَ عمر: ذلك الظَّنُّ بك يا أبا إسحاق!»[2].

الكوفة مركز الفتنة فيما بعد:

ولم تستقمْ أمورُ الكوفة بعدَ ترْكِ سعدٍ لها، وعَزْلِه عنها، لأنَّ الفتنةَ قد استقرّت فيها، وكثُرَ المشاغبون الذين لم يُعجبهم أيُّ والٍ يرسله عمرُ لهم، حيثُ كانوا يشكونَ عليه، ويطلبون عزله.

ورغمَ أنَّ سعداً رضي الله عنه بقي والياً على الكوفة ثلاثَ سنوات ونصفاً، إلاَّ أنه تعاقب على الولاية بعدَه مجموعة، خلالَ فترةٍ قصيرة! كانوا خمسةَ ولاةٍ خلالَ أقلَّ من سنتين!!

١ ـ ولّى عمرُ عبدَ الله بن عبد الله بن عِتْبان الأنصاري، بعدَ سعدٍ مباشرةً.

---

(١) مسند أبي يعلى الموصلي: ٢/ ٥٤ ـ ٥٥.
(٢) مسلم: (٢٤) كتاب الصلاة، (٣٤) باب القراءة في الظهر والعصر، حديث رقم: ٤٥٣.

٢ ـ بعدَما استعفى ابنُ عِتْبان، ولّى مكانه زيادَ بن حنظلة.

٣ ـ بعدما استعفى ابنُ حنظلة، ولّى مكانه عمارَ بن ياسر[1].

٤ ـ شكا أهلُ الكوفة عماراً وطالبوا بعزلِه، فعزَلَه عمر، وولّى مكانه أبا موسى الأشعريَّ، حيثُ قال عمرُ لهم: مَنْ تريدون عليكم يا أهل الكوفة؟ قالوا: نريد أبا موسى!

٥ ـ بعدَ فترةٍ قصيرةٍ من ولايةِ أبي موسى الأشعريِّ شَغَبوا عليه، وشكوهُ إلى عمر، وطالَبوا بعزله! فولَّى مكانه المغيرةَ بنَ شُعْبة!

لقد أعضلَ أهلُ الكوفة عمرَ رضي الله عنه وأزعجوه، وأوقعوهُ في حيرة، ولم يدرِ ماذا يفعلُ بهم: يَبعثُ عليهم الوالي، ويكونُ صحابيّاً من خِيار الصحابة، وهو أفضلُ منهم في دينه وخلقِه وتقْواه، فلا يُعجبُهم، ويُشاغبون عليه، ويُطالبونَ بعزْلِه! فعلوا هذا بسعد، وبعمار بن ياسر، وبأبي موسى الأشعري...

ولهذا خاطبَ عمرُ الوفدَ الذين قَدِموا مطالبين بعزْلِ أبي موسى مع أنهم هم الذين طلبوه والياً: مَنْ تُريدونَ يا أهلَ الكوفة؟ أتريدونَ قويّاً شديداً، أم تُريدون مؤمناً ضعيفاً؟! فلم يجيبوه!

ضاق عمرُ ذرعاً بهم، وقامَ من عندهم، ونامَ في ناحيةِ المسجدِ مهموماً؟ فأتاهُ المغيرةُ بنُ شعبةَ وحَرَسَهُ حتى استيقظ!

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ١٣٨ ـ ١٣٩.

فلما استيقظ قال له المغيرة: ما فعلْتَ هذا يا أميرَ المؤمنين إلاّ من أمْرٍ عظيم، فهل نابَكَ نائب؟

قـال عمرُ: وأيُّ نائبٍ أعظمُ من مئةِ ألف، لا يرضونَ عن أمير، ولا يرضى عنهم أمير؟

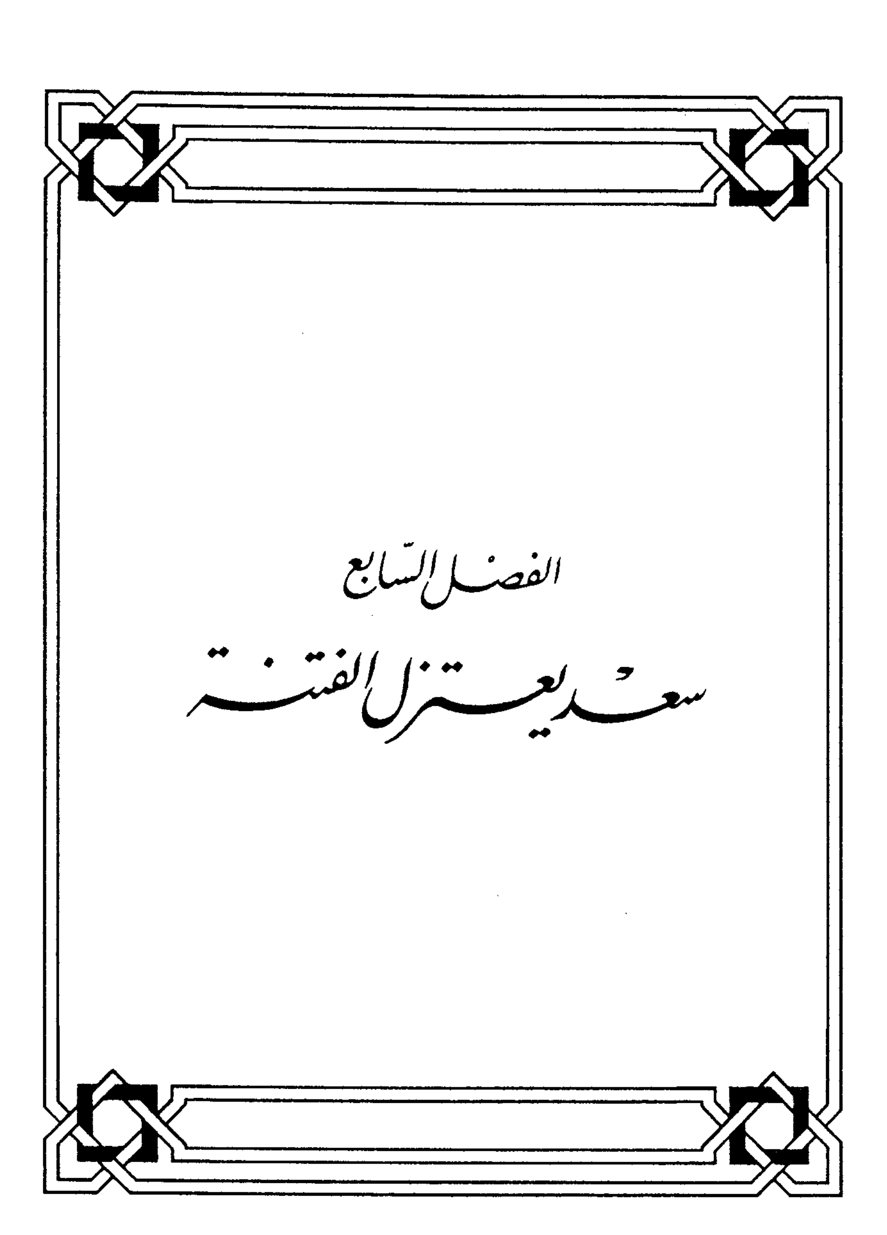
ثم التفتَ إلى المغيرة، وقال له: إنَّا باعثوك أميراً عليهم! وليأمَنْكَ الأبرار، ولْيَخَفْكَ الفجّار[1]!

وبقي المغيرةُ والياً على الكوفة حتى استشهادِ عمر، في أواخر السـنةِ الثالثة والعشرين من الهجرة رضي الله عنه. . وبقيت الفتنةُ في الكوفة، وكانَ لبعضِ أهلها دورٌ في استشهادِ عثمان، واستشهادِ علي، واستشهادِ الحسين بن علي، رضي الله عنهم.

* * *

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٦٥.



الفصل السابع

سعد يعتزل الفتنة



الفصل السّابع

سعد يعتزل الفتنة

(١) سعد مع عمر في المدينة

سعد من خواصّ مستشاري عمر:

بعدَ تَرْكِ سعدٍ للكوفة في منتصفِ سنةِ عشرين للهجرة، أقامَ في المدينةِ عند أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، حتى استشهادِه في أواخرِ السنةِ الثالثةِ والعشرين، أي أنه أقامَ عنده حوالي ثلاث سنين ونصف.

وكان عمرُ يعرفُ فضْلَه ومنزلتَه، لأنّه من السابقين للإسلام، والمبشَّرين بالجنّة، والمجاهدين مع رسول الله ﷺ، وهو لم يعزلْه عن إمارةِ الكوفةِ بسببِ عجزٍ أو خيانة، كما صرّح بذلك!

ولذلك كان سعدٌ من خواصّ المستشارين، الذين كان عمرُ رضي الله عنه يشاورُهم في كافةِ الأُمور، وفي أخبارِ الجهاد، وتنظيمِ الجبهاتِ والمعارك.

كانت منزلةُ سعدٍ عند عمرَ عالية، كمنزلةِ إخوانه من أفاضل وخيار الصحابة، الذين حرص عمرُ على إبقائهم عندَه في المدينة، ليساعدوه في إدارةِ أمورِ الأُمة، وعلى رأسِهم باقي العشرةِ المبشَّرين بالجنة: عثمان وعلي،

وطلحة والزبير، وسعدٌ وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهم.

رأي سعد في الفرس:

وفي الأيام الأولى من عودة سعدٍ إلى المدينة، استشاره عمرُ في أمرِ معركةِ نهاوند الفاصلة ضدَّ الفرس، التي كان الاستعدادُ لها على أشُدِّه، ضمنَ مجموعةٍ من كبار المستشارين.

فقد كتَبَ عبدُ الله بنُ عبدِ الله بنِ عِتْبان والي الكوفة الجديد بعدَ سعدٍ كتاباً إلى عمر، يخبره فيه بأخبارِ جُموعِ الفرس المتوجِّهين إلى نهاوند، وحَمَلَ الكتابَ رجلٌ اسمُه (قريبُ بنُ ظَفَر العَبْدي).

كان عمرُ مع سعدٍ رضي الله عنهما، فتسلّم الكتابَ من الرجل، ثم سأله: ما اسمُك؟

قال الرجل: قريب.

قال عمر: ابْنُ مَنْ؟

قال الرجل: ابنُ ظَفَر.

فتفاءلَ عمرُ بذلك، وأعلنَ تفاؤُلَه لسعد، وقال: ظَفَرٌ قَريبٌ إن شاء الله! وشاركه سعدٌ تفاؤُلَه! وكتبَ الله للمسلمين الظفرَ في نهاوند[1]!

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ١٢٣.

وجمعَ عمرُ الناسَ واستشارَهم في أَمْرِ (نهاوند). . فتكلّم كلٌّ من عثمان، وطلحة، والزبير، وابن عوف، وعلي، وسعد.

قال سعدٌ لعمر: يا أمير المؤمنين: خَفِّفْ عليك، فإنَّهم إنما جَمَعوا لِنِقَمَة!

يدعو سعدٌ عمرَ رضي الله عنهما إلى تهوينِ أمرِ الفرس، وأَنْ لا يقلقَ على المسلمين منهم، فرغمَ عشراتِ الآلاف من الجنودِ التي جَمَعوها ـ كان عددهم في نهاوند يزيدُ على مئة وخمسين ألفاً ـ لكنهم مهزومون إن شاءَ الله.

والسببُ في ذلك عند سعدٍ أنهم جمعوا جموعَهم للانتقام من هزائمهم الكثيرة السابقة، وهي دون محاولاتِهم السابقة، ولو كانتْ لهم قوةٌ لانتصروا في الماضي، وهذه آخرُ محاولةٍ كبيرةٍ يحاولونها، وهي دونَ محاولاتِهم السابقة، ولهذا هم مهزومون فيها من باب أولى!

وهذا تحليلٌ رائعٌ صادقٌ من سعدٍ رضي الله عنه، وهذا ما حصلَ في عالم الواقع، حيث هزمَ الله جموع الفرس.

ونشير إلى حادثتيْن حدثتا بين سعدٍ وعمرَ رضي الله عنهم:

بين عمر وسعد بشأن جارية سعد:

الأولى: رواها الطبراني عن سعيد بن المسيّب قال: «خرجَتْ جاريةٌ لسعد، عليها قميصٌ جديد، فكشفَتْها الريح، فَشَدَّ عليها عمر بالدِّرَّة! وجاءَ سعدٌ ليمنعه، فتناولَه بالدِّرَّة، فذهبَ سعدٌ يدعو على عمر! فناوَلَه الدِّرَّة، وقال

له: اقتصّ! فعفا عن عمر»[1]!!.

خرجَتْ بنتٌ صغيرةٌ لسعد، وهي تلبس ثوباً جديداً، فحركت الريحُ ثوبَها، وكشفَتْ جزءاً من جسمِها، ورآها عمرُ رضي الله عنه، فأدَّبَها، حيثُ ضربَها بالدِّرَّة التي كانت لا تُفارقُ يدَه، وهي عصا صغيرة، وكان يضربُ بها المخالفين، سواء كانوا صغاراً أم كباراً!

ورأى سعدٌ عمرَ يضربُ ابنتَه بالدِّرَّة، فجاء ليمنعه، وكلَّمه بكلام، ولكنَّ عمرَ لم (يُوَفِّزه)! وإنّما ضربَه هو بالدِّرَّة!

وفوجىءَ سعدٌ بدِرَّةِ عمر تنزلُ على جسمه، فأرادَ استخدام سلاحِه الذي تميَّز به، وهو سلاحُ الدعاء، ورفعَ يديْه ليدعوَ على عمر! وعمرُ يعلمُ هذه المزيةَ لسعد، وأنه مجابُ الدعوة، ويخشى إنْ دعا عليه أنْ يستجيبَ اللهُ له، فيهلك عمر!

وأرادَ عمرُ إيقافَ سعدٍ عن الدعاء، ولذلك ناولَه الدِّرَّة، وتواضعَ أمامه، وقال له: خذ الدِّرَّة واضربْني بها واقتصّ مني!!

وتوقَّفَ سعدٌ عن الدعاء، وعفا عن عمر!!

هذه صورةٌ لما كان يجري بين عمرَ وبين إخوانِه الصحابة، وحرصِه على مراقبتِهم ومتابعتهم وتربيتهم وتقويمهم، ومحاربةِ المخالفات والتجاوزات التي قد تقعُ منهم؟ وسيادة روح الأخوّة والمودّةِ بينهم!

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي: ٩/ ١٥٣ ـ ١٥٤.

سعد يشكو عثمان لعمر:

الثانية: اشتكى سعد عثمانَ إلى عمر، بسبب تجاهلِه له، ثم عرَّفَ عثمانَ ما كان يفكرُ فيه، بعد ما عرَفَ المشكلة، وهي حادثةٌ لطيفةٌ عجيبة.

أخرجَ أحمدُ وأبو يعلى وغيرُهما، عن محمدِ بنِ سعد بن أبي وقاص عن أبيه رضي الله عنه، قال: «مَرَرْتُ بعثمانَ بنِ عفان في المسجد، فسلَّمتُ عليه، فملأَ عينيه منّي، ثم لم يَرُدَّ عليَّ السلام!

فأتيتُ أميرَ المؤمنين عمرَ بن الخطاب، فقلت: يا أمير المؤمنين: هل حَدَثَ في الإسلام شيء؟

قال عمر: لا. وما ذاك؟

قلتُ: لا. إلاَّ أنّي مررتُ بعثمانَ آنِفاً في المسجد، فسلَّمتُ عليه، فملأَ عينيه منّي، ثم لم يَرُدَّ عليّ السلام!

فأرسلَ عمرُ إلى عثمان، فدعاه. فقال: ما يمنَعُكَ أنْ تكون ردَدْتَ على أخيك السلام؟

قال عثمان: ما فعلْتُ؟

قلتُ: بلى!

حتى حَلَفَ، وحلَفْتُ!

ثم إنَّ عثمانَ ذَكَر، فقال: بلى. وأستغفرُ الله وأتوبُ إليه! إنّك مررتَ بي

آنفاً وأنا أُحَدِّثُ نفسي بكلمةٍ سمعْتُها من رسولِ الله ﷺ، لا واللهِ ما ذكرتُها قطّ إلاّ تغشّى بصري وقلبي غشاوة!

قلتُ: فأنا أُنبئُكَ بها: إنَّ رسول الله ﷺ ذَكَرَ لنا أوَّلَ دعوة، ثم جاء أَعرابيٌّ فشغَلَهُ، ثم قام رسولُ الله ﷺ، فاتبعْتُه، فلما أشفقْتُ أنْ يسبقني إلى منزله، ضربْتُ بقدمي الأرض!

فالتفتَ إليَّ رسول الله ﷺ، فقال: مَنْ هذا؟ أبو إسحاق؟

قلتُ: نعم. يارسول الله!

قال: فَمَهْ؟

قلتُ: لا والله إلا أنك ذكرْتَ لنا أولَ دعوة، ثم جاءَ هذا الأعرابيّ، فَشَغَلَكَ!

قال ﷺ: نعم. دعوةُ ذي النون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فإنّه لم يَدْعُ بها مسلمٌ ربَّه في شيءٍ قطّ، إلاّ استجابَ له..»[١].

سعد وعثمان في مجلس رسول الله ﷺ:

لنبدأ الرواية من بدايتِها، زمن رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٤٦٢) بتحقيق الأرناؤوط: ٣/ ٦٥ ـ ٦٦؛ وأخرجه أبو يعلى برقم (٧٧٢) بتحقيق حسين أسد: ٢/ ١١٠ ـ ١١١.

كان رسولُ الله ﷺ جالساً مع أصحابِه يُذَكّرُهم ويُعلّمهم، وكان من بينهم سعدٌ وعثمان رضي الله عنهما. . وذَكَرَ لهم ﷺ أولَ دعوةٍ مجابة، وأفضلَ دعوة يدعو بها المسلم، فيتقبَّلُها الله منه ويستجيبُ له. . وقبلَ أنْ يذكُرَ لهم ﷺ تلك الدعوة جاءه أعرابيٌّ من الخارج، فحدَّثَه وسأله، وشُغِلَ به رسول الله ﷺ. . وكأنَّ رسولَ الله ﷺ نسيَ ما قالَه للصحابة عن أفضل دعوة، وأنهم متلهّفون لمعرفتها! . . . وقام ﷺ من بينهم، وذهب إلى منزله! وبقيَ الصحابةُ الجالسون مشتاقين لمعرفةِ تلك الدعوة، متألمين، لأنَّ الرسول ﷺ لم يخبرهُم بها. . وكان في مقدّمةِ هؤلاء عثمان رضي الله عنه!

لكنَّ سعداً رضي الله عنه لم يكُنْ مثلَهم، وتصَرَّفَ تصرُّفاً يدلُّ على فطنتهِ وذكائه وحرصِه على العلم والمعرفة. . إنه مشتاقٌ لمعرفةِ أفضلِ دعوةٍ مستجابة، ليدعوَ اللهَ بها، فماذا يفعل؟

لحقَ برسولِ الله ﷺ، حتى كان قريباً منه، ولكنَّ الرسولَ ﷺ وصلَ بابَ منزله، وهو على وشكِ دخولِه فيه، وإذا دخلَ المنزلَ لم يأخذْ سعدٌ رضي الله عنه ما يريد منه!

هل يُناديه قبل دخوله؟ ويقولُ له: يا رسولَ الله قِفْ فإنّي أُريدُك! إنَّ هذا لا يليقُ به، ولا يتفقُ مع الأدبِ الذي يتأدَّبُ به الصحابةُ مع رسول الله ﷺ!

لقد ضربَ الأرضَ بقدمِه! لِيَشْعُرَ رسولُ الله ﷺ بمتابعتِه له، وحاجتِه إليه!

سعد يتعلم الدعاء من رسول الله ﷺ:

ولما سمعَ رسولُ الله ﷺ الصوتَ الْتَفَتَ خلْفَه، فرأى سعداً. فقال: مَنْ؟ أنتَ أبو إسحاق؟

قال سعدٌ: نعم يا رسول الله.

قال: ماذا تريد؟

قال سعد: ذكرْتَ لنا في مجلسِكَ مَعَنا أنَّ هناكَ دعوةٌ هي أفضلُ الدعوات، ولا يدعو بها مسلمٌ إلا استجابَ اللهُ له، وقبلَ أنْ تُخبرَنا بها جاء الأعرابيُّ فشَغَلَكَ عنّا، ولما قمتَ عنّا لحقْتُ بك، لأستفيدَ منك، فما هي تلك الدعوة يا رسول الله؟!

أخبرَ رسول الله ﷺ في ذلك الموقف سعداً الحريص على طلب العلم، بتلك الدعوة. وقال له: هي دعوةُ ذي النون يونسَ عليه السلام، التي دعا اللهَ بها وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقد أخبرنا اللهُ بها في القرآن، عندَ الحديثِ عن قصةِ يونسَ عليه السلام!

وأخبرَ رسولُ الله ﷺ سعداً رضي الله عنه أنّه لا يدعو مسلمٌ ربَّه بهذه الدعوة الطيبة إلا استجابَ الله له. فصارَ سعدٌ يدعو الله بها.

حزن عثمان لعدم علمه بالدعاء:

أما عثمان بن عفان رضي الله عنه، الذي كان جالِساً في ذلك المجلس،

فإنـه لم يتصرَّفْ كتَصرُّفِ سـعد، ولذلـك لم يعلمْ بتلـك الدعوة. . ولكنَّه كان حزيناً متألّماً لفواتِ الفائدة عليه. ويبدو أنَّ الفرصَةَ لم تسنَحْ لعثمانَ ليسألَ رسولَ الله ﷺ عن تلك الدعوة، أو أنه نسيَ أنْ يسألَه عنها!

وبعدَ وفاةِ رسول الله ﷺ كان عثمانُ رضي الله عنه كلما تذكّر تلك الدعوة التي لم يعرفْها يتَحسَّرُ ويتألَّمُ، وتغشى الغشاوةُ قلْبَه وبصَره، من شدّةِ حسرتِه وحزنِه، بحيثُ إنه لا يشعرُ بما حولَه!!

وفي خلافةِ عمر، دخل سعدٌ المسجد، فرأى عثمانَ وحدَه فيه، فألقى عليه السلام! ولكنّه فوجىءَ بعثمانَ ينظرُ إليه، ويملأ عينيه منه، ولـم يَرُدَّ عليه السلامَ!!

ماذا حدث؟ إنَّ عثمانَ يعلمُ أنَّ ردَّ السلام واجب، وها هو سعدُ يلقي عليه السلام، وهو قد سمعَ كلامَه، بدليلِ أنَّه نظرَ إليه! فلماذا لم يَرُدَّ عليه السلام؟!

خرجَ سعدٌ مسرعاً إلى عمر، واشتكى عثمانَ إليه، وأخبره بما حصلَ منه، وهَدَفُ سعدٍ من تقديم الشكوى أنْ يعرف الحقيقة، حتى لا يتغيّرَ قلبُه على عثمان، ولا يتّخذَ منه موقفاً سلبياً!

سعد يخبر عثمان بالدعاء:

استدعى عمرُ عثمانَ، ليستوضحَ منه الأمر! ولما أتاهُ بـادرَهُ بالسؤال: ما يمنعُكَ أن تكونَ ردَدْتَ على أخيك السلام؟

فوجىءَ عثمانُ بالسؤال، ونفى ذلك قائلاً: ما فعلْتُ!!

وفوجىءَ سـعدٌ بنفي عثمانَ للحادثـةِ كلّها . . مع أنَّه متأكِّدٌ أنها حصلَتْ! ولذلك حلـفَ سعدٌ بـالله أمام عمر: واللهِ لقد سلَّمْتُ عليك، ولم تَـرُدَّ عليَّ السلام! وحلف عثمانُ بالله: واللهِ ما سلَّمْتَ عليَّ، ولا رأيتُك!!

ثم تذكّرَ عثمان: نعم، لقد سلَّمْتَ عليَّ في المسجد، ولم أَرُدَّ عليك السلام، وأنا أستغفرُ الله وأتوبُ إليه مما حَصَل، وأسـتغفر الله وأتوب إليه من اليمين الذي حلَفْتُه!!

ثم بيّن عثمانُ لعمرَ وسعدٍ ما كان يُشغِلُ باله عندما طرحَ سعدٌ عليه السلام، وهي الدعوةُ التي لم يسمعْها من رسول الله ﷺ، وكلما تذكّرها يُصابُ بهذه الحالةِ من الحزنِ والألم والحسرة، بحيث لا يشعرُ بمن حولَه!!

عرَفَ سعدٌ الحقيقةَ، وازداد حبّاً وتقديراً لأخيه عثمان. . وفرَّجَ عنه همَّه، وأزالَ حُزنَه، فذكرَ له تلك الدعوة الفاضلة المباركة!

وشكرَ عثمانُ سعداً على ما أفاده به، وصارَ يدعو بتلك الدعوة، بعد أكثر من ثلاثَ عشرةَ سنة من تفكيره فيها!!

طبيعة سعد وطبيعة عثمان:

تقدّمُ لنـا هذه الحادثةُ اللطيفةُ صورةً لبعضِ ما كـان يجري بين الصحابةِ من إشكالات، وحلِّهم الميسورِ السريعِ لها، وحرصِهم على المصارحـةِ والمكاشفة، لحسنِ تفسيرِ الأحداث والإشكالات، وإزالةِ ما قد يعلقُ بالقلوب منها.

كما أننا يمكن أنْ نتعرَّف من خلالِ هذه الحادثةِ على طبيعةِ كلٍّ من عثمانَ وسعدٍ رضي الله عنهما. عثمانُ الحريصُ على العلمِ والفائدة، لكنه يتألَّم ويتحسَّرُ عندما تفوتُه، ومرورُ السنواتِ لا يُزيلُ تلك الحسرة! بحيثُ إنه يسرحُ مع أفكارِه ومشاعرِه، فلا يشعرُ بما حولَه، ولا يكادُ يرى أو يسمع ما يجري حوله.

أما طبيعة سعدٍ فإنّها طبيعةٌ عمليةٌ متحرّكة، وهو يتفوَّقُ في هذا الجانب على عثمان! رضي الله عنهما، وفي كلٍّ خير، بدليل أنّه لحقَ بالنبيّ ﷺ، وتأدّبَ معه في أخذِ العلمِ عنه، فهو يَعرفُ ماذا يفعلُ ليحصلَ على ما يُريد!

(٢) سعد مرشح للخلافة

طعن عمر في المحراب:

بقيَ سعدٌ عندَ عمرَ رضي الله عنهما، مستشاراً له كباقي كبارِ الصحابة، حتى الأيام الأخيرةِ من عُمْرِ عُمَرَ رضي الله عنه.

وفي آخر خلافةِ عمرَ أرادَ أنْ يَعزِلَ المغيرةَ بن شُعبة عن الكوفة وأن يعيدَ سعداً والياً عليها، لكنَّ الأحداث فاجأتْه، فأوصى مَنْ بعده بذلك!

وفي صباح يوم الأربعاءِ، السادس والعشرين من شهر ذي الحجة، نجح المجرمُ أبو لؤلؤة المجوسيّ في اغتيال عمر[1]!

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٩٣.

أقيمتْ صلاةُ الفجرِ في صباح ذلك اليوم ووقفَ عمرُ في المحراب، والتَفَتَ إلى الناس، ودعاهم إلى تسويةِ صفوفهم، وكان خلْفَه مباشرةً عبدُ الرحمن بن عوف وعبد الله بن عباس، رضي الله عنهم. ودخلَ المجرمُ أبو لؤلؤة لتنفيذ جريمته، دونَ أنْ يفطَنَ له أحد!

ولما كبَّرَ عمرُ وقرأَ الفاتحة، وشرعَ في قراءةِ القرآن بعد الفاتحة، هجمَ عليه أبو لؤلؤة بخنجرٍ ذي حَدَّيْن مسمومٍ، وطعَنَهُ به ثلاثَ طعناتٍ قاتلةٍ نافذة، فانقطع صوت عمر، وتوقفَ عن القراءة، وسقط على الأرض، وطلبَ من عبد الرحمنِ بن عوف أنْ يكملَ الصلاة، فصلَّى ابنُ عوف صلاةً خفيفةً سريعة!

ولما طَعَنَ أبو لؤلؤة عمرَ طعَنَ مجموعةً من الصحابةِ كانوا واقفين في الصلاة، وكانوا ثلاثةَ عشر رجلاً، استُشْهِدَ منهم سبعة. وألقى عبدُ الرحمن ابن عوف على أبي لؤلؤة (بُرْنُساً) ليُلقيَ القبضَ عليه! ولما رأى أبو لؤلؤة ذلك طعنَ نفسه بخنجره فمات منتحراً!

سعد يحبس عبيد الله بن عمر في بيته:

وفوجئ الصحابة بمصرعِ عمر رضي الله عنه، وتأثَّرَ (عبيد الله بن عمر) رضي الله عنهما بمصرع أبيه، وخَرجَ عبدُ الرحمن بنُ أبي بكر رضي الله عنهما من المسجد، ورأى عبيدَ الله بن عمر وهو متأثّرٌ هائج، فأخبره عن مشهدٍ رآه قبل أيام:

كان عبدُ الرحمن بن أبي بكر يسيرُ في الطريق، فرأى المتآمرين الثلاثة: الهُرْمُزانَ الفارسيَّ وجُفَيْنَةَ النصرانيّ وأبا لؤلؤة المجوسيّ، وكانوا جالسين

جلسةً مشبوهةً، فلما رأوه خافوا ووقفوا، ولم يتمكَّنوا من إخفاءِ خنجرٍ كان معهم، فلما وقفوا سقطَ الخنجرُ أمامهم! فرآهُ ابنُ أبي بكر! وهو الخنجرُ الذي استخدمَه أبو لؤلؤة في طعن عمر! وعرفَ ابنُ أبي بكر أنها مؤامرة، خطَّطَ لها المتآمرون الثلاثة، ونفَّذها أبو لؤلؤة!!

أخبرَ عبدُ الرحمن بنُ أبي بكر عبيد الله بنَ عمر بما رآه، فحملَ عُبيد الله سيفَه وتوجَّهَ إلى الهرمزان فقتله، ثم توجَّه إلى بيتِ جُفَيْنَة النصرانيّ فقتَلَه، ثم توجَّه إلى بيت أبي لؤلؤة، فوجدَ فيه ابنةً له صغيرةً فقتلها، ثم خرجَ إلى الشارع شاهراً سيفه وهو ثائرٌ هائج، يريدُ أنْ يقتلَ كلَّ مَنْ يراه من سبايا الفرس والروم في المدينة!

ورآهُ سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه، وخشيَ أنْ يقتلَ أناساً أبرياء، فهجم عليه، وجَذَبَه من شعره، وطرحَه أرضاً، وأخذَ السيفَ من يده! ثم ألقى القبض عليه!

إنَّ عمرَ صريعٌ في بيته، ولا يوجَدُ الآن خليفة، فماذا يفعلُ سعدٌ بعبيد الله ابن عمر، رأى سعدٌ أنَّ الأنسبَ هو أنْ يعتقلَه ويحبسه في منزله، لحين انتهاء الأحداث وتنصيب خليفة! وبقي عبيدُ الله بن عمر محبوساً في بيتِ سعد[1]!

وهذه الحركةُ من سعدٍ حركةٌ ذاتية، تدلُّ على فطنتِه وبُعْدِ نظرِهِ، ومبادرتِه بالخير، وحرصه على مصلحة المسلمين.

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ٢٣٩.

دعوة عمر إلى أن يستخلف:

وطلبَ الصحابـةُ من عمر أن يسـتخلفَ خليفةً منْ بعدِه، فرفضَ أن يستخلفَ واحداً بعينه، وجعلَ الخلافةَ في ستةٍ من المبشرين بالجنَّة، الذين توفِّي رسولُ اللهِ ﷺ وهو عنهم راض.

كان قد توفِّي من العشرة كلٌّ من أبي بكرٍ الصديق وأبي عبيدةَ بن الجراح رضي الله عنهما، وهـا هو عمرُ رضي الله عنـه صريعٌ على فراش المـوت، واستبعدَ عمرُ من الترشيح للخلافة سعيدَ بنَ زيد رضي الله عنه، لأنه من أقاربِ عمر (بني عدي) وزوجُ أُخته، ولا يُريدُ عمرُ أنْ يرشّحَ أحداً من أقاربه للخلافة، ولذلك نَهَرَ المغيرة بن شعبة عندما اقترح عليه ابنَه عبد الله للخلافة.

قال له المغيرة: استخْلِفْ عبد الله بن عمر!

فقال له عمر: قاتلَكَ اللهُ! واللهِ ما أردتَ بهذا وجهَ الله! لا حاجةَ لنا في أُموركم، ووالله ما حمدْتُ الخلافةَ، لأرْغَبَ فيها لأحدٍ من أهل بيتي! فإنْ كانت الخلافةُ خيراً فقد أصَبْنا منه، وإن كانت شرّاً فبحسبِ آلِ عمر أن يُحاسَبَ منهم رجلٌ واحد، ويسأله الله عن أمرِ أُمةِ محمدٍ ﷺ، ولقد جهدْتُ نفسي، وحَرَمْتُ أهلي، فإنْ نجوْتُ كفافاً لا وزرَ عليَّ ولا أجْرَ لي، إنّي إذنْ لسعيد[1]!.

الخلافة في المبشرين من الستة:

جعلَ عمرُ الخلافةَ في ستةٍ من المبشَّرين بالجنة هم: عثمان بن عفان،

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٣٨.

وعليُّ بن أبي طالب، وعبدُ الرحمن بن عوف، وسعدُ بن أبي وقاص، وطلحةُ بن عبيد الله، والزبيرُ بن العوام، رضي الله عنهم.

ولما طُعِنَ عمرُ كان طلحةُ بن عبيد الله غائباً عن المدينة، ففي صباح اليوم التالي الذي طُعِنَ فيه عمر دعا المرشّحين الخمسة: عثمان وعلياً وعبد الرحمن وسعداً والزبير، ثم قال لهم: إني نظرتُ فوجدتُكم رؤساء الناسِ وقادتَهم، ولا يكونُ هذا الأمرُ إلاَّ فيكم، وقد قُبِضَ رسول الله ﷺ وهو عنكم راضٍ، وإني لا أخافُ عليكم إن استَقَمْتم، ولكنّي أخافُ عليكم اختلافكم فيما بينكم، فيختلفُ الناس! قوموا فتشاوروا لِتختاروا منكم رجلاً!

فدخلوا فتناجوا، فارتفعَتْ أصواتُهم! فقال لهم عبد الله بن عمر: سبحان الله! إنَّ أمير المؤمنين لم يمت بعد!

وانتبه عمرُ فاستدعى الخمسة، وقال لهم: إذا مِتُّ فتشاوروا ثلاثةَ أيام، ولا يأتينَّ اليومُ الرابعُ إلا وعليكم أميرٌ منكم، ويحضرُ عبد الله بن عمر معكم مشيراً، ولا شيءَ له من الأمر! وطلحة شريككم في الأمر، فإنْ قَدِمَ في الأيام الثلاثةِ فأحضروه أمركم، وإنْ مَضَتْ الأيامُ الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم!

سعد يضمن طلحة الغائب:

ثم تساءل عمر عن طلحة الغائب: مَنْ لي بطلحة؟

فقال سعدُ بن أبي وقاص: أنا لك به، وهو لا يخالفُ إنْ شاءَ الله!

جعلَ عمرُ لطلحةَ حقاً في الترشيح للخلافة، باعتباره من العشرة المبشَّرين بالجنة، فإنْ جاء خلال المدةِ المقررةِ شارك إخوانه في الترشيح

والمناقشة، وإن جاء بعد اختيار أحدِ الخمسة خليفة فلْيسمعْ له!

وخشيَ عمرُ أنْ يفعلَ طلحةُ شيئاً يثيرُ فتنة، فطلبَ مَنْ يضمنُه، فاستعدَّ سعدٌ وقال له: أنا لك بطلحة، وهو لا يخالفُ إنْ شاءَ الله! لأنَّ سعداً يعلمُ طبيعةَ طلحة، وأنه حريصٌ على وحدة المسلمين.

وكلَّفَ عمرُ صهيبَ الرومي أن يصلّي بالناس، وكلَّف أبا طلحةَ الأنصاريَّ أنْ يختار خمسين حارساً، يحرسون المرشَّحين الستة في جلساتهم، وكلَّفَ المقداد بن الأسود أنْ يقف على رؤوس المرشّحين، فإن اتفقت أكثريتُهم على شخص، فليَقْتُل المخالفين! وإن مَضَت الأيام الثلاثةُ دونِ اتفاقٍ، فليقتُل الستة أجمعين، حفاظاً على مصلحة المسلمين[1]!!

سعد يطرد ابن العاص وابن شعبة:

توفي عمرُ رضي الله عنه ليلة الأحد، الأولَ من محرم، من السنة الرابعة والعشرين، وصلَّى عليه صهيب الرومي.

وعقدَ المرشحون الخمسةُ أولَ جلسةٍ لهم صباحَ يوم الأحدِ المذكور، في بيت (المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمَة) ـ ابن أختِ عبد الرحمن بن عوف ـ وحضرَ معهم عبدُ الله بن عمر ليكون مستشاراً كما أوصى أبوه، ووقفَ عليهم أبو طلحة الأنصاريُّ والمقدادُ بنُ الأسود مع الحرّاس.

وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شُعبة رضي الله عنهما، فجلسا

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ٢٢٨ ـ ٢٣٠؛ وانظر كتابنا: الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد، ص٩٧ ـ ١٠٠.

بالباب، فرآهما سعدُ بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو في الداخل، واستاءَ لجلوسهما، لأنه عرفَ قصدهما من ذلك! فنهرَهما وحصَبَهما بالحصى وطردَهما.

قال لهما: تريدانِ أنْ تقولا. حضرنا جلسة الشورى، وكنّا في أهل الشورى[1]!

وهذه التفاتةٌ طيبةٌ ذكيةٌ من سعد، لم ينتبهْ لها إخوانُه، لأنَّ سعداً كان دائماً يقظاً فطناً منتبهاً! لماذا يجلسُ ابن العاص وابن شُعبة بالباب، والمرشّحون الخمسة يتحاورون في الداخل؟ إنهما يريدانِ أنْ ينالا بذلك الرفعة والتكريم فيما بعد، حيثُ سيقولان: كنّا في أهل الشورى الذين اختاروا فلاناً خليفة! ولذلك كره سعدٌ هذا الفضولَ منهما، فطردَهما!!

ابن عوف يخرج نفسه من الترشيح:

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه لإخوانه: أيكم يُخرجُ منها نفْسَه، على أنْ يُوَلِّيها أفضلكم؟ فلم يجبْهُ أحد؟

فقال ابنُ عوف: أنا أخرجُ نفسي عنها، وأنخلعُ منها!

عند ذلك وكَّله باقي المرشَّحين بالأمر، وفوَّضوه في إدارة موضوع الشورى، وعاهَدوه على أنْ يرضَوا بما تنتجُ عنه عمليةُ الشورى.

عملُ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ثلاثةَ أيام متتالية بلياليها

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ٢٣٠.

سـألَ إخوانَه الأربعة، وسأل الصحابةَ في المسجد والطريق، وسأل القادمين للمدينة، حتى سألَ النساءَ في خدورهنّ: مَنْ يرونه أنسب للخلافة؟

رؤيا ابن عوف وحواره مع سعد:

وأثناء فترةِ السؤال جرى حديثٌ بين ابن عوف وابن أبي وقاص رضي الله عنهما.

قال ابنُ عوف لسعد: مَنْ تراه مناسباً؟

قال سعد: أنت!

قال ابن عوف: يا أبا إسحاق: لقد خلعْتُ نفسي من الخلافة على أن أختارَ الخليفة! ولو لم أفعل ذلك لما أردْتُ أنْ أكون خليفة!

قال له سعد: لماذا؟

قـال ابنُ عوف: لأنني رأيت رؤيا! رأيتُ روضةً خضراءَ كثيرةَ العشب.. فدخلَ فَحْلٌ، لم أرَ فَحْلاً أكرمَ منه، فمرَّ الفحلُ من الروضة، كأنّه سهم، حتى قطعها، ولم يلتفت إلى شيء مما فيها، ولم يأخذ شيئاً منها!!.. ثم دخلَ بعدَه بعير، فقطعَ الروضةَ يتتبع أثرَ الفحل، ولم يلتفت إلى شيء مما فيها!!.. ثم دخلَ بعد البعير فحْلٌ عبقري، يَجُرُّ خِطامَه، ويلتفت في الروضة يميناً وشمالاً، ولكنه يتبعُ أثَرَ السابقين، ولم يأخذ منها شيئاً حتى خرج!!.. ثم دخل بعيرٌ رابع، فرتعَ في الروضة!!.

ولا ولاالله لا أكون أنا الرابع! ولن يقومَ أحدٌ مقام أبي بكر وعمر،

فيرضى عنه الناس[1]!

حصر الترشيح في عثمان وعلي:

وسأل عبد الرحمن بن عوف إخوانَه المرشّحين كُلاً على حِدَة:

قال لعثمان: مَن تراه أحقُّ بالأمر؟

قال: عليّ بن أبي طالب!

ثم قال لعلي: مَنْ تراهُ أحقُّ بالأمر؟

قال: عثمان بن عفان!

ثم قال للزبير: مَن تراهُ أحقُّ بالأمر؟

قال: عثمانُ بن عفان!

ثم قال لسعدِ بن أبي وقاص: مَنْ تراهُ أحقُّ بالأمر؟

قال: عثمان بن عفان!!

وهكذا انحصر الترشيحُ في اثنين: عثمان وعلي، بعد أن انسحبَ كلٌّ من سعد والزبير وعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهم جميعاً.

ابن عوف يحاور عثمان وعلياً:

وفي منتصفِ ليلةِ الأربعاءِ في آخرِ الأيامِ الثلاثةِ الممنوحةِ للمرشَّحين،

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ٢٣٢.

ذهبَ عبدُ الرحمن بن عوف إلى بيتِ ابن أُختِه المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمَة، وطرقَ الباب، فوجدَه نائماً، ولما استيقظ المسوَرُ قال له: أراكَ نائماً! فواللهِ ما ذقْتُ في هذه الأيام الثلاثة كثيرَ نوم!

ثم قال له: اذهبْ فادْعُ لي علياً وعثمان!

قال المسْوَر: يا خالي: بأيِّهما أبدأُ؟

قال: بأيّهما شئت!

فذهبَ المسـورُ فدعا علياً ثم عثمان، وجاءا إلى ابنِ عـوف في بيتِ المسْوَر، قبلَ أذانِ الفجر.

فلما اجتمعا قال لهما عبدُ الرحمن بن عوف: سألتُ الناسَ واستشرتُهم ثلاثةَ أيام، فلم أجدهم يعدلون بكما أحداً.

ثم التفتَ إلى عليّ، فقال له: يا عليّ: هل تبايعُني على كتاب الله وسنّةِ رسول الله ﷺ، وفعْلِ أبي بكر وعمر؟

قال عليّ: لا. ولكن أبذلُ جهدي وطاقتي في ذلك!

بعدَ ذلك التفتَ إلى عثمان، فقال له: هل تبايعُني على كتاب الله وسنةِ رسول الله ﷺ، وفعل أبي بكر وعمر؟

قال عثمان: نعم. أبايُعك على ذلك!!

وبذلك رجحَتْ كفةُ عثمانَ على كفّةِ عليٍّ رضي الله عنهما.

عند ذلك دخلَ وقتُ صلاةِ فجرِ يومِ الأربعاء، الرابع من محرّم، فقال ابنُ عوف لهما: انهضا إلى المسجد.

مبايعة عثمان في المسجد:

وكان المسلمون في صلاةِ الفجرِ في المسجد ينتظرون نتائجَ جهودِ واتصالاتِ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، ولاسيما أنَّ الأيامَ الثلاثةَ التي حدَّدَها عمرُ رضي الله عنه قد انتهت، وها هم يستقبلون فجرَ اليوم الرابع.

أمَّ المسلمين في صلاةِ الفجرِ صهيبُ الرومي رضي الله عنه، وبعدَها صعدَ ابنُ عوف المنبر فتكلّم، وتكلَّمَ أناس.

وخشيَ سعدٌ أن يقع الخلافُ والنزاع، فنادى ابنَ عوف قائلاً: يا عبد الرحمن: افْرُغْ قبل أنْ يفتتن الناس!

فاستدعى علياً وكلَّمه، ثم دعا عثمان وكلَّمه.. ثم أعلن البيعةَ لعثمان، فبايَعَه، ودعا الناسَ لمبايعته، فازدحموا على عثمانَ يبايعونه. وابنُ عوف يتلو قولَه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠].

وكان في مقدمةِ المبايعين لعثمان: علي، وسعد، والزبير. المرشحين للخلافة[1].

---

(١) انظر: تاريخ الطبري: ٤/ ٢٢٧ ـ ٢٤٠؛ والخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد: ١٠٦ ـ ١١٠.

(٣) سعد مع عثمان وعلي

كان سعدٌ في مقدمةِ مَنْ بايَعوا عثمانَ رضي الله عنهما، مع المرشحين الآخرين للخلافة.

وكان أولَ عملٍ قامَ به عثمانُ بعد استخلافه حكْمَه في قضيةِ عبيدِ الله بن عمر حيثُ قتل الهرمزانَ وجفينةَ وابنةَ أبي لؤلؤة، فأخذَ سعدٌ سيفَه منه، وحبَسَه عنده في بيته.

فلما تمّت البيعةُ لعثمان، وانتهى من إلقاءِ خطبةِ الخلافة، جلسَ في ناحيةِ المسجد، ومعه مجموعةٌ من المهاجرين والأنصار.

سعد يسلّم عُبيد الله لعثمان:

طلبَ عثمان من سعدٍ أن يحضرَ عبيدَ الله بنَ عمر من محبسِه في بيته، وطلبَ من المهاجرين والأنصارِ أنْ يُشيروا عليه بالتصرّف المناسب.

أشارَ عليٌّ رضي الله عنه بقتْلِه قصاصاً، لأنَّه قتلَ ثلاثةَ أشخاص!

وأنكرَ بعضُ المهاجرين والأنصار على عليٍّ كلامَه، وقالوا: كيفَ يُقْتَلُ عمرُ بالأمس، ويُقتَلُ ابنُه عبيدُ الله اليوم؟

وقدَّم عمرو بن العاص رضي الله عنه حلاً ومخرجاً، حيث قال لعثمان: يـا أميرَ المؤمنين: إنَّ اللهَ قد أعفاكَ أن يكـونَ هذا الحدثُ كان ولـك على المسلمين سلطان، إنما كان هذا الحدثُ ولا سلطانَ لك..

عند ذلك قال عثمان: أنا وليُّ القتلى، وقد جعلْتُها دية، واحتملْتُها في مالي[1]!

لم يكن عثمانُ خليفةً عندما قتلَ عبيدُ الله بن عمر الثلاثةَ، فهو غيرُ مسؤولٍ عن الحادثة، وهو اعتبرَ نفسَه الآن ولياً للقتلى الثلاثة، ووليُّ القتيلِ بالخيار، إمَّا أنْ يطلبَ قتلَ القاتل قصاصاً، وإما أن يتنازلَ عن ذلكَ إلى الديّة! وبما أنه صارَ وليَّ القتلى الثلاثة فإنه تنازل إلى المطالبة بالدية.

ثم أكرمَ عبيدَ الله إكراماً آخر، بأنْ تحمَّل هو ديّةَ الثلاثة من مالِه الخاص، ولم يكلِّفْ عبيدَ الله بذلك.

وبذلك تمَّ الإفراجُ عن عبيد الله بن عمر، وحلَّ عثمانُ أولَ مشكلةٍ واجهتْهُ في خلافته!

عثمان يولّي سعداً الكوفة:

والقرار الثاني الذي اتّخذه عثمان هو تعيينُ سعدِ بنِ أبي وقاص والياً على الكوفة.

فقد عزلَ عمرُ سعداً عن ولايةِ الكوفة في منتصفِ السنةِ العشرين، بعد شكوى بعضِ المشاغبين عليه، وكان عمرُ في آخر عهدِه يريدُ إعادةَ سعدٍ للكوفة!

وبعد طعنِ عمرَ أوصى الخليفةَ من بعده أن يولّي سعداً الكوفة، وقال:

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٣٩.

أوصي الخليفة من بعدي أنْ يستعملَ سعدَ بن أبي وقاص، فإني لم أعزلْه عن سوءٍ أو عجزٍ أو خيانة!

وكان الوالي على الكوفة عند استخلاف عثمانَ المغيرةَ بنَ شعبة، وقد استقرَّت الأمورُ في ولايته، حيثُ أمضى فيها حوالي سنتين! وكان المغيرةُ في المدينة عندما استُشهِد عمرُ واستُخلفَ عثمان.

أبقى عثمان المغيرةَ في المدينة، واستعملَ سعداً والياً على الكوفة! وكانَ ذلك في مطلع السنةِ الرابعة والعشرين. واستعملَ عبد الله بن مسعود على بيت المال فيها.

وبقي سعدٌ والياً على الكوفة أكثر من سنتين ونصف.

مشكلة بين سعد وابن مسعود في الكوفة:

في السنةِ السادسةِ والعشرين وقعَتْ مشكلةٌ بين الأميرِ سعد، وبين مسؤولِ بيت المال ابن مسعود.

لقد استقرضَ سعدٌ من بيت المال مبلغاً من المال، لأنه كان في حاجةٍ ماسةٍ له، على أنْ يُعيدَ هذا المال في وقتٍ محدَّد.. ولما حان وقتُ السداد جاءَ عبدُ الله بن مسعود إلى سعدٍ يتقاضاه.. ولم يكن مع سعدٍ مال! فاستمهلَ سعدٌ ابنَ مسعود، وطلبَ أنْ يُنظرَه إلى وقتٍ آخر، يتيسَّرُ له فيه المال! ولم يوافق ابنُ مسعود على ذلك، لأنه قيِّمٌ وأمينٌ على المال! ونزغَ الشيطانُ بين سعدٍ وابن مسعود رضي الله عنهما، وكلَّمَ كلٌّ منهما أخاهُ بغلظَةٍ، وأخطأ معه وأساء له!!

وسمعَ بعضُ الحاضرين كلامَهما!

قال قيسُ بنُ أبي حازم: كنتُ جالساً عند سعد، وعندَه ابنُ أخيه هاشم بن عتبة.. فأتى ابنُ مسعود سعداً، فقال له: أدِّ المالَ الذي قِبَلَك!

فقال له سعد: ما أراك إلا ستلقى شرّاً!

فقالَ لهما هاشم بن عتبة: إنكما لصاحبا رسول الله ﷺ، يُنْظَرُ إليكما!

فطرحَ سعدٌ عوداً كان في يديه.. وقال: اللهمَّ ربَّ السماوات والأرض.

فقالَ له ابنُ مسعود: ويلكَ: قل خيراً، ولا تلْعَنْ!

فقال له سعد: أما والله، لولا تقوى الله، لدعوتُ عليك دعوةً لا تُخطئُك!!

فخرجَ ابنُ مسعود مسرعاً[1].

يبدو أنَّ ابنَ مسعود طالبَ سعداً سداد القرض من قبل، فجاءَه المرةَ الثانية يطالبُه بذلك، وحولَه رجالٌ منهم ابنُ أخيه هاشمٍ وقيسُ بنُ أبي حازم، فغضبَ سعدٌ من مطالبة ابن مسعود أكثر من مرة، وأغلظَ في القول، فنصحَهما هاشمٌ بالحلمِ والتأنّي، لأنّهما من خيارِ أصحابِ رسول الله ﷺ، والآخرونَ ينظرون إليهما، ويقتَدون بهما، فماذا سيقولون عنهما إن تنازعا واختلفا واسْتَبّا؟!

عند ذلك لجأ سعدٌ إلى سلاحِه المتميّز، فرمى العود، ورفعَ يديه، وشرعَ في الدعاء، وأوشكَ أنْ يدعوَ على ابنِ مسعود!

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ٢٥١ ـ ٢٥٢.

وابنُ مسعودٍ يعلمُ تَمَيُّزَ سعدٍ بالدعاءِ المستجاب، ولذلك خشيَ أنْ يدعوَ عليه دعاءً يهلكُه، فذكَّرَه بالله، وقال له: ادْعُ بخيرٍ ولا تلعن.

وتراجعَ سعدٌ عن الدعاءِ عليه، وسكتَ عن الغضب، وأخبرَه أنَّ الذي منعَه من الدعاءِ عليه هو تقوى الله!

إنّها صورةٌ من الخلاف الذي قد يحدُثُ بين الصحابة، وهو خلافٌ سطحيٌّ ظاهريٌّ عرضيّ، لم يتعمَّقْ في القلوب، ولم يوصِلْ إلى الحقدِ والكراهيةِ والبغضاء، وهو سرعان ما يزول، لتحلَّ محلَّه المودّةُ والمحبّة.

ولما علمَ عثمانُ بما جرى بين سعدٍ وابنِ مسعود، رأى من المصلحة نقْلَ سعدٍ من الكوفةِ إلى المدينة، وكان هذا في السنةِ السادسة والعشرين، حيثُ عَيَّنَ مكانَه الوليدَ بن عقبة، الذي استمرَّ والياً على الكوفة خمس سنوات، حتى السنةِ الثلاثين.

وعادَ سعدٌ إلى المدينة، وأقامَ فيها، ولم يتولَّ ولايةً عامةً بعد ذلك، وبقيَ بجانبِ أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، يُشيرُ عليه بما فيه مصلحةُ الإسلامِ والمسلمين!

سعد بجانب عثمان في المدينة:

بقي سعدٌ بجانبِ عثمان رضي الله عنهما، ناصحاً مشيراً، كما فعلَ كبارُ الصحابة، واستمرَّ على ذلك أكثرَ من عشرِ سنوات: من بداية السنةِ السادسة والعشرين، لحينِ استشهادِ عثمانَ في نهاية السنةِ الخامسةِ والثلاثين!

وشهدَ سعدٌ تفاعلَ وتطوّرَ الأحداثِ ضدَّ الخليفة عثمان، التي بدأَتْ في

السنةِ الثالثةِ والثلاثين، وازدادتْ بخروجِ المتمرِّدين الغوغاءِ من مصرَ والبصرةِ والكوفـة إلى المدينـة، وبلغت الأحـداثُ ذروتَهـا بمحاصرةِ المتمرّديـن للمدينة، في شهر ذي الحجّة من السنةِ الخامسة والثلاثين.

وكانَ سعدٌ بجانبِ عثمانَ هو وكبارُ الصحابةِ كعليٍّ وطلحةَ والزبير وغيرهم، وقامَ سعدٌ بواجبهِ في الدفاعِ عن الخليفةِ المحاصَرِ، لكنَّ الأحداثَ كانتْ أكبرَ منه ومن باقي الصحابة[1].

عثمان يستشهد سعداً وإخوانه:

وقد استشهدَ عثمانُ سعداً وعلياً وطلحةَ والزبير على بعضِ ثناءِ الرسولِ ﷺ عليه، ليسمعَ المتمرّدون الخوارجُ ذلك، لعلَّهم يكفُّون عنه:

روى النسائي عن الأحنف بن قيس قال: «خرجْنا حُجّاجاً، فقدِمْنا المدينةَ، ونحنُ نريد الحجّ.. فبينما نحنُ في منازِلنا نضعُ رحالَنا، إذ أتانا آتٍ، فقال: إنَّ الناسَ قد اجتمعوا في المسجد، وفزِعوا..

فانطلقنا، فإذا الناسُ مجتمعـون على نفرٍ في وسـطِ المسجد، وفيهم عليٌّ والزبير وطلحةُ وسعدُ بن أبي وقاص.

فإنَّا لكذلك إذ جاءَ عثمان رضي الله عنه، عليه ملاءَةٌ صفراء قد قنَّعَ بها رأسَه، فقال: أهـهنا طلحة؟ أهـهنا الزبير؟ أهـهنا سعد؟

---

(١) انظر تسلسل أحداث الفتنة الكبرى واستشهاد عثمان، من البداية إلى النهاية، في كتابنا: الخلفاء الراشدين: ١١٤ ـ ٢٠٤.

قالوا: نعم.

قال: فإنّي أَنْشُدُكُمْ باللهِ الذي لا إلـه إلا هو: أَتَعلمونَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ يبتاعُ مِرْبَدَ بني فلان، غفرَ اللهُ له؟ فابتَعْتُه بعشرين ألفاً، أو بخمسةٍ وعشرين ألفاً!» فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فأخبرتُه. فقال: «اجعلْهُ في مسجدنا، وأَجْرُهُ لك!».

قالوا: نعم.

قال: أَنْشُدُكُم باللهِ الذي لا إلـه إلا هو: أَتعلمون أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ ابتـاعَ بئْرَ رُومَةَ غفرَ اللهُ له؟» فابْتَعْتُها بكذا وكذا، فأتيتُ رسـولَ الله ﷺ، فقلتُ: قد ابتَعْتُها بكذا وكذا! فقال: «اجعَلْهَا سقايةً للمسلمين وأجرها لك!».

قالوا: اللهمّ نعم.

قال: أَنْشُدُكُم باللهِ الذي لا إلـه إلا هو: أَتعلمون أنَّ رسولَ الله ﷺ نظرَ في وجـوهِ القومِ، فقال: «مَنْ يجهزُ هؤلاء، غفرَ الله له؟» (يعني جيشَ العسرة) فجهَّزْتُهم، حتى لم يَفْقِدوا عِقالاً ولا خِطاماً!

قالوا: اللهمَّ نعم!

قال: اللهمَّ اشهد! اللهمَّ اشهد!! اللهمَّ اشهد[1]!!!

استشهدَ عثمانُ إخوانَه الأربعةَ: علياً وسعداً وطلحةَ والزبيرَ على ثلاثـةِ

---

(١) سنن النسائي (٢٥) كتاب الجهاد، (٤٥) باب فضل من جهَّزَ غازياً، حديث رقم: ٣١٢٨٢.

من مواقفِه وأعمالِه، التي عملَها لله، وأثنى عليه رسولُ الله ﷺ بسببها، وهي: شراؤُه المِرْبَد وجعْله لله، وشراؤُه بئر رومة ليشربَ منها المسلمون، وتجهيزُه جيشَ العُسْرةِ المتوجِّهَ إلى تبوك كاملاً، وتكفُّلُه بكاملِ نفقاته، وكان عددُه ثلاثين ألفاً. . .

وقد شهدَ إخوانُه الأربعةُ على ذلك، مما دلَّ على منزلتِه وفضلِه.

ولكنَّ المتمرّدينَ الخوارج لا يريدونَ هذا، وإنما يريدون قتلَ عثمان وإفسادَ أُمورِ المسلمين، لأنّه كان يحركُهم أعداءُ هذا الدين!

سعد يحمل السلاح للدفاع عن عثمان:

وقد تعدَّى الخوارجُ على عثمان، أثناءَ حصارِهم للمدينة، حيثُ صَعَدَ المنبر يوماً ليخاطبَ الناس، وكانَ الخوارجُ في المسجدِ مع باقي المسلمين، فلما بدأ عثمانُ بالكلامِ منعوه، وطردوا المسلمين خارجاً، وحَصَبوا عثمانَ على المنبر، حتى صُرِعَ مغشياً عليه، وحُمِلَ إلى داره. .

تأثَّرَ سعدٌ كثيراً مما رأى، فَحَمَلَ سلاحَه ووقفَ حارساً على دارِ الخليفة، وكانَ معهُ مجموعةٌ من الصحابة، منهم: أبو هريرة، وزيدُ بن ثابت، والحسنُ بن علي، رضي الله عنهم.

ولكنَّ عثمانَ أمرَهم أن يعودوا إلى بيوتهم، ولم يسمح للمسلمين أن يقتتلوا من أجله[1]. . .

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٥٣.

وقامَ سعدٌ بآخرِ محاولةٍ للدفاع عن عثمان، وردِّ الخارجين عليه، فخرجَ إلى عليٍّ بن أبي طالب، فقال له: يا أبا الحسن: قم، فِداكَ أبي وأُمّي، جئتُكَ واللهِ بخيرٍ، ما جاءَ به قطُّ أحدٌ إلى أحد.. تصلُ رحمَ ابن عمك، وتأخذُ بالفضْلِ عليه، وتحقنُ دمَه، ويرجِعُ الأمرُ على ما نحبّ، وقد أعطى خليفتُك من نفسِه الرضا!

قال عليّ: تَقَبَّلَ اللهُ منكَ يا أبا إسحاق[1]!!

لكنّهم لم يستجيبوا لعليّ، ولم يسمعوا كلامَه...

وعندَ ذلك علمَ سعدٌ أنّه لا طاقةَ له بالخوارجِ المتمرّدين، وأنّهم لن يكفّوا عن عثمان، وعرضَ خدماتِه على عثمانَ ليدافعَ عنه، ولكنَّه أبى، وأمرَه أنْ يعودَ إلى بيتِه! فلماذا يبقى في المدينة؟

غادرَ سعدٌ المدينةَ في الأيامِ الأخيرةِ من حصارِ عثمان، وكان لهُ أرضٌ خارجَ المدينة، فأقامَ فيها أياماً، وهو حزينٌ متألّمٌ لما يجري، وللفتنةِ التي فرّقَتْ كلمةَ المسلمين، ولوضعِ الخليفةِ المحاصَرِ العاجز!!

وأقدمَ الخوارجُ المجرمون على قتْل عثمان رضي الله عنه، قبلَ المغربِ من يوم الجمعة الثامن عشر من شهر ذي الحجّة، من السنة الخامسة والثلاثين[2].

---

(١) المرجع السابق: ٤/ ٣٧٧-٣٧٨.

(٢) انظر التفاصيل المؤلمة لقتل عثمان رضي الله عنه في كتابنا: الخلفاء الراشدون، ص١٧٨-١٩٠.

سعد وإخوانه يدعون على قتَلَةِ عثمان:

وعلَّق الصحابة الأربعة: علي والزبير وطلحة وسعد رضي الله عنهم، على قتْلِ عثمان، وكانوا خارجَ المدينة، بعد عجزِهم عن الدفاعِ عن عثمان.

كان الزبيرُ في أرضِه على طريقِ مكة، فأتاهُ الخبرُ بقتْلِ عثمان، فقال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون. رحم اللهُ عثمان.

فقيل له: إنَّ القومَ نادمون!

فقالَ: دَبَّروا، ودبَّروا و﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

ولما علمَ طلحةُ بذلك ترحَّمَ على عثمان ودعا على القَتَلَة.

فقيل له: إنَّ القومَ نادمون!

فقال: تباً لهم، وقرأ قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يـس: ٥٠].

وأُتيَ عليٌّ فقيل له: قُتِلَ عثمانُ!

فقال: رحم الله عثمان، وخَلَفَ اللهُ علينا بخير!

فقيلَ له: إنَّ القومَ نادمون!

فقرأ قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: ١٦].

ولما علمَ سعدٌ بقتلِ عثمان قال: رحمَ الله عثمان. ثم قرأ قولَه تعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤].

ودعا سعدٌ عليهم فقال: اللهمَّ أَنْدِمْهم، ثمَّ خُذْهم.

واستجابَ اللهُ دعوةَ سعدٍ في القَتَلَةِ المجرمين، فأَخَذَهم وقَتَلَهم[1].

سعد وابن عمر يرفضان الخلافة:

وأُسقِطَ في يدِ المجرمين الخوارجِ بعد قتْلِهم عثمان، ولم يَدْروا ماذا يفعلون، وطلبوا من كبارِ الصحابةِ أن يكونَ أحَدُهم أميراً للمؤمنين، وكانوا يرفضون ذلك!

ومضى على استشهادِ عثمانَ خمسةُ أيام، وبقيَ من العشرةِ المبشَّرين بالجنّة خمسة: عليٌّ، وطلحةُ، والزبير، وسعدٌ، وسعيدُ بن زيد.

رأى الخوارجُ أنَّ سعداً هو الأنسبُ للخلافةِ، فذهبوا إليه في بستانِه خارجَ المدينة، وقالوا له: إنَّكَ من أهلِ الشورى، ونحنُ مجتمعونَ عليك، مُجمِعون على مبايعتِكَ، فقُم معنا لنبايِعَك ويبايعَك الآخرون!

فردَّ سعدٌ عليهم قائلاً: أنا وابنُ عمر خرجنا منها، عندما اجتمعَ أهلُ الشورى، وبايعوا عثمان، ولا حاجة لي فيها أبداً!!

وتمثّل بقول القائل:

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ٣٩٢.

لا تَخْلِطَـــنَّ خَبيثـــاتٍ بِطَيِّبَـــةٍ   واخْلَعْ ثِيـابَكَ مِنْهـا وانْـجُ عُرْيانـا

ولما سمعوا رفضَ سعدٍ توجَّهوا إلى ابن عمر، وقالوا له: أنتَ ابنُ عمر! فقُمْ بهذا الأمر!

فردَّ عليهم قائلاً: إنَّ لهذا الأمر انتقاماً، وأنا واللهِ لا أتعرَّضُ له[1]!

وبعدَ أحداثٍ عديدة بويعَ عليُّ بنُ أبـي طالب رضي الله عنه أميـراً للمؤمنين[2].

سعد يبايع علياً ويعتزل:

وتأخرت مجموعةٌ من الصحابة عن بيعةِ علي، منهم: سعدُ بنُ أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وصهيبُ الرومي، وزيدُ بنُ ثـابت، ومحمدُ بن مسلمة، وأسامةُ بن زيد[3].

ولم يكنْ تأخرهم في البيعةِ رفْضاً لإمرةِ علي، وإنما تأنّياً وتربُّصاً، لحينِ انتهاءِ الفوضى التي سادت المدينة بعد استشهادِ عثمان، وانتظاراً لاستتبابِ الأُمورِ لعليّ.

ولقد جـاؤوا بسـعدٍ من أرضهِ خارجَ المدينة إلى علي. فقال له عليّ: بايِعْ يا سعدُ!

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ٤٣٢.
(٢) انظر ملابسات بيعة علي في كتابنا: الخلفاء الراشدون، ص٢٠٦ ـ ٢١٤.
(٣) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ٤٣١.

فقالَ له سعد: لا أبايعُكَ حتى يُبايعَك الناس! واللهِ ما عليكَ منّي بأس[1]!

ولما استتبَّ الأمرُ لعليٍّ رضي الله عنه، وبايعَه الناس، جاءَ سعدٌ فبايعَه، كما بايَعَه باقي الصحابة.

وعلمَ سعدٌ أنَّ الأُمورَ لن تهدأَ، ولن يكونَ حكمُ عليٍّ سَهلاً، وسيواجهُ الكثير من المصاعب، وستبقى الفتنةُ بين المسلمين، لذلك اعتزلَ الفتنة، ولم يكنْ مع عليّ، وغادرَ المدينة، وأقامَ في بيتِه وأرضِه بعيداً عن المدينة!!

(٤) سعد يعتزل الفتنة

سعد يختار اعتزال الفتنة:

لما بايعَ المسلمونَ علياً أميراً للمؤمنين، بايَعَه سعدٌ، قياماً منه بواجبِ البيعةِ لمن بايعتْه الأمة، وكان هذا في نهايةِ السنةِ الخامسةِ والثلاثين.

وعلمَ سعدٌ أنَّ الأُمَّةَ مُقْدِمَةٌ على فتنةٍ كبيرة، وسَتُسْفَكُ فيها الدماءُ الكثيرة، وتُزهَقُ فيها الأرواحُ العديدة، لأنَّ قَتْلَ الخليفةِ ليس سهلاً، ولن يمرَّ هكذا، وستدفعُ الأمة كلُّها الثمن!! وإنّ مبايعةَ عليٍّ أميراً للمؤمنين لن تحلَّ المشكلة، ولن تُزيلَ الفتنة!

علم سعدٌ هذا بفطنتِه وبُعْدِ نظرِه، ولذلك اختار (اعتزالَ الفتنةِ) القادمة، والكفّ عن دماءِ المسلمين، والزهدَ في الدنيا، وعدمَ مزاحمةِ المتزاحمين عليها!

---

(١) انظر المرجع السابق: ٤/ ٤٢٨.

وقد علَّمَهُ رسولُ الله ﷺ اعتزال الفتنة :

سعد يروي أحاديث اعتزال الفتنة:

روى الترمذيّ وأحمد وأبو يعلى عن بُسْرِ بن سعيد أنَّ سعدَ بنَ أبي وقّاص قالَ عندَ فتنةِ عثمان بن عفان : أشهدُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : «إنّها ستكونُ فتنةٌ ، القاعدُ فيها خيرٌ من القائم ، والقائمُ خيرٌ من الماشي ، والماشي خيرٌ من الساعي» .

قلتُ : يا رسولَ الله ! أرأيتَ إنْ دخلَ عليَّ بيتي ، وبَسَطَ يَدَهُ ليقتُلَني؟

قال ﷺ : «كُنْ كابنِ آدم . . »[1] .

وتحدَّث رسولُ الله ﷺ عن الفتنة محذِّراً منها ، وكانَ من الجالسين السامعين لحديثِهِ أبو بكرة ـ نُفَيْعُ بنُ الحارث ـ وسعدُ بنُ أبي وقاص .

روى مسلمٌ وأبو داود عن عثمان الشَّحّام قال : انطلقْتُ أنا وفَرْقَدُ السَّبْخِيُّ إلى مسلمِ بن أبي بكرة وهو في أرضه ، فدخلْنا عليه ، فقلنا : هل سمعتَ أباك يُحدّثُ في الفتنِ حديثاً؟

قال : نعم . سمعتُ أبا بكرة يُحَدِّثُ ، قال : قال : قالَ رسولُ الله ﷺ : «إنّها

---

(١) الترمذي (٣٤) كتاب الفتن ، (٢٩) باب : ستكون فتنة . حديث رقم : ٢١٩٤ ؛ ومسند أحمد : حديث رقم : ١٦٠٩ ، بتحقيق الشيخ شعيب : ٣/ ١٦١ ؛ ومسند أبي يعلى ، بتحقيق حسين أسد : ٢/ ٩٤ ، حديث رقم : ٥٧٠ .

ستكونُ فتن، ألا ثم تكونُ فتنة: القاعدُ فيها خيرٌ من الماشي فيها، والماشي فيها خيرٌ من الساعي إليها. . ألا فإذا نـزلَتْ ـ أو وقعَتْ ـ فمنْ كـانَ له إبـلٌ فلْيَلْحَقْ بإبله، ومَنْ كانتْ لهُ غنمٌ فلْيَلْحَقْ بغنمِه، ومَن كانتْ لهُ أرضٌ فلْيلْحَقْ بأرضه. . .».

قالَ رجل: يا رسول الله: أرأيتَ مَنْ لم يكن له إبلٌ ولا غنمٌ ولا أرض؟

قال: «يعمدُ إلى سيفِه، فيدُقُّ على حدِّهِ بحجر، ثم لينْجُ إن استطاعَ النجاء! اللهمَّ: هل بلَّغتُ: اللهمَّ هل بلَّغتُ؟ اللهمَّ هل بلَّغتُ؟».

فقال رجل: يا رسولَ الله: أرأيتَ إنْ أُكرِهْتُ، حتى يُنْطَلَقَ بي إلى أَحَدِ الصَّفَّين، أو إحدى الفئتين، فضرَبني رجلٌ بسيفه، أو يجيء سهمٌ فيقتلني؟

قال: «يبوءُ بإثمِه وإثمك، ويكونُ من أصحاب النار. . .»[1].

وهذا الرجلُ السائلُ مبهَمٌ في هذه الرواية، لكنَّه مُبيَّنٌ في روايةٍ ثانية أنّه سعد.

روى أبو داود عن حسينِ بن عبد الرحمن الأشجعي، أنه سمعَ سعدَ بن أبي وقاص عن رسول الله ﷺ في الحديث السابق، أنه قال: يا رسول الله: أرأيتَ إنْ دخلَ عليَّ بيتي، وبَسَطَ يدَه ليقتلَني؟

---

(١) مسلم (٥٢) كتاب الفتن، (٣) باب نزول الفتن كمواقع القطر، حديث رقم: ٢٨٨٧؛ وأبو داود (٢٩) كتاب الفتن، (٢) باب في النهي عن الفتن، حديث رقم: ٤٢٥٦.

فقال رسولُ الله ﷺ: «كُنْ كابنِ آدم. . »[1].

يدعو الرسولُ ﷺ أصحابَه إلى عدمِ المشاركةِ في الفتنةِ القادمة، ويرشدهم إلى طريقة النجاةِ منها: بأنْ يكسرَ أحدُهم سيفَه، ويلزمَ منزلَه، ويُغْلِقَ عليه بابَه، أو يهربَ إلى إبِلِه أو غنمِه، أو يقيمَ في أرضِه. . فإنْ هاجَمهُ أحدُهم أَنْ لا يَرُدَّ عليه، ولو أدّى إلى قَتْلِه، ولْيَتَصرَّف معه كما تصرَّف ابنُ آدمَ العاقلُ مع أخيه الظالم، وذلك في قوله له: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

سعد يجهز أرض العزلة:

وعى سعد رضي الله عنه هذا الدرسَ من رسول الله ﷺ، ولذلك استعدَّ للفتنةِ قبلَ سنواتٍ من وقوعِها، لأنّه علمَ أنَّ الفتنةَ قادمةٌ واقعةٌ دون شك، فقد أخبرَ رسولُ الله ﷺ عن وقوعها، وخَبَرُهُ صادق!

اشترى سعدٌ أرضاً بعيدةً قليلاً عن المدينة، واستصلَحها، وجعلَ فيها زرعاً وأشجاراً، ليذهبَ إليها، ويعتزلَ فيها عندما تقعُ الفتنة.

ولما وقعت الفتنةُ في نهايةِ السنة الخامسة والثلاثين كانت الأرضُ جاهزةً، وكانت دارُه مهيأة، فانتقلَ إليها، فراراً من الفتنة.

قالَ الزبير بن بكار: كان سعدٌ قد اعتزلَ في آخرِ عمرِه في قصرٍ بناهُ بطرفِ

---

(١) أبو داود: الكتاب والباب السابق، حديث: ٤٢٥٧.

حمراءِ الأسد[1].

موقع أرضه بوادي العقيق:

وحمراءُ الأسدِ على بعدِ ثمانيةِ أميالٍ من المدينة، على يسارِ الطريق إذا أردتَ ذا الحليفة، وإليها انتهى رسولُ الله ﷺ في مطاردته المشركين يوم أُحُد[2].

وقال البكريُّ في (معجم ما استعجم): «وحمراءُ الأسدِ منتظمةٌ بالعقيق» أي أنّها متصلةٌ بوادي العَقيق.

واسمُ الأرضِ التي استصلَحها سعدٌ، وأقامَ معتزلاً فيها (قَلَهِّي): عند ياقوت في (معجم البلدان). واسمها (قَلَهَيَّا): عند البكريِّ في (معجم ما استعجم)!

قال ياقوت: «قَلَهِّي: حَفَيْرَةٌ لسعدِ بنِ أبي وقاص، بها اعتزلَ الناسَ لما قُتِلَ عثمانُ بنُ عفان رضي الله عنه...»[3].

ووقع عند أبي يعلى وابنِ عساكر: أنَّ سعداً لما اعتزلَ نزَلَ (قَلَهَيَّا) واحتَفَرَ فيها بئراً فأَعْذَبَ!

قال البكري: «قَلَهَيَّا: حُفَيْرَةٌ لسعدِ بن أبي وقاص. قال فيها كُثَيِّر:

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي: ٣/ ١٢٣.

(٢) معجم البلدان: ٢/ ٣٠١.

(٣) المرجع السابق: ٤/ ٣٩٣ـ ٣٩٤.

وَلَكِنْ سَقَىٰ صَوْبُ الرَّبيعِ إذا نأى   علـى قَلَهَيَّـا الـدّار والمُتَخَيَّمـا[1]

اختارَ سعدٌ أَنْ يبتعدَ عن المدينةِ حوالي ثمانيةِ أميال. واستصلحَ أرضاً في (قَلَهَيَّا)، وحفر فيها بئرَ ماءٍ عذبٍ، وزرعَ فيها الأشجار، وبنى له فيها بيتاً، وارتحلَ بأهلِهِ إليه، مُطَبِّقاً وصية رسول الله ﷺ، باللحاقِ بالأرضِ فراراً من الفتنة.

وطلبَ من أهلِهِ أنْ لا يُخبِروهُ بشيءٍ من أخبارِ الفتن والمعارك بين المسلمين.

ولذلك لم يكنْ مع جيشِ عليّ رضي الله عنه، مع أنّه بايعه، لأنّه لا يشتركُ في حربٍ بين المسلمين، كما أنّه لم يكنْ مع خصومِ عليٍّ رضي الله عنه كطلحةَ والزبير ومعاوية رضي الله عنهم.

وهذا معناهُ أنّه لم يشتركْ في معركة (الجَمَل) في البصرة، بين عليٍّ من جهة، وبين عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم من ناحيةٍ أخرى، ولم يشتركْ في معركة (صِفّين) بين عليٍّ ومعاوية رضي الله عنهما! ولم يشترك في التحكيمِ الذي كان في (أذرح) جنوب بلادِ الشام بين عليٍّ ومعاوية.

سعد قدوة للآخرين في اعتزال الفتنة:

لقد هيّأ سعدٌ نفسَه لاعتزالِ الفتنةِ قبلَ وقوعها.

---

(١) أعلام الحفاظ والمحدّثين لعبد الستار الشيخ: ٢/ ١٤٢.

روى أبو نعيم عن أيوب السختيانيِّ قال: «اجتمعَ سعدُ بنُ أبي وقاص، وابنُ مسعود، وابنُ عمر، وعمارُ بن ياسر، فذكَروا الفتنة. فقال سعد: أمّا أنا فأجلسُ في بيتي ولا أدخلُ فيها!..»[1].

وكان موقفُ سعدٍ في اعتزالِ الفتنةِ سليماً وصواباً، كما كان قدوةً للصحابةِ وللآخرين من المسلمين.

قال الحسنُ البصري: لما كان الهَيْجُ في الناس، جعلَ رجلٌ يسألُ عن أفاضلِ الصحابة، فكان لا يسألُ أحداً إلاَّ دلَّه على سعدِ بن مالك[2]!

اعتزلَ الفتنةَ ولم يُطالبْ بالخلافة، ولو أرادَها وطالبَ فيها لنالَها، لأنّه أهلٌ لها، وكانتْ أنظارُ المسلمين جميعاً تنظرُ إليه، سواءٌ في جيشِ علي، أو في جيشِ معاوية، رضي الله عنهما.

وسعدٌ يعلمُ أنه أوْلى من غيرِه بالخلافة، وأنَّ المسلمينَ ينتظرونَ منه كلمةَ موافقة، ليبايعوهُ خليفةً، لكنَّه زهدَ فيها، وتركَها، لأنّه لا يريدُ أن تُراقَ من أجلهِ قطرةُ دم!

قال سعدٌ يوماً لمن حولَه: «ما أزعمُ أني بقميصي هذا أحقُّ مني بالخلافة، وقد جاهدتُ وأنا أعرفُ الجهاد، ولا أَبْخَعُ نفسي إنْ كانَ رجلٌ خيراً مني...»[3].

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم: ١/ ٩٤.
(٢) سير أعلام النبلاء: ١/ ١٢٢.
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ١٠٦.

ولما وقعَ التحكيمُ بيـن عليٍّ ومعاويةَ سـنةَ سبعٍ وثلاثين، كان أبو موسى الأشعري ممثلاً لعليّ، وكان عمرُو بن العاص ممثلاً لمعاوية، رضي الله عنهم.
وكانتْ أنظارُ المسـلمين متوجّهـةً إلى سـعد، ويرى معظمُهم أنَّ الأَوْلى لعليٍّ أنْ يتنازل عن الخلافة، وأنْ يجتمعَ أهلُ الحلِّ والعقدِ من أصحابِ رسول الله ﷺ، وأنْ يختاروا من بينهم خليفةً، ليبايعَه المسلمون، وتجتمعَ عليه كلمتُهم، والمسـلمون في الشـامِ والعراقِ وغيرِهما يعلمونَ أنَّ سعداً هو الأنسـبُ والأصلح، ولا يختلفُ عليه أحد[1].

علي يثني على سعد:

دعاه علي ليكون معه، فأبى، لأنّه لا يريـدُ أنْ يشتركَ في سـفْكِ دماءِ المسلمين.

وقد أثنى عليه عليٌّ فيما بعدُ لموقفه هذا!

فلمَّا اختلفَ عليه أنصارُه في الكوفة بعدَ التحكيم، ذمَّهم ومدحَ سعداً وابنَ عمر، وقال: «للهِ منزلٌ نَزَلَه سعدُ بنُ مالك وعبدُ الله بن عمر، واللهِ لئن كانَ ذنبـاً إنه لصغيرٌ مغفـور، ولئن كان حَسَـناً إنـه لعظيـمٌ مشكور!»[2].

وقد سُئِلَ عليٌّ عن الذين قعدوا عن نصرتِه ولم يقوموا معه؟

فقال: أولئك قومٌ خَذَلوا الباطل، ولم يَنْصُروا الحق[3]!

---

(١) انظر قصة التحكيم في كتابنا (الخلفاء الراشدون)، ص٢٦٤ ـ ٢٧٥.
(٢) سير أعلام النبلاء: ١/ ١١٩ ـ ١٢٠.
(٣) الاستيعاب: على هامش الإصابة لابن حجر: ٢/ ٢٥.

سعد يرفض دعوة معاوية:

وطمع معاوية فيه وفي مَن اعتزلَ الفتنةَ من كبارِ الصحابةِ، مثلُ محمد بن مسلمة، وعبد الله بن عمر، وأُسامة بن زيد، حيثُ كتبَ لهم يَطْلبُ منهم مساعدتَه على المطالبة بدمِ عثمان، والإسراعِ في محاكمةِ قاتليه، الذين انضمّوا إلى جيش علي.

فردّوا عليه رافضين دعوته.

ونَسَبَ ابنُ عبد البَرِّ في (الاستيعابِ) لسعدٍ شعراً، رَدَّ به على دعوةِ معاوية:

مُعَـــاويَ داؤُكَ الـــدّاءُ العِيَـــاءُ	وليـــسَ لِمَـــا تَجـــيءُ بِـــه دَواءُ
أَيَـدْعُـونـي أبـو حَسَـنٍ عَلِـيٌّ	فَلَـمْ أَرْدُدْ عَلَيْـهِ بِمَـا يَشَـاءُ
وَقُلْـتُ لَـهُ أعْطِنـي سَيْفـاً بَصيـراً	تَميـزُ بِـه العَـداوَةُ والـوَلاءُ
فـإنَّ الشَّـرَّ أَصْغَـرُهُ كَثِيـرٌ	وإنَّ الظَّهْـرَ تُثْقِلُـهُ الـدِّمَـاءُ
أَتَطْمَـعُ فـي الـذي أعْطَـىٰ عليـاً	عَلَـىٰ مـا قَـدْ طَمِعْـتَ بـهِ العَفَـاءُ
لَيَـوْمٌ مِنْـهُ خَيْـرٌ مِنْـكَ حيّـاً	وَمَيْتـاً أنـتَ لِلْمَـرْءِ الفِـداءُ
فـأمَّـا أَمْـرُ عُثْمـانَ فَـدَعْـهُ	فـإنَّ الـرَّأيَ أَذْهَبَـهُ البَـلاءُ[1]

ويُخشى أن يكونَ هذا الشعرُ منسوباً إلى سعد، وأنه منْ وضْعِ بعضِ المتأخّرين، فلا صياغتُه ولا فصاحتُه ولا معانيه توحي أنه من نظمِ سعدٍ رضي الله عنه!

---

(١) الاستيعاب على هامش الإصابة لابن حجر: ٢/ ٢٤ـ ٢٥.

لم ينضمَّ إلى عليّ، ولم يستجبْ لدعوةِ معاوية، وآثـرَ اعتـزالَ الفتنة!

وعندما وُجِّهَتْ له الدعوةُ ليدعوَ لنفسِه، ويُطالبَ بالخلافة، رفضَ تلكَ الدعوة! لقد دعاهُ إلى ذلك اثنان: ابنُ أخيه هاشمُ بن عُتبة، وابنُه عمر.

سعد يرفض عرض ابن أخيه طلب الخلافة:

كان هاشم بن عتبة مقيماً في الكوفة، وكانَ من كِبارِ أعيانِها ووجوهِها، وأحزنَـهُ ما وقعَ بين عليٍّ ومخالفيـه من حـروب، وأرادَ هاشـمٌ حقنَ دمـاءِ المسلمين، فرأى أنَّ عمَّه سعداً هو الأنسبُ لهذا، ولو طلبَ الخلافةَ لاجتمعتْ عليه كلمةُ المسلمين!

توجَّه هاشمُ بنُ عتبة إلى عمِّه في المدينة، وقالَ له: يا عمِّ: ها هنا في الكوفة مئة ألفِ سيفٍ يرونكَ أحَقَّ الناسِ بهذا الأمر؟

أي: عند هاشـمٍ في الكوفة مئة ألف جنديٍّ، يرونَ سعداً هو الأحقّ بالخلافة، وعلى استعدادٍ لمبايعتِه وطاعتِه، وقتالِ المخالفين له!

فردَّ سعدٌ على ابنِ أخيه قائلاً: أريدُ من المئة ألفِ سيفٍ سيفاً واحداً، إذا ضربْتُ به المؤمنَ لم يصنعْ شيئاً، وإذا ضربْتُ به الكافـرَ قطعَه[1]!!

إنَّ سعداً لا يريدُ أنصاراً محاربين، ولا يريدُ عشراتِ الآلافِ من السيوف التي يقاتلُ أصحابُها من أجله، ويقتلونَ بها مسلمين آخرين! ولا يريدُ خلافةً

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ٨/ ٧٢.

تأتيهِ على دماءِ المسلمين، لأنَّ اللهَ سيحاسبُه على تلك الدماء التي أُريقَتْ من أجله!

لقد زهدَ سعدٌ في الخلافة، وانسحبَ من الترشيح لها، لما كان من الممكن أنْ تأتيه بسلام وأمان، بعدَ استشهادِ عمرَ رضي الله عنه! أفيطلبُها الآنَ ويسعىٰ لها بعدَ أنْ انقَسَمَ المسلمونَ إلى طوائفَ متقاتلة! ولا يمكن أنْ تصلَه إلاّ بعدَ إزهاقِ الأرواحِ وسفك الدماء؟.

سعد يريد سيفاً ناطقاً مميزاً:

والعجيبُ أنّ سعداً طلبَ من ابنِ أخيه طلباً مستحيلاً، هَدَفُهُ منه أنْ يبيّن له زهـدَه في طلبِ الخلافـةِ في هذا الجـوّ، وحرصَه على دمـاء المسلمين!. يريدُ سيفاً واعياً عاقلاً مميّزاً، يُفرقُ بين المسلمِ والكافر، فإذا ضربَ به مسلماً لم يؤثّرْ فيه، وإذا ضربَ به كافراً قَتَلَه!

وكأنَّ سعداً ينكرُ على الطرفيْن المتحاربيْن من المسلمين، إذْ كيفَ تُوَجِّهُ كلُّ طائفةٍ سلاحَها وسيوفَها ضدَّ أُختِها الطائفةِ الأخرى؟ وكيفَ يُجيزُ مسلمٌ لنفسه أنْ يضربَ أخاهُ المسلمَ بسيفِه؟ وكانَ الأَوْلى أنْ يوجِّهَ هذا السيفَ لقتْلِ الكفَّار!!

وأعادَ سعدٌ طلبَهُ العجيبَ مرةً أُخرى، ويبدو أنّه ردَّ به على الذين يدعونَه للاشتراكِ في الفتنةِ الناشبةِ بين المسلمين! قال: ما أزعمُ أني بقميصي هذا أَحَقُّ منّي بالخلافة، جاهدْتُ وأنا أعرفُ الجهاد، ولا أَبْخَعُ نفسي إنْ كانَ رجلٌ خيراً

مني! لا أُقاتلُ حتى يأتوني بسيف، له عَيْنان ولسان، فيقولُ: هذا مؤمن وهذا كافر[1]!

يريدُ سيفاً مميِّزاً ناطقاً، يَقْدِرُ على التفريقِ بين المؤمن والكافر، ويقول لسعدٍ: هذا مؤمنٌ لا تضربْهُ بي! وهذا كافرٌ اضربْه بي!!

ولما رأى هاشمُ بنُ عتبة عزوفَ عمِّه عن طلب الخلافة، انضمَّ إلى جيشِ عليّ، لأنَّه رأى أنّه هو الأقْرَبُ إلى الحقّ، وكانَ من كبارِ رجالِه، وقاتلَ معه في معركةِ صِفّين ضدَّ جيشِ معاوية، وقُتِلَ في تلك المعركة رضي الله عنه!

وكان عُمَرُ بنُ سعدٍ في الكوفةِ، ورأى تنازعَ المسلمين وتقاتُلهم على الخلافة، وهو يعلمُ الفتنة، وهو يعلمُ أنَّ أباهُ سعداً هو الأصلحُ والأنسب، ولم يعجبْهُ موقفُ أبيه من اعتزالِ الفتنة، وتمنّى لو دخل أبوه الصراعَ عليها، ولو فعلَ لفازَ بها!

وأرادَ عمرُ بنُ سعد أنْ يقومَ بمحاولةٍ أخيرةٍ مع أبيه، لعلَّه يقتنعُ بتغييرِ موقفِه، فتوجَّه من الكوفةِ إلى المدينة لهذه الغاية.

كان سعدٌ في أرضِهِ في (قَلَهَيَّا) بينَ أولادِه وأهلِه، يرعى غنمه، ويُشرفُ على أرضه، وشهدَ ابنُه عامرٌ ما جرى بينَه وبينَ عمر، وروى ذلك.

سعد يرفض دعوة ابنه عمر لطلب الخلافة:

روى أبو يعلى في (مسنده) عن عامرِ بن سعد: أنَّ أباهُ سعداً حين رأى

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١/ ١١٨.

اختلافَ أصحابِ رسـولِ الله ﷺ وتفرُّقَهم اشـترى له ماشية، ثم خرج، فاعتزل فيها بأهلِه، على ماءٍ يُقالُ له (قَلَهِّي)!

وكان سعدٌ من أحدِّ الناسِ بَصَراً! فرأى ذاتَ يومٍ شيئاً يزول. فقالَ لمن معه: ترونَ شيئاً؟

قالوا: نرى شيئاً كالطير!

قال: أرى راكباً على بعير!

ثم جاءَ بعدَ قليلٍ عمرُ بنُ سعد على بُخْتِيّ (جمل) فقال سعد: اللهمَّ إنّا نعوذُ بكَ من شرِّ ما جاءَ به!

فسلَّمَ عمرُ، ثم قالَ لأبيه: أَرَضيتَ أنْ تتبعَ أذنابَ هذه الماشيةِ بين هذه الجبال، وأصحابُكَ يتنازعون في أمرِ الأمة؟

فقال سعدُ بنُ أبي وقاص: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّها ستكونُ بعدي فِتَن، خيرُ الناسِ فيها: الغنيُّ الخفيُّ التقيُّ!» فإنْ استطعتَ يا بُنَيَّ أنْ تكونَ كذلك فكُن!

فقال له عمر: أما عندك غيرُ هذا؟

فقال له سعد: لا يا بُني!

فوثبَ عُمَرُ ليركب، ولم يكنْ حطَّ عن بعيرِه. فقال له سعد: امْهِلْ حتى نُغَدِّيك!

قال: لا حاجةَ لي بغدائكم!

قال سعد: نحلبُ لك فَنسقيك!

قال: لا حاجةَ لي بشرابكم.

ثم ركب فانصرف[1]!.

وروى مسلم طرفاً من هذه الحادثة. فقد أخرجَ بإسنادِه عن عامرِ بنِ سعد بن أبي وقاص قال: كان سعدُ بنُ أبي وقاص في إِبِلِه، فجاءَه عمر. فلما رآه سعد قال: أعوذُ بالله من شَرِّ هذا الراكب!

فنزلَ، فقالَ لأبيه: أنَزَلْتَ في إبـلِكَ وغنمِكَ، وتركْتَ النـاسَ يتنازَعون المُلْكَ بينهم؟

فضربَ سعدٌ في صدرِه. وقال: اسكُتْ. سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ يحبُّ العبدَ التقيَّ الغنيَّ الخفيّ..»[2].

وروى أحمد في (مسنده) إضافةً أُخرى لِما قالَه سعدٌ لابنه. فقد أخرجَ بإسنادِه عن عمرَ بن سعدٍ عن أبيه، أنّه قال: جاءَه ابنُه عامر.

فقالَ له: أي بُني: أفي الفتنةِ تأمُرُني أنْ أكونَ رأساً؟ لا واللهِ حتى أُعطىٰ سيفاً، إنْ ضربْتُ به مؤمناً نبا عنه، وإنْ ضربْتُ كافراً قَتَلَه. سمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ يحبُّ العبدَ الغنيَّ الخفيَّ التقيّ»[3].

---

(١) مسند أبي يعلى، بتحقيق حسين أسد: ٢/ ٩٤، حديث رقم: ٧٤٩.

(٢) صحيح مسلم (٥٣) كتاب الزهد والرقائق، (١) باب الدنيا سجن المؤمن، حديث رقم: ٢٩٦٥.

(٣) مسند أحمد، بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ٣/ ١١٢، حديث رقم: ١٥٢٩.

قال شُعيبُ الأرناؤوط عن إسنادِ هذا الحديث: «حديثٌ صحيحٌ، والإسنادُ فيه قلب، فالذي روى القصةَ هو عامرُ بن سعد، والذي جاءَ إلى سعدٍ رضي الله عنه يأمُرُه أنْ يكونَ رأساً هو: عمرُ بن سعد[1].

قدوم عمر بن سعد من العراق:

إنَّ ما جرى بين سعدٍ وابنِه عمر واضحُ الدلالةِ على طبيعةِ سعدٍ رضي الله عنه، وعن الدافعِ له على اعتزالِ الفتنة، التي دخلَها كثيرٌ من المسلمين، وافتُتِنوا بها.

كان سعدٌ معَ أهلِه في أرضِه، ومنهم ابنُه (عامر) الذي وافقَ أباهُ في اعتزالِ الفتنة. وروى عامرٌ ما جرى بين أبيه وبين أخيه (عمر):

فبينما كان جالساً مع أهلِهِ في أحدِ الأيام، نظرَ من بعيد، فرأى ما لم يَرَ أهْلَه، وكان منْ أحَدِّ الناسِ بصراً ـ رأى شيئاً يتحرّكُ في الطريق. فقال لمن حوله: انظروا إلى الطريق، هل ترونَ أحداً أو شيئاً؟

فنظروا: فرأوا شيئاً غيرَ واضح. فقالوا له: نرى شيئاً كالطير.

لكنَّ سعداً قال لهم: أرى رجلاً راكباً على بعير.

واقتربَ الراكبُ منهم، فعرفوه، إنّه عمرُ بن سعد، قدمَ من الكوفةِ للكلامِ مع أبيه، ولعلَّه قارب الخامسة والعشرين من عمره، لأنه وُلِدَ بعدَ فتحِ

---

(١) مسند أحمد، بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ٣/ ١١٢، حاشية رقم (٣).

مكّة في السنةِ الثامنة، وما جرى بينه وبين أبيه كان في بدايةِ خلافةِ عليٍّ في السنة السادسة والثلاثين . .

ولما رأى سعدٌ ابنَه عمرَ راكباً على بعيرِهِ قادماً إليه تَعَوَّذَ باللهِ من شرِّه، وقال: اللهمَّ إنَّا نعوذُ بكَ من شَرِّ هذا الراكب، ومِنْ شرِّ ما جاءَ به!

قالَ ذلك لأنّه يعلمُ موقفَ ابنِه عمر، وأنَّه راغبٌ في الدنيا، محبٌّ للإمارةِ والولاية، قريبٌ من الولاة، نشيطٌ في الفتنة، ويبدو أنّه سبقَ بينهما كلامٌ حولَ الإمارةِ والفتنة، فهو وأبوهُ على طرفي نقيض!

عمر يلومُ أباه لاعتزاله:

وصلَ عمرُ، وسلَّم على القومِ، واقبلَ على أبيه لائماً، وخاطبَهُ بجفاء، فقالَ له: أَنَزلْتَ في إبلِكَ وغنمِكَ، ورضيتَ أنْ تتبعَ أذنابَ هذه الماشية بينَ هذه الجبال، وتركْتَ الناسَ يتنازعون المُلك، وأصحابُك يطلبونَ الخلافة؟

وكأنَّ عمرَ يقول لأبيه: أنتَ أوْلى الصحابة بالخلافة، ولو طَلَبْتَها لبايَعَكَ المسلمون واجتمعوا عليك، وانتهى النزاعُ والخلافُ بينهم! فلماذا رضيتَ أنْ تتركهم في خِلافِهم ونزاعِهم، وانسحبْتَ إلى أرضِكَ هذه، وأقمتَ بين هذه الجبال، تتبعُ أذنابَ الماشيةِ والإبل والغنم؟ إنَّ مكانَك ليس هنا! وإنما مكانُك في المدينةِ أميراً للمؤمنين! فقمْ وتعالَ معي لتليَ أمْرَ الأُمّة!

لقد كانَ ظنُّ سعدٍ في مكانِه، عندما تعوَّذَ بالله من شَرِّ ابنِه، وكأنّه يعلمُ ما قَدِمَ له.

سعد التقي الغني الخفي:

وردَّ على عرضِ ابنِه بحديثٍ سمعَه من رسولِ الله ﷺ: «ستكونُ من بعدي فتنة، وخيرُ الناسِ فيها التقيُّ الغنيُّ الخفيُّ. وإنَّ اللهَ يحبُّ العبدَ التقيَّ الغنيَّ الخفي».

وهذا الحديثُ ينطبقُ على هذه الفتنةِ العمياء، التي طَحَنَت المسلمين، وأحسنَ سعدٌ التعاملَ معها انطلاقاً من هذا الحديث، وحرصاً منه على نيل محبةِ الله.. فخيرُ الناس فيها هو الأحبُّ عندَ الله، وهو العبدُ التقيُّ الغنيُّ الخفيُّ!

العبدُ التقيُّ: الحريصُ على تقوى الله وطاعتِه، والابتعادِ عن معصيتِه.

العبدُ الغنيّ: الغنيُّ بالقناعةِ، والزهدِ في الدنيا، فلا يتطلّعُ إليها، ولا يزاحمُ الناسَ عليها، ولا يقاتلُهم من أجلها، إنّه راضٍ بقَدَرِ الله وفضلِه، قانعٌ بما آتاهُ الله، مستغنياً به، غنياً عن المسؤولية، عازفاً عن الإمارة!

العبدُ الخفيُّ: بعيدٌ عن التزاحم، ومتواضعٌ في حياتِه، غيرُ راغبٍ في الظهور، لا يُريدُ أنْ يكونَ مشهوراً يُشارُ له بالبنان، وإنّما يبتعدُ عن الأضواء، ويعتزلُ الآخرين، ويخلو إلى عبادتِه وذكْرِه لله.

وهذه الصفاتُ الثلاثةُ حرصَ سعدٌ على أنْ يتّصفَ بها في هذه الفتنة، فكان عبداً تقياً، غنياً، خفياً.

ونصحَ ابنَه عمر بذلك، فقالَ له: إنْ استطعتَ يا بنيَّ أنْ تكونَ كذلك، فكُن!

سعد ليس رأساً في الفتنة:

وردَّ على دعوةِ ابنِه أيضاً بقوله: أيْ بُنَيّ: أفي الفتنةِ تأمُرُني أنْ أكونَ رأساً؟

إنّه لا يريدُ أنْ يكونَ رأساً وقائداً وزعيماً وإماماً في الفتنة، يقودُ فريقاً من المسلمين المفتونين، ويقاتلُ به فريقاً آخرَ من المفتونين مخالفاً له!

لما كانَ الجهادُ ضدَّ الكفارِ كان سعدٌ رأساً وقائداً في الجهاد، فقادَ المسلمين في فتح العراق، وكان أميراً في القادسية والمدائن. . أما وقد وقعت الفتنةُ فقد آثرَ ترك الرئاسة والقيادة، واعتزل بعيداً عن وقودها!

وحتى ييأسَ ابنُه منه طلبَ منه سيفاً مميزاً، كما سبقَ أنْ طلبَ من ابنِ أخيه هاشمِ بن عتبة، فقال لابنه: لا أسيرُ معك حتى أُعطى سيفاً إنْ ضربْتُ به مؤمناً نبا عنه ولم يُؤَثّر فيه، وإنْ ضربْتُ به كافراً قتلَه!!

غضبَ ابنُه منه، ولم يسمعْ نصيحتَه، ولذلك ركبَ بعيرَه، عائداً إلى الفتنةِ، ورفضَ دعوةَ أبيه للغداءِ والطعامِ والشراب، وردَّ عليه بغلظةٍ وجفاء. . وغادرَ أباهُ كما جاء!

واكتـوى عمرُ بنُ سـعدٍ بنارِ الفتنةِ، وانحازَ إلى جيشِ عليّ، ثم انحازَ إلى جيش معاوية، طمعاً في الولاية، وكان قائدَ الجيش الذي ارتكبَ جريمةَ قتْلِ (الحسين بن علي) رضي الله عنهما في كربلاء، ثم قَتَلَه المختارُ بن أبي عبيد في الكوفة سنةَ ستٍّ وستّين!!

سعد يفحم معاوية بشأن علي:

وقد جرى حوارٌ بينَ سعدٍ وبين معاويةَ بن أبي سفيان رضي الله عنهما، حول اعتزالِه الفتنة، أفحمَ فيه معاويةَ، وانتصرَ فيه لعليّ، ودفعَ معاويةَ إلى الاعترافِ بالحقّ!

روى ابنُ كثير في (تاريخه)، عن عبدِ الله بن بديل، قال: «دخلَ سعدٌ على معاوية فقال له: ما لَكَ لم تُقاتِلْ مَعَنا؟

فقال: إني مَرَّتْ بي ريحٌ مظلمة، فقلتُ: أُخْ أُخ، فأَنَخْتُ راحلَتي حتى انجلَتْ عنّي، ثم عرفْتُ الطريق فسرْت!

فقال معاوية: ليس في كتاب الله أُخْ أُخ، ولكن قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، فواللهِ ما كنتَ مع الباغيةِ على العادلة، ولا مع العادلة على الباغية.

فقالَ سعد: ما كنتُ لأُقاتلَ رجلاً قالَ له رسول الله ﷺ: «أنتَ منّي بمنزلةِ هارون من موسى، غيرَ أنّه لا نبيَّ بعدي..»!

فقال معاوية: مَنْ سمع هذا معك؟

قال سعد: فلان، وفلان، وأمُّ سلَمة!

فقالَ معاوية: أما إنّي لو سمعْتُه من رسولِ الله ﷺ لما قاتلْتُ علياً!»[1].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ٨/ ٧٧.

وقد ألهمَ اللهُ سعداً رضي الله عنه اعتزالَ الفتنةِ، وعدم النشاط فيها، ولو أراد ذلك فربّما وليَ الخلافة، وكانَ أميراً للمؤمنين، وبخاصةٍ بعد استشهادِ عليٍّ رضي الله عنه.

وهو على صوابٍ في موقفه، وهو موقفُ جمهورِ الصحابةِ، حيث لم يشتركْ في الفتنةِ إلاّ عددٌ قليلٌ منهم.

الصحابة بشان الفتنة قسمان:

لقد انقسم الصحابة في الفتنةِ إلى قسمين:

الأول: جمهورُ الصحابـةِ، وكان رأيُهم اعتزالَ الفتنـة، وعدمَ الخوضِ فيها، فلم ينضمّوا إلى جيـشِ عليّ، ولا إلى جيـشِ طلحـةَ والزبير، ولا إلى جيشِ معاوية، وفي مقدّمة هؤلاء الصحابيان المبشَّران بالجنة، الباقيان في العشرة: سعدُ بنُ أبي وقاص، وسعيدُ بن زيد، رضي الله عنهم! ومنهم: عبدُ الله بن عمر، وأسامةُ بن زيد، ومحمدُ بن مسلمة، وأبو موسى الأشعري، وأبو بكرة نفيع بن الحارث، وأنس بن مالك، وعمرانُ بن حصين، وغيرهم، رضي الله عنهم.

الثاني: صحابةٌ قلائل، رأَوا أنَّ الحقَّ مع أحدِ الجيشين، فانضمّوا إليه، حسبَ ما أدَّاهم إليه اجتهادُهم، وقاتَلوا الآخرين من بابِ نصرتِهم للحق، الذي رأو أنَّه الحقُّ الذي انحازوا إليه.

المشاركون في الفتنة فريقان:

وهؤلاء المشتركون في الفتنة باجتهادِهم فريقان:

الفريق الأول: رأوا أنَّ الحقَّ مع عليّ بن أبي طالب، فانضمّوا إلى جيشه وكانوا من قادته، مثل: عمار بن ياسر، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وقيس بن سعد بن عبادة، وعدي بن حاتم الطائي، رضي الله عنهم.

الفريق الثاني: رأوا أنّ الحقَّ مع معاوية بن أبي سفيان، فانضمّوا إلى جيشه، وكانوا من قادتِه، مثل: عمرو بن العاص، وابنه عبد الله بن عمرو، والنعمان بن بشير الأنصاري.

وكان الصحابةُ في جيش معاوية أقلَّ من الصحابة الذين في جيش عليّ.

ولا نُخَطِّىءُ أيّاً من الفريقيْن، فلا نحكمُ على عليٍّ والصحابةِ الذين معه بأنّهم مخطئون، ولا نقولُ في مخالفيه مثل طلحة والزبير ومعاوية والصحابة الذين معهم بأنّهم مخطئون، وإنما نقول: الفريقان مجتهدان، وكلٌّ اتّبع ما أدّاه إليه اجتهادُه، ورأى أنَّ الواجبَ يوجبُ عليه أن ينصرَ ما أدّاه إليه اجتهادُه، حتى لو أدّى ذلك إلى قتالِ إخوانِه!

والراجحُ أنَّ علياً رضي الله عنه كان أقربَ إلى الحقّ من معاوية رضي الله عنهما، وليس معنى هذا أن نَحكمَ على معاويةَ ومَن معه بالخطأ!!

إنَّ الصوابَ هو موقفُ جمهورِ الصحابةِ، الذين اعتزلوا الفتنة! لأنّهم لم يخوضوا فيها، ولم يسفكوا دماءَ المسلمين، واتّبعوا توجيهاتِ رسولِ الله ﷺ في الفرار من الفتنة، والإمساك عن دماء المسلمين!

قال محمدُ بن سيرين الإمامُ التابعيّ رحمه الله: لما هاجت الفتنةُ بين المسلمين، كان الصحابةُ أكثرَ من عشرةِ آلاف، ولم يشترك منهم في الفتنةِ مع أحَدِ الطرفين إلاّ عددٌ قليلٌ، لعلّه لم يزدْ على ثلاثين صحابياً!!

رؤيا حسين الاشجعي حول موقف سعد:

ومما يدلّ على أن الصواب هو ما عليه جمهورُ الصحابةِ في اعتزالِ الفتنة رؤيا صادقة رآها أَحَدُ التابعين:

روى الحاكمُ عن حسين بن خارجةَ الأشجعيّ قال: لما جاءت الفتنةُ الأولى أشكَلَتْ عليّ، فقلتُ: اللهمَّ أرني من الحقِّ أمراً أتمسَّكُ به!

فأُريتُ فيما يرى النائمُ الدنيا والآخرة، وكان بينهما حائطٌ غيرُ طويل، وإذا أنا تحتَه.. فقلت: لو تسلَّقتُ هذا الحائط حتى أنظرَ إلى قتلى أشجع، فيخبروني..

فأُهبطتُ بأرضٍ ذاتِ شجر.. فإذا نفرٌ جلوس.. فقلت: أنتم الشهداء؟

قالوا: نحن الملائكة.

قلتُ: فأين الشهداء؟

قالوا: تقدَّم إلى الدرجات!

فارتفعْتُ درجة، اللهُ أعلمُ بها من الحُسنِ والسعة، فإذا أنا بمحمدٍ ﷺ، وإذا إبراهيم شيخ.

فقال رسولُ الله ﷺ لإبراهيم: استغفرْ لأُمّتي!

فقال إبراهيم: إنّك لا تدري ما أَحْدَثوا بعدك، أراقوا دماءَهم، وقتلوا إمامهم، فهلاَّ فعلوا كما فعلَ سعدٌ خليلي!!..

فقلتُ [القائل حسين الأشجعي]: واللهِ لقد رأيتُ رؤيا، لعلَّ اللهَ ينفعُني بها. أَذهبُ فأنظرُ مكان سعد، فأكون معه!

فأتيتُ سعداً فقصصْتُ عليه القصّة.. فما أكثرَ بها فَرَحاً!! وقال: لقد خابَ مَنْ لم يكن إبراهيمُ خليله.

قلتُ له: مع أيِّ الطائفتيْن أنت؟

قال: ما أنا مع واحدةٍ منهما.

قلت: فما تأمرني؟

قال: هل لك من غنم؟

قلتُ: لا.

قال: فاشترِ غَنَماً، فكُنْ فيها حتى تنجلي[1]!

هذه الرؤيا صريحةُ الدلالة في أنَّ سعداً رضي الله عنه كانَ على صوابٍ في اعتزالِه الفتنة!

---

(١) المستدرك للحاكم: ٣/ ٥٠١ ـ ٥٠٢. وسكت عليه الذهبي، وقال الشيخ شعيب عنه: رجاله ثقات!!

(٥) وفاة سعد

اعتزلَ سعدٌ الفتنةَ التي انتهت عامَ الجماعة، سنةَ أربعين للهجرة، حيثُ تنازلَ الحسنُ بنُ عليّ لمعاويةَ رضي الله عنهم، وبويعَ معاويةُ أميراً للمؤمنين، والتقتْ كلمةُ المسلمين عليه، وفرح سعدٌ رضي الله عنه بانتهاءِ الفتنة واجتماع الأمة.

ولكنَّ سعداً بقي عازفاً عن الولايات العامة، بعيداً عن القيادة، معتزلاً في أرضه في (قَلَهَيَا) وكان يذهبُ أحياناً إلى المدينة، وأحياناً يتوجّه إلى الشام.

فقه سعد في الشام:

قال ابن شهاب: «قال عبدُ الرحمن بنُ المِسْوَرِ بن مَخْرَمَة: خرجتُ إلى الشام مع أبي، وسعدِ بنِ أبي وقاص، وعبدِ الرحمن بن الأسود، فوقعَ الوجعُ في الشام، فأقمنا بسَرْغٍ خمسين ليلة. ودخل علينا رمضان، فصامَ المِسْوَرُ وعبدُ الرحمن، وأفطر سعد، وأبى أن يصوم!

فقلتُ له: يا أبا إسحاق: أنتَ صاحبُ رسول الله ﷺ، وشهدتَ بدراً، وأنتَ تفطرُ وهما صائمان؟

قال: أنا أفقهُ منهما!»[1].

توجَّه سعدٌ معَ ابنِ أُختِه المسورِ بن مخرمة وآخرين من المدينة إلى الشام، ولما وصلوا (سَرْغَ) علموا أنَّ الطاعونَ والوباءَ قد انتشرَ في الشام،

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١/ ٩٥. وقال الأرناؤوط: إسناده حسن.

فاضطروا إلى أنْ يَبْقَوا في (سرغ) ولا يدخلوا الشام، تطبيقاً لحديثِ رسول الله ﷺ.

روى مسلمٌ عن عامرِ بن سعدِ بن أبي وقاص أنَّ رجلاً سألَ سعدَ بنَ أبي وقاص عن الطاعون؟

فقالَ أُسامةُ بنُ زيد: أنا أُخبرك عنه؟ قال رسول الله ﷺ: «هو عذابٌ أو رجزٌ أرسلَه الله على طائفةٍ من بني إسرائيل، فإذا سمعتُم به بأرض، فلا تدخلوها عليه، وإذا دخلَها عليكم فلا تَخرجوا منها فراراً»[1].

و(سَرْغٌ) مكانٌ في نهايةِ حدودِ الحجاز، وبدايةِ حدود الشام، بعدَ مدينة تبوك، بينها وبين المدينة ثلاثَ عشرة مرحلة[2].

أقاموا في (سرغ) خمسين يوماً، ودخلَ عليهم رمضانُ وهم فيها، فصامَ المسورُ وعبد الرحمن بن الأسود، ولكنَّ سعداً أفطر. فاستغرَبَ عبد الرحمن ابن المسور من فعل سعد، إذ كيفَ يُفطِر وهما صائمان، وهو مَن هو؟

فقالَ له سعد: أنا أفقهُ منهما!!

اعتبرَ سعدٌ نفسه مسافراً، واعتبرَ إقامتَه في سَرْغٍ خمسين يوماً لا تمنعُ عنه صفة المسافر، فأخَذَ بالرخصةِ وأفطر.. ويبدو أنَّ مَنْ معه اعتبروا إقامتهم خمسين يوماً تمنعُ عنهم صفة السفر، وتجعلُهم مقيمين ولذلك صاموا.

---

(١) مسلم (٣٩) كتاب الطب، (٣٢) باب الطاعون والطيرة والكهانة، حديث رقم: ٢٢١٨.

(٢) معجم البلدان لياقوت: ٣/ ٢١٢.

صلاة سعد في عمان:

ولما انتهى الطاعون في الشام تابعَ سعدٌ معَ مَنْ معه سيرَهم إلى دمشق، ومَرّوا على مدينة (عَمّان) المعروفة، فأقاموا فيها أياماً.

قال عبدُ الرحمن بن المسور: كنا في قريةٍ من قُرى الشام، يقالُ لها (عمّان) ويصلي سعدٌ ركعتيْن.

فسألناه، فقال: إنّا نحن أعلم[1]!

وقَصْرُ سعدٍ للصلاةِ في عمّان لأنه مسافر، ولو أقامَ فيها أياماً، فهو متوجّهٌ إلى دمشق، وهذا من فقهِهِ وعلمِه.

ولذلك ردَّ على استفهام إخوانِه بأنه هو الأعلمُ والأفقهُ، ولذلك يطبقُ السنّة، ويأخذُ بالرخصة.

سعد أمام معاوية في المدينة:

وكان يكون أحياناً في المدينة، ويأتي معاويةُ رضي الله عنه من الشامِ إلى المدينة، وأحياناً يلتقي سعدٌ به، ويكونُ صريحاً معه.

زارَ معاويةُ المدينةَ، فدخلَ عليه سعد، وألقى عليه السلام، لكنّه لم يُسَلِّم عليه بالإمارة، ولم يقل له: السلام عليكم يا أمير المؤمنين!

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١/ ٩٦.

فقال له معاوية: لو شئتَ أنْ تقولَ غيرَ هذا القلتَ!

فقالَ له سعدٌ بصراحةٍ وجرأة: نحنُ المؤمنون، ولم نُؤَمِّرْكَ! وأنتَ معجبٌ بما أنت فيه! ووالله ما سرّني أنّي على الذي أنتَ عليه، وأني أرقتُ محجمةَ دم[1]!!

سعد ينتصر لعلي أمام معاوية:

والتقى سعدٌ مع معاوية مرّةً أُخرى في الحج، وجرى بينهما حوار، وانتصرَ سعدٌ لعليّ، وردَّ على معاويةَ بجرأةٍ وصراحة.

عن عبد الله بنِ أبي نجيح، عن أبيه، قال: لما حَجَّ معاوية، أَخَذَ بيدِ سعدِ بنِ أبي وقاص فقال: يا أبا إسحاق: إنَّا قومٌ قد أَجْفانا الغزوُ عن الحجّ، حتى كِدْنا أنْ ننسى بعضَ سننِه! فطُفْ نَطُفْ بطوافِك!!

ولما فرغَ من الطواف، أدخلَ معاويةُ سعداً دار الندوة، وأجلَسَهُ معه على سريره.

ثم ذكرَ معاويةُ عليَّ بنَ أبي طالب، وتكلَّم عليه!!

فقال له سعد: أَدْخلْتَني دارَك، وأَجْلَسْتَني على سريرك، ثم وقَعْتَ في عليٍّ تشتُمُه؟ واللهِ لأنْ يكونَ فيَّ إحدى خلالِه الثلاث، أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يكونَ لي ما طلعَتْ عليه الشمس:

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١/ ١٢٢.

لأنْ يكونَ لي ما قالَه له رسولُ الله ﷺ حين غزا تبوكاً: «ألا ترضى أنْ تكون منّي بمنزلةِ هارون من موسى، إلاّ أنه لا نبيَّ بعدي» أحبُّ إليَّ مما طلعَتْ عليه الشمس!

ولأنْ يكون لي ما قاله له رسولُ الله ﷺ يوم خيبر: «لأُعطينَّ الرايةَ رجلاً يحبُّ اللهَ ورسولَه، ويحبُّه اللهُ ورسولُه، يفتحُ اللهُ على يديه، ليس بفرّار!» أحبُّ إليَّ مما طلعَتْ عليه الشمس!

ولأنْ أكونَ صهرَه على ابنتِه، ولي منها من الولدِ ما لَه، أحَبُّ إليَّ من أنْ يكونَ لي ما طلعَتْ عليه الشمس!

لا أدخلُ عليك داراً بعد هذا اليوم!

ثم نفَضَ رداءَه، وخرج![1].

رواية ثانية للحادثة:

وروى مسلمٌ الحادثةَ بلفظ آخر. فقد روى عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه رضي الله عنه، أنَّ معاويةَ بنَ أبي سفيان رضي الله عنه قال له: ما مَنَعَكَ أن تَسُبَّ أبا التُّراب؟

فقال سعد: أمّا ما ذكرْتُ ثلاثاً قالَهنّ له رسولُ الله ﷺ، فلَنْ أسُبَّه! لأنْ تكونَ لي واحدةٌ منهنَّ أَحَبُّ إليَّ من حُمُرِ النعَم!

---

(١) أعلام الحفّاظ والمحدّثين: ٢/ ١٣٣.

سمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ له، خلَّفَه في بعضِ مغازيه، فقال له عليّ: يا رسول الله: خَلَّفتني مع النساء الصبيان؟ فقالَ له رسولُ الله ﷺ: «أما ترضى أنْ تكونَ منّي بمنزلـةِ هارونَ من موسـى، إلاّ أنّـه لا نبوّة بعدي!».

وسمعتُه يقول يومَ خيبر: «لأُعْطِيَنَّ الرايةَ رجلاً يحبُّ اللهَ ورسولَه، ويحبُّه اللهُ ورسولُه» فتطاوَلْنا لها، فقال: ادْعوا لي علياً، فأُتيَ به أرمد. فبصقَ في عينه، ودفع الرايةَ إليه، ففتحَ اللهُ عليه.

ولما نزلتْ هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] دعا رسولُ الله ﷺ عليّاً وفاطمةَ وحسناً وحسيناً، فقال: «اللهمَّ هؤلاءِ أهلي..»[١].

هذه الحادثةُ بين سعدٍ ومعاوية رضي الله عنهما بروايتَيْها تعطينا صورةً عن جرأةِ وصراحةِ سعد، وقوّة شخصيته، ووفائه لعليّ رضي الله عنه، فمَع أنّه لم يكنْ معه في الفتنةِ إلاّ أنه لم يكنْ عليه، وبعدَ استشهادِ عليٍّ بقيَ سعدٌ محبّاً له، يدافعُ عنه أمام مخالفيه!!

سعدٌ من المعمَّرين:

وتقدّم العمرُ بسعدٍ رضي الله عنه، وهو مقيمٌ في أرضِه، وحولَه أولادُه وأهلُه، وهو يُعلِّمُهم وينصحُهم.

---

(١) مسلم (٤٤) كتاب فضائل الصحابة، (٤) باب فضائل علي بن أبي طالب، حديث: ٢٤٠٤.

وأخيراً وافاهُ الأجل، سنةَ خمسٍ وخمسين للهجرة، على الراجح! وكان عمرُه خمساً وثمانين سنة على الراجحِ أيضاً!

الراجحُ أنَّه وُلِدَ قبلَ البعثةِ بسبعة عشر عاماً، ولما هاجرَ إلى المدينةِ كان عمرُه ثلاثين عاماً، ومات سنةَ خمسٍ وخمسين للهجرة، فيكون عمرُه عام وفاتِه خمسةً وثمانين عاماً!

فهو من الصحابة المعمّرين الذين امتدّ بهم العمر.

قال ابنُه عامر: كانَ سعدٌ آخر المهاجرين وفاةً[1].

وقد أوصى قبل وفاته بوصيتين:

سعد يوصي بتكفينه في جبة حارب بها في بدر:

الأولى: أوصى أن يكفّن بجبّةِ صوفٍ خَلِقَةً باليةً.

قال الأزهري: لما احتضرَ سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه، دعا بخَلِقِ جبةِ صوف، فقال: كفِّنوني بها، فإنّي لقيتُ المشركين فيها يومَ بدر، وإنما خبَّأتُها لهذا اليوم[2]!

لقد حاربَ سعدٌ الكفّار في غزوةِ بدر، وهو لابسٌ جُبَّةً من صوف، ومَرَّ مَعَنا كيف كان جهادُه في تلك الغزوة.

---

(١) المستدرك للحاكم: ٣/ ٤٩٦.

(٢) المرجع السابق نفسه.

واحتفَظَ بتلك الجُبَّة، ومضت عليها عشراتُ السنين، حتى صارتْ خَلِقَةً بالية.. وبعدَ ثلاثٍ وخمسين سنةً من تلك الغزوة، ها هو على فراشِ الموت، يوصي أنْ يُكَفَّنَ في تلك الجبة!

وإنما أوصى بذلك لمعرفتِه بأهميةِ غزوةِ بدر، وفضْلِها عند الله، فأرادَ أنْ يلقى اللهَ بتلكَ الجبّة.

ودلَّ هذا على جوازِ (التبرّك) ببعض الأشياء، والتقرّب إلى الله بها، ولو لم يَجُزْ ذلك لما أوصى سعدٌ بهذه الوصية، ولما احتفظَ بتلك الجبّة ثلاثاً وخمسين سنة!

سعد يوصي بدفنه على السنّة:

الثانية: أوصى أن يُدفَنَ كما دُفِنَ رسول الله ﷺ:

روى مسلمٌ عن عامرِ بنِ سعدِ بن أبي وقاص أنَّ سعداً قالَ في مرضِه الذي هَلَكَ فيه: الْحَدُوا لي لَحْداً، وانْصِبوا عليَّ اللَّبِنَ نَصْباً، كما صُنِعَ برسول الله ﷺ[1].

واللَّحد: هو الشَّقُّ يكونُ تحتَ الجانبِ القبليِّ من القبرِ! يوضعُ فيه الميت، ويكون أكثرَ حمايةً وأمناً له.

ونَصْبُ اللَّبِنِ على القبرِ نَصْباً رَفْعُه، ليكن علامةً ودليلاً على القبر.

---

(١) مسلم (١١) كتاب الجنائز، (٢٩) باب في اللحد ونصب اللبن على الميت، حديث رقم: ٩٦٦.

أوصى سعدٌ أن يلحَدوا له في القبر، وأنْ لا يكتفوا بمجرّد الشّق، وأنْ يضعوه في اللحد، ثم يُهيلوا الترابَ على القبر، وبعدَ ذلك يرفعون اللَّبِنَ على جوانِبِ القبرِ، ليكونَ علامةً مميّزة.

وبيَّنَ في وصيّتِه أنَّ هذه هي السنّة، لأنّهم فَعلوا هذا الفعلَ برسول الله ﷺ، عندما دفنوه.

وهذه الوصيةُ من سعدٍ تدلُّ على حرصه على الاقتداء برسول الله ﷺ في كلِّ شيء، حتى في كيفيةِ دفنه بعدَ موته! لقد حافظَ سعدٌ رضي الله عنه على السنّةِ طيلةَ حياتِه الطويلة، فعاشَ عليها مقتدياً برسول الله ﷺ، وها هو يوصي أولادَه أنْ يموتَ على السنّة، وأنْ يُدْفَنَ على السنّة.

وبذلك يصدقُ عليه قولُه تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣]

آخر كلام لسعد مع ابنه مصعب:

وعندما جاءهُ مَلَكُ الموتِ لقبضِ روحِه كان فَرِحاً مستبشراً، وكانَ رأسُه في حِجْرِ ابنِه (مصعب).

وقد روى مصعبٌ لنا حالةَ أبيه الإيمانيةَ المشرقة، والكلماتِ الأخيرة التي قالها:

قال: كان رأسُ أبي في حِجْري، وهو يقضي، فدمعَتْ عيناي!

فنظرَ إليَّ فقال: ما يُبكيكَ أي بُنَيّ؟

فقلتُ: لمكانِك وما أرى بك!

قال: فلا تَبْكِ عَلَيَّ، فإنَّ اللهَ لا يعذبُني أبداً، وإني من أهلِ الجنّة.. إنَّ اللهَ يَدينُ المؤمنين بحسناتِهم ما عملوا لله، وأما الكفارُ فيخفّفُ عنهم بحسناتِهم، فإذا نَفِدَتْ قال: ليطلبْ كلُّ عاملٍ ثوابَ عملِه ممن عملَ له..[1].

إنّه حريصٌ على التعليم حتى في آخرِ لحظاتِ حياتِه، فها هو قبلَ خروجِ روحِه بلحظاتٍ يُذَكِّرُ ابنَه بالفرقِ بين موتِ المؤمن وموت الكافر.

إنَّ اللهَ يريدُ للمسلم أنْ يموتَ دونِ ذنوب وسيئات، ولذلك قد يعاقبُه عليها في حياتِه، بأنْ يبتليه بجسمِهِ أو مالِه أو ولدِه، ويكونُ ذلك الابتلاءُ لتكفيرِ السيئات، فإذا بقيتْ عليه سيئاتٌ شدَّدَ اللهُ عليه الموت، ليموتَ وليسَ عليه سيئة!

أما الكافرُ فإذا عملَ خيراً، فإنَّ الله يحاسبُه عليه في الدنيا، بأنْ يوسِّعَ له في حياتـه، بالمال والصحة، فإذا بقِيَتْ له حسناتٌ سهَّلَ اللهُ عليه المـوت، ليموتَ وليس له عند الله حسنة، فإنْ طالبَ الكافرُ بحسناتِه يومَ القيامة قالَ اللهُ له: اطلبْ ثوابها ممن عملْتَها له، فإنّك لم تعملْها لي.

وحرصَ سعدٌ على تبشير أهلِه أنّه فائزٌ مفلح، وأنّه ذاهبٌ إلى رحمةِ اللهِ وجنّتِه، لذلك قال لابنه مصعب: لا تبْكِ عليَّ، فإنَّ اللهَ لا يعذّبُني أبداً، وإنّي من أهل الجنّة!

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/١٠٨ـ١٠٩.

مات سعدٌ فرِحاً مستبشراً:

بهذا اليقين، وبهذا الأملِ وحُسنِ الظنِّ بالله، قابَلَ سعدٌ الموت.

كان يوقنُ أنّه من أهل الجنّةِ المفلحين، وجاءَ يقينُه من حديثِ رسول الله ﷺ، عندما بشَّر العشرة بالجنة، وسعدٌ واحدٌ منهم، وهو يوقنُ بصدقِ كلامِ رسولِ الله ﷺ. إذنْ هو من أهلِ الجنّة، واللهُ لن يعذّبه!

ينطبقُ على حالةِ سعدِ الإيمانيةِ المشرقة حديثُ رسولِ الله ﷺ.

فقد روى مسلمٌ عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ قبلَ موتِه بثلاثةِ أيام، يقول: «لا يمُوتَنَّ أحدُكُم إلاَّ وهو يحسِنُ الظنَّ بالله عزَّ وجلّ..»[1].

ولعلَّ سعداً رأى الملائكة، وهو واضعٌ رأسَه في حِجْرِ ابنه يحتضر، رآهم وهم يبشِّرونه بالجنّة، وينصحونه بعدمِ الخوفِ والحزن، فصدَّقهم، واستبشرَ للبشرى! ومعلومٌ أنَّ اللهَ يُنزلُ الملائكةَ لتبشير المؤمنِ الصالحِ عند احتضارِه.

وهذا ما وردَ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠ـ٣٢].

---

(١) صحيح مسلم (٥١) كتاب الجنة، (١٩) باب الأمر بحسن الظنّ عند الموت، حديث رقم: ٢٨٧٧.

وسعدٌ رضي الله عنه في مقدّمة ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ ولذلك نالَ هذه البشرى واستبشَرَ بها!

وفاضتْ روحُه، ورأسُه في حِجْرِ ابنِه، وغادرَ هذه الدنيا راضياً مرضياً، وذهبَ إلى رحمةِ اللهِ وجنّتِه ورضوانه، رضي الله عنه.

وانطبقَ عليه قولُ الشاعر:

فَأَلْقَتْ عَصاها وَاسْتَقَرَّ بها النّوى ... كما قَرَّ عَيْناً بالإيابِ المُسَافِرُ

نقلُ جثمان سعد للمدينة:

ولما غسَّلوه وكفَّنوه بجبّةِ الصوفِ التي أوصى أنْ يكفَّنَ بها، حُمِلَ على أعناقِ الرجالِ من قصرِه في (العقيق) إلى المدينة، والمسافةُ بينهما حوالي عشرة أميال.

وصلَّى عليه في المسجد النبويّ مروانُ بنُ الحكم، الذي كان والياً على المدينة من قِبَلِ معاويَةَ رضي الله عنه.

قالتْ عائشةُ بنتُ سعدِ بن أبي وقاص: ماتَ أبي، رحمه الله، في قصرِه بالعقيق على بُعْدِ عشرةِ أميالٍ من المدينة، فَحُمِلَ إلى المدينةِ على أعناقِ الرّجال، وصلَّى عليه مروانُ بن الحكم، وهو يومئذٍ والي المدينة، وذلك في سنةِ خمسٍ وخمسين..[1].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ١١٠.

ولمَّا صلَّى عليه الرجالُ في المسجد طَلَبَتْ أُمّهاتُ المؤمنين أزواجُ النبيّ ﷺ أنْ يمُرُّوا بجنازةِ سعدٍ عليهنَّ في الداخل، ليصلّينَ عليه، فأُدخِلَت جنازتُه عليهنَّ وصلَّينَ عليها. ثم دفنوه في مقبرةِ البقيع. رضي الله عنه.

وقد سُئِلَ ابنُ شهابِ الزهريّ رحمه الله: هل يُكْرَهُ أنْ يُحْمَلُ الميتُ من قريةٍ إلى قرية؟

فقال: قد حُمِلَ سعدُ بن أبي وقاص من العقيق إلى المدينة[١].

وقال صالح بن يزيد: كنتُ عند سعيد بن المسيب، فمرَّ عليه عليُّ بن الحسين - زين العابدين - فقال له: أين صُلِّيَ على سعدِ بنِ أبي وقاص؟

فقال ابنُ المسيّب: شُقَّ به المسجدُ إلى أزواجِ النبيِّ ﷺ، لأنَّهنَّ أرسلْنَ إليهم قائلات: إنَّا لا نستطيعُ أن نخرُجَ إليه نصلِّي عليه، فدخَلوا به، وقاموا على رؤوسهنّ، فصلّينَ عليه[٢].

أمهاتُ المؤمنين يصلين على سعد:

روى مسلم عن عبادِ بنِ عبد الله بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها، أنه لما تُوفيَ سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه، أرسلَ أزواجُ النبي ﷺ أنْ يمرّوا بجنازته في المسجد، ففعلوا، فوُقِفَ به على حُجُرِهِنّ، فصلّينَ عليه، وخرجوا به من بابِ الجنائزِ إلى المقاعد.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ١٠٩.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ١٠٩ - ١١٠.

فبلغَ عائشةَ رضي الله عنها أنَّ الناسَ عابوا ذلك، وقالوا: ما كانت الجنائزُ يُدْخَلُ بها إلى المسجد.

فقالت: ما أسرعَ الناسَ إلى أنْ يَعيبوا ما لا عِلْمَ لهم به! عابُوا علينا أنْ يُمَرَّ بجنازةٍ في المسجد! وما صلَّى رسول الله ﷺ على (سُهيْلِ بن بَيْضاء) إلاّ في جوفِ المسجد[1]!!

ولم تطلبْ أُمّهاتُ المؤمنين رضي الله عنهنّ إدخالَ جنازةِ سعدٍ إليهنّ ليصلّينَ عليها صلاةَ الجنازة إلاَّ اعترافاً منهنَّ بفضْلِه ومنزلتِه عند الله سبحانه وتعالى، وتقديراً منهنَّ لمواقِفِه وجهادِه واعتزالِه الفتنة!

وما أصدقَ ما رثَتْ به أُمُّ سَلَمَة سعداً رضي الله عنهما، فلمَّا أُدخِلَتْ جنازتُه عليها لتصلّي عليها جعلَتْ تبكي، وتقول: بقيةُ أصحابِ رسول الله ﷺ[2].

وهكذا انقضى عُمْرُ الصحابيِّ المجاهد الفاتح سعدِ بنِ أبي وقاص رضي الله عنه، وغادرَ هذه الحياةَ الدنيا راضياً مرضيّاً، طامعاً في جنةِ الله ورحمتِه وفضلِه.

* * *

(١) صحيح مسلم (١١) كتاب الجنائز، (٣٤) باب الصلاة على الجنازة في المسجد، حديث رقم: ٩٧٣.
(٢) سير أعلام النبلاء: ١/ ١٢٣.

خاتمة

شذرات عن سعد

استعرضْنا في الفصولِ السبعةِ السابقة مراحلَ حياةِ سعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه، وسجَّلنا فيها أهمَّ أعمالِه الجهاديةِ والعباديةِ والتعليمية، وذكَرْنا أخباراً عنه في تلك الفصول والمباحث، ولله الحمد.

وبقيتْ (شذرات) من الأخبار، لم تدخُلْ ضمنَ أيٍّ من الفصولِ والمباحثِ السابقة، فأحببنا أنْ نختمَ بها هذه الدراسةَ، ونقدّمها للقرّاء، ليزدادوا إعجاباً بسعدٍ رضي الله عنه، وليستفيدوا منها، وليقْتدوا به فيها. وسنحرصُ على أنْ لا نكررَ الأخبارَ السابقة، التي توزَّعتْ بين الفصولِ والمباحثِ السابقة، وإنما نقدّمُ أخباراً لم تَرِدْ فيما مضى.

سعد وابن المسيّب وفضائل علي:

١ ـ روى مسلم في (صحيحه) عن سعيد بن المسيب، عن عامرِ بن سعد ابن أبي وقاص، عن سعدٍ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ لعليّ: «أنتَ منّي بمنزلةِ هارونَ من موسى، إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي!».

قالَ سعيدُ بن المسيّب: فأحببتُ أن أُشافهَ بها سعداً، فلقيتُ سعداً، فحدثْتُه بما حدَّثني عامر. فقال سعد: أنا سمعْتُه!

فقلتُ له : أنت سمعْتَه؟

فوضعَ أُصبعيه على أُذنيه ، فقال : نعم ، وإلا فاسْتَكَّتا ![1] .

حَدَّثَ سعدٌ ابنَه عامراً بما قالَه رسولُ الله ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه ، وحَدَّثَ عامرٌ سعيدَ بن المسيّب بهذا الحديث ، وأرادَ سعيدٌ أنْ يأخذَ الحديثَ من سعدٍ مباشرةً ، وليس من ابنِه عامر ، فأخبرَ سعداً بما رواهُ ابنُه عنه . فقال : نعم ، أنا سمعتُه من رسول الله ﷺ ، وحدَّثْتُ ابني به .

فسأله سعيدٌ سؤالَ المتَثَبِّتِ : أنتَ سمعْتَه؟

وأرادَ سعدٌ أنْ يؤكِّدَ لسعيدٍ سماعَه ، فوضعَ أُصبُعيه على أُذنيه ، وقال : اسْتكّتا وأُصيبتا بالصَّمَم إنْ لم تكونا سمعتاهُ من رسول الله ﷺ !

وهذه الحركةُ من سعدٍ تدلُّ على طريقتِه في الروايةِ والتعليمِ وتأكيدِ ذلك !

ابن المسيب وهيبة سعد:

٢ ـ روى أبو يعلى في (مسنده) هذه الحادثةَ بلفظٍ آخر :

«عن سعيدِ بنِ المسيّب قال : قلتُ لسعدِ بن مالك : إنّي أريدُ أنْ أسألكَ عن حديث ، وأنا أهابُكَ أن أسألَكَ عنه !

فقال : لا تفعل يا ابن أخي . إذا علمْتَ أنَّ عندي علماً ، فاسألْني عنه ولا تَهَبْني !

---

(١) صحيح مسلم (٤٤) كتاب فضائل الصحابة ، (٤) باب فضائل علي ، حديث رقم : ٢٤٠٤ .

قلتُ: قولُ رسولِ الله ﷺ لعليٍّ حينَ خلَّفَه بالمدينةِ في غزوةِ تبوك؟

قال سعد: قالَ عليٌّ: يا رسول الله: أَتُخَلِّفُني في الخالفة، في النساء والصبيان؟

فقال رسولُ الله ﷺ: «أما ترضى أنْ تكونَ منّي بمنزلةِ هارونَ من موسى؟»

قال عليّ: بلى يا رسول الله.

قال سعد: فأدبرَ عليٌّ مسرِعاً. فكأنّي أَنظرُ إلى غبارِ قدميْه يَسطع»[1].

نأخذُ من هذه الروايةِ دلالةً جديدةً، وهي هيبةُ سعدٍ رضي الله عنه، فها هو سعيدُ بن المسيب يهابُه، ويعترفُ له بذلك، ولكنَّ سعداً يردُّ عليه برفقٍ ومودّةٍ وتواضع: سَلْني إنْ وجَدْتَ عندي علماً، ولا تَهَبْني!

سعد وابنه مصعب والسهو عن الصلاة:

٣ـ روى أبو يعلى في (مسندِه) عن مصعبِ بن سعدِ بن أبي وقاص قال: «قلتُ لأبي: يا أبتاه: أرأيتَ قولَه تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤ ـ ٥]: أيُّنا لا يسْهو؟ أيُّنا لا يُحدِّثُ نفسَه؟

قال: ليسَ ذاك! إنّما هو إضاعةُ الوقت، يلهو حتى يُضيِّعَ الوقت!

وفي روايةٍ أُخرى عن مصعب قال: سألتُ أبي سعداً، فقلتُ: يا أبتِ:

---

(١) مسند أبي يعلى: ٢/ ٥٧ ـ ٥٨، حديث رقم: ٦٩٨.

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾: أَسَهْوُ أحدِنا في صلاتِه حديثُ نفسِه؟

قال سعد: أَوَليسَ كلُّنا يفعلُ ذلك؟ ولكنَّ الساهي عن صلاتِه هو الذي يصلّيها لغيرِ وقتها»[1].

ظنَّ مصعبُ بن سعد أنَّ الآيةَ تَذُمُّ المصلّين، الذين يصلّون فيسهَوْنَ أثناءَ الصلاة، وتحدِّثُهم أنفسُهم بأشياءَ أُخرى، ولما سألَ أباه عن ذلك، أخبرَه أنَّ كلَّ المصلّين يسهونَ أثناءَ الصلاة، وليس هذا معنى الآية، إنَّ الحديثَ فيها عن المصلّين الذين يسهون عن الصلاة، بحيثُ ينسونَها ويتركونَها، حتى خروجِ وقتِها، وقد يتذكّرُها بعضُهم، فيصلُّونها قضاءً!

لقد فرّقَ سعدٌ المفسرُ بفطنةٍ بين السهو (في) الصلاة، الذي لا يكادُ ينجو منه مُصَلٍّ، وبين السهوِ (عن) الصلاة، حتى خروجِ وقتِها، وهو الذي تذمُّ الآيةُ صاحبَه!

سعدٌ ينهى عن بيع القمح بالسلت:

٤ ـ روى أبو يعلى عن زيدِ بنِ عياش أنّه سألَ سعداً رضي الله عنه عن بيعِ البيضاءِ بالسُّلْتِ؟

فقال: سعد: أيُّهما أفضل؟

فقال ابنُ عياش: البيضاء.

---

(١) مسند أبي يعلى: ٢/ ٦٣ ـ ٦٤، حديث رقم: ٧٠٤، ٧٠٥.

فنهاهُ سعدٌ عن ذلك، وقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ، سئلَ عن شراءِ الرُّطَب بالتمر، فقال ﷺ: «أينقصُ الرُّطَبُ إذا يبس؟» قالوا: نعم. فنهى عن ذلك!(١).

البيضاءُ هي الحنطة، والسُّلْتُ هو نوعٌ من أنواعِ الشعير، ليس له قِشْر، صغير، بينَ الحنطةِ والشعير، أفضلُ من الشعير، وأدنى من الحنطة، والرُّطبُ ثمرُ النخلِ عندما ينضجُ قبل أن يكونَ تمراً!

عندما سُئِلَ سعدٌ رضي الله عنه عن بيعِ الحنطةِ البيضاء بالسُّلْت لم يسارعْ بالجواب، وإنَّما تأنَّى وسألَ: أيّهما أفضل؟ فلما عرَفَ أنَّ البيضاءَ أفضلُ من السُّلْتِ نهى عن ذلك، لِما بينهما من التفاضلِ والتفاوت، خشية الوقوع في الربا.

ثم ذكرَ دليلَه في النهي عن ذلك بنهي الرسولِ ﷺ عن بيعِ الرُّطَبِ بالتمر، لأنَّ التمرَ أقلُّ وأنقصُ من الرطب، وهذا يوقعُ في الربا.

سهو سعد في الصلاة وسجوده للسهو:

٥ ـ روى أبو يعلى عن قيس بن أبي حازم قال: «صلّى بنا سعدُ بنُ أبي وقاص، فنهضَ في الركعتين، فسبّحْنا به، فاستتَمَّ قائماً، وسجدَ سجدَتي السهوِ حينَ انصرف.

---

(١) مسند أبي يعلى: ٢/ ٦٨ ـ ٦٩، برقم: ٧١٢.

ثم قال: أكنتم ترونني أجلس؟ إنما صنعتُ كما رأيتُ رسولَ الله ﷺ يصنع!»[1].

يخبرُ قيسُ بنُ أبي حازم أنّه لما صلّى بهم سعدٌ سها في صلاته، فلم يجلس جلوسَ التشهُّد الأول، وإنما رفعَ رأسَه من السجود وقام للركعة الثالثة فوراً، فسبّحَ المصلّون خلفَه، ولكنّه لم يَعُدْ للتشهّد الأول، واستمرَّ في صلاتِه، ثم سجدَ للسهو!

وبعدما أتمَّ صلاتَه أخبرَهم أنّه لا يجوزُ أن يعودَ للتشهّد الأول، ويجبرُ تركَ التشهدِ الأول سجودُ السهو. ذكر لهم أنه اقتدى في فعلِه برسولِ الله ﷺ، فصلَّى بهم مرةً، ثم سها عن التشهد الأول، ولم يَعُدْ إليه، وإنما سجدَ للسهو!

سعدٌ يحاور رجال معاوية حول حج التمتع:

٦ ـ روى أبو يعلى عن محمدِ بن عبد الله بن نوفلٍ أنه سمع سعدَ بن أبي وقاص والضحاك بن قيس، عامَ حجَّ معاوية، وهما يذكُران التمتّع بالعمرة إلى الحج.

فقال الضحاك: لا يصنعُ ذلك إلاّ مَنْ جهلَ أمْرَ الله!

فقال له سعد: بئسَ ما قلتَ يا ابن أخي!

فقال الضحاك: قد نهى عمرُ عنها.

---

(١) مسند أبي يعلى: ٢/ ١٠٣ و١١٩، برقم: ٧٥٩ و٧٨٥.

فقالَ سعد: قد صنَعها رسولُ الله ﷺ وصَنَعْناها معه![1].

تقدمُ لنا هذه الروايةُ طريقةَ سعدٍ في الحوار والنقاش والاستدلال. ففي أحدِ مواسم الحج، التي حجَّ فيها معاويةُ رضي الله عنه، وكان أميراً للمؤمنين، التقى سعدٌ رضي الله عنه مع أحدِ قادةِ معاوية، وهو الضحاكُ بن قيس الفِهْريّ، فتذاكرا التمتّع بالعمرة في موسم الحج.

والتمتّع هو أنْ يُحرمَ الحاجُّ بالعمرةِ أولاً، وبعدَ الانتهاءِ من العمرةِ، يتحلّلُ ويبقى في مكة، ثم يُحرمُ بالحجِّ يومَ الثامنِ من ذي الحجّة، من مكانِ إقامتِه في مكة، وعليه أن يذبحَ الهَدْيَ مقابلَ التمتع!

ولعلَّ معاويةَ ورجالَه كانوا ينهَونَ عن التمتّع بالعمرة إلى الحج، فحاورَ الضحاكُ سعداً بشأنِ ذلك، ونَسَبَ مَنْ يتمتّعُ بالعمرةِ إلى الجهل بأمر الله. ولمَّا استدلَّ الضحاكُ بنهي عمر عن ذلك، ردَّ عليه سعدٌ بأنَّ رسول الله ﷺ قد أذن للصحابةِ بالتمتّع، وإذنُه لهم يدلّ على إباحتِها!

وردَّ سعدٌ على معاوية رضي الله عنهما في نهيه عن التمتّع، بأنهم تمتّعوا بالعمرة قبل أن يُسلمَ معاوية.

روى مسلمٌ عن غُنَيْمِ بنِ قيس، قال: سألتُ سعدَ بنَ أبي وقاص رضي الله عنه عن المتعة؟

فقال: فعلْناها، وهذا يومئذٍ كافرٌ بالعُرُش. يعني: بيوتَ مكة[2].

---

(١) مسند أبي يعلى: ٢/ ١٣٠، رقم: ٨٠٥.

(٢) صحيح مسلم (١٥) كتاب الحج، (٢٣) باب جواز التمتّع بالعمرة، حديث رقم: ١٢٢٥.

أرادَ سعدٌ بذلك تمتُّعهم بالعمرةِ في عمرة القضاء، التي كانت في السنةِ السابعةِ، لأنَّ معاويةَ رضي الله عنه أسلمَ في السنةِ الثامنةِ، عام الفتح، وكان مسلماً مع النبيّ ﷺ لما حجَّ مي السنة العاشرة!

سعد لا يسبُّ علياً حتى لو قتل:

٧ ـ روى أبو يعلى عن أبي بكرِ بن خالد بن عرفطة، أنّه أتى سعدَ بن أبي وقاص رضي الله عنه، فقال: بَلَغَني أنكم تُعْرضون على سَبِّ عليٍّ بالكوفة، فهلْ سبَبْتَه؟

قال سعد: معاذ الله! والذي نفسُ سعدٍ بيده لقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في عليٍّ شيئاً، لو وُضِعَ المنشار على مفرقي على أنْ أسُبَّه، ما سبَبْتُه أبداً[1].

يسألُ أبو بكر بن خالدٍ سعداً رضي الله عنه: سمعتُ أنَّ عمال معاوية كانوا يطلبون منكم سبَّ عليٍّ لأنه خصمُ معاوية، فهلْ أنتَ سبَبْتَه استجابةً لطلبهم؟

قالَ سعد: معاذ الله أنْ أَسُبَّ علياً، حتى لو وضعوا المنشارَ على مَفْرِقِ رأسي وهَدَّدني بالقتل! وسأختارُ القتلَ على النجاةِ بعدَ سبِّه، ولنْ أسُبَّه بعدما سمعتُ رسولَ الله ﷺ يُخبرُ عن فضائله ومناقبه!!

---

(١) مسند أبي يعلى: ٢/ ١١٤، رقم: ٧٧٧.

سعد والتداوي بعجوة المدينة:

٨ ـ روى أحمد عن عبد الله بن عبد الرحمن قال: حدَّث عامرُ بنُ سعد عُمَرَ بنَ عبد العزيز وهو أميرٌ على المدينة، أنَّ سعداً قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ أكَلَ سبعَ تمراتِ عجوةٍ ما بين لابتي المدينة على الريق، لم يضرَّه يومَه ذلك شيءٌ حتى يُمسي، وإنْ أكَلَها حين يُمسي لم يضرَّهُ شيءٌ حتى يصبح!».

فقالَ عمر: انظرْ يا عامر ما تُحَدِّثُ به عن رسولِ الله؟

فقال عامر: أشهدُ ما كذبْتُ على سعدٍ، وما كذبَ سعدٌ على رسولِ الله ﷺ[1].

يروي عامرُ بنُ سعد بن أبي وقاص لعمرَ بنِ عبد العزيز حديثاً رواهُ له أبوه عن رسولِ الله ﷺ عن فضلِ تمرِ المدينة، أنَّ مَنْ أكلَ سبعَ حباتِ عجوةٍ من تمرِ المدينة على الريق، لم يضرّه شيءٌ طيلةَ ذلك اليومِ حتى المساء.

فاستغربَ عمرُ بنُ عبد العزيز، ودعا عامراً إلى التريّثِ والتثبّتِ مما يقول. فأخبره أنه لم يكذبْ على أبيه، وأنّ أباه سعداً لم يكذبْ على رسولِ الله ﷺ.

وقد روى البخاريُّ حديثَ رسول الله ﷺ من دونِ قصّةِ عامرِ بنِ سعدٍ مع عمر بن عبد العزيز.

عن هاشـم بن هاشـم بن عتبة بن أبي وقاص، قال: سمعتُ عامرَ بنَ

---

(١) مسند أحمد، بتحقيق شعيب: ٣/ ٥٢، رقم: ١٤٤٢.

سعدِ بن أبي وقاص يقول: سمعتُ سعداً يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ تَصَبَّحَ بسبعِ تمرات عجوةً، لم يضرَّه ذلك اليومِ سُمٌّ ولا سِحْر»[1].

سعد والمعتدي على حرم المدينة:

٩ ـ روى مسلمٌ عن إسماعيل بن محمد بن سعد، عن عامر بن سعد أنَّ سعداً ركبَ إلى قصره بالعقيق، فوجدَ عبداً يقطعُ شجراً، أو يَخبطُه، فسَلَبَهُ!

فلما رجعَ سعد، جاءَهُ أهلُ العبد، فكلَّموه أن يَرُدَّ على غلامِهم ـ أو عليهم ـ ما أخذَ من غلامهم! فقال: معاذ الله أنْ أرُدَّ شيئاً نفَّلنيهِ رسولُ الله ﷺ. وأبى أنْ يَرُدَّه عليهم![2]

يروي إسماعيلُ بن محمد بن سعد، عن عمّه عامر بن سعد، أنَّ أبيه سعداً رضي الله عنه ركب فرسَه يوماً من المدينة متوجِّهاً إلى قصرِه بالعقيق، ولما غادرَ بيوتَ المدينة، ووصلَ بساتينَها وأشجارَها، رأى غلاماً يخبطُ الأشجارَ، ويأخذُ ما عليها من الأوراق، ويقطعُ الأغصانَ! فنزلَ إليه سعد، وأخذَ ما معه من سلاحٍ ومتاعٍ وثياب، وتابعَ سيرَهُ إلى العقيق!

وذهبَ الغلامُ إلى أهلِه شاكياً فعْلَ سعد، فاستغربَ أهلُه، وجاؤوا إلى سعد، وطلبوا منه أن يُعيدَ إليهم ما أخَذَه من غلامهم!

---

(١) صحيح البخاري (٧٠) كتاب الأطعمة، (٤٣) باب العجوة، رقم: ٥٤٤٥.

(٢) صحيح مسلم (١٥) كتاب الحج، (٨٥) باب فضل المدينة وتحريم صيدها وشجرها، رقم: ١٣٦٤.

فرفضَ سعدٌ ذلك، واعتبرَ ما أخذَه من سَلَبَ الغلامِ المحتطب نَفْلاً، نفَّلَهُ إياه رسولُ الله ﷺ!

لأنَّ رسول الله ﷺ حرَّم الصيدَ في حَرَمِ المدينة، ونهى عن قطع أشجار حرم المدينة، وأجازَ لمن رأى أحداً يصيدُ أو يحتطبُ داخلَ حرمِ المدينة أنْ يأخذَ سَلَبَه حلالاً له، وعقوبةً لذلك الصايد أو المحتطب!

وروى أحمد في (مسنده) الحادثة بلفظِ آخر، عن سليمان بن عبد الله قال: رأيتُ سعدَ بن أبي وقاص أخذَ رجلاً يصيدُ في حرمِ المدينة، الذي حرَّمَه رسولُ الله ﷺ، فسلَبَهُ ثيابَه.

فجاء مواليه.. فقالَ لهم: إنَّ رسولَ الله ﷺ حَرَّمَ هذا الحرَم، وقال: «مَنْ رأيتموهُ يَصيدُ فيه شيئاً فلكم سَلَبُه». فلا أَرُدُّ عليكم طعمةً أطعمنيها رسولُ الله ﷺ! ولكنْ إن شئتم أنْ أعطيكم ثمنَه أعطيتكم![1].

إنَّ سعداً رضي الله عنه حريصٌ على تطبيق السُّنَّةِ، ولذلكَ أخذَ سَلَبَ ومتاعَ الغلامِ المحتطبِ داخلَ حَرَمِ المدينة، لأنَّه خالفَ نهيَ رسول الله ﷺ عن ذلك!

سعد ينكر ضم زياد بن أبيه لمعاوية:

١٠ ـ روى البخاريُّ عن عاصم [الأحول] قال: سمعتُ أبا عثمان [عبدَ الرحمن بن مُلّ] النَّهديّ قال: سمعتُ سعداً ـ وهو أولُ مَنْ رمى بسهمٍ في

---

(١) مسند أحمد: ٣/ ٦٤، رقم: ١٤٦٠.

سبيل الله ـ وأبا بكرة [نُفَيْعَ بنَ الحارث] ـ وكان تَسَوَّرَ حصنَ الطائف في أُناس، فجاءَ إلى النبيّ ﷺ ـ، فقالا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ ادَّعى إلى غير أبيه، وهو يعلمُ، فالجنّةُ عليه حرام!».

وفي روايةٍ أُخرى عندَ البخاريّ عن عاصمٍ عن أبي عثمان النهدي قال: سمعتُ سعداً وأبا بكرةَ يقولان عن رسولِ الله ﷺ: «مَنْ ادَّعى إلى غيرِ أبيه وهو يعلمُ فالجنَّةُ عليه حرام».

فقالَ له عاصم: لقد شهدَ عندكَ رجلان حَسْبُكَ بهما!

قال أبو عثمان: أجلْ. أما أحدهما فأوَّلُ مَنْ رمى بسهمٍ في سبيل الله، وأما الآخر فنزلَ إلى النبيّ ﷺ ثالثَ ثلاثةٍ وعشرين من الطائف[1].

وروى مسلمٌ الحادثةَ بلفظٍ آخر، عن أبي عثمان النهدي قال: لما ادُّعيَ زيـاد، لقيتُ أبا بكرة، فقلتُ له: ما هذا الذي صنعتُم؟ إنّي سمعتُ سعدَ بنَ أبي وقـاص يقول: سمعَ أُذنايَ من رسولِ الله ﷺ وهو يقول: «مَنْ ادّعى في الإسلام أباً غيرَ أبيه، وهو يعلمُ أنه غيرُ أبيه، فالجنّةُ عليه حرام!».

فقال أبو بكرة: وأنا سمعْتُه من رسولِ الله ﷺ[2]!

يتحدَّثُ أبو عثمان النهديُّ عن (زياد ابن أبيه) الذي كان يُسمّى (زيادَ بنَ

---

(١) صحيح البخاري (٦٤) كتاب المغازي، (٥٦) باب غزوة الطائف، حديث رقم: ٤٣٢٦.

(٢) صحيح مسلم (١) كتاب الإيمان، (٢٥) باب بيان حال من يرغب عن أبيه وهو يعلم، رقم: ٦٣.

عبيد الثقفي) وكان من أصحابِ عليٍّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه، ولكنّه انفصلَ عنه، وانضمَّ إلى معاويةَ بن أبي سفيان رضي الله عنه، وصارَ من كبارِ رجالِه، فأكرمَه معاويةُ وولاّه البصرة، ثم جمع له البصرة والكوفة!

ومن إكرام معاوية لزيادٍ أنَّه ضمَّه إليه، وجعلَهُ ابناً لأبيه أبي سفيان، لأنهم زعموا أنَّ أبا سفيان قبل الإسلام كان يذهبُ إلى الطائف، عند جارية (الحارث بن كلدة) فحملَتْ منه، وأنجبَتْ زياداً، فضمَّه معاويةُ إليه، وصارَ يُعرَفُ باسم (زياد بن أبي سفيان)!

وأبو بكرة هو أخو (زياد) لأُمّه، لأنَّ اسْمَه (نُفَيْعُ بن الحارثِ بن كلدة)، وأمُّهُما (سُمَيَّة) أَمَةُ الحارث التي كان يخلو بها أبو سفيان![1].

واستغربَ النهديُّ ضمَّ معاويةَ زياداً إليه، وسألَ أبا بكرةَ عن ذلك الفعل، وذَكَرَ له ما سمعَه من سعدٍ عن رسول الله ﷺ، فوافقَ أبو بكرةَ سعداً، وأخبرَ النهديَّ أنّه هو أيضاً سمعَ الحديثَ من رسول الله ﷺ.

لقد ذكرَ النهديُّ منقبةً لسعدٍ، أنّه أولُ مَنْ رمى بسهم في سبيل الله. وكان سعدٌ رضي الله عنه دقيقاً، فعندما روى للنهديّ ما سمعَه من رسول الله ﷺ، أكّدَ على ضبطه وحفظه، بأنّ أُذنيه سمعَتا الحديثَ من رسولِ الله ﷺ!

سعد ينكر على ابنه اعتداءه في الدعاء:

١١ ـ روى أحمد عن قيسِ بن عبايَة القيسي، عن مولى لسعدِ بن

---

(١) مسند أحمد، بتحقيق شعيب: ٣/ ٦٠ ـ ٦١، حاشية رقم (٢).

أبي وقاص: عن ابنٍ لسعد أنه كان يصلّي، فكان يقولُ في دعائه: اللهمَّ إني أسألُكَ الجنَّة، وأسألُكَ من نعيمها وبهجتِها، ومِنْ كذا، ومِنْ كذا، ومِنْ كذا.. وأعوذُ بك من النارِ وسلاسلِها وأغلالِها، ومن كذا، ومن كذا...

فسكت عنه سعد، فلما صلّى قال له سعد: تعوّذتَ من شَرٍّ عظيم، وسألْتَ نعيماً عظيماً. قال رسول الله ﷺ: «إنّه سيكونُ قومٌ يعتدونَ في الدعاء». وقرأ قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقالَ له سعد: قل: اللهمَّ أسألُكَ الجنّة وما قرّبَ إليها من قولٍ أو عمل، وأعوذُ بك من النار، وما قرّب إليها من قولٍ أو عمل![1].

أنكرَ سعدٌ على ابنِه استطرادَه وتفصيلَه في دعائه، واعتبرَ هذا اعتداءً في الدعاء، وتجاوُزاً للحدودِ المأمونة، وذكَرَ له آيةً وحديثاً، شاهِدَيْن على إنكارِه، وأرشدَهُ إلى دعاءٍ جامعٍ مجمل، بألفاظٍ موجزةٍ ذاتِ دلالة!

وهذه تدلُّ على حرصِ سعدٍ على تعليم أبنائه وإرشادِهم، برفقٍ وسَعَةِ صدرٍ، كما تدلُّ على أناتِه في التعليم والتذكير، حيثُ انتظرَ إنهاءَ ابنِه صلاتَه ليعلِّمَه ويرشدَه.

سعد يعلِّم ابنه الصلاة:

١٢ ـ روى البخاريُّ ومسلمٌ ـ واللفظ له ـ عن مصعبِ بنِ سعدِ بنِ

---

(١) مسند أحمد: ٣/١٤٦ ـ ١٤٧، برقم: ١٥٨٤.

أبي وقاص رضي الله عنه قال: «صلَّيْتُ إلى جنبِ أبي، وجعلْتُ يَدَيَّ بين ركبَتَيّ. . فقالَ لي أبي: اضربْ بكفّيْكَ على ركبَتيك. . .

ثم فعلتُ ذلك مرةً أُخرى، فضربَ يَدَيَّ! وقال: إنَّا نُهينا عن هذا، وأُمِرْنا أنْ نضربَ بالأكُفِّ على الرُّكَب. . »[1].

تدلُّ هذه الروايةُ على حرصِ سعدٍ على تعليم وإرشادِ أهله، فابنُه مصعبٌ يصلّي معه، فلمّا ركعَ طبَّقَ بيدَيْه بينَ ركبتَيْه، وذلكَ بأنْ جمعَ بين أصابع يديْه، ثم وضعَهما بين ركبتَيْه، فنهاهُ أبوهُ عن ذلك بالحسنى، وأمرَه أنْ يضربَ بكفَّيْهِ على ركبتيه.

ولكنّ مصعباً لم يلْتَزم، فصلَّى مع أبيه مرّة أُخرى، وطبَّقَ يديه بين ركبتيْه مرةً أُخرى، ولما أتمَّ صلاتَه ضربَه أبوه على يديْه ضرباً خفيفاً، وأخبرَه أنهم كانوا يفعلون ذلك ثم أمرَهم رسولُ الله ﷺ أنْ يضربوا بأيديهم على ركبِهم.

لقد كان سعدٌ رضي الله عنه مربِّياً، يربّي أبناءَه ويَرعاهم ويُراقبهم، مستخدماً في ذلك مختلف الأساليب الناجحة المؤثّرة.

سعد ينكر على ابنه تطويل الكلام:

١٣ - روى أحمد في (المسندِ) عن مُجَمِّعِ التَّيْميِّ قال: كانَ لعمرَ بنِ سعدٍ

---

(١) صحيح البخاري (١٠) كتاب الأذان، (١١٨) باب وضع الأكف على الركب في الركوع، رقم: ٧٩٠؛ وصحيح مسلم، (٥) كتاب المساجد ومواضع الصلاة، (٥) باب وضع الأيدي على الركب، رقم: ٥٣٥.

إلى أبيه حاجة، فَقَدَّمَ بين يديْ حاجتِه كلاماً مما يُحدِّث الناس، يوصِلون، لم يكنْ يسمعُه. فلما فرغَ قالَ له أبوه: يا بنيّ أَفَرَغْتَ من كلامِك؟

قال ابنُه: نعم.

قال سعد: ما كنتَ من حاجتِكَ أبعدَ، ولا كنْتُ فيكَ أزهدَ منّي، منذ سمعت كلامَكَ هذا! سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «سيكونُ قومٌ يأكلونَ بألسنتهم، كما تأكلُ البقرُ من الأرض!»[1].

كان عمرُ مخالفاً لأبيه سعدٍ في حياتِه، فبينما كان سعدٌ معتزلاً للفتنةِ، عازفاً عن الزعامةِ والولاية، كان ابنُه على العكس، متحمّساً للولاية، نشيطاً في الفتنة.

وجاءَ عمرُ إلى أبيه في حاجة، وأرادَ أنْ يُؤثِّرَ في أبيه، ويتقرّب إليه، ليقضيَ له حاجتَه، فتكلَّمَ بكلامٍ طويل، جعله تمهيداً ومدخلاً لحاجته! وتضايقَ أبوهُ من هذا التقديم الطويل، ورغبَ لو دخلَ في الموضوع مباشرةً. وصارحَه بأنَّ كلامَه الطويلَ أبعدَه عن نيلِ حاجتِه، ولم يقرِّبه منها! كما صارَحَه بأنّ هذا جعلَه أكثرَ زهداً فيه، وذكرَ السببَ في ذلك، وهو أنّ رسول الله ﷺ كان يكرهُ تطويلَ الكلام!

وأسمعهُ حديثَ رسول الله ﷺ في ذَمِّ الذين «يأكلون بألسنتهم» حيث شبّههم بالبقرِ التي تأكلُ بألسنتها العشبَ من الأرض. ولعلَّ وَجْه الشبه بينهم وبين البقر أنّهم لا يميزون بين الحلال والحرام، والحقِّ والباطل، فكلُّ ما يتوصَّلون

---

(١) مسند أحمد: ٣/ ١٠٣ ـ ١٠٤، رقم: ١٥١٧.

إليه بألسنتهم يأكلونه، مثلُ البقرِ التي تلُفُّ بألسنتها كلَّ ما على الأرض، من دونِ تمييزٍ أو تفريقٍ!

سعد يروي مسح الرسول ﷺ على الخفين:

١٤ ـ روى البخاريُّ عن عبدِ الله بن عمر رضي الله عنهما، عن سعدِ بنِ أبي وقاص رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ مَسَحَ على الخفَّيْن.

وسألَ عبدُ الله بن عمر عمرَ رضي الله عنهما عن ذلك؟ فقال: نعم. إذا حَدَّثَكَ سعدٌ شيئاً عن النبيِّ ﷺ فلا تَسْأَلْ عنه غيره![1].

أخْبَرَ سعدٌ عبدَ الله بن عمر رضي الله عنهم أنّه رأى النبيَّ ﷺ يمسحُ على الخفّين، وأرادَ عبدُ الله بنُ عمر أنْ يتأكَّدَ ويستوثقَ من الخبر، فسألَ أباه عن ذلك. هل مسحَ رسولُ اللهِ ﷺ على الخفَّين؟ فقال عمرُ: نعم.

ثم نصحَ عمرُ ابنَـه بأنَّه إذا حَدَّثه سـعدٌ شيئاً فعليهِ بـه، لِيكتفِ به، ولا يسألْ عنه غيرَه!

وهذه شهادةٌ عاليةٌ قيّمةٌ من عمرَ لسعد، يَشهدُ له فيها بعلمِه وحفظِـهِ وضبطِـه وفهمِـه، فما حدَّثَ به فهو الصحيح، وما علَّمَـه لغيرِه فهـو الصواب، وإذا قالَ سعدٌ قولاً في مسألةٍ، فلا يُحتاجُ فيها إلى قولِ غيرِه! هذا ما يراهُ عمرُ في سعدٍ وعلمِه. ولا يَعرفُ الفضلَ لأهلِ الفضلِ إلاَّ أهلُ الفضل!

---

(١) صحيح البخاري (٤) كتاب الوضوء، (٤٨) باب المسح على الخفين، حديث رقم: ٢٠٢.

سعد يشتري بيت أبي رافع:

١٥ ـ روى البخاريّ عن عمرِو بن الشَّريد قال: جاءَ المِسْوَرُ بنُ مخرمة، فوضعَ يدَهُ على مَنكِبي، فانطلقْتُ معه إلى سعد.

فقالَ أبو رافعٍ للمِسْوَرِ: ألا تأمُرُ هذا أنْ يشتريَ منّي بيتي الذي في داري؟

فقالَ سعد: لا أزيدُه على أربعمئة، إمّا مُقَطَّعة وإمّا مُنَجَّمة!

فقال أبو رافع: أُعطيتُ خمسمئة نقداً فمنعْتُه. ولولا أنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «الجارُ أحقُّ بِصَقَبِه» ما بِعْتُكَه..[1].

أبو رافع رضي الله عنه هو خادمُ رسولِ الله ﷺ، كان جاراً لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في المدينة، وأرادَ أبو رافع أنْ يبيعَ بيتَه، وجاءَ أُناسٌ ليشْتَروه، ودفعوا له خمسمئة مثقال، ولكنّه لا يستطيعُ أنْ يَبيعَهم، لأنَّ سعداً جارُه، وهو الأوْلَى إنْ أرادَ أنْ يشتري!

وكلَّمَ أبو رافع سعداً رضي الله عنهما أنْ يشتريَ البيت إنْ أراد، وإلا فسيبيعُه إلى غيره.

ويبدو أنَّ سعداً لم يحسم الأمر، وإنما أبقاهُ معلَّقاً، فجاءَ أبو رافع إلى المسورِ بنِ مَخْرَمة رضي الله عنه، ليكلِّمَ سعداً في الأمر، فإن أرادَ أنْ يشتريَ البيتَ اشتراه، وإلاّ فلْيرفَعْ يدَه لأنّه سيبيعُه إلى غيره.

ولما كلَّم المسورُ سعداً قال: لا أزيدُ أبا رافعٍ على أربعمئة مثقال، إما

---

(١) صحيح البخاري (٩٠) كتاب الحيل، (١٤) باب في الهبة والشفعة، حديث رقم: ٦٩٧٧.

مقَطَّعة وإمَّا منجَّمَة! أيْ سيدفعُ الثمنَ له بالتقسيط وليس نقداً!

فاضطرَّ أبو رافعٍ إلى الموافقة على أنْ يبيعَ البيتَ إلى سعدٍ بأربعمئة مثقال بالتقسيط، مع أنهم دفعوا له خمسمئة مثقالٍ نقداً.

والذي دفعَه إلى ذلك قولُ رسولِ الله ﷺ: «الجارُ أَحَقُّ بصَقَبِه». والصَّقَبُ هو الشيءُ المجاورُ له، بيتاً أو أرضاً، وهذا هو المعروفُ بحكم (الشُّفعة) فإذا أرادَ إنسانٌ بيعَ أرضٍ أو دار، وأرادَ جارُه شراءَها، فهو الأَوْلى من غيرِه، ولو دفعَ ثمناً أقلَّ قليلاً مما دفعَه غيرُه!!

سعد يحاور رسول الله ﷺ الوصية:

١٦ ـ روى مسلم عن حُميْدِ بنِ عبدِ الرحمن الحميري، عن ثلاثةٍ من ولدِ سعد، كلُّهم يحدِّثُه عن أبيه: أنَّ النبيَّ ﷺ دخلَ على سعدٍ يعودُه بمكة، فبكى!

فقال له رسولُ الله ﷺ: «ما يُبكيكَ؟»

قال: قد خشيتُ أنْ أموتَ في الأرضِ التي هاجرْتُ منها، كما ماتَ سعدُ بنُ خَوْلَةَ!

فقال النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ اشْفِ سعداً، اللهمَّ اشْفِ سعداً، اللهمَّ اشْفِ سعداً!».

قال: يا رسولَ الله: إنَّ لي مالاً كثيراً، وإنما يرثُني ابنتي! أَفأُوصي بمالي كلّه؟!

قال: «لا».

قال: فالبثلثين؟

قال: «لا».

قال: فالنِّصف؟

قال: «لا».

قال: فالثُّلُث؟

قال: «الثلثُ، والثلثُ كثير! إنَّ صدَقَتَكَ مِنْ مالِكَ صدقة، وإنَّ نفَقَتَكَ على عيالِكَ صدقة، وإنَّ ما تأكلُ امرأتُكَ من مالِكَ صدقة، وإنَّكَ إنْ تَدَعَ أهلَكَ بخير، خيرٌ من أنْ تَدَعَهم يتكفَّفون الناس!»(١).

مرَّ معَنا حديثُ مرضِ سعدٍ رضي الله عنه عامَ حجَّةِ الوداعِ في مكةَ وزيارةُ رسولِ الله ﷺ له، وما جرى بينهما من كلام، أثناءَ حديثِنا عن جهادِ سعدٍ مع رسولِ الله ﷺ.

لكنَّ هذه الروايةَ هنا فيها إضافةٌ على الروايةِ التي أَوْرَدْناها هناك. فقد روى حادثـةَ مرضِهِ لأولادِه، وثلاثـةٌ من أولادِه رووهـا لحُمَيْـد الحميري.

أخبرَ سعدٌ أنّه لما رأى رسولَ الله ﷺ قادماً إليه لزيارته بكى، ولما سألَهُ رسولُ الله ﷺ عن سِرِّ بكائِه، أخبرَه أنّه يخشى أنْ يموتَ في مكة، البلدِ التي هاجَرَ منها، وإنْ حصلَ ذلك فإنّـه يخشـى أنْ يُحبطَ عملُه، كما حصلَ مع

(١) صحيح مسلم، (٢٥) كتاب الوصية، (٢) باب الوصية بالثلث، حديث رقم: ١٦٢٨.

سعدِ بن خَوْلَة، الذي عادَ من المدينةِ باختيارِه، وأقامَ في مكـة باختيارِه، ومـاتَ فيها قبلَ فتحِها في السنةِ الثامنة، وقد آسـى له رسولُ الله ﷺ.

والجديدُ في هذه الروايةِ أنَّ الرسولَ ﷺ دعا لسعدٍ بالشِّفاءِ ثلاثَ مرات، وسألَ اللهَ أنْ يشفيه. واستجابَ اللهُ لدعائِه، وكتبَ لسعدٍ الشفاء.

ابنان لسعد يرويان عنه حيث الطاعون:

١٧ ـ روى مسلم عن حبيبِ بنِ أبي ثـابت قال: كُنَّا بالمدينـةِ، فبلَغَني أنَّ الطاعون قد وقعَ بالكوفةِ، فقالَ لي عطاءُ بنُ يسار وغيرُه: إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا كنتَ بأرضٍ فوقَعَ بها، فلا تخْرُجْ منها، فإذا بَلَغَكَ أنّه بأرضٍ فلا تدخُلْها!».

قلْتُ: عَمَّنْ؟

قالوا: عن عامرِ بن سعد، يُحدِّثُ به.

قال حبيب: فأتيتُه، فقالوا: غائب! فلقيتُ أخاهُ إبراهيمَ بنَ سـعد، فسألتُه؟

فقال: شهدتُ أُسامةَ يُحدّثُ سعداً، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: إنَّ هذا الوجعَ رِجْزٌ أو عذابٌ أو بقيةُ عذاب، عُذِّبَ به أُناسٌ من قبلكم، فإذا كان بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا منها، وإذا بلغكم أنه بأرض فلا تدخلوها!

قلتُ لإبراهيم: أنتَ سمعتَ أُسامة يُحدّثُ سعداً وهو لا يُنكر؟

قال إبراهيم: نعم..[1].

في هذه الروايةِ يَروي ابنانِ لسعدٍ ـ عامرٌ وإبراهيم ـ حديثاً لرسول الله ﷺ، يَتْلوهُ أُسامةُ بن زيد على أبيهما سعدٍ وهما يسمعان، بشأنِ الموقفِ من الطاعون، ووافقَ سعدٌ أُسامةَ على ذلك، أي أنّه سمعَه هو أيضاً من رسول الله ﷺ.

وتُشيرُ الروايةُ إلى تثبُّتِ وتَحَرّي السابقينَ في طلبِ الحديث، فها هو حبيبُ بنُ أبي ثابت لما علمَ أنَّ حديثَ الطاعون يرويه عطاءُ بنُ يسار عن عامرِ بن سعد، يأتي إلى عامر ليسمعَ الحديثَ منه، ولما لم يجده، ووجدَ أخاهُ إبراهيم، سأله عن الحديث والحادثة، فأقرَّ إبراهيمُ بها وصَدَّقَ روايتَها، فاستوثقَ وتثبَّتَ منه حبيب، فأقرَّ إبراهيمُ أنه سمع أُسامةَ يحدّث سعداً بالحديث، وسعدٌ أقرَّهُ ولم يُنكر عليه!

ذوق سعد وقلة حديثه وكثرة ماله:

١٨ ـ أورد ابنُ سعدٍ في (الطبقات الكبرى) هذه الأخبارَ عن سعد، وهذه الأقوالَ لسعد، نوردُها هنا إضافةً لما أوردناهُ في ثنايا الكتاب:

ـ قال مصعبُ بنُ سعد: كان أبي إذا أرادَ أنْ يأكلَ الثومَ بدا[2].

كان سعدٌ لا يلتقي مع إخوانِه عندما يأكلُ الثوم، لئلا يؤذيهم، فإذا أراد

---

(١) صحيح مسلم، (٣٩) كتاب الطب، (٣٢) باب الطاعون والطيرة، حديث رقم: ٢٢١٨.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ١٠٦.

أنْ يأكلَ الثومَ يبتعدُ عنهم، ولا يصلّي معهم صلاة الجماعة، وهذا من ذوقِه وأدبِه الإسلاميّ وأخلاقِه الرفيعة.

- ومعنى (بدا) في الرواية: ذهبَ إلى البادية، ويُطلَقُ على مَنْ يبتعدُ عن إخوانِه.

- قال السائبُ بن يزيد: صحبتُ سعدَ بنَ أبي وقاص من المدينةِ إلى مكة، فما سمعْتُه يحدِّثُ عن النبيّ ﷺ حديثاً حتى رجعَ إلى المدينة!

وقال: إني أخشى أنْ أُحدّثكم حديثاً فتزيدوا عليه مئة![1].

تدلُّ هذه الروايةُ على أنَّ سعداً كان قليلَ الحديثِ عن رسول الله ﷺ، لأنّه كان يخشى أنْ يزيدوا هم عليه! ومع ذلك حدَّثَ أحاديثَ كثيرةً عن رسول الله ﷺ، كما يَظْهَرُ من مسندِه عند أحمد وأبي يعلى، وفي كُتُبِ الصحاح والسنن.

- قالتْ عائشةُ بنتُ سعد: أرسلَ سعدٌ إلى مروانَ بن الحكم بزكاةِ عينِ مالِه خمسةَ آلافِ درهم، وتركَ سعدٌ يومَ مات مئتين وخمسين ألف درهم!

تدلُّ هذه الروايةُ على كثرةِ أموالِ سعد، كما يظهرُ من تركتِه يومَ وفاتِه، التي بلغَتْ ربعَ مليون درهم، وكما يظهرُ من زكاتِه التي كان يرسلُها إلى مروان ابن الحكم الوالي على المدينة من قِبَل معاوية!

سعد يمدح علياً ويدعو على شاتمه:

١٩ - روى الحاكم في المستدرك عن قيسِ بن أبي حازم قال: «كنتُ في

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ١١٠.

المدينة، وبينما كنتُ أطوفُ في سوقِ المدينة، إذْ بلغْتُ أحجارَ الزيت، فرأيتُ قوماً مجتمعين على فارسٍ قد ركبَ دابة، وهو يشتمُ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضي الله عنه، والناسُ وقوفٌ حولَه.

فأقبلَ سعدُ بن أبي وقاص رضي الله عنه، فوقفَ عليهم، فقال: ما هذا؟

قالوا: رجلٌ يشتمُ عليَّ بنَ أبي طالب!

فتقدَّمَ سعد، وأفْرَجوا له، حتى وقفَ عليه، فقالَ له: يا هذا: عَلامَ تشتُمُ عليَّ بنَ أبي طالب؟ ألم يكنْ أوَّلَ مَنْ أسْلَم؟ ألم يكُنْ أوَّلَ مَنْ صلَّى مع رسول الله ﷺ؟ ألم يكُنْ أزْهَدَ الناس؟ ألم يكنْ أعْلَمَ الناس؟ ألم يكنْ خَتَنَ رسول الله ﷺ على ابنتِه؟ ألم يكنْ صاحبَ رسول الله ﷺ في غزواتِه؟!

ثم استقبلَ القبلةَ، ورفعَ يديْه، وقال: اللهمَّ إنَّ هذا يشتمُ ولياً من أوليائك، فلا يتفرق هذا الجمعُ حتّى تُريهم قدرتَك!!

فواللهِ ما تفرَّقنا حتى ساخَتْ به دابتُه، فرمَتْه على هامتِه في تلك الأحجار، فانفلقَ دماغُه، ومات!..»[1].

لقد أكرمَ اللهُ سعداً باستجابةِ دعوتِه، فكانَ من مُجابي الدعوة، وتُقَدِّمُ لنا هذه الروايةُ نموذجاً آخرَ لدعوتِه المستجابة.

---

(١) المستدرك للحاكم: ٣/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي.

تدلُّ هذه الرواية على وفاءِ سعدٍ لعليٍّ رضي الله عنهما، ودفاعِه عنه، مع أنّه لم ينحزْ إليه ولم يقاتِلْ معه، ولكنّه يعرفُ فضلَ عليٍّ ومنزلتَه، وله في نفسه محبةٌ ومودَّةٌ ووفاء.

فعندما رأى هذا الفارسَ يشتمُ علياً لم يسكُتْ، وإنما أنكرَ عليه علانيةً، وبيَّنَ له فضائلَ عليّ، على مسمعٍ من الناس المجتمعين، وبعدما قامَ بواجِبِه في الإنكارِ استعملَ سلاحَ الدعاء على هذا الظالم الباغي الآثم.

وجاءت الاستجابةُ فوراً، قبلَ أنْ يتفرَّقَ الجمع، حيثُ ألقت الدابةُ الظالمَ، فسقطَ على رأسِه على الحجارة، ومات!

سعد يدعو على شاتم الصحابة:

٢٠ ـ روى الطبراني عن عامرِ بنِ سعد قال: بينما سعدُ بنُ أبي وقاص رضي الله عنه يمشي، إذْ مرَّ رجلٌ وهو يشتمُ علياً وطلحةَ والزبير، رضي الله عنهم.

فقال له سعد: إنك تشتمُ أقواماً، قد سبقَ لهم من اللهِ ما سبق! واللهِ لَتَكُفَّنَّ عن شتْمِهم، أو لأدْعُوَنَّ عليك!

فقال الرجل: يخوِّفُني كأنّه نبيّ!

فقالَ سعد: اللهمَّ إنْ كانَ يشتمُ أقواماً قد سبقَ لهم منكَ ما سبق، فاجعَلْه اليومَ نَكالاً!

فجاءَتْ بُخْتِيَّة [ناقة] فأفرجَ لها الناس، فتخبَّطَتْه!!

فرأيتُ الناسَ يَتْبَعون سعداً يقولون: استجابَ اللهُ لك يا أبا إسحاق![1].

هذه حادثةٌ أُخرى، دعا فيها سعد على ظالمٍ باغٍ، يشتمُ علياً وطلحةَ والزبيرَ رضي الله عنهم، وهو يشهدُ ويعترفُ أنّهم إخوانُه، وأنّه سبقَ لهم من الله الحسنى، وهذا من وفائه لهم، مع أنّه لم ينضمَّ لأحدٍ منهم!

زَجَرَ ذلك الباغي فلمْ ينزجر، ونَصَحَه فلم ينتصِح، فهدَّدَه بالدعاءِ عليه، فاستخفَّ الظالمُ به وبدعائه، وقال: يخوِّفُني كأنّه نبي!

دعا سعدٌ عليه، وسألَ اللهَ أن يجعلَه عبرةً ونَكالاً. فيسَّرَ اللهُ له ناقةً هائجةً، جاءَتْ مسرعةً من بعيد، فأفرجَ الناسُ لها، وفسحوا لها الطريق، فداستْهُ وقتَلَتْه!

وخرجَ المتجمعون لهلاك الظالم، وأثنوا على سعدٍ رضي الله عنه!

سعد يخوف مروان بن الحكم بدعائه:

٢١ ـ روى الحاكم في (المستدركِ) عن سعيدِ بن المسيب قال: كنتُ جالساً مع سعد، فجاءَ رجلٌ يُقالُ له (الحارثُ بن برصاء) وهو في السوق، فقالَ له: يا أبا إسحاق: إنّي كنتُ آنفاً عندَ مروان، فسمعْتُه يقول: إنَّ هذا المالَ مالُنا، نُعطيْهِ مَنْ شئنا!

فرفعَ سعدٌ يدَه، وقال: أأدعو!!

---

(١) مجمع الزوائد: ٩/ ١٥٤. وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

فوثب مروانُ وهو على سريره، فاعتَنَقَه، وقال: أُنشدُك اللهَ يا أبا إسحاق، لا تدعُ! فإنَّ هذا المالَ مالُ الله[1]!

كان مروانُ بنُ الحكم والياً على المدينة من قِبَلِ معاوية، فافتَخَرَ أمامَ جلسائِه يوماً أنَّ المالَ الذي في بيت المال مالُهم هم ـ بنو أمية ـ يُعطونَه لمن شاؤوا.

وكان سعدٌ جالساً مع سعيد بن المسيب وآخرين، ويبدو أنَّ مجلسَهم كان قريباً من مجلس مروان، فأَخبرَ أحدُهم سعداً بكلامِ مروان الخاطئ، فأرادَ سعدٌ أن يدعوَ عليه، لأنَّهُ مخطىءٌ في كلامه، ولو دعا عليه لأهلكَه الله.

ورأى مروانُ سعداً وهو يَهمُّ أنْ يدعو، فخافَ من دعائِه، وهجمَ عليه راجياً التوقّفَ عن الدعاء، وقال: المالُ مالُ الله[2]!

وروى الحاكمُ هذه الحادثةَ بروايةٍ أُخرى: عن سعيد بن المسيب قال: جاءَ الحارثُ بن البرصاء إلى سعدٍ وهو في السوق، فقالَ له: يا أبا إسحاق: إنّي سمعتُ مروانَ يزعمُ أنّ مالَ الله مالُه، مَنْ شاءَ أعطاه، ومَنْ شاءَ منَعَه!

فقالَ له سعد: أنتَ سمعْتَه يقولُ ذلك؟

قال: نعم.

---

(١) المستدرك للحاكم: ٣/ ٥٠٠.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٥٠٠.

فأخذَ سعدٌ بيدي، وبيدِ الحارث، حتى دخلَ على مروان، فقال: يا مروان: أنتَ تزعمُ أنَّ مالَ الله مالُك، مَنْ شئتَ أعطيتَه، ومَنْ شئتَ منعْتَه؟!

قال مروان: نعم!!

قال سعد: فأدعو!

ورفع سعدٌ يديه ليدعو، فوثبَ إليه مروان، وقال: أنشدكَ الله َأنْ تدعو، هو مالُ الله، مَنْ شاءَ أعطاه، ومَنْ شاءَ منعَه[1].

الحديث الجهادي في مجالس سعد:

٢٢ ـ روى الحاكم في (المستدرك) عن بِشْرِ بنِ سعيد قال: كنَّا نجالسُ سعدَ بن أبي وقاص، وكنَّا نتحدَّثُ حديثَ الناسِ والجهاد، وكان يتساقطُ في ذلك الحديث عن رسول الله ﷺ[2].

تدلُّ هذه الروايةُ على مخالطةِ سعدِ بنِ أبي وقاص للناس واتّصالِه بهم، بهدفِ تعليمهم، فكان طلبةُ العلم يحضرونَ مجلسَه، ليسمعوا منه.

كما تدلُّ على طبيعةِ الحديثِ في مجلسِ سعد، فكان الحديثُ يدورُ حولَ المعاركِ والغزواتِ والجهادِ والقتال، يحدِّثُهم سعدٌ عن جهادِه، والمعاركِ التي اشتركَ فيها، ويَرِدُ أثناءَ كلامِه أحاديث عن رسول الله ﷺ، يَرويها لهم.

---

(١) المستدرك للحاكم: ٣/ ٥٠٠ ـ ٥٠١.
(٢) المرجع السابق: ٣/ ٤٩٧.

وقد مرَّ معَنا في فصولِ هذا الكتابِ مروياتُ سعدٍ عن جهاده مع رسول الله ﷺ، والغزوات التي اشتركَ فيها معه.

وبما أنَّ حياةَ سعدٍ الجهادية طويلة، وأنّه خاضَ معاركَ عديدة، لذلك كانت أخبارُه عن الجهادِ والغزوات كثيرة، وكان يحدِّثُ جلساءَه بها!

ابن سعد يمدح أباه:

٢٣ ـ روى الحاكمُ في (المستدرك) عن سعيدِ بنِ عبد الرحمن قال: قال ابنٌ لسعدِ بنِ أبي وقاص يمدحُ أباه سعداً ويُثني عليه:

أنا ابنُ مُسْتَجابِ الدُّعاءِ والسَّادِّ	لِلثُّلْمَةِ للمُصْطفى من العَرَبِ
يَكْلأُها للنَّبيِّ مُحْتَسِباً	خُصَّ بها دونَ كُلِّ مُحْتَسِبِ
وَاخْتَلَفَ النَّاسُ بَيْنَهُم فأبى	قِتالَ أهْلِ التَّوحيدِ والكُتُبِ
سَلَّمَهُ اللهُ لَمْ يُصِبْ أَحَداً	مِنْهُمْ بِسَهْمٍ إذاً وَلَمْ يُصَبِ[1]

أدب الاختلاف بين سعد وخالد بن الوليد:

٢٤ ـ روى أبو نُعيم الأصبهاني في (حلية الأولياء) عن طارقِ بنِ شهاب قال: كان بينَ خالدٍ وسعدٍ كلام، فذهبَ رجلٌ يقعُ في خالدٍ عندَ سعد!

فقالَ له سعدٌ: مَهْ! إنَّ ما بيْنَنا لم يبلغْ دينَنا[2]!!

---

(١) المستدرك للحاكم: ٣/ ٤٩٩.

تدلُّ هذه الروايةُ على سموِّ أخلاقِ سعد، والتزامِه بأدبِ الاختلاف، ومحبّتِه لإخوانِه، ودفاعِه عنهم حتى لو اختَلَفَ معهم.

فقد وقعَ خلافٌ بينه وبين خالد بن الوليد رضي الله عنهما، وجرى بينهما كلام، وهذا أمرٌ عاديٌّ قد يقعُ بين المؤمنين.

ولكنَّ أحدهم جاءَ إلى سعدٍ متقرّباً متزلِّفاً إليه، فوقَع في خالد، وتكلَّم عليه بما لا يليق، ليحبَّه سعدٌ.

ولكنَّ سعداً أوقَفَه عن الكلام، ودعاه إلى أنْ يسكتَ، ولا يتكلَّم على خالدٍ أمامَه! وأخبره أنَّ الخلافَ بينه وبين خالدٍ كان خلافاً ظاهرياً سطحياً موقوتاً، لم يخرجْ عن كلماتٍ قيلَتْ باللسان، وهذا الخلافُ لم يصلْ للقلوب، ولم يكنْ دائماً مستمراً!!

رغمَ اختلافِه مع خالدِ بن الوليد في الكلام، إلا أنه ما زالَ يَنظُرُ له بالتقدير والاحترام، ويعاملُه بالأُخوّة والمودّة، ويحتفظُ له في قلبه بالمحبّة، ولهذا لا يُجيزُ لأحدٍ أنْ يقعَ فيه أمامه!

إنَّ قولَ سعد: **«ما بيننا لم يبلغْ ديننَا»** يبقى قاعدةً ثابتةً لأدبِ الاختلاف في الإسلام، الذي لا يجوزُ أنْ يصلَ إلى الدينِ والإيمانِ والتقوى، ولا إلى القلوبِ والمشاعرِ والأرواح!

سعد يدعو ابنه للقناعة:

٢٥ ـ قال الحافظ ابن كثير في ترجمةِ سعدٍ في تاريخه: «ومن كلامِه

الحسنِ أنّه قال لابنِه مصعب: يا بُنيّ: إذا طلبْتَ شيئاً فاطلبْـه بالقناعة! فإنّ مَن لا قناعةَ له لم يُغْنِه المال»[1].

كانَ سـعدٌ مربّياً ناجحاً، ربّى أولادَه على الإسـلام، فصاروا علماءَ مُعَلِّمين، وها هو ينصحُ ابنَه مصعباً ويُرشدُه، ويبيّنُ له أهميةَ القناعة، فهي أهمُّ من المال والمتاع.

مَنْ أرادَ أنْ يكونَ عزيزاً فلا بدَّ أنْ يكون قنوعاً، وإذا طلبَ شيئاً من الآخرين طلبَه وهو مستحضرٌ للقناعةِ بما آتاه الله، والزهدِ في الدنيا، عند ذلـك يرضى بما كتب اللهُ له، ومَنْ فقدَ القناعةَ لم يُغْنِهِ المالُ مهما كان كثيراً.

وتبقى وصيةُ سعدٍ لابنِهِ مصعبٍ مَعْلَماً هادياً، لمن أرادَ أنْ يكونَ غنياً في نفسه، عزيزاً في حياتِه، فالقناعةُ كنزٌ لا يَفنى.

الزهد والقناعة بين سعد وسلمان الفارسي:

٢٦ ـ ذكر أبو نعيم في (حلية الأولياء) بإسنادِه: أنَّ سعدَ بنَ أبي وقاص دخلَ على سلمانَ الفارسيِّ رضي الله عنهما يعودُه. فبكى سلمان!!

فقالَ له سعد: ما يُبكيكَ؟ تلقى أصحابَك، وتَرِدُ على رسول الله ﷺ الحوض، وقد تُوفِّيَ رسولُ الله ﷺ وهو عنكَ راضٍ!

قال سلمان: ما أبكي جَزَعاً من الموت، ولا حِرْصاً على الدنيا، ولكنَّ

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ٨/ ٧٧.

رسولَ الله ﷺ عَهِدَ إلينا قائلاً: «ليكنْ بُلْغَةُ أحَدِكم من الدنيا كزاد الراكب»! وهذه (الأساوِدُ) حَوْلي!

وإنما حوله (مِطْهَرَة) و(إنْجانَة)!

فقالَ له سعد: اعْهَدْ إلينا نأخُذ به بعدَك.

فقال سلمان: **اذكُرْ ربَّك عندَ هَمِّكَ إذا هممت، وعنـدَ حكمِكَ إذا حكمت، وعند يدِكَ إذا قَسَمْت.** .[1].

تـدلُّ هذه الروايـةُ على زهدِ الصحابـةِ في الدنيا، وتَقَلُّلِهم من متاعِها، وعلى الصلة الأَخَويةِ الوثيقةِ بين سعدٍ وسلمان رضي الله عنهما، وحُسنِ الحوارِ الإيمانيّ بينهما.

يَمرَضُ سلمان، فيأتيه سعدٌ يزورُه، وعندما يبكي سلمانُ يظنُّ سعدٌ أنّه يبكي خوفاً من الموتِ، فيذكّره بما هو مُقْدِمٌ عليه بعدَ الموت، من لقاءِ النبيّ ﷺ وصحبه.

ويُبيّن سلمانُ لسعدٍ أنّه لا يَبكي جَزَعاً من الموت، ولكنْ لأنّه غيّرَ وبدَّلَ! فالرسولُ ﷺ عَهِدَ لأصحابِه أنْ لا يُكثروا من تَمَلُّكِ الأثاثِ والمتاعِ والبيوت، وأنْ يكتفي أحدهم بالمتاع الضروري جداً، الذي يكون كزادِ الراكبِ المسافر، الذي لا يأْخُذُ معه إلا ما لا غنى له عنه!

وسلمانُ غيّرَ وبَدَّلَ، لأنَّه أكثرَ من المتاعِ والأثاث! فما هو الأثاثُ الذي

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم: ١/ ١٩٥ـ١٩٦.

في بيتِه؟ لم يكنْ عندَه إلاّ وعاءان! ـ أو إناءان ـ إناءٌ يتطهَّرُ ويتوضَّأُ منه، وإناءٌ آخر يغسلُ فيه ملابسَه!!

[المِطْهَرَة: هي الإناءُ الذي يتطهَّرُ به. والإنجانة: هي إناءٌ تُغْسَلُ به الثياب].

وإذا كانَ وجودُ إناءَيْن في غرفةِ سلمان رضي الله عنه اعتبره استكثاراً من متاع الدنيا، ومخالفةً لوصيةِ رسول الله ﷺ، فدفعَه إلى البكاء، فماذا يقولُ المكْثِرُون من تملُّك المتاع الدنيوي!

ولما طلبَ سعدٌ من أخيه سلمانَ وصية، أوصاهُ أنْ يذكرَ اللهَ دائماً، وفي مواطنَ ثلاثةٍ على وجه الخصوص: عند هَمِّه، وعند حُكمِه، وعندَ قِسْمَتِه الأشياءَ بين الآخرين.

سعد الإمام القدوة:

٢٧ ـ روى الطبراني عن مصعب بن سعدِ بن أبي وقاص، قال: كان أبي سعدٌ إذا صلّى في المسجدِ تجوَّز، وأتمَّ الركوعَ والسجود، وإذا صلّى في البيتِ أطالَ الركوعَ والسجودَ والصلاة!

فقلتُ له: يا أبتاه: إذا صليتَ في المسجدِ تجوَّزْتَ، وإذا صلّيتَ في البيتِ أطلت!

قال سعدٌ: يا بُنَيّ: إنّا أئمّةٌ يُقتدَىٰ بنا![1].

---

(١) مجمع الزوائد: ١/ ٨٢. وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

لاحظَ مصعبٌ من أبيه شيئاً غريباً، فهو إذا صلّى في المسجدِ تجوَّزَ في صلاتِه، وخفَّفَها، مع إتمامِ ركوعِها وسجودِها. وإذا صلَّى في بيتِه أطالَ في الصلاةِ والركوعِ والسجودِ والذكر والقراءة. وهذا عكس ما قد يصدرُ عن آخرين، فتجدُ أحَدَهم إذ صلَّى في بيتِه خفَّفَ وأسرع، وإذا صلّى في المسجدِ أطال!

سألَ مصعبٌ أباه عن حكمةِ فعلِه؟

فقال له: إنّنا أئمةٌ يُقْتدى بنا!

أي أنّه يحرصُ على التجوُّز في صلاتِه أمامَ الناسِ ليتعلَّموا منه عدمَ التطويل، ولئلا يكونَ التطويلُ مظنّةً للرياء. أما إذا صلَّى في البيتِ فلا أحد يَقْتدي به، ولا توجَدُ مظنَّةُ الرياء، ولذلك يُطَوِّلُ في صلاتِه كما يشاء!

وهذه إشارةٌ تربويةٌ من سعد!

سعد يصلّي الوتر والتهجّد:

٢٨ ـ روى عبدُ الرزاق في (المصنّف) عن مصعبِ بن سعد بن أبي وقاص أنه قالَ لأبيه: إنّك توترُ بركعةٍ واحدة؟

فقال سعد: نعم. أُضَعِّفُ على نفسي. ثلاثٌ أَحَبُّ إليَّ من واحدة، وخمسٌ أَحَبُّ إليَّ من ثلاث، وسبعٌ أحبُّ إليَّ من خمس[1]!

---

(١) المصنف لعبد الرزاق الصنعاني: ٣/ ٢٢ ـ ٢٣. رقم: ٤٦٤٧.

كان سعدٌ يوترُ بركعةٍ واحد قبل أن ينامَ من بابِ التخفيفِ عن نفسه، مع أنَّ الزيادةَ في عددِ ركعاتِ الوترِ أحبُّ إليه، كما قال لابنه مصعب.

وكان سعدٌ يقومُ من جوفِ الليل يصلّي، فقد روى عبدُ الرزاق عن الزهري قال: كان سعدُ بن أبي وقاص يصلّي ركعةً يوترُ بها، ثم ينام، حتى يقومَ من جوفِ الليل[1].

سعد ينهى عن التطيّر والتشاؤم:

٢٩ ـ روى عبد الرزاق في (المصنّف) عن زيادِ بن أبي مريم قال: كانَ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ غازياً، فبينما هو يَسير، إذْ أقبلَ في وجوهِهم ظِباءٌ يَسعين، فلما اقتربْنَ منهم ولَّيْنَ مدبرات!!

فقالَ له رجل: انزلْ أصلحك الله!

فقال له سعد: مِنْ أيِّ شيءٍ تطيَّرْت؟ هل تطيَّرْتَ من قرونِها حينَ أقبلَتْ؟ أم من أذنابِها حين أدبَرَتْ؟ إنَّ هذه الطيرةَ بابٌ من الشرك!

فلم ينزل، ومضى في سيره[2]!

يَرُدُّ سعدٌ في هذه الروايةِ على ذلك الرجلِ المتشائم، الذي تطيَّرَ من قدومِ الظباءِ على المجاهدين السائرين، ثم إدبارِها عنهم، واعتبرَ هذا نذيرَ شؤمٍ، قد

---

(١) المصنف لعبد الرزاق الصنعاني: ٣/ ٢٢ ـ ٢٣، رقم ٤٦٤٤.
(٢) المرجع السابق: ١٠/ ٤٠٤. رقم: ١٩٠٦.

يقودُ إلى هزيمتِهم في المعركة، التي هُم مُقْدِمون عليها! ولذلك دعا سعداً إلى النزول بالمجاهدين.

أخبرَه سعدٌ أنّ هذه الطيرةَ من بابِ الشرك بالله، ولذلك لا يتطيّرُ ولا يتشاءم، واستمرَّ في سيره.

سعد يطرد قَيّم ضيعته:

٣٠ ـ روى النسائي في سننه عن مصعبِ بن سعد بن أبي وقاص قال: كانَ لسعدٍ كرومٌ وأعنابٌ كثيرة، وكان له فيها أمين، فحملَتْ عنباً كثيراً.

فكتبَ إليـه: إنّي أخافُ على الأعنـابِ الضيعـة. فإنْ رأيتَ أنْ أعصرَه عصرْتُه!

فكتبَ إليه سعد: إذا جاءكَ كتابي هذا فاعتزلْ ضيعَتي، فواللهِ لا أَئْتَمِنُكَ على شيءٍ بعدَه أبداً. . فعزلَه عن ضيعته[1]!!

يخبرُ مصعبُ بن سعدٍ أنَّه كان لأبيه عنبٌ كثيرٌ في ضيعتِه، وهي أرضُه التي استصلحها، وأقام فيها بعدَ اعتزالِه الفتنةَ والعمل العام، وكان له فيها عمالٌ وأُمناءُ يعملونَ فيها ويُشرفون عليها.

وفي أحدِ المواسـمِ كان ثمرُ الأعنابِ كثيراً، مما زادَ عن حاجةِ أهلِ سعد، ويبدو أنَّ سعداً لم يكنْ في ضيعتِه عند جني الثمر، ورأى الأمين على

---

(١) سنن النسائي: ٨/ ٣٢٨. كتاب الأشربة (٥١)، باب الكراهية في بيع العصير (٥٢)، حديث رقم: ٥٧١٣.

أرضِه أنْ يعصرَ العنب، ويحتفظَ به عصيراً!

فكتبَ أمينُ الضيعةِ إلى سعدٍ يذكرُ له كثرة العنب، وخشيتَه من ضياعه، ويقترحُ عليه عصْرَه للاحتفاظ به! فغضبَ سعدٌ من اقتراحِ أمينِ ضيعتِه وعزلَه، واعتبرَه غيرَ مؤتمنٍ على عمله.

وسببُ غضبِه عليه اقتراحُه المخالفُ لأحكامِ الشرع، لأنّه يخشى إنْ عصَرَ العنبَ أنْ يتحوّل إلى خمر، والخمرُ حرام، يحرمُ شربُه، ويحرمُ بيعُه، ويحرمُ الاحتفاظُ به!

وهذا من التـزامِ سعدٍ بأحكامِ الشرعِ، وحرصِه على عدمِ الوقـوعِ في معصيةٍ أو مخالفةٍ، إنّه مستعدٌّ أنْ يضحّي بالعنب، ويُتلِفَه، على أنْ يعصرَه ويقعَ في مخالفةٍ شرعية!

٣١ ـ نختم هذه الأخبارَ عن سعدٍ بهذه الكلماتِ الجامعة التي قالها العلماءُ المترجمونَ له يُثنونَ عليه، ويلخِّصون بها مسيرةَ حياته!

كلامُ أبي نُعيم الأصبهاني عن سعد:

ـ قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في (حلية الأولياء): «وأمّا سعدُ بن أبي وقاص، فقديمُ السَّبْقِ، بَدْءُ أَمْرِهِ مُقاساةُ الشِّدَّة، واحتمالُ الضِّيقَة، وهو معَ الرسول ﷺ في مكة، هُوِّنَ عليه تحمُّلُ الأثقالِ، ومفارقةُ العشيرة والمال، لِما باشَرَ قلْبَه من حلاوة الإقبال، ونصرَ على الأعداءِ بالمقاتلةِ والنضال، وخُصَّ بالإجابةِ في المسألةِ والابتهال.. ثم ابْتُليَ في حالةِ الإمارةِ والسياسة، وامتُحِنَ بالحجابة والحراسة، ففتحَ اللهُ على يديه السوادَ والبلدان، ومُنِحَ عدةً من

الإنـاث والذكران. . ثم رَغِبَ عن العمالةِ والولاية، وآثرَ العزلةَ والرعايـة، وتلافى ما بقي من عمرِه بالعناية. . فهو قدوةُ مَنْ ابتُليَ في حالِه بالتَّلوين، وحجـةُ مَنْ تحصَّنَ بالوحدةِ والعزلةِ من التفنين، إلى أنْ تتضحَ له الشُّـبهةُ بالحجج والبراهين. . . »[1].

كلام الذهبي عن سعد:

ـ وقال المؤرخ الذهبي في (سير أعلامِ النبلاء): «سعدُ بن أبي وقاص: الأميرُ، أبو إسحاق، القرشـيُّ، الزهريُّ، المكيُّ، أَحَدُ العشـرة، وأَحـدُ السـابقين الأوَّلين، وأحدُ مَنْ شهدَ بدراً والحديبية، وأَحَدُ السّـتّةِ أصحابِ الشورى»[2].

ـ وقال عنه أيضاً: «ومِنْ مناقبِ سعد: أنَّ فتحَ العراقِ كان على يديه، كان مُقدَّمَ الجيوشِ يوم وقعة القادسية، ونَصَرَ اللهُ دينَه، ونزلَ سعدٌ بالمدائن، ثم كان أميـرَ الناس يـوم جلولاء، فكانَ النصرُ على يديـه، واسـتأصلَ اللهُ الأكاسرة. . . »[3].

كلام ابن كثير عن سعد:

ـ وقال عنه الحافظ ابن كثيرٍ في تـاريخه (البداية والنهايـة): «سعدُ بنُ

---

(١) حلية الأولياء: ١/ ٩٢.
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي: ١/ ٩٣.
(٣) المرجع السابق: ١/ ١١٥.

أبي وقاص: أبو إسحاق، القرشيُّ، الزهريُّ، أحدُ العشرة المشهودِ لهم بالجنّة، وأحدُ الستةِ أصحابِ الشورى، الذين توفي رسولُ اللهِ ﷺ وهو عنهم راضٍ. . وهو الذي كَوَّفَ الكوفة، ونفى عنها الأعاجم، وكان مُجابَ الدعوة، وهاجرَ، وشهدَ بدراً وما بعدَها، وهو أوّلُ مَنْ رمى بسهمٍ في سبيل الله، وكان فارساً شجاعاً، من أُمراءِ رسولِ الله ﷺ. . وكان في أيام الصدّيق مُعَظَّماً جليلَ المقدار، وكذلكَ في أيام عمر، وقد استنابهُ على الكوفة، وهو الذي فتَحَ المدائن، وكانتْ بين يديه وقعةُ جلولاء، وكان سيداً مُطاعاً. . . »[1].

كلام عبد الستار الشيخ عن سعد:

ـ وقال عنه عبد الستار الشيخ في (أعلام الحفّاظ والمحدّثين): «سعدٌ قديمُ الإسلام جدّاً، أسلمَ في أوائلِ الدعوة، وانضمّ إلى ركبها الميمون صُحبةَ النبيِّ ﷺ ونفرٍ من الصحبِ الكرام، ولاقى معهم أنواعَ الابتلاء، وأصنافَ الشدّة، فصبَرَ على ذلك، وعَزَمَ الطريق، فكانَ رجلاً عَزّاماً، قويّ الإرادةِ، شديدَ الثبات، راسخَ الإيمان واليقين»[2].

ـ وقال عنه أيضاً: «كان رضي الله عنه واحداً من أفاضلِ صحابة النبيِّ ﷺ وأعيانِهم، فهو أحدُ السابقين إلى الإسلام، وأحدُ البدريّين، وأحدُ العشرةِ المشهودِ لهم بالجنّة، وأحدُ الستةِ أصحابِ الشورى، وأوّلُ مَنْ أراقَ دماً في سبيل الله، وأوّلُ مَنْ رمى بسهمٍ في سبيل الله، وأحدُ أمراءِ النبيّ ﷺ، وفدّاه

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ٨/ ٧٢.
(٢) أعلام الحفاظ والمحدّثين: ٢/ ١١٧.

النبيّ ﷺ بأبويـه، وكان مُجابَ الدعوة، وأحد فرسـانِ الإسـلام، والقادةِ الفاتحين، ومُقَدَّمَ الجيوش في فتوح العراق، فَنِعْمَ أميرُ السـرايا والجيوش كان.

وهو مع هذا عابدٌ زاهدٌ، ورعٌ تقيّ، صافي السيرة، طاهرُ الفؤاد، جريءُ الجنان، لا يَرهبُ في الله أحداً، يشفقُ على الأمّة، ويخافُ على المسلمين، ويؤدِّبُ أولاده ويعلّمُهم...»[1].

* * *

(١) أعلام الحفاظ والمحدّثين: ٢/ ١٢٩.

المَــرَاجِعُ

١ ـ الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، مؤسسـة الرسالة، مصورة عن طبعة السعادة، سنة ١٣٢٨هـ.

٢ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، على هامـش الإصابة لابن حجر.

٣ ـ أعلام الحفّاظ والمحدّثين، لعبد الستار الشيخ، دار القلم، الطبعـة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٤ ـ البداية والنهاية، لابن كثير، دار المعارف ـ بيروت، ١٩٦٦م.

٥ ـ تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، للحافظ المزي، المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٦ ـ تـاريخ الرسـل والملوك، لمحمد بن جريـر الطبـري، تحقيق محمـد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ١٩٦٧م.

٧ ـ تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للحافظ المزي، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة: ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٨ ـ تهذيب التهذيب، لابـن حجر، دار صادر ـ بيروت، مصورة عن الطبعة الهندية، سنة ١٣٢٥هـ.

٩ ـ حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني، دار الكتب العلمية، مصورة عن الطبعة المصرية.

١٠ ـ حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوي، بعناية محمد علي دولة، دار القلم ـ دمشق: ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

١١ ـ الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد، للدكتور صلاح الخالدي، دار القلم ـ دمشق: ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

١٢ ـ دلائل النبوّة، للبيهقي، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٣ ـ الروض الأُنف: شرح سيرة ابن هشام، للسهيلي، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة، ١٩٧٠م.

١٤ ـ سعد بن أبي وقاص، لبسام العسلي، دار النفائس، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

١٥ ـ سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية، لأحمد عادل كمال، دار النفائس ـ بيروت، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

١٦ ـ سنن أبي داود، بعناية هيثم نزار تميم، دار الأرقم، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

١٧ ـ سنن النسائي، بعناية عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب: ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٨ ـ سير أعلام النبلاء، للحافظ الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٩ ـ السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وإخوانه ـ مصر، ١٩٣٦م.

٢٠ ـ صحيح البخاري، بعناية محمد وهيثم نزار تميم، دار الأرقم ـ بيروت.

٢١ ـ صحيح مسلم، بعناية محمد وهيثم نزار تميم، دار الأرقم، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

٢٢ ـ صحيح السيرة النبوية، لإبراهيم العلي، دار النفائس ـ عمان، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٣ ـ صفة الصفوة، لابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري، دار المعرفة: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٢٤ ـ صور من جهاد الصحابة، للدكتور صلاح الخالدي، دار القلم ـ دمشق: ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٢٥ ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠.

٢٦ ـ الطريق إلى المدائن، لأحمد عادل كمال، دار النفائس ـ بيروت، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٢٧ ـ القادسية، لأحمد عادل كمال، دار النفائس، ١٣٩٣ هـ ـ ١٣٧٣ هـ.

٢٨ ـ لسان العرب، لابن منظور، دار صادر ـ بيروت.

٢٩ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٣٠ ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم، دار الكتاب العربي ـ بيروت، مصورة عن الطبعة الهندية.

٣١ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٣٢ ـ مسند أبي يعلى الموصلي، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٣٣ ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار صادر.

٣٤ ـ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ـ القاهرة، دار الدعوة، مصور عن الطبعة المصرية.

٣٥ ـ المصنف، لعبد الرزاق الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٣٦ ـ مغازي الواقدي، تحقيق د. مارسدن جونس، عالم الكتب، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

* * *

الفهرس

الموضوع | الصفحة

* * *

كتب للمؤلف

مرتبة وفق صدورها

١ ـ سيد قطب الشهيد الحي

٢ ـ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب

٣ ـ أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب

٤ ـ مدخل إلى ظلال القرآن

٥ ـ المنهج الحركي في ظلال القرآن

٦ ـ في ظلال القرآن في الميزان

٧ ـ مفاتيح للتعامل مع القرآن

٨ ـ في ظلال الإيمان

٩ ـ الشخصية اليهودية من خلال القرآن

١٠ ـ تصويبات في فهم بعض الآيات

١١ ـ مع قصص السابقين في القرآن: ١ ـ ٣

١٢ ـ البيان في إعجاز القرآن

١٣ ـ ثوابت للمسلم المعاصر

١٤ ـ إسرائيليات معاصرة

١٥ ـ سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد

١٦ ـ لطائف قرآنية

١٧ ـ هذا القرآن

١٨ ـ حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية

١٩ ـ الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد

٢٠ ـ التفسير والتأويل في القرآن

٢١ ـ الأتباع والمتبوعون في القرآن

٢٢ ـ التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق

٢٣ ـ الخطة البراقة لذي النفس التواقة

٢٤ ـ تفسير الطبري: تقريب وتهذيب: ١ ـ ٧

٢٥ ـ الرسول المبلِّغ ﷺ

٢٦ ـ القصص القرآني: ١ ـ ٤

٢٧ ـ تهذيب فضائل الجهاد لابن النحاس

٢٨ ـ تعريف الدارسين بمناهج المفسرين

٢٩ ـ القبسات السنية من شرح العقيدة الطحاوية

٣٠ ـ سيد قطب: الأديب الناقد والداعية المجاهد والمفكر المفسّر الرائد

٣١ ـ صور من جهاد الصحابة

٣٢ ـ إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الربّاني

٣٣ ـ سعد بن أبي وقاص: السباق للإسلام، المبشر بالجنة، والقائد المجاهد

٣٤ ـ مواقف الأنبياء في القرآن: تحليل وتوجيه

٣٥ ـ تفسير ابن كثير: تهذيب وترتيب

* * *

أعلام المسلمين
٨٣



علامة الهند الأديب
والمؤرخ الناقد الأريب

تأليف

الأستاذ محمد أكرم الندوي

دار القلم
دمشق

أعلام المسلمين
٨٤



الحافظ الناقد، فقيه السلف، وجامع السنن

تأليف
إياد خالد الطبّاع



أعلام المسلمين
٨٥

السَّيِّد سُلَيْمَان النَّدْوِي

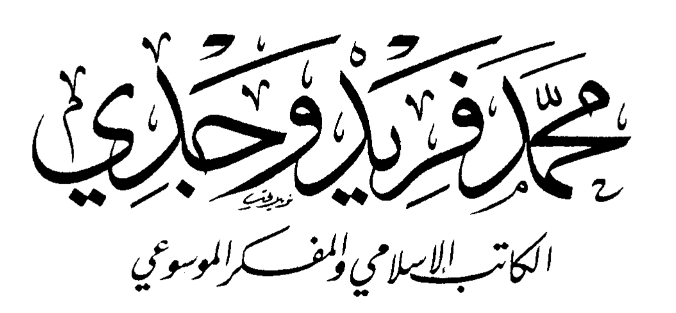
أميرُ علماءِ الهندِ في عصرِهِ، وشيخُ النَّدْوِيِّيْن

تأليف

الدكتور محمد أكرم النَّدْوِي

دار القلم
دمشق

أعلام المسلمين
٨٦



تأليف
د. محمد رجب البيومي

دار القلم
دمشق